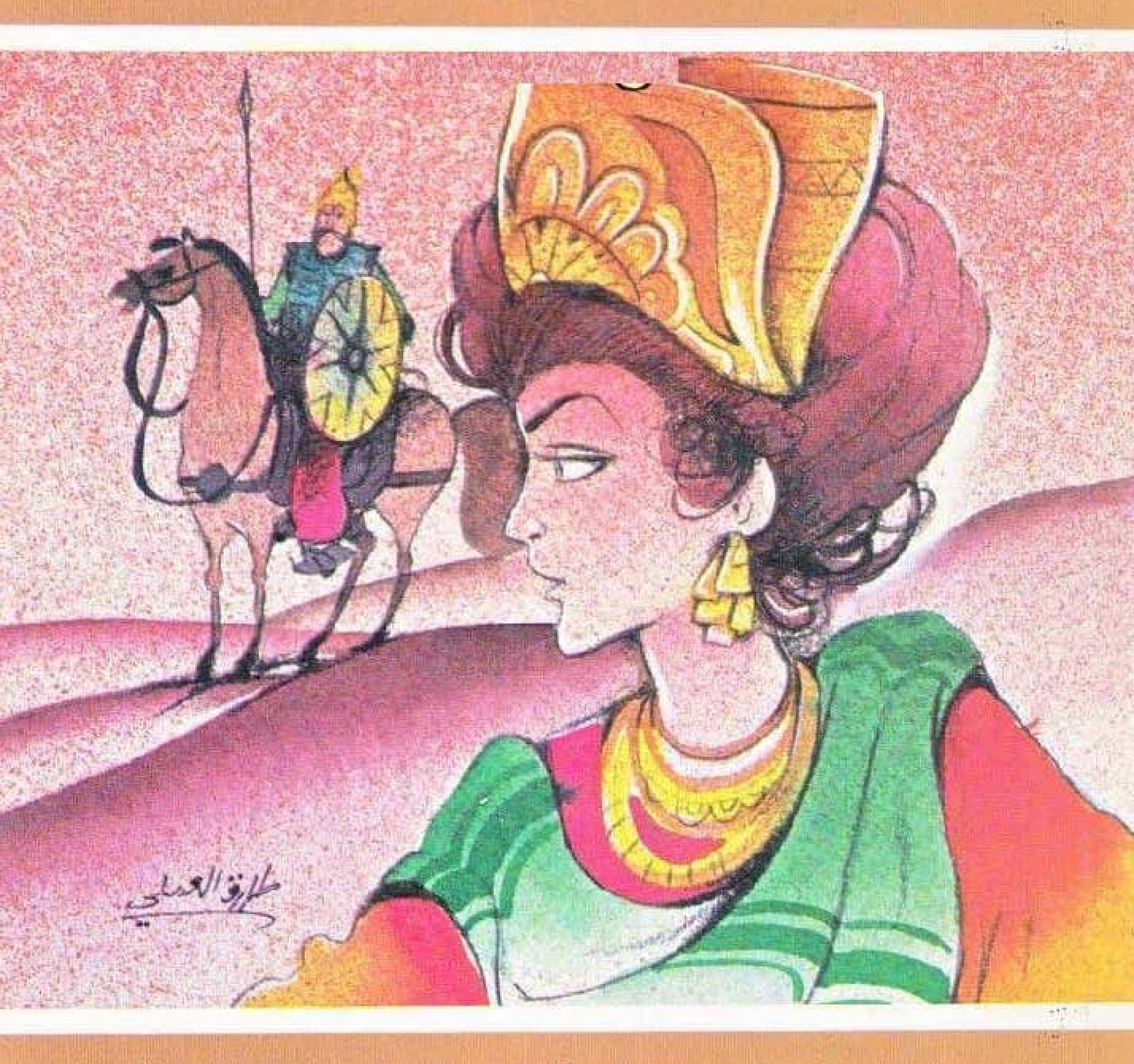
روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر

زينب ملكة تدمر (٢)



دار الأندلس

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

زينب ملكة تدمر

الجزء الثاني

القسم الثالث

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت، لبنان
هاتف: ٢١٧١٩٢ - ٢١٩٤٠١ - ص.ب: ١١٥٥٣ - ١١ - تلكس ٢٣٦٨٢

: نعم يا مولاي الى الأبد لان اذينة قتل وتربع الخائن ابن أخيه في عرشه..
فمرّت سحابة سوداء أمام عيني زبدا ووقع السيف من يده .. انه كان ينظر الى المتآمرين نظره الى اشخاص لا يجسرون ان ينفذوا ما يفكرون فيه .. ولم يكن يخطر بباله ان الفتى الطائش معني يطمع بالجلوس في عرش عمه واذينة نفسه يكاد الفرس يزعزعون تحته ذلك العرش .. وتمثلت للقائد حكمة حطان وبعد نظره فارتمى على فراشه وهو يضطرب قائلاً : اذينة قتل ؟..
فقال الرجل : أخفض صوتك يا مولاي فليس في الجيش من يعرف هذا .
فلمعت الدموع في عيني زبدا ثم اختفت فجأةً وهو يقول : أيخشى حطان أن يثور الجيش ؟ وتربة اذينة لا ينقل جندي في سبيل معني خطوة واحدة حتى يخطف رأسه السيف .. ماذا تعلم عن حادثة القتل ؟

كان زبدا في تلك الساعة كالنمر الهائج لا يعلم اين يضع قدمه .. فقصّ عليه الرجل كل ما يعرفه وجعل يحدثه همساً حتى بزغ الفجر ، ولم يخرج الثلاثة من المعسكر كما دخلوا بل رافقهم زبدا نفسه الى الطريق العام . ثم ايقظ غلامه فأرسله الى خيام القواد يدعوهم اليه . قبل أن يتنفس الصبح .

* * *

عندما دخل القواد على زبدا كان مطرقاً ورأسه بين يديه ، فلم يرفع رأسه ولم يدعهم الى الجلوس ، فخفق قلب معن بن حمدان وهمس في اذن زباي قائلاً : لقد صدق حطان يا مولاي فالويل لنا .. فاهتز ذلك القائد واستند الى قائد مصري كان الى جانبه ثم قال : نحن هنا يا قائدنا .. فمد زبدا يديه الى الأمام وهو لا يبصر ما أمامه من كثرة الدموع .. فاستطاع القواد ان يروا على ضعف النور ، تلك الدموع تنحدر على خديه فقال زباي : أيبكي القائد العام !..
فأجابه وهو يشهق بالبكاء : وانتم ستبكون كما أبكي لأن ملككم قتل وستحنون رؤوسكم للملك الجديد القاتل الذي تعرفونه .. فملك الرعب قلوبهم وساد الصمت ذلك المجلس لا يسمع فيه غير زفرات الباكين .. أجل ، إن اولئك القواد الذين خاضوا ميادين الشرف ورفعوا أجساد خصومهم على رؤوس الأسنة لا يعرفون الشفقة ولا يرحمون الضعف .. إن اولئك القواد كانوا في تلك الساعة يبكون كالنساء بل كالاطفال يملأون الخيمة بكاء .. وقد ذعروا

للحادث الفجائي العظيم الذي تميد له جبال الشرق وتضطرب له صحارى العرب.. اذينة قتل !!. العرش الذي ارتفعت قبته الى سماء المجد يهوي الى الأعماق والنسر الباسط جناحيه فوق الغمام يسقط الى الأبد !!.. اذن فليس بكثير على قواد اذينة ورفاقه في ساحات الحرب ان يستسلموا الى العاطفة ، وهب ان قلوبهم أشد صلابة من الحديد فموت سيدهم وابن سيدهم ايقظ فيها اللحم والدم .. مرّت ساعة وهم يبكون ، لا ينظر أحدهم الى الآخر ولا يكفكفون الدموع .. حتى نضب الدمع وتعبت الصدور . فرفع ابن حمدان رأسه قائلاً : والآن ؟..

فقال زبدا : والآن فماذا ترون ؟

قال : اتهتفون لمعني ؟

قال : أما اليوم فنحن مكرهون على هذا ، فأحمرت عيون القواد .

فقال زباي : انهتف لقاتلنا ونخضع لسلطانه .

قال : دعوتكم لنبحث القضية قبل ان ينتشر الخبر في الجيش .

قال : وإذا انتشر !

قال : لا تنس ان في الجيش انصاراً للقاتل أحدهم زنباع ورفيقه الروماني ولأجل هذا لا تجد زنباع بينكم .

قال : ساحمل لواء العصيان منذ الساعة يا مولاي .

قال : اسمع يا زباي . ان زبدا قائدكم هو الذي يحمل هذا اللواء ولكن حطان لا يريد ذلك ، فمسح معن دموعه قائلاً : وأين هو حطان اليوم ؟

قال : انه في حمص وهو الذي بعث الرسل الينا فوصلوا في هذا الليل ثم انصرفوا قبل أن يستفيق الجند ، فتنهد القواد وحبسوا انفاسهم يسمعون من فم القائد آراء حطان ..

قال : نفذ القضاء بالاثنين . اذينة وهيروديس قبل ان يصل الرجل الى حمص

فقال زباي : ولكن كيف ينفذ هذا القضاء .

قال : كان الملك في وليمة دعا اليها وجوه الناس في عيد مولده . فوثب معني فطعن الملك وقام أحد الحراس فطعن هيروديس في لحظة واحدة ثم اندفع المتآمرون يخطفون بخناجرهم أرواح المخلصين حتى لم يبق من أنصار اذينة في ساعة الاكل غير حارس واحد قفز الى الخارج وتوارى بين الأشجار ثم فرّ الى الخلاء فالتقى حطان . وقد وصف لحطان حادثة القتل وقصّ عليه ما استطاع أن

يراه في تلك الساعة الرهيبة التي كان الخنجر فيها سيد الموقف ، وذلك الحارس هو سيار الحمصي وأنتم تعرفونه ، فعاد القواد الى ذرف الدموع وأخذت شفاههم تتمم الفاظ الرثاء .. وانقطع زبدا عن الكلام لان صوته اختنق في صدره .. لكن الضعف تعقبه القوة . ولا يلبث العقل حتى يغلب العاطفة الضعيفة في الرجال . وكان الوقت قصيراً جداً لا يحتمل السكوت والانصراف الى الاحزان فكف زبدا عن البكاء ثم قال : لننظر في الأمر كما أشار حطان وليبك كل واحد منا في سره . امسحوا الدموع فالملك لم يمت .. ففهموا مغزى كلامه ، أما هو فاستطرد قائلاً : أجل . ان الملك لم يمت فهو حيٌ في كبير انجاله وهبلات وفي أخويه خيران وتيم الله بل هو حيٌ في زينب وبناتها الثلاث فلا يملك على الشرق غير واحد من هؤلاء . فقامت الحماسة في الصدور مقام ذلك الضعف النسائي الذي اظهروه ثم قال : وسيكون لنا مع الملك الجديد شأن تذكره الأجيال .

فقال زباي : نزحف الى حمص اليوم فنحطم العرش القائم على جثث الابرياء . على رأس صاحبه .

قال : ان حطان يرى غير ما تراه . قال : ما هو رأيه ؟

قال : ان الحرب بين الملك وبين الجيش التدمري تضعف في نظره قوى الصولة وقد تنشب بعدها الثورة في البلاد . وهنالك انصار كثيرون لمعني يعرفون كيف يستغلون الزمان .. فبدت على وجه زباي مظاهر الاستخفاف ثم قال :

اذن نصبر على الذل ونلقي بسيوفنا على قدمي العرش المخضب بالدم ! !

قال : ان ذلك العرش الذي تذكره يا زباي لم يظهر للوجود الا ليموت

قال : ونحن نريد ان نعرف سبب موته ..

قال : لقد استطاع حطان أن يضم اليه معظم أهل حمص .

قال : وكيف يجرؤ الرجل على العصيان ولا جند له .

قال : انه يقيم اربعة جدران ويدير الدفة من وراء الحجاب ..

قال : وبعد ذلك ؟

قال : وسيرسل الملك رسله الينا يسألوننا الخضوع له وقد يصل هؤلاء الرسل غداً أو بعد غد .. قال : نعم

قال : فيهتف الجيش بأمر القائد العام الذي يخاطبك الان لمليكه الظافر . ويعود الرسل الى سيدهم ينقلون اليه بشرى خضوعنا له والاعتراف بسلطانه ..

قال : اي أننا نظهر الطاعة ونحن متمردون !

قال : أجل . ثم نأمر الجيش بالرجوع الى حمص حتى اذا امسينا وراء سورها زحف حطان مع رجاله الى قصر الملك فاقتحموا أبوابه وذبحوا صاحب العرش الخائن وجميع انصاره كما تذبح النوق ، فانجلت القضية للقواد المتحيرين ثم قال : وعندئذ ندخل المدينة ونهتف لوهبلات ثم نسير الى تدمر فيجعل شيوخها زينب وصياً على العرش وينقضي الأمر .

فقال زباي : تلك خيانة أيها القائد وقواد العرب الذين اخضعوا الشرق لا يخونون .

قال : بل هي حكمة تستبقي معها قوى جيشك لحفيدك الملك ..

قال : ولكني لا أفعل كما يفعل الجبناء ..

قال : بل تفعل كما يفعل الحكماء . أتريد ان تتظاهر بالعصيان الان ؟

قال : نعم وأسير الى حمص فادك أسوارها واضرب ملكها على مرأى من اتباعه الخونة ثم احكم فيهم السيف

قال : لقد رأيت أنا منذ ساعة ما رأيت أنت الان ولكني كنت مخطئاً اسمع يا زباي . ان رسل الملك سينشرون في الجيش خبر سيدهم ويدعون قواده الى المبايعة .. وذلك هو رأي الداهية اسماعيل .. فاذا عصينا ولم نبايع خرج زنباع وأشياعه علينا وعاد الرسل الى حمص يذكرون للملك ما رأوه فيعد عدته ويدعو محبيه فيحشدهم وراء الأسوار وقد يشتري نائب القيصر بالذهب فتمد روما اصبعها بيننا وتنشب بيننا حرب تشيب لها رؤوس الفتيان . من يعلم اذا كانت هذه الحرب تنتهي بالفشل ام بالفوز ، وليس هذا وحده ما يخشاه حطان .. فهو يخاف ان تقوم دولة الخائن على القتل فيبعث الى تدمر من يقتل الملكة والامراء في ظلام الليل وعندئذ يضمحل آخر أمل لنا بالوصول الى الغاية ويخسر الشرق احفادك الأمراء الذين يصلحون وحدهم ليكونوا ملوكه ..

قال : لا يرتفع لزنباع صوت حتى نجعله عبرة للمتآمرين .. وكان ابن حمدان ساكتاً وقد أعجبه رأي حطان وقام في ذهنه انه اضمن الوسائل وأقربها للحصول على الغرض الذي يرمون اليه . فقال : أما أنا فقد سلمت بما قاله القائد العام . ثم قال لزباي : أتريد يا سيدي أن تجعل تاج تدمر نهباً يتنازعه الناس أم تحب أن تجعله في بيت واحد يرثه الابن فيه عن أبيه ؟

قال : بل أريد أن اضع هذا التاج على رأس وهبلات دون ان اكون خائناً
قال : افتحسب التظاهر بالخضوع خيانة ؟
قال : نعم وهب انه حكمة توحي بها السماء فانا لا استطيع أن افعل
قال : سأرجع بك الى واجب الجندي يا مولاي
قال : ارجع الى حيث تشاء
قال : من هو القائد الاكبر الذي يمثل الملك اذينة في هذا الجيش ؟
قال : هو زبدا !
قال : فاذا خرج جندي عن طاعة قائده افلا يكون خائناً ؟
قال : بلى .
قال : لنفرض ان حطان لم يكن مصيباً فيما رآه ، افلا ترى ان الخضوع لزبدا قائدنا الاكبر أمر يمليه علينا الشرف ؟ قال : بلى

قال : تأتمر أمر قائدك دون ان تخون . سيستقبل زبدا رسل معني على الرحب ثم يدعو قواده فيأمرهم بالخضوع للملك الجديد والهتاف له . فيملأ هتافهم طبقات الجو دون ان تشاركهم فيه .. ثم يمشي الجيش الى حمص ليظهر الطاعة للملك نفسه . وعند ذلك يأمر القائد جنوده بان يدخلوا المدينة وينادوا بوهبلات ملكاً . وأنت في الحالتين يا مولاي زباي جندي طائع مخلص لبلادك ، لم تهتف مع الهاتفين للملك الذي لا تحب ، ولم تكن مخيراً بين الأمرين بل كان زبدا وحده هو الخائن وينتهي بعد ذلك كل شيء .. فماذا تقول الان ؟ فحنى زباي رأسه يذرف الدموع .. ثم قال معن : اسألك سؤالاً آخر يا مولاي ، فرفع ذلك القائد النبيل رأسه دون ان يتكلم .

فقال : أليس أحب اليك يا مولاي ان يستولي حفيدك على عرش أبيه بعدأيام ؟
قال : نعم .

قال : اذن فلا سبيل الى غير هذا الرأي لان العصيان في هذا السبيل قد يذهب بهذا العرش وربما ذهب بحياة الملكة والامراء كما يقول حطان ، فهدأت ثورة نفسه وأخذ ينظر بذهول الى القوم . وعاد معن الى الحديث فقال : ألم تروا أيها القواد ان حطان أصدق رؤياً وأبعد نظراً من كل تدمري ؟

فقال زبدا : بل هو اصدق العرب جميعها .

قال : ولم يخالفه الملك في رأيه حتى قتل . فاذا فعلنا الان غير ما رآه خسرنا

قضيتنا إلى الأبد .. فتمتم زباي قائلاً : اذا كان في هذا حياة احفادي التي هي حياة تدمر فقد رضيت، فاشرقت وجوه القواد على رغم تلك اللوعة التي تقطع القلوب ، وكانوا جميعهم قد استحسنوا رأي زبدا الذي املاه عليه حطان ، وجعلوا يتهامسون ويضعون خطتهم.. وزباي وابن حمدان غائصان في لجةالتفكير

* * *

مرّ ذلك اليوم والجيش لا يعلم شيئاً مما جرى في ليله ، على أنه لم تشرق شمس اليوم الثاني حتى اقبل على المعسكر رجلان اثنان هما رسولا معني بل رسولا الملك الحقيقي اسماعيل ، وقد قابلا زنباع ورفيقه الروماني قبل أن يدخلا على القائد العام في قبته . فكاد الخائنان يطيران من الفرح وهما لا يصدقان ان معني استوى في العرش العظيم الذي يفاخر صاحبه جميع اصحاب العروش في الشرق وفي الغرب ، وكان كل منهما يحلم بالسيادة ويبني القصور .. بل كانا يفكران في القضاء على الخصوم قبل كل شيء .. زنباع يعلل نفسه بعزل زبدا والحصول على منصبه في الجيش . واسكندر يرقص قلبه طرباً كلما فكر في قيادة الحامية . والانتقام من معن بن حمدان .

وعندما اجتمع القواد في خيمة القائد العام ، كانا بينهم وقد اعتزما الهتاف للملك الجديد اذا رأيا أن زبدا والقواد لا يهتفون له ، ووراءهما جيش كثير من الانصار بعضه من الحراس وبعضه من الرماة . وقد انتشر الخبر في الجيش انتشاراً مدهشاً حتى ان ذلك الفريق الذي يسوس الخيل ويسوق النوق كان يتحدث به ..

وكان زبدا من احذق الممثلين الذين لا يظهر على وجوههم ما في قلوبهم من عواطف وأسرار ، فان شفتيه كانتا تبتسمان . عندما نقل اليه الرسولان خبر القتل حتى قام في أذهان الخونة أنه يبغض اذينة وأنه استطاع ان يخفي ذلك البغض وراء مظاهر الاخلاص والولاء ، ثم رفع أحد الرسولين صوته والناس يسمعون . قال : وقد أمرني مولاي الملك بان انقل اليه جواب القائد العام ، « وبذلك أمره اسماعيل » . فقال زبدا : اي جواب يريد الملك ؟

قال : أتخضعون له وتعترفون بسلطانه ؟

قال : أهكذا أمرك الملك ان تخاطبنا أيها الرسول ؟

قال : نعم يا مولاي حتى يسمع القواد وزعماء الجيش رأي قائدهم الاكبر في ملك الشرق الجديد .. فجاشت في صدر زبدا عاطفة العز غير انه استطاع ان

يضغطها بمظاهر التفكير ثم قال : أيها القواد . لقد قتل اذينة وهيروديس وصار التاج الى معني بن خيران ، فماذا ترون ؟ فتلألأت عينا زباي وكاد يفقد صبره، أما معن بن حمدان فقال : الرأي ما يراه القائد العام .

قال : والملك يريد أن يسمع جوابكم من فم رسوليه ، أتخضعون له ؟

ولكن .. ولكن أي قائد من قواد اذينة يقول أمام الجيش : أنا خاضعون !! أن تلك اللفظة وان ترددت في الصدور –كما اتفقوا– فهي لا تصل الى الشفاه..

فقام زنباع فقال : ليعش معني الاول امبراطور الشرق .. اما اسكندر ، ذلك الروماني الحسود الثائر فلم يجسر على الهتاف .. فعلت خارج الخيمة اصوات المحونة قائلين : ليعش معني !! . وعندئذٍ نهض زبدا ومشى الى الخارج ينظر الى تلك الصفوف والقواد خلفه يحبسون انفاسهم ليسمعوا ما يقول ، فجرّد سيفه ورفعه قائلاً : لا يصلح للملك بعد أذينة غير معني ابن أخيه فاهتفوا للملك ..

فارتفعت أصوات الهتاف وكانت قليلة جداً بالنظر الى ذلك الجيش اللجب الذي يغطي السهل ، فقال زنباع في نفسه : ذلك آخر عهدٍ لك يا زبدا في قيادة الجيش ، ونظر الروماني الى معن بن حمدان نظرة حقدٍ هائل والفتى ذاهل الطرف ينظر الى الأفق البعيد والبكاء يتردد في صدره .. ثم قال زبدا : كل قائدٍ لا يخضع للملك الجديد فليتخلّ عن القيادة وليترك الجيش بأمر الملك .. فسمعَ في ذلك الحين صوت قائد الفرسان يقول : لقد خضعنا لملكنا الذي لا يملك سواه .. وسنعرف كيف نحفظ عرشه بقوة السيف ..

فقال الجيش بعضه للبعض الآخر : هذا والد الملكة يهتف لمعني !.. أما أصحابه فقد عرفوا ان ذلك الهتاف كان لوهبلات وهو الذي عناه زباي بقوله : لا يملك سواه .. ثم التفت زبدا الى الرسولين قائلاً : قولا لجلالة الملك ان الجيش كله يهتف له وسيسير الى حمص بعد بضعة أيام ليحوط بالسيوف عرشه ..

فقال زنباع : بل قولا لجلالته أن الجيش جميعه ارتاح الى موت اذينة الظالم الذي غصب التاج .. فاهتز زبدا لأهانة مليكه القتيل وقال : أتهين مولاك الميت يا زنباع ؟!

فقال : ان مولاي هو معني وأنا لم اعترف قط بسلطان الغاصب .. فهزّ زبدا سيفه قائلاً : لقد كنتَ له عبداً ..

قال : ان العبيد هم اولئك القواد الذين كانوا حوله ..

قال : سمّ ِ واحداً منهم ان كنت تجسر . فابتسم الخائن والدنيا لا تسعه قائلاً :

أولهم أنت ..! فترنح القائد من شدة الغضب ونسي نفسه .. أجل . لقد نسي انه تظاهر بالخضوع ليبلغ غايته دون أن تهرق الدماء .. ولم يذكر في تلك اللحظة غير شرفه الذي أهين ، فنظر الى من حوله فرأى عيون القواد تقدح الشرر وقد وضعوا أيديهم على السيوف ، ورأى قائد الفرسان يكاد يفترس زنباع بعينيه وهو يرتجف من الغضب فشهر سيفه وهو لا يملك نفسه ثم قال :

اقبضوا على رسولي الخائن فملك الشرق هو وهبلات بن اذينة لا نخضع لملك غيره .. فامتدت ايدي القواد انفسهم الى الرجلين ، وارتسمت مظاهر الدهشة على الوجوه .. أما زنباع فاسودت الدنيا في عينيه وأخذ يتلفت الى الجانبين ، على ان زبدا لم يترك لأحد ٍ مجالاً للقول . كان سيفه في يده كسيف الجلاد طبعت على شفرته صورة الموت .. وهو يقول :

أيها الجنود : لقد قتل ابن خيران ابن عمه وأدعى الملك . قتله غدراً وهو يشرب الحمر لا كما كذب هذان الرسولان بما ذكراه الان . فاعلموا وليعلم كل عربي أننا خصومه حتى يجلس كبير أنجال اذينة في عرش أبيه وحتى نجعل زينب الملكة وصياً على العرش . فوحق من بسط هذا السهل لئن أظهر جندي واحد طاعته لابن خيران لأجعلن جلده موطئاً للنعال على باب هيكل الشمس أنا.أعلم أن فيكم انصاراً للخائن واستطيع ان أعد هؤلاء الأنصار واحداً واحداً لأني اعرفهم فلهؤلاء الأنصار أقول ان اذينة اذا قتل غدراً فقد ترك قواداً يثأرون له ويعترفون بسلطان بنيه ولو كانوا اطفالاً .. ومن أراد غير ما نريد فليظهر نفسه ..

لفظ خطابه بسرعة مدهشة ثم مشى الى زنباع حتى اذا داناه صاح به قائلاً : خذ سيفك ودافع عن نفسك أيها النذل ، فانتضى زنباع سيفه دون أن يتردد وتلاحم السيفان ، ولكنه لم تكن غير لحظة حتى سقط السيف من يد الخائن وتراجع مذعوراً إلى الوراء .. فقال زبدا : هذا يكفي الآن .. والتفت الى القواد وقال : افعلوا به وبهذا الروماني ما فعلتم بالرسولين ليرى الملك وهبلات بن اذينة فيهما رأيه .. ولم يكن هنالك أحد يجسر على مراجعة زبدا فيما فعل ، اذ ذلك الخاطر الغريب الذي خطر له هو ابن ساعته املته عليه كرامته وكرامة اذينة في ترابه . وقبل ان يسدل الستار على ذلك الفصل الفجائي ، ذكر زبدا زوجة مولاه وانجالها الأيتام بل ذكر ان الجيش هتف لقاتلهم فقال : أنا زبدا قائد تدمر

أهتف للملك وللوصي : يعيش وهبلات وزينب .. وكما هتف الجيش لمعني مثل ساعة . هتف الان لوهبلات حتى ان الخونة من الضباط لم يستطيعوا الا أن يهتفوا مع الهاتفين ..

* * *

كان اتباع زنباع في هتافهم لمعني . كالذئاب لا يعلمون من يتخطفون ، فلما قبض على سيدهم ، دبّ الذعر في القلوب واستولى عليهم الخوف عندما رأوا سيف زبدا أسبق من قوله . والقواد من ورائه يجردون السيوف . ان ذلك الرجل العظيم الذي يقود جيوش تدمر كان من اولئك الأفراد الذين اعترف لهم اذينة بطل الصحراء بالبسالة . وقال عنهم أنهم أبطال العرب ، واخلاق زبدا تشبه أخلاق مولاه وله جرأته وأقدامه . يقتحم الأهوال لا ينظر الا الى سلم المجد ويستهين بالاخطار وهو واثق بان الأخطار لا تثبت أمام وجهه .. واذا قال فقوله شريعة محرّمة يتبعها الجيش والويل لمن يراجع زبدا في شؤون قيادته فهو كالحجر الصلد لا يسمع رجاء ولا يلين ، وهيبته تملأ نفوس الجنود حتى أن خصومه كانوا اضعف من أن يتصدوا له وجهاً لوجه . وهو من أحزم القواد في الموقف الصعب . ومن أبعدهم نظراً في فنون الحرب . قضى حياته كلها في الميادين تطيعه الجنود طاعة عمياء ويخفق فوق جيشه علم النصر ، وليس احرص من زبدا على الزمان . فاذا برقت له بارقة أمل مشى بكليته الى ذلك الأمل يخطفه من يد الأقدار ، لم يكن في موقف زنباع العدائي شيءٌ من الدهاء . اخرجته الخفة عن حده فباح بما في صدره من عاطفة شر . وغضب زبدا لشرفه فغير بدوره موقفه بسرعة البرق . وقواد اذينة لا يعلمون ماذا يفعل بعد ذلك التغيير . وكان زنباع وهو مقيد ، يبتسم ابتسامة الاستخفاف وقد قام في ذهنه ان زبدا لا يجسر على قتله خوفاً من معني . وأن الفوز الأخير هو له عندما تطأ أقدام الجيش أرض حمص ، وكيف يستطيع زبدا وزباي وجميع القواد ان يخرجوا على الملك الجديد وأتباعه اكثر عدداً من رمال الشاطئ وحمص تعج بالجنود والأنصار ، فقال في نفسه : اذا بقيت يا زبدا فافعل ما تشاء ، اي انه حكم على القائد العام بالاعدام . وبينما كان القواد متحيرين ، اومأ اليهم زبدا بان يتبعوه ثم قال لمعن : أما أنت فاحرص على اسراك يا ابن حمدان .. ومشى بين صفوف الجيش الى فرقة الرماة فقال لضباطها : القوا سلاحكم فانتم اسرى ..! فاسودت وجوه الضباط

وقال احدهم : ايأسرنا القائد العام ونحن من جنوده ؟!

فقال : بل انتم جنود الخائن زنباع وقد قبض عليه ، ثم خاطب الرماة قائلاً : سنرى بعد حين ايكم هو المخلص لوهبلات .. وأعلموا أن معني سيدكم لا يملك ما دامت هذه اليد قادرة على حمل السيف .. اطرحوا سهامكم فخير لنا أن لا يكون في جيش تدمر رام يحمل سهماً .. واذا خطر ببال أحدكم ان يترك الجيش قبل أن نأمره فالويل له،إن حضن معني نفسه لا يحفظ حياته .. اذهبوا إلى خيامكم الان .. فألقت الفرقة سلاحها دون ان يرتفع لرجالها صوت ، كأن تلك القوة الخفية التي تبعث الرعب الى القلوب هي قوة السحر . ثم سار الى صفوف الرومان فقال : قتل اذينة وقام قاتله يسألنا الخضوع له . أما نحن فقد نادينا بوهبلات بن أذينة ملكاً فما عليكم الا الطاعة . وهذا السيف في يد قائدكم يشهره في وجه الملك الخائن الذي غدر بعمه . فاذا كان أحدكم على دعوة اسكندر فنحن ننصح له بان يعود الى اخلاصه لئلا يموت .. فصاح رجال الحامية قائلين : يعيش وهبلات الاول ، وهكذا طاف زبدا وقواده بين فرق الجيش يدعوها الى الاعتراف بابن اذينة ويندبها لقتال عدوه اذا قضت الحال بالقتال ، ثم جعل المعسكر ضمن نطاق من الحراس لئلا يفر أحد الجنود الى حمص فينقل خبر العصيان الى معني فيعد عدته قبل وصول الجيش وقد تستعر بين الفريقين نار حرب تقضي على تدمر الى الأبد ، وبعد ان احتاط للأمر جمع قواده في قبته وقال لزباي : لقد رجعنا الى رأيك ايها القائد ، فجال الدمع في عيني الرجل وقال : خير لنا ان نقتل عن آخرنا في سبيل الدفاع عن العرش من أن نتظاهر بالخضوع لمعني .. وعلى ماذا عولت الان ؟

قال : يترك الجيش هذا السهل زاحفاً الى حمص قبل طلوع الصبح ..

قال : اخشى ان يسبقنا اليها أحد الخونة فيفضحنا ويبعث معني الى تدمر من يقضي على الملكة ..

قال : أراك تخشى الان ما لم تكن تخشاه منذ ساعة .. ان كهيلة تسهر على حياة الملكة .

قال : وكيف عرفت ذلك ؟

قال : خبرني رسل حطان ولا يستطيع أحد أن يدخل على زينب الا إذا كان يحمل كتاباً من ذلك اليهودي ، فاشرق وجه معن ثم قال :

ستستعيد زينب عرش اذينة بفضل القائد العام وفضل ابنته ..

قال : ليس كثيراً علينا ان نبذل دماءنا في سبيل هذا البيت

قال : قلبي يحدثني بان المليك الشرعي سيستوي في عرشه

قال : أجل وسيكون دم معني ودماء اتباعه ثمناً للجريمة .. والان سنرسل رسولاً الى حطان ،

فقال زباي : هذا ما كنت اريد أن اقوله لأن الرجل يعتقد اننا تظاهرنا بالخضوع للقاتل .

فقال زبدا : ويجب أن يكون هذا الرسول من الفرسان ..

فنهض زباي قائلاً : سأختاره بنفسي وأضمن أنه يصل الى حمص قبل وصولنا بيومين .. وخرج فدعا أحد فرسانه واتى به الى القبة .

فقال زبدا للرجل : أتحسن التنكر أيها الفارس ؟

قال : كما احسن ضرب السيف في رقاب الأعداء ..

قال : احسنت فاختر لك ثوباً تلبسه ساعة وصولك الى حمص .

قال : اني تاجر جلود يا مولاي وسيكون لي بعيران يحملان هذه الجلود فابيعها في السوق ثم انتقل الى المبيت في منزل سيار ..

قال : ان سيار لا يجسر على الظهور لان اسماعيل يبث وراءه العيون .

قال : لي في حمص أصحاب كثيرون يا مولاي يرشدونني الى حطان .

قال : انك لا تحمل رسالة بل نلقي اليك كلاماً تنقله كما هو .

قال : ان الرجل الذي يعرف ان يبيع جلوده يعرف على الأقل ان يكون حكيماً في تنفيذ الأمر الذي فوضناه اليه .

قال : بقيت الرسالة يا مولاي فاين هي ؟

قال : وأنا ذو ذاكرة تحفظ كل شيء يا مولاي

قال : اعلم أنك ستحمل بين يديك مستقبل الشرق وقد ضمنك قائدك زباي

قال : يكفي ان يكون لبيت اذينة علاقة بالمهمة التي يندبني اليها مولاي القائد . فماذا أقول لحطان ؟

قال : لقد ذهب قبلك من يقول لحطان أنا اعترفنا بمعني وناديناه به ملكاً

قال : نعم .

قال : في حين أنا اعترفنا بوهبلات كما رأيت ولا يضعف لنا عزم حتى نجلسه على عرش أبيه . قال : اذن أقول له ذلك ليكون على حذر

قال : أجل ثم تزيد أن رسولي الملك لا يعودان الى حمص قبل ان نعود نحن لانهما أسيران كما أن زنباع ورجاله الرماة هم أسرى ..

قال : لقد فهمت كل شيء يا مولاي .

قال : اذكر لنا شيئاً من هذا الكل .

قال : يخاف حطان ان ينقل احدهم الى الملك خبر عصيان الجيش فيستعين بانصاره ويبذل لهم المال ليكونوا اعواناً له على عدوه فيصبح العرش عند ذلك في خطر .

قال : أما الخطر فليس على العرش بل على أصحابه لان ملك تدمر الجديد لا يقتل الناس الا غدراً .. فليفعل حطان ما يشاء فالجيش سيمسي بعد عشرة أيام وراء أسوار حمص وهو مستعد ليدخل المدينة دخول الفاتحين . ثم قال : أما أنت فتترك المعسكر قبل ان يبزغ الفجر وبعد بزوغه يغادر الجيش هذه البلاد ليعيد الى اليتيم المنكود الحظ تاج أبيه .. إذهب ، واحذر اسماعيل كما تحذر الأفعى وكن أنت رسول حطان الينا عندما نبلغ المدينة ..

فخرج الرجل وهو يقول : لي كلمة يا مولاي .

قال : ما هي ؟

قال : اذا ذبح اسماعيل ولم استطع الوصول اليه فاملأوا لي كأساً من دمه اشربها كما اشرب الخمر ..

فابتسم زبدا قائلاً : اذا ظفرنا به طرحنا جثته للكلاب ..

* * *

اذا رأيت حطان في حمص رأيت شيخاً جاوز الثمانين يتوكأ على عصاه في الأسواق ويجر رجليه جراً بين منازل المحسنين ، مسكين هذا الشيخ الدمشقي . انقضت صاعقة في الشتاء الماضي على بيته فقتلت زوجته وبنيه . ونبذته دمشق فلجأ ماشياً . أجل ماشياً الى حمص ..! ذلك ما كان يتناقله الحمصيون عن ذلك الرجل الأبيض اللحية والرأس وعلى رغم طوافه في الأسواق ، لم يستطع الخونة أن يعرفوه . ان اذينة نفسه لو بعث حياً لما قدر ان يعرف ان ذلك الشيخ الفاني هو أمين سره ! . وقد تحجب في بادئ أمره وراء الجدر ، في منازل أهل سيار وآل حمدان . حتى اذا آنس غفلة من رجال البلاط المتمرغين في الملذات .. خرج الى المدينة يدرس الأمور عن كثب ويتفحص عن أحوال القصر وسكان

القصر المجرمين الأشرار ، وقد وضع خطته كما يشاء . ساعده في وضعها أهل المدينة كما مرّ . وهو ينتظر وصول الجيش ليضرب ضربته الهائلة لا يستثني احداً من رجال معني .

كذلك كان الملك ينتظر عودة رسوليه . فهو لا يريد أن يرجع الى تدمر قبل أن يلمس بيده خضوع القواد والجنود . بل كان يريد الرجوع تحت الأعلام الخافقة في الفضاء . يتقدمه زبدا وزباي كبيرا القواد على فرسيهما . ويمشي بركابه وجوه الجيش التدمري حتى يصل الى البلاط الملكي . فتخرج زينب على رغم لوعتها لاستقباله ، مع أنجالها الأمراء ، الذين ينظر في أمرهم بعد أن تنصرف من عاصمة ملكه وفود المهنئين . أجل ، تلك كانت امنية معني المتوج . وقد يصغر في عيون القوم اذا لم تنزل زينب عن عزها وتمشي في اسواق تدمر مع جماعات مستقبليه ..! ان اسماعيل الحديدي الذي قتل مولاه واغتصب تاجه ، لا يرضى الا أن يذلّ الزوجة التي تحجبت في قصرها ترفع رأسها كبراً وزهواً .. وإلا فهو اضعف من أن يسوس الملك اذا عجز عن اخضاع الأرملة التي خسرت التاج ، وإنها لنذالة لا يفعلها غير النفوس الصغيرة التي تسفلت الى ادنى مواقف اللؤم ، وقد بهر عيني الملك بريق التاج الذي غصبه . وأعمى السلطان بصيرة مربيه فلم ينظرا بعين الحذر الى انصار اذينة في الجيش . بل امعنا في الثقة واستسلما الى الاحلام فباتا يحسبان أن قواد تدمر الذين شاركوا اذينة في حروبه ومجده ، سيلقون سيوفهم على قدمي ملكهم الجديد . ثم يسترجعون تلك السيوف ليحملوها في سبيل طاعته وبسط نفوذه في الأقطار ..!

كأن القضاء كان يدفع بيده الخفية القادرة ، ذلك الطائش والمربي اللئيم الى الموت الأحمر . كما كان يدفع اذينة وهيروديس الى ذلك الموقف الرهيب الذي انتهت عنده حياة الاثنين

* * *

أتقول أن زبدا ارسلك الى حطان ؟

قال : نعم وقد ذكرت ذلك لسيار ..

قال : رأوك تبيع جلوداً في السوق ..

قال : أجل وقد تنكرت خوفاً من اسماعيل .

قال : أتعرف حطان اذا رأيته ؟

قال : اعرفه كما اعرف نفسي فقد كنت أراه كل يوم .
قال : من يثبت لنا أنك رسول زبدا ؟
قال : تثبت لك ذلك أسرار أبوح بها الى حطان لا يعرفها الا زبدا ومن حوله من المخلصين . قال : اذكر لنا بعض هذه الأسرار ..
قال : ما تركت المعسكر وركبت الأهوال الا لأذكرها لحطان وحده .
قال : وان حطان هو الذي يخاطبك الان

ثم نزع الشيخ الدمشقي لحيته الطويلة وشعر رأسه فرأى الفارس حطان بنظره الحاد وجبينه الذي تعلوه دلائل الهم والتفكير ، فتراجع مذعوراً

فقال حطان : اذكر ما أتيت لأجله فالوقت اقصر من أن يضيع بمظاهر الاستغراب ، فملك الرجل نفسه ثم قال : لقد ارسلت الى زبدا ثلاثة رجال
قال : اتعرفهم ؟
قال : لا لأنهم دخلوا على القائد العام في ظلام الليل وانصرفوا من المعسكر قبل الصباح ..
قال : انك من فرسان زباي أليس كذلك ؟ قال : نعم .
قال : احذر ان تخدعنا فالموت عندنا جزاء الخونة .
قال : أتظن يا حطان انك أشد مني اخلاصاً للبيت المالك الذي غدروا برأسه؟ !
قال : بل أظن ان الاخلاص يقل وجوده في الناس حتى كدت اشك في نفسي .
ثم قال لأحد الرجال : أدع الرسل الثلاثة الذين بعثناهم الى زبدا .. .. فحضر الثلاثة وجلسوا . فقال : هؤلاء هم الذين ارسلناهم الى المعسكر فاذكر الان ما قاله لك زبدا . قال : أتظن اني كاذب ؟
قال : قلنا لك اننا لا نثق باحد قبل ان نختبر اخلاصه قل فانهم يسمعون .
قال : بعثت رجالك يطلعون زبدا على حادث القتل ويسألونه باسمك ان يتظاهر بالخضوع لمعني اذا اقبلت عليه رسله . قال : ثم ماذا ؟
قال : فرأى زبدا رأيك وصرف رجالك على أمل ان يجتمع بقواده ويقص عليهم ما سمعه من هؤلاء الرجال ، فجعل حطان ينظر اليه وقلبه يخفق في صدره ان ذلك اليهودي الأمين كان يخشى في تلك الساعة ان يحمل اليه الفارس نبأ خيانة جديدة في الجيش . فقال وصوته يرتجف : ولما جمع زبدا قواده تصدى له فريق من شركاء المتآمرين واشتعلت نار الثورة ..

قال : لا ان زبدا عرف من يدعو من القواد . فبكوا اولاً قتيلهم العظيم ثم اجمعوا على الهتاف لمعني على رجاء ان يرجعوا الى حمص رجوع المخلصين وينتظروا وراء أسوارها أشارة منك ليخلعوا ثوب الاخلاص ويظهروا انفسهم .

قال : وماذا جرى بعد ذلك .

قال : بعد ذلك قبل رسولا الملك وقام زبدا لينادي بمعني فسمع زنباع الخائن يهين اذينة فثار ثائره وهتف لوهبلات .. فتجهم وجه حطان وارتجفت شفتاه ثم قال : لقد افسد زبدا علينا امرنا وسيملك معني ..

قال : لا تستسلم الى الظنون يا حطان فالعرش لمولانا وهبلات .. ان رسولي معني وزنباع وجميع الرماة في الجيش هم اسرى .. فاشرق وجهه بعد ذلك التجهم وتمّم قائلاً : افلا يخرج من الجيش خائن ويقص ما جرى على اسماعيل ؟

قال : اضمن لك باسم القائد العام ان رجلاً واحداً لا يستطيع الفرار من الجيش .. فاطرق حطان ملياً ثم قال : سنحفظ طريق انطاكية فلا يدخل مدينة حمص غير المخلصين .. والان فمتى يصل زبدا وجنوده ؟

قال : بعد ثلاثة أيام على الكثير وسأكون أنا رسولك اليه . فغاص حطان في لجة عميقة من التفكير .. واحترم القوم سكوته فحبسوا انفاسهم كي لا يقطعوا عليه مجرى أفكاره . لكنه رفع رأسه بعد ساعة وهو يقول : لقد صدقناك فامكث بيننا حتى تأتي الساعة الرهيبة ساعة الانتقام وارتسمت على جبينه دلائل الارتياح

* * *

في ليل اليوم الثالث . أصبح المنزل الذي يقيم فيه حطان . محجاً لمعظم أهل حمص الخارجين على معني من وراء الستار ، وكان ذلك المنزل كثير الغرف ، فيه الفناء الرحب والأروقة الواسعة تسع الفاً من الرجال .. وقد وقف وراء بابه الخارجي رجلان اثنان في العقد الثالث من العمر . وفي يد كل منهما خنجر يبرق نصله في الظلام . أما واجب هذين الرجلين فعظيم جداً . حتى ان الأمل الذي علل به حطان نفسه ، يسقط في لحظة واحدة اذا خان احدهما ذلك الواجب . ومعنى ذلك ان القوم الذين كانوا يدخلون افراداً لا يصل أحدهم الى الداخل الا اذا اذنا له . وهما لا يأذنان الا لمن يذكر اسم وهبلات ، وكل من لا يلفظ ذلك الاسم يسقط مضرجاً بدمه في الدهليز ، ان لفظة « وهبلات » كانت كلمة المرور

وبدونها لا يصل الرجل حياً الى الداخل ، وقد امتلأ المنزل في ذلك الليل من رجال المدينة ، وجميعهم متنكرون يحملون السلاح حتّى اذا دخلوا القوا سلاحهم وتعارفت الوجوه .. وحطان يعدهم واحداً واحداً وتبدو على شفتيه ابتسامة الانتقام ، حتّى دخلوا جميعاً وأغلق الباب ، فطاف حطان بينهم يقول لهم همساً : لقد دنت ساعة معني واسماعيل .. ثم جعل يحدثهم حتّى انتصف الليل فاستسلموا الى النوم ، فدعا عندئذٍ رسول زبدا قائلاً له : أيصل الجيش غداً كما قلت ؟ قال : هكذا أرى .

قال : تذهب غداً صباحاً وتنتظر قدومه لترى زبدا قبل ان يدخل المدينة

قال : أيدخلها دخول مدمرٍ فاتح ؟

قال : لا أرى سبيلاً الى هذا فحمص هادئة وستستقبل بهدوء موت معني

قال : متى يموت هذا اللعين ؟

قال : بعد وصول الجيش ببضع ساعات .

قال : اذن فالجيش سيشترك في قتله على ما أظن ..

قال : انِ أهل حمص يريدون أن يستقلوا بهذا الحق حتّى ان حطان نفسه لا يشاركهم فيه . قال : وأين يقتلونه ؟

قال : يظهر انك تريد ان تعلم كل شيء . فاعلم انهم سيقتلونه في القاعة التي قتل فيها عمه وابن عمه لانه جعلها قاعة الجلوس .

قال : أيهاجم الحمصيون القصر والحراس تحفظ أبوابه ؟

قال : ان معظم الحراس هم من الثائرين . أترى اسماعيل اكثر دهاء منا في استغواء الرجال ؟! قال : وجنود القلعة ؟

قال : لا يكاد هذا الجند يبلغ القصر حتّى يتصدّى له الجيش التدمري . ان معني لا يموت قبل ان يخيم الجيش وراء الأسوار كما سمعت .

قال : وأين تكون أنت عندما يلفظ اللعين روحه ؟

قال : اكون في القصر حيث تصدر من بين هاتين الشفتين أوامر الأعدام التي ليس فيها رجاء . ان قتل اذينة جعلني قطعةً من الفولاذ لا تشعر ولا تحس

قال : ان الملك سيرسل بعض خاصته لاستقبال الجيش فأي موقف يقفه زبدا في ذلك الحين ؟

قال : له ان يختار الموقف الذي يشاء . ان زبدا مفخرة من مفاخر الجيوش

وهو يعرف ماذا يفعل .   قال : ومتى يدخل المدينة ؟

فأرسل حطان نظره الحاد الى سماء القاعة وقال : عندما تجري دماء الخونة في قاعات القصر . تخفق في اعالي الأبراج اعلام بيضاء . فيفتح باب المدينة في تلك الساعة . وتتدافع الجنود يزحم بعضها البعض الآخر في الدخول . أمامهم قواد تدمر المخلصون للملك القتيل .

قال : ويسير الجيش رأساً الى القصر ليمنع انصار الملك من الدخول .

قال : لسوء حظ هذا الملك انه لم يعرف ان يستبقي انصاراً .. لقد ابطره العرش حتى ظن ان سكان السماء عبيد له ولدولته وان امم الشرق تخضع لاسمه لانه ابن خيران .. !

واسماعيل !. أجل ان اسماعيل لم يكن داهية في حفظ تاج مولاه كما كان داهية في قلب عرش اذينة !. لقد نسي اسماعيل ان العروش لا تثبت في الاوهام وان رجال اذينة لا يصبرون على الذل ولا ينسون مليكهم الذي غدر به . نعم ، ان انصار معني ، قبل أن يصير ملكاً ، كانوا نصف الدولة . فصيرهم اسماعيل . بعد أن وضع يده على دفة السفينة . خصوماً له ولسيده .. عللهم بالمنى وكان كاذباً . ووعدهم بانه يرفعهم الى العلاء فحطهم الى اسفل . فانصرفوا وهم يلعنون الساعة التي وضعوا فيها أيديهم في يد الغادرين ..

أتعلم ماذا فعل الخائن ؟ انه وعد ضباط الأقاليم بان يجعلهم حكاماً . وضباط الجيش أن يجعلهم قواداً ووعد القواد بمراتب الشرف في بلاط مولاه كما أنه البت لزنباع انه سيعزل زبدا عن قيادة الجيش ليوليه هذه القيادة ..! والمال ..! ان المال بذله بدون حساب يشتري به اولئك الأغرار الطامعين بالذهب . حتى اذا استثمروا غروره وملأوا جيوبهم الجائعة . هزأوا به وبصاحب التاج ولما يزالوا مستهزئين .. انظر الى والي حمص . كان حاكماً تخفق فوق رأسه الأعلام وتحيط به حراس الشرف في الرواح والمجيء . فجعلوه مستشاراً للملك ولكن ليبقى في القصر صامتاً ساكتاً لا يبدي رأياً ولا يقول كلمه . كتلك التماثيل التي يضعونها على مداخل القصور .. الرأي والنفوذ والسلطان لاسماعيل . ووالي حمص الذي هو مستشار الملك اذل من عبد ، ولو صدق الرجل بوعوده . أجل لو صدق لتعبنا كثيراً في استرداد العرش ولجرت دماء الناس في الأسواق مثل جدول الماء .. وكان حطان يتكلم وشفتاه ترتجفان . وجسمه يضطرب . وعيناه

ترسلان شعاعاً من النور ، ان تفكيره في تلك الجناية الغريبة . تهيج له نفسه .. فرأى الفارس أن يستريح بالنوم لينصرف غداً صباحاً في مهمته .

فقال : اذن لم يبقَ الا أن اودعك على أمل اللقاء في قصر الملك مع القواد فابتسم ابتسامة صفراء وقال : نعم في قصر الملك الذي سيتدحرج التاج عن رأسه بعد يوم .. فلا تنسَ الأعلام البيضاء .

قال : وماذا تنفعنا الاعلام البيضاء اذا بقي باب المدينة مغلقاً ؟

قال : ان الباب سيفتح على كل حال . ولكن الأعلام تثبت للجيش ان معني وأتباعه أمسوا جثثاً خرساء . فقل لزبدا أنه اذا تصدّى له صديق لمعني فليضرب عنقه قبل ان تستعر النار ، فنهض الرجل قائلاً : ليعش وهبلات .

قال : ولتعش زينب التي ستعصب رأسها بتاج الشرق ..

* * *

كان على رسولي الملك ان يرجعا فلم يقف لهما أحد على اثر .. فقلق معني . وتلك هي المرة الاولى التي فكر فيها في مصيره بشيء من الاضطراب ، فقال لمربيه : ما رأيك في هذا يا اسماعيل ؟ اني أخاف القواد المخلصين لأذينة واخشى أن يغدروا بالرسولين ويظهروا العصيان ..

فضحك اسماعيل قائلاً : انك كثير الظنون يا مولاي . أنسيت ان الرسولين سيقابلان زنباع قبل ان يريا زبدا .

قال : وماذا يفعل هذا اذا تمرد رفاقه ؟

قال : ونسيت ايضاً يا مولاي ان انصارنا يملأون صفوف الحراس والرماة كما يملأون صفوف الرومان .

قال : اذن ستشتعل نار الثورة في الجيش .

فبرقت عينا اسماعيل قائلاً : لتشتعل ولتمتد الى الأقاليم فتحرق كل شرقي لا يعترف بك . قال : ولكنها تحرق انصارنا يا اسماعيل .

قال : لا تحرق هؤلاء الا عندما يصبح خصومنا رماداً . ان قوى الجيش في يدنا وليس في يدهم . وزنباع ضمن لي هذا من قبل وهو الذي يقود جيوش الملك

قال : أعد عليّ ما تعرفه عن أنصارنا في الجيش .

قال : لا يحمل أحد سهماً من فرقة القواسين الا ليرمي به أعداء الملك .

قال : هذا لا يكفي ..

قال : وضباط الحرس الذين يقودهم ابن حمدان لا يشهرون سيوفهم الا في طاعة الملك .   قال : ورجال البادية ؟

قال : اما رجال البادية الذين كان يقودهم هيروديس . فاذا عرفوا ان قائدهم قتل ملأوا الفضاء هتافاً للملك . .

قال : بقي الفرسان ..

قال : وأما هؤلاء فلو كانوا كلهم رجالاً لأذينة يخضعون له وهو في القبر لما استطاعوا ان يثبتوا ساعة واحدة أمام التيار الجارف الذي لا تقف الجبال في وجهه

قال : وكم أعطيت رجال البادية من المال ؟

قال : ضمنت لرؤساء العشائر اعفاءهم من الخراج خمس سنوات وأعطيت كل واحد منهم قيمة ما يصيب عشيرته من الخراج في السنوات الخمس

قال : والى من يرجع هؤلاء في شؤونهم ؟

قال : يرجعون الى زنباع الذي تولى بنفسه امر اعطائهم

قال : انك ترى كل شيء للملك وأنا لا أرى ما تراه

قال : لانك لم تتولّ الأمر بنفسك يا مولاي . أما انا فقد رأيت وسمعت وعرفت اصحاب الملك واعداءه .

قال : ومع ذلك فأنا خائف ..

قال : لا سبيل الى الخوف يا مولاي فقد جرت الأمور الى الان كما اردنا وسيبسم لنا الزمان كما نريد

قال : ان الرسولين لم يرجعا وهذا معناه انهما لا يرجعان الى الأبد

قال : لنفرض يا مولاي ان زبدا قتلهما ولم يظهر الخضوع للملك

قال : ان ما تفرضه يا اسماعيل هو صحيح وكان عليّ أن لا أصدق أن زبدا وزباي وابن حمدان يخضعون لي وهم اعدائي ورجال الغاصب .. لقد خدعتني يا اسماعيل .

فقهقه الرجل ضاحكاً ثم قال : متى كان ملك الشرق يستسلم الى الأوهام أتقول ان الرسولين قتلا أليس كذلك ؟

قال : هذا ما أراه ماثلاً أمام عيني

قال : وهل قتل زنباع ايضاً ؟   قال : ومن يعلم ..

قال : وهل قتل الجيش كله ؟!   قال : وما معنى هذا ؟

قال : معناه انه اذا قتل زنباع والرجلان فقد بقي في الجيش من أنصار الملك من يعرف حمص ..

قال : واذا أحاط زبدا المعسكر بالحراس ؟

قال : أتظن ان زبدا أحد الآلهة حتى يقتل من يشاء في الجيش ولا يرتفع لاحدهم صوت ؟

فتنهد القاتل قائلاً : أريد أن اصدق ما تقول ولا استطيع ..

قال : لا تنقضي بضعة أيام حتى ترى الجيش وراء أسوار حمص يدعو لمليكه

قال : تلك الفاظ خلابة لا صحة لها يا اسماعيل . ان الملك لا يطمئن حتى يسمع رسوليه يقصان عليه ما رأياه من مظاهر الخضوع .

قال : قد يكون المعسكر بعيداً يا مولاي فلا يرجع الرجلان قبل شهر .

قال : أراك نسيت ان الجيش ترك انطاكية وخيم في السهل الجنوبي وراء الجبل الذي يحجبها عن العيون ..

قال : لو رأيت بعيني علم العصيان لما صدقت ما رأيت .

قال : لماذا

قال : لا أعرف ملجأً يلجأ اليه المتمردون . ان الجيش هو للملك اكثر مما هو لقواده . وزبدا أعقل من ان يعصي الملك القادر الجالس على عرشه لينتصر لزينب التي لا حول لها ولا قوة ..

قال : ان زباي لا يترك ابنته واحفاده ..

قال : ليفعل زباي وفرسانه ما يشاؤون فهم اضعف من أن يزعزعوا اركان العرش .. وهناك القيصر يا مولاي . أفتظن ان القيصر يرضى بأن تجلس المرأة الأرملة في عرش الشرق ؟

قال : بل ان يجلس أحد انجالها في هذا العرش لتستبد روما بالشرق كما تشاء.

فقال اسماعيل في نفسه : لم يقم في ذهني قط ان معني يعرف كل هذا . ثم قال : أما أنا فسأعرف كيف استرضي هذا القيصر .. فقاطعه بشيء من الغضب قائلاً : لقد خبرت قوتك في الاسترضاء . انك لم تستطع ان تفوز بكلمة رضى واحدة من فم نائبه . أفتطمع بان تجعل القيصر نفسه تابعاً لك ؟! فاستغرب المربي « الأمين » لهجة مولاه . وهو الذي لا ارادة في القصر فوق ارادته . فقال :

أتغضب يا مولاي ؟

فتكلف الابتسام قائلاً : لست غاضباً يا اسماعيل ولكني خائف كما قلت
قال : أصبر بضعة أيام يا مولاي فان لم يعد الرسولان بعثت الى الأقاليم فملأت لك المدينة رجالاً يذودون الخطر عن العرش ..
قال : سأصبر يومين ليس غير فان لم يحمل اليّ الرسولان خبر خضوع الجيش تركت حمص مع الحامية الى تدمر وطردت زينب من قصر ابي وعمدت الى الحصار حتى تجمع انت جنود الاقاليم .
قال : ان الذهاب الى تدمر كما تقول يضعف هيبة الملك في نفوس القوم
قال : ولكني ملك ! !
قال : ان الأرملة الحسناء عندما ترى ملكاً يدخل عاصمته لايحميه غير ضعفاء الجنود تطمع به ...
قال : انك لا تصف زينب بالضعف حتى تصفها بالقوة فعلى اي شيء نعوّل الآن ؟
قال : اخشى ان تعمد زينب الى الحصار في المدينة فتمنعك من الدخول . لقد عولنا على الصبر كما قلت . فكاد معني يفقد هذا الصبر الذي يدعوه اليه فقال :
اذا كان هذا فدعني افكر في امري وأذهب انت الى غرفتك ، فضحك النذل وهو يقول في سره : فكر ما شئت يا مولاي الصغير فلا يطيب لي الا أن أراك مجنوناً ..! وانصرف الى فراشه لا لينام . بل لينظر بدهائه وقوة تصوره . في ما رآه من مظاهر خوف مولاه

* * *

كانت غرفة اسماعيل في القصر . وراء غرفة مولاه يفصل بينهما رواق ضيق قامت على جانبيه بعض التماثيل من رخام ، وقد جرى حديث الاثنين في تلك الليلة التي جمع فيها حطان رجاله في منزل اصحابه انسباء سيار ، أي أن الملك عندما كان يفكر في حفظ عرشه او في حفظ رأسه . كان خصومه الأقوياء الراسخون في مبدئهم كالجبال . يفكرون في تحطيم ذلك العرش وضرب ذلك الرأس .. فلما انصرف اسماعيل الى فراشه . ترك الملك قاعة الجلوس ومشى يريد غرفة نومه بخطوات مضطربة وقلب خائف وهو يرى الأشباح السوداء تتهادى أمام عينيه على الجدران . وقد شاءت الأقدار ان لا ينظر الملك الى مستقبله الا في ذلك الليل الذي تجهم له فيه وجه الزمان ، وكيف يستطيع الملك القاتل الذي

لوّث تاجه بدم عمه وابن عمه واتباعهما الابرياء . اجل كيف يستطيع هذا الملك ان يستسلم الى الكرى وقد تمثلت له جنايته الفظيعة بكل ما فيها من مشاهد الروع والدم !. فاستلقى على فراشه محموماً مرتجفاً وهو ينظر الى وسائد الديباج نظراً تائهاً ويرسل الزفرات كالجريح طعن في رئته ، وقد كاد ينقضي الهزيع الأخير من الليل والملك لا يغمض له جفن .. حتى خدرت الذكرى اعصابه فاغمض عينيه ولكن ليرى الرؤيا الرائعة التي تضطرب لها قلوب المجرمين .. رأى الأرض تفتح فاها ويخرج من بطنها شبح وجهه كوجوه الأموات مكفن بثوبه الارجواني عليه آثار الدماء .. وفي ظهر الشبح خنجر غاص نصله فلا يبين منه غير قبضته ترسل ألسنة من نار .. فعقد الذعر لسانه ومدّ يديه مستعطفاً ذلك الشبح . وكأنه يسأله أن يرجع الى الأرض التي قذفته .. لكن الشبح ابتسم هازئاً فبان الموت من وراء ابتسامته مطبوعة صورته على شفتيه .. وانحنى الى الأرض ليخرج منها شبحاً آخر تتقد نار الانتقام في عينيه ، فعرف الملك الشقي عمه اذينة وولي العهد هيروديس .. وخيل اليه انه يسمع صوتاً يقول له : انظر الى هذا الخنجر يا معني انه سيغوص في قلبك حتى القبضة فيسفح دمك في القاعة التي قتلت فيها المحسنين اليك ، فتمتم يقول : رحماك يا عم اني فتى غر خدعه اسماعيل .. لكن الشبحين لم يقولا شيئاً بل مشيا الى فراشه بهدوء الأموات وجلسا على وسائد الديباج بالقرب منه ينظران اليه نظرات الاستخفاف ..

فقال : اذكر يا عم اني ابن أخيك !.. فقهقه الشبحان ضاحكين وقال احدهما : أتخاف الموت أيها الملك العظيم ؟..

قال : أجل ولا أريد أن أموت !..

قال : اترغب في الحياة لتستثمر الذنب الذي أتيت ؟

قال : نعم يا عم ولأستمتع من لذة الملك . .

قال : أتقتل لتصير ملكاً أيها الجاني ؟

قال : لقد فعلت وانتهى الأمر فاشفق على صباي .. فنهض الشبح الآخر قائلاً : أتجسر على طلب الرحمة ايها القاتل وأنت لا تعرفها .. ثم انتزع من ظهره ذلك الخنجر وأهوى به الى صدر الشقي وهو يقول : هذا جزاء القاتل الذي لطخ يديه بدماء الملوك .. فوثب معني وثبة جبان يفر من الضربة ، الضئيل يرتجف كما يرتجف جسمه الندي فدعا حارسه بصوت متقطع قائلاً له :

هل باسماعيل . وذلك الرجل لم ينم !. انه كان يهزأ بمخاوف مولاه ويبتسم بالاحلام والمنى ..

فلما دعاه الحارس ضحك قائلاً : ألم ينم بعدُ مولانا الملك ؟! قالها باستهزاء ظاهر ضحك له الحارس ايضاً فقال : لا أدري الا انه امرني بان ادعوك ، فقام اسماعيل يجر ذيل بردته حتى دخل على معني .. فرآه جالساً الى جانب الفراش وقد اسند ظهره الى الجدار وعيناه جاحظتان يبعث منظره الذعر الى القلوب ..

فقال اسماعيل : مولاي الملك ؟!..

فرفع نظره اليه قائلاً : اخفض صوتك لئلا يسمعك اذينة ايها التعس !.

فدبت قشعريرة الخوف في جسم الرجل وتلفت يميناً وشمالاً ثم قال : واين هو اذينة يا مولاي ؟!

قال : انه في هذه الغرفة مع هيروديس ..

قال : ولكن الأموات لا يقومون ..

قال : رأيتهما بعيني يخرجان من أرض هذه الغرفة يلبسان ثوبيهما الارجوانيين مصبوغين بالدماء ..فمشى اسماعيل حتى قارب الملك وهو يقول :

انهض يا مولاي فقد بليت عظام اذينة وولي عهده ولم ترهما الا بالحلم ..

قال : بل لم اكن نائماً ..

قال : ارجع الى نفسك يا مولاي فقد وضعت بأمرك جثتا الاثنين في صندوقين من خشب وحملتهما العبيد والحراس الى ذلك الكثيب البعيد عن المدينة فدفنوهما فيه

قال : ومع ذلك فقد رأيتهما الان وكاد خنجر ابن عمي يلامس صدري لو لم أثب من الفراش ..

فجلس مربيه أمامه وقال : لم يقم في ذهني قط انك جبان الى هذا الحد يا ابن خيران !. ايؤثر فيك الوهم حتى يخرجك عن رصانة الملك وحتى تحسب الجدران اشباح الأموات ؟! قم فاخلع عنك ثوب الطفل الذي تلبسه وارتد ثوب الملك الذي لا ينظر الى الماضي ولا يبالي بحوادث الأيام ..

قال : يا اسماعيل ..

قال : قم يا مولاي فالحارس الذي يقوم ببابك يهزأ بمليكه اذا رأى وجهه الأصفر وشفتيه المرتجفتين ... وقد يقص على رجال القصر ما يراه من مظاهر

خوفك فتضيع كرامة الملك .. قم فقد بزغ الفجر فاحمل صولجانك وضع التاج الذي اعطتك اياه الآلهة على رأسك واجلس للناس اليوم فتنسى هذه الاحلام السوداء التي افسدت عليك ليلك .. قم واذكر انك ملك الشرق وعلى الملك أن يبقى ملكاً في نظر نفسه والا فهو يفقد صفة الملك في نظر الشعب .

فاتكأ الفتى على سريره قائلاً : كان عليك ان تعلمني الطاعة لعمي فاعيش في تدمر كما يعيش ابناء الملوك ذلك خير من ان تسلح يدي فاقتل ثم تزورني كلما جنّ الظلام أشباح القتلى تهددني بالموت .. آه يا اذينة لقد غدرت بك ولكن الغادر هو هذا الرجل الطامع بالسلطان الذي يريد ان يستثمر نفوذ الولد كما استثمر نفوذ الوالد من قبل ..

وتساقطت دموع الملك على السرير ثم جعل يبكي كما تبكي الأطفال .

فلم يغضب اسماعيل لذلك السهم الذي رشقه به الملك !. ان نفوذه في القصر لا يقوم بمظاهر العز أمام ولي نعمته . بل بمظاهر الاستعطاف والالتماس في الساعات السوداء ..

فقال وهو هادئ : ألم اكن مخلصاً لمولاي الملك ولأبيه قبله ؟!

قال : بلى .. بلى يا اسماعيل ومن آثار اخلاصك انك بنيت عرش مولاك على جثث الأبرياء ..

قال : فعلت هذا لآخذ الحق لصاحبه فيلبس التاج الملك الشرعي وليس الغاصب .. أهكذا تكافئ الرجل الذي يستهين بالاخطار ليخدم مولاه ؟!

قال : ومن يبعد عني اذينة يا اسماعيل ؟

قال : لا تذكر هذا الرجل يا مولاي فقد مضى ولن يعود ..

قال : وزبدا .. وزباي .. وابن حمدان هؤلاء الثلاثة الأشداء من يضمن للملك خضوعهم له ؟..

فعرف اسماعيل موضع الضعف في معني فقال : ان لم اضمن لك خضوعهم ضمنت لك الفوز   قال : أواثق أنت بهذا ؟

قال : عجباً يا مولاي اتسألني عن قضيةٍ قتلناها بحثاً ؟ اني لو لم اكن واثقاً لما اقدمت على ما فعلت

قال : ولماذا يضطرب الملك كلما فكر في هذا الأمر ؟!

قال : ذلك هو الوهم يا مولاي ..

قال : أجل انه وهم ولا يزول حتى يرى الملك اعداءه منطرحين على قدميه
قال : سترى كل ذلك وستذكر اسماعيل ..
فأحس المسكين بشيء من النشاط بعد ذلك الضعف الذي استولى عليه ثم قال :
اذن نصبر اذا كان لا بدّ من الصبر .. فلما رأى اسماعيل استسلام الملك ،
عاد الى الدلال قائلاً : ألست خادمك الأمين يا مولاي ؟
قال : بلى ..
قال : ارأيتني آثرت مصلحتي الخاصة على مصلحة الملك ؟
قال : لا .
قال : أيستطيع الملك ان يشك في اخلاص اسماعيل ؟
قال : لا ..
قال : ولماذا اسمعتني ما لا يطيق سماعه خصوم العرش ؟ فاحمر وجه الملك من الخجل وقال : لقد كنت محموماً وخائفاً فلا اذكر ما قلت .. كم بقي من الليل ؟ قال : اي ليل يا مولاي لقد افترّ ثغر الصباح .
قال : لقد قضيت اذن نصف الليل تسامرني الأشباح !
قال : اذا زارك اذينة مرةً اخرى فنادِ اسماعيل فانا اعرف كيف أسامر الملوك

* * *

طلع الصبح فرأى أهل حمص أعلام الجيش تخفق وراء الأسوار .. فلما نقلوا الخبر الى الملك كاد يقع على الأرض من شدة الذعر وتمثلت له اشباح الليل والخناجر الدامية .. ثم دعا اسماعيل فقال له : لقد أقبل الجيش يا اسماعيل ولم يعد الرسولان !
فأجابه قائلاً وهو هادئ : انهما بين الصفوف على ما أظن ..
قال : ايكون الجيش على الأبواب ونعود الى الظنون انك تخون الملك ..
قال : لا تتهم مربيك يا مولاي ان الليل ولّى وأنت لا ترى اشباح الأموات ..
قال : أتهزأ بي في ساعة الخطر ؟!
قال : وأي خطر هذا ؟ ان الجيش الذي تخافه هو جيشك بل انت السيد ورجاله من العبيد .. ومع ذلك فقد اغلقت الأبواب وسنرسل أحد رجال البلاط يتبين خبر القواد ..
فهزّ الملك رأسه قائلاً : اذا كانت أسوار المدائن لم تثبت تحت ضربات

التدمريين فكيف تثبت أبواب حمص ؟! انك كثير الغرور وسيقع الملك في قبضة اعدائه ، ولم تظهر على جبينه دلائل الخوف ..

فحار اسماعيل في أمره .. لقد رأى الملك يكاد يقتله الخوف والجيش بعيد عنه . ثم رآه الان والجيش أمام السور . وهو لا يظهر من ذلك الخوف ما اظهره من قبل . فقال : مع ذلك فأنت الان اثبت جأشاً منك عند الفجر ..

قال : أتكلف الشجاعة ولست شجاعاً أنا أرى الموت اقرب اليّ منك

قال : أتظن اني لا اخشى الموت يا مولاي؟! اني مثلك من لحم ودم وخصوم الملك هم خصوم اسماعيل ولا يمد اليك الموت يده قبل ان يمحو اسماعيل من الوجود . واذا عصى الجيش فلكي يضرب مربي الملك قبل ان يضرب الملك نفسه .. ولكن .. ولكن لم نرَ شيئاً من الخطر بعد وهب ان الموت كامن لنا في هذا القصر فمن الضعف ان نموت جبناء ..

وكان قوله وجيهاً في ظاهره كما ترىٰ ، ولكنه كان مذعوراً في باطنه وقد أصبح يخشى الملك الخائف اكثر مما يخشى الجيش المتمرد !.. انه قد يفر من وجه الجيش ولكنه لا يستطيع الفرار من وجه الملك اذا قام الشك في نفسه وأمر أحد خاصته بذبحه وهو في فراشه .. نعم ، ان الشركاء في الجريمة ينتهي الأمر ببعضهم الى الخوف من البعض الآخر كلما ذكروا اتفاقهم على الشر .

فقال معني : من نبعث من رجال البلاط ؟

قال : نبعث مستشار الملك فهو يعرف زبدا وجميع القواد .

قال : وهل يجرؤ هذا على الذهاب ؟

قال : اذا أمر الملك أحد رجاله بان يقتحم الموت فليس له ان يتردد في اقتحامه

فقال بهدوء : اذن نأمرك يا اسماعيل بان تكون رسول الملك الى كبير القواد!

فتراجع الرجل الى الوراء وهو لا يصدق ما سمعت اذناه . فقال معني : هذه آثار اخلاصك تظهر لنا من جديد .. اي شيء تخافه يا مربي الملك ؟

قال : أخاف ان يقتل زبدا هذا الرسول عندما تقع عينه عليه ..

قال : ان العرب لا تقتل الرسل وانا اضمن حياتك .

قال : اني لا أخاف زبدا على حياتي بل اخافه عليك يا مولاي .

قال : وكيف ذلك ؟

قال : اذا قتلت أو اسرت فلن تجد حولك رجلاً يبذل حياته في سبيلك .

قال : أصبت وقد نسي الملك ان المخلصين لا وجود لهم في بلاطه .. ادع المستشار المسكين ..

فاقبل ذلك الرجل وعلى جبينه دلائل الندم على خيانته اذينة .

فقال له معني : أأنت صادق في خدمة الملك أيها المستشار ؟

قال : وهل يشك الملك في اخلاصي ؟!

قال : لا ولكن نحب ان تجدد مظاهر هذا الاخلاص .. ان الجيش قد أقبل ولكن لا نعلم اذا كان خاضعاً لنا .

قال : ان الملك بعث رجلين لهذا الغرض ..

قال : ولم يرجعا فسنبعثك أنت الان باسم الملك ..

قال : لا تجعل مستشارك رسولاً يا مولاي ..

فقال اسماعيل : انك مندوب الملك الى القواد ولا يكون مندوباً غير المقربين .

فلم يشأ ذلك الرجل النادم ان يعتذر ليس لانه يستلذ الذهاب الى انصار اذينة وهو عدوهم بل لان الاعتذار يفضي الى غضب الملك والمسكين مكره على الطاعة خوفاً من هذا الغضب ..

ثم قال الملك : أرضيت بالذهاب ؟

فارتجف صوته قائلاً : لست مخيراً بين الرفض والقبول يا مولاي .. ان الملك امرني بالذهاب وأنا فاعل

قال : اختر من تشاء من رجال القصر رفيقاً لك .

قال : هذا من شأن الملك ..

قال : أجعل رئيس الحجاب تابعاً لك .

قال : وما هي مهمتي يا مولاي ؟

قال : تسأل زبدا باسم الملك أثائر هو أم خاضع لنا وهذا كل ما في الأمر .

فقال في نفسه : لقد كنت ابله يا معني عندما حسبت ان قواد اذينة سيعترفون بك وعندما اطعناك كنا أشدّ بلهاً منك . ثم قال : أأذهب الآن ؟

قال : في هذه الساعة فنحن بانتظارك .

قال : وان لم ارجع .

قال : كلكم خائفون ؟!.. انك ان لم ترجع نظرنا في الأمر .. ثم التفت الى اسماعيل قائلاً : ما رأينا اثبت منكم جناناً وانتم داخل الجدران .. ان الملك

فخور برجال قصره العاملين على صيانة العرش . وتناول سوطه ومشى بجلال الى الرواق القائم في طرف البناء ومنه الى برج القصر ينظر الى تلك الصفوف الجرارة التي لا يدري اتمشي هي تحت لوائه أم ترفع علم العصيان .. وعلى رغم ذلك الجلال .. كانت الدموع تتلألأ في عينيه الصغيرتين وتبعه اسماعيل ! كالكلب الأمين يضربه صاحبه فيهون له . ثم يتبعه ناسياً ذلك الضرب بعد حين..

* *

مشى المستشار بقدم مرتجفة وقلب مضطرب ووراءه رئيس الحجاب ، وقد عرف الناس انه ذاهب بأمر الملك لاستقبال الجيش .

أجل . ان سكان حمص واضيافها الغرباء . ما خلا انصار وهبلات . كانوا يعتقدون ان الجيش جميعه يخضع لمغني ، وان ابن خيران الذي خلف عمه سيظل ملكاً حتى تقوم الساعة !..

ذلك ما كان يظهره اسماعيل لوفود المهنئين ، غير ان ذلك المستشار كان يعرف نفسه . كما كان يعرف عند اي حد تنتهي المهمة التي ندبوه اليها ، وكان واثقاً بان زبدا سيحسن استقباله .. عندما يراه بثوبه الجديد .. ثوب المستشار الذي باع به سيده اذينة ، لكنه كان يؤثر سوط زبدا على كلمة تخرج من فم اسماعيل بل كان يؤثر رضى قواد اذينة على رضى الملك الجاني وعلى جميع رتبه والقابه . وكلما ذكر خيانته قامت في صدره عاطفة ندم تنحدر لها دموعه .

وكان يشعر – على رغم خوفه من اولئك القواد – برغبة شديدة في المثول بين ايديهم وسماع حديثهم والوقوف على أحوالهم بعد موت الملك وولي عهده ..

فلما وصل الى باب السور ، رأى الحراس يقومون وراءه بالسلاح ، كأن الملك يخشى ان يفاجئه الجيش وهو في قصره فيقضي عليه ..

ففتح الباب ثم اغلق ، كما فتح « لبائع الجلود » منذ ساعة ، وهمز المستشار جواده قاصداً ذلك المعسكر الذي تخفق فوق خيامه اعلام تدمر .

كان بائع الجلود يقص على زبدا وقواده كل ما سمعه من حطان والجميع ينتظرون وصول رسول من قبل الملك .. وأقبل المستشار .. فعرف القواد والي حمص الذي كان أحب الولاة الى امبراطور الشرق .

فقال زبدا : ادخل أيها الوالي بالامس والمستشار العظيم اليوم .. قالها بلهجة حادة لكن شفتيه كانتا تبتسمان .. فحنى الرجل رأسه ووقف حائراً لا يجيب ،

قال زبدا : أأنت مندوب الملك ؟ فتمتم يقول : نعم أيها القائد .

قال : أتخاف وأنت رسول معني الذي بسط نفوذه فوق الأقطار ؟!..

قال : لا تزد في تعذيبي أيها القائد فانا نادم على ما فعلت وخير لي ان تجعلني حاجباً ببابك من أن أعود الى قصر الظالم الذي غدر بمولاي الملك .

فاحمرت عينا زبدا من الغضب وقال : لا تذكر ندمك الان فنحن أرفع من ان نصغي الى الجبناء ونسمع أقوال الأنذال ، اذكر مهمتك التي بعثك فيها شريكك في الجريمة .

قال : لم اكن شريكاً للقاتل بل غلبت على أمري ولم أجد معيناً لي ..

قال : كذبت أيها الرجل فلو كانت لك رغبة في حفظ حياة اذينة لهمست في اذنه كلمة قبل أن يقع في شرك المتآمرين ! ان رجلاً من الحرس اسمه سيار استطاع ان يفر من قاعة الأعدام. أفلم تستطع أنت، وأنت والي حمص– وقد ملّكوك على امرك كما تقول– ان تفر من المدينة والأبواب كلها مفتوحة أمامك ، والناس جميعهم يحنون رؤوسهم لك ! أفلم تستطع ان تفر فتثبت اخلاصك على الأقل بهذا الفرار ؟!

قال : لقد استسلمت وقامت خيانتي بهذا الاستسلام افلا تصفح عني فأحمل السيف لأثأر بالابرياء ؟

قال : ان قواد تدمر لا يحتاجون الى الخونة ليثأروا بقتيلهم .. قل ماذا يريد مولاك .

قال : اقتلني اذن ايها القائد فأنا لا أحب الرجوع الى حمص ولا أطيق العيش في قصر يقيم فيه الظالمون .

قال : أتعلمنا الغدر أيها الرجل فنقتل رسولاً بعثه الينا العدو ؟!

— : ولكني لا ارجع كما قلت ..

— : لك ان تقيم في الخلاء ما طابت لك الاقامة به ..

— : انك يا زبدا سيد النبلاء وأنا اسألك العفو .

قال : ان العفو ينظر فيه الملك نفسه ليس غير .. أما أنا فجندي يضرب بسيفه رقاب الخونة الذين يتصدون لهذا الملك ..

قال : من تعني ؟! فمدّ زبدا يده الى الأمام كأنه يقسم بالآلهة قائلاً :

نعني وهبلات الاول ابن اذينة الثاني الذي لا يملك سواه ونحن احياء .. أفلم

يبعثك مولاك لترى اذا كان الجيش خاضعاً له ؟ قال : بلى

قال : اذن قل لمولاك ان الجيش سيحيط بقصره اليوم لا تمنعه الأسوار من الوصول اليه . ولا تغرب الشمس حتّى يسقط صاحب التاج الملوث بالدم الى الأبد . ملعوناً من كل عربي ..

فاطرق الرجل يفكر وقد ارتسمت صورة اليأس على جبينه ، فقال زبدا : ألم تسمع ما قلناه أيها الرجل ؟ قم فارجع الى مولاك وبشره وبشر مربيه الخائن بما سمعت ، فرفع رأسه قائلاً : عدني بالعفو يا قائد تدمر .

قال : عن حياتك ام عن ذنبك ؟؟

ـ : عن ذنبي ثم اقتلني بعد ذلك ان شئت .

قال : عندما يلبس اليتيم تاج أبيه ويجلس مع أمه الأرملة في عرش اذينة ويمثل أمامهما رفاقك الخونة الذين تآمروا على الملك .. عندئذ تستطيع ان تسألهما العفو .. أما الان فارجع من حيث أتيت .. فحاول المسكين أن يتكلم فقاطعه قائلاً : اذا نطقت بكلمة أمرنا الحجاب بان يقذفوا بك الى الخارج كما يقذفون الكرة .. أذهب وليستعد مولاك واسماعيل للموت ، ونهض زبدا والقواد فلم يستطع الرجل الا ان ينصرف واليأس يملأ نفسه ولما ابتعد عن المعسكر قال له رئيس الحجاب : أراك حزيناً يا سيدي المستشار .

قال : نعم وسينشر الحزن ظله فوق قصر الملك بعد حين ..

فابتسم الرجل ابتسامة خفية وقال : اني لا افهم ما تقول يا مولاي .

قال : الجيش بكل من فيه ثائر على الملك وسيدك سور حمص زاحفاً الى قصره في هذا اليوم ليضرب عنقه ويهتف لابن اذينة . فتظاهر الرجل بالخوف ثم قال : ان أسوار المدينة لا تسقط في ساعة كما يظن القائد العام ..

قال : أكاد أرى أحجار هذا السور تتدحرج تحت ضربات الثائرين ..

ـ : اذن فالملك يهلك ويهلك معه اسماعيل ..

ـ : هذا ما أراه وسيحصد السيف كل رأس لا ينحني أمام زبدا وقواده

ـ كنت اسمعهم يقولون ان في فرق الجيش انصاراً لمغني يرأسهم زنباع قائد الرماة ..

قال : ما رأيت لهذا الرجل صورة في قبة القائد ولعله لا يجرؤ على الظهور بمظهر العدو .. فسكت الحاجب ملياً وهو ينظر الى عنق فرسه بذهول .

فقال المستشار : في أي شيء تفكر أيها الرفيق ؟
قال : في هذه الحياة الزائلة التي لا تدوم لأحد ..
– أما أنا فأرى ان المرء لا يستريح الا بالموت وسأموت .
فقال الحاجب في سره : لن تموت حتف انفك بل طعناً بالخنجر مع جميع اتباع معني .. وكان رئيس الحجاب من الحمصيين المتآمرين على ابن خيران ..

* * *

دخل الأثنان المدينة وعلى وجهيهما علائم الذعر .. فأقبل الناس والحراس يسألونهما عما رأياه فكانا يجيبان : ان الجيش سيهاجم المدينة ونحن في خطر . وكان الشيخ الدمشقي يجرّ رجليه ليسأل المستشار احساناً .. فلم يلتفت المستشار اليه لانه كان يفكر فيما هو أعظم من الاحسان .. أما رئيس الحجاب فكان جواداً وكريماً في العطاء .. فقد مدّ يده الى منطقته وأعطاه ديناراً عليه صورة اذينة قائلاً له : ايكفيك هذا أيها الشيخ ؟
فرفع الشيخ صوته قائلاً : أشكرك يا مولاي فأنت سيد المحسنين ، ثم قال له همساً : لا تمر ساعة حتى نهاجم القصر .. وأخذ الناس يركضون .. هذا يغلق بابه والآخر ينقل حاجاته وقد ملأت الأسواق تلك الاشاعة القائلة بان المدينة « تحت الحصار » ! !
فلما وصل مندوب الملك الى القصر كان معني واسماعيل في قاعة الجلوس ينظر كل منهما الى الآخر نظراً تائهاً وقد بلغهما الخبر الرائع الذي ترتجف له القلوب . ان الجيش ثائر يا اسماعيل وحمص « تحت الحصار » فماذا نفعل الان . قالها معني وقشعريرة الرعب تتمشى في عروقه ، فأجابه الآخر وهو مطرق
ندعو وجوه المدينة فنسألهم رأيهم في هذا ..
– : وأي رأي لهؤلاء ؟
– : لا يغلق الملك ابواب مدينته قبل ان يستشير الناس .
– : لماذا ؟
– : لئلا تجوع المدينة فيثور الحمصيون ويقتحموا الأبواب .. فانحدرت دموع الفتى القاتل الذي لم يذرف دمعةً واحدة على ضحاياه . ثم جلس في عرشه واضعاً رأسه بين يديه واستخرط في البكاء ، ولو لم يخف اسماعيل غضب مولاه لبكى .. ان ذلك الجاني الأثيم لم يكن يريد ان يموت قبل ان يمد رواق استبداده

فوق جميع ربوع الشرق .. فقال للملك : لقد عدت الى الاستسلام يا مولاي !

فنظر اليه بعينين حمراوين قائلاً : ان ملكاً يجور عليه الدهر فيموت أبوه وهو طفل ثم يعهد اليك في أمر تهذيبه ! ان هذا الملك يجب الا يعيش ! !

قال : انك تغرق في كأس من الماء يا مولاي

ـ : وأنت تخوض البحر ولا تبالي ! خبرنا أيها المستشار ما رأيت

وكان الرجل قد أقبل وهو يريد أن يذل اسماعيل . فقال : ان الأمر خطير جداً أيها الملك

ـ : وماذا قال لك ؟ « وهو يعني زبدا »

فقال : انه سيدك أسوار حمص ويتبع اسماعيل ولو ركب متن الغمام .

فنظر معني إلى مربيه قائلاً : أتغرق في هذه الكأس أم ماذا ؟

فملك الرجل نفسه وقال : لا يا مولاي فالمدينة لا تؤخذ عنوة وستقف الأسوار في وجه زبدا كما وقفت من قبل في وجوه الفاتحين .. فأجابه هازئاً :

ولكنك تقول ان استشارة الناس لا بد منها وقد يرفضون ما أنت عازم عليه

قال : اذن نعمد الى القوة .. !

ـ : لقد جننت فلا تعلم ماذا تقول . أنجعل لك عدوين في الداخل والخارج يا سيدي اسماعيل ؟ فتلفت الرجل يميناً وشمالاً ثم قال :

اني قادر على حفظ حياة الملك وليفعلوا ما يشاؤون ..

قال : اتلجأ الى الاكاذيب في مثل هذه الساعة !

ـ : بل هو الواقع يا مولاي .

ـ : وكيف تحفظ حياة الملك ؟

فارسل نظره الى القاعة المجاورة التي ينزل منها الى السراديب كأنه يقول لمولاه : احفظها بالفرار ! !

ففهم الفتى ما أراده فقال : الى اين تنتهي سراديب القصر ؟

ـ : الى القلعة والى الخلاء ..

ـ : أنفر يا اسماعيل ؟

ـ : نعم اذا لم يبق لنا حيلة في الدفاع ..

ـ : واين هي الجيوش الجرارة تجيئنا من الأقاليم كما وعدت ؟!

ـ : لم نبعث رسلنا الى الأقاليم وهذا هو الخطأ ..

ـ : وأين هو زنباع سيد الجنود وقائد انصار الملك ؟! ..

ـ : لا أدري ماذا جرى له فلم نسمع له صوتاً

ـ : والجند الذي كان نصفه عدواً لأذينة فأين هو ؟!

ـ : لقد خدعنا زنباع فلم نجد لنا صاحباً .

قال : كما خدعتنا بمظاهر القوة وأنت الكذوب الغادر .. ألم تجد للملك ما يحفظ له حياته غير الفرار من السراديب كما يفر الانذال !! وهب اني استسلمت اليك أفتظن ان زبدا يترك منافذ السراديب حرةً وهو يعرف حمص كما تعرفها أنت !! اسماعيل !! لقد تعشقت المال فاصبت منه ما أردت . ثم طمعت بالنفوذ فعللت الفتى الجاهل بالآمال حتى اذا جرد السيف من غمده حاولت النزول الى بطن الارض لتستخفي من عين القضاء فاعلم يا اسماعيل ان الفتى الذي لم يتعلم في حياته ان يكون ملكاً . يتعلم اليوم قبل أن يموت كيف يكون الملوك .. وتربة خيران ما ابقينا عليك ولو بعث خيران حياً ..

أدعُ رئيس الحجاب ايها المستشار . فأسودت الدنيا في عيني اسماعيل وكاد يقع على الأرض .. لكنه لم يظهر الخوف ولم يهرب بل أجابه بصوت خافت قائلاً

إن الساعة التي أموت فيها تموت فيها أنت لأنك لا تجد عندئذٍ من ينظر اليك نظرة حب ، وقبل أن يجيبه وقف رئيس الحجاب بالباب وهو يقول :

ان فريقاً كبيراً من أهل حمص يستأذن على الملك .

قال : وماذا يريد أهل حمص من ملك ليس له نصير ؟! أبعث الى قائد القلعة ليحضر مع جنوده . وأرسل رجلين من رجالك يمنعان اسماعيل مربي الملك من الفرار !.. فحنى الرجل رأسه قائلاً : ان الناس يلجون في طلب الدخول يا مولاي .

فقال وهو يتنهد : لقد اذنا لهم في ذلك فليدخلوا ، أجلس يا اسماعيل .. وأنت أيها المستشار ولا تترك الملك .. وكان يتكلم بتعب ظاهر وصوته يرتجف ، كأن جسمه الندي لم يستطع حمل الحادث العظيم الذي فوجئ به ..

وفي تلك الساعة فتحت أبواب القصر ودخل الناس .. من كل جهة من الجهات الأربع .. فحفظ بعضهم النوافذ والأبواب والشرفات. وتغلغل البعض الآخر في الداخل فاجتاز الأروقة والدهاليز حتى وصل الى قاعة العرش قاعة الاعدام !.. فأنكر الملك واسماعيل تلك الوجوه التي تعلوها دلائل الغضب .

واستطاع الملك أن يقول : ماذا تريدون أيها القوم ؟

فقام زعيمهم فقال : جئنا نسأل الملك سؤالاً .. وكانت لهجة الرجل لهجة جلاد يهزأ بالمحكوم عليه . فلم يجب معني لان صوته اختنق في صدره ..

فقال الحمصي : ان جلالة الملك ارفع من ان يخاطب شعبه ..! أليست هذه القاعة هي التي جرت فيها دماء اذينة وأنصاره ؟.. فعرف اسماعيل عندئذ أن ساعته قد دنت . فقام على مهل يحاول الدخول الى قاعة السراديب ليفر الى القلعة اذا سدت في وجهه منافذ الخلاء . فقهقه الثائرون ضاحكين وهم يقولون :

هذا مولانا اسماعيل يحاول الفرار من يد الآلهة .. أجلس يا مولانا إن القاعة تغص بالحمصيين .. وفتح أحدهم باب القاعة فرأى اسماعيل الرجال في ايديهم السيوف .. فتراجع مذعوراً واستند الى الجدار .. وعاد زعيم القوم الى الكلام قائلاً : من قتل اذينة يا جلالة الملك ؟..

فأومأ التعيس الى مربيه وقال : هذا هو الملك الحقيقي فخاطبوه !!..

قال : وأنت من تكون ؟

قال : كنت آلةً في يد هذا الغادر الذي افسد نفسي وسلح يدي فقتلت

قال : ادفع التهمة يا اسماعيل .. فعقد الخوف لسانه ..

فقال : ايها التدمري ! ألم تكن سيد المتآمرين على ملك تدمر ؟!

فتمتم قائلاً : اني بريئ من دمه . ومعني هو الذي طعنه فأرداه .. اسألوا والي حمص عن هذا فهو أحد المتآمرين ..

فبكى المستشار النادم وقال : اذا كان هنالك من ذنب فعلى هذا الرجل الذي قتل مولاه ليستبد بكل شيئ .. انه هو الذي اغواني فلم انقذ الأبرياء .

فقال الزعيم : اقبضوا على اسماعيل ليرى بعينيه كيف تغوص الخناجر في الصدور .. فوقع الشقي على الأرض وجسمه يرتعش .. فانقض عليه رجلان فقيدوا يديه .. اما معني فلم يكن جباناً مثله بل كان يقول : اضربوني فاني قد لطخت يدي بدم البريئ ولست خائفاً من الموت ..

فرفع الزعيم صوته قائلاً : من حق الملكة زينب وحدها ان تنظر في أمرك أيها الخائن ولكن نخشى اذا ابقينا عليك ان تبقي هي عليك ايضاً فتستعين بالقتل وتهدم دولة الشرق الذي بناها اذينة العظيم .. اضربوه حتى تمزقوا قلبه برؤوس الشفار .. فهجم القوم وارتفعت الأيدي بالسلاح ..

فقال : ان الملك لا يقتل دون ان يدافع عن نفسه .. لقد نسيني الحراس وغلمان القصر فلا أجد حولي احداً ..! قم يا اسماعيل فدافع عن مولاك ..! أين جنود القلعة وقد دعوتهم ؟!.. ان الجميع خانوا الملك كما خانوا اذينة قبله اليّ أيها الحراس .. فلم يسمع المسكين غير أصوات الضحك تخرج من أفواه الثائرين كزئير الأسود .. واحتمى الملك وراء عرشه وليس في يده شيء يدفع خناجر القوم .. على أن العرش سقط في لحظة تحت ضربات الحمصيين وأحاطت الخناجر بملك الشرق وهوت الى جسده من الأمام ومن الوراء وهو يضرب الهواء بيديه حتى انطرح على قدمي عرشه جثة مزقتها الخناجر تمزيقاً وتفجرت منها الدماء وعين اسماعيل ترى كل ذلك وهو يقهقه ضاحكاً والقوم لا يسمعون ضحكه . ان المربي الأمين كان قد جن ..!

ثم عمد الثائرون الى المستشار فذبحوه ذبحاً ثم حولوا وجوههم الى اسماعيل فجربوا خناجرهم جميعها في جسمه الضعيف وهو لا ينقطع عن الضحك حتى لفظ روحه وامتزجت دماؤه بدماء معني ودماء الوالي المنكود الحظ .. وفي تلك الساعة ارتفعت فوق ابراج القصر الأعلام البيضاء .. وفتح باب المدينة العظيم ودخل الجيش ..

وأعاد التاريخ نفسه . فكما وقف اسماعيل على شرفة القصر من قبل هاتفاً لمعني .. وقف في ذلك الحين فريق الثائرين يهتف قائلاً : ليعش وهبلات وزينب ولم يترك أهل حمص نصيراً لمعني في ذلك القصر ، كل انصاره قتلوا كما قتلوا هم أنصار اذينة ، ولم يغمدوا خناجرهم حتى اقبل قائد القلعة — من جهة الشرق يتقدم جنوده وهو يسمع الهتاف والأهازيج ولا يدري أيهتف الشعب للملك أم يهتف للجيش !.. حتى دنا من القصر . فارتفع في الفضاء صوت سيار وهو يقول : اقتلوه .. انه الحارس الخائن الذي قتل هيروديس .. فانزلوا القائد عن جواده وتخطفته السيوف ، أما جنود الحامية فلم يجردوا سيوفهم لانهم عرفوا بلحظة واحدة كل ما جرى في قصر معني . وأقبل — من جهة الغرب جيش اذينة على رأسه القواد العظماء المخلصون لبيت الملك . فاستقبلهم حطان أمام القصر وهو يومئ الى الحمصيين قائلاً : نعم يا قواد تدمر : ان حمص هي التي تحيي وتميت وقد ردت اليكم ابن اذينة بعدأنسلبتكم أباه.. وارتمى بين ذراعي زبدا وهو يشهق بالبكاء ، ان اولئك القواد الذين قضوا حياتهم بين جثث القتلى

المصبوغة بالدماء . لم ينظروا الى جثة الملك الصغير . جثث أعوانه حتى تلألأت الدموع في العيون . لعلهم كانوا يبكون اذينة وهيروديس وقد ذكروهما في تلك الساعة الرهيبة التي خيم فيها الموت .

ان الكاتب لا يستطيع ان يصف ذلك المشهد الغريب الذي تقع فيه العين على فتى في عنفوان صباه لم يلبس تاج الملك حتى صرعه هذا التاج الذي بهر عينيه . وعلى قواد امتزجت عواطف حزنهم بعواطف الفرح فبدت على وجوههم دلائل اللوعة والاستبشار فلا يعرف ايبكون سيدهم أم عدوهم الصغير الغارق في دمه . أما ما يستطيع الكاتب ان يثبته فهو ان اولئك الرجال وجميعهم من اشراف العرب لم يشمتوا بابن خيران بل تمنوا لو انصرف الى حياة الهدوء لاحترموه كما يحترمون الأمراء ابناء عمه ، ولكن ما مضى فات وعليهم ان يخدموا اذينة في ترابه . بان يضربوا خصوم زوجته الضربة القاضية التي لا يقومون بعدها ، وأن يمهدوا سبل العيش الهادئ المطمئن للغلام وهبلات الذي أعدوا له العرش . فتركوا تلك القاعة التي شهدت مقتل الملكين ، الى قاعة أخرى لا يسود فيها الموت .. وجلسوا يتشاورون وهم يعلمون ان في ايديهم مستقبل الشرق ، كان زبدا يمثل الملك فقال لحطان : ان العرش مدين لك بالعز الذي يستعيده اليوم .

فقال : بل هو مدين لهذا الحمصي الذي لم يجف الدمع من عينيه الا الان . انه قضى هذا الزمان يبكي اذينة وهيروديس حتى انتقم لهما ، وأومأ الى سيار ، فصافحه القواد وشكروه باسم زينب وصي العرش ، فأجابهم الرجل وهو يبتسم:

لو لم يكن لاذينة جيش له قواده المخلصون لما جرؤ الحمصيون ان يضربوا ضربة واحدة في سبيل زوجته وأنجاله .. ان الفضل في ذلك هو لكم يا مولاي نتم الذين حفظتم عهد الملك وحقنتم دماء الناس ..

ولقد أصاب الحمصي في جوابه . فان العروش التي لاتسندها سيوف الجند لا تثبت . الا كما ثبت عرش معني ، وشكر زبدا جميع الحمصيين على ذلك الاخلاص الذي أظهروه ثم قال : الا تدفن جثث القتلى يا حطان ؟

فقال : لي كلمة أقولها قبل ذلك .. قال : ما هي ؟

قال : ماذا جرى لزنباع ؟

— : انه يجر مع اسكندر الروماني سلاسل الحديد في السجن ..

— : وماذا فعل الخونة من الرماة والحراس ؟

– : لا يجسر احدهم على الخروج من خيمته الا اذا اذنا له . ولقد اقسمنا بتربة اذينة وهيروديس لئن خطا أحدهم خطوة واحدة لضربنا عنقه وهو واقف دون أن نسأله سؤالاً أو نوجه اليه كلمة .. ولقد اخطأ اذينة واخطأ نا جميعنا من قبل يا حطان . أجل اخطأنا في ذلك الاستخفاف الذي قابلنا به نصحك وكان علينا ان نحتاط لأمرنا فلا نقع في ما وقعنا فيه ..

قال : اترك الماضي يا مولاي ومر باحضار زنباع

– : لماذا ؟

– : ليرى جثتي مولاه ومربي مولاه قبل أن يحجبهما الثرى ..

فقال معن بن حمدان : تلك شماتة لا تليق بعربي ..

قال : ما عنيت هذا ولم افرح قط ببلية عدو ولكني اريد ان يرى بعينه عاقبة الخيانة فيتعلم الاخلاص ..

فقال زباي : وما هي قيمة اخلاصه وسيكون جزاؤه الموت

قال : أتقتلونه ؟

– : ستأمر زينب بقتله ان في موته حياة لسواه ..

– : لا يقتله غير حطان فسأكون جلاداً مرة في العمر !!!

فقال معن : لو جعلت الأقدار حطان ملكاً لما عرف الرحمة في احكامه ، قال هذا وضحك .

فأجابه قائلاً : أجل لو كنت ملكاً لما ابقيت رأساً خائناً على جسم صاحبه. ان الملك هو الذي يضع الرحمة في موضعها والسيف في موضعه .

– : وماذا تصنع بالروماني ؟

قال : نبعده الى فلسطين او الى مصر فذنب زنباع اكبر من ذنبه .

قال : انهما شريكان في الجريمة يا حطان

– : نعم ولكن لا تنسَ ان زنباع هو عربي وذنب العربي الذي يخون مليكه أعظم من ذنب الغريب .

قال زبدا : سننظر في هذا بعد رجوعنا الى تدمر .. اذهبوا فادفنوا الأموات

فنهض الحمصيون ليدفنوا قتلاهم وراح القواد يكتبون رسالتهم الى الأرملة الحزينة يعزونها باذينة وهيروديس ويهنئونها بوهبلات ..

فقال لهم حطان : وليكن سيار رسولكم الى تدمر . ان الذي حمل اليها خبر

سقوط زوجها عن العرش . هو الذي يحمل اليها خبر جلوس ولدها في العرش نفسه
فقال زبدا : اتذهب يا سيار ؟
— : ليس شيء احب اليّ من هذا يا مولاي .
— : اذن قل للملكة ان قوادها سيكونون في تدمر بعد بضعة أيام
وانصرف القواد الى النظر في شؤون الناس على ان يرجع الجيش الى عاصمة الملك بعد ان يستريح .

مرّت عشرة أيام واولئك القواد الامناء يصلحون في حمص ما أفسده اسماعيل حتى استقام الأمر وخمدت نار تلك الثورة الفكرية التي سعرّها سقوط الملكين — اذينة ومعني عن العرش ، فصدر الأمر بالرجوع الى تدمر وأفراد الجيش يرددون اسم المرأة الأرملة التي ستخلف رجلها في حمل الصولجان .

ولكن .. ولكن كان على تلك الصفوف الجرارة قبل ان تنتشر في الصحراء المؤدية الى تدمر . ان تقف خاشعة مطرقة أمام كثيب يقوم شرقي حمص. لتحيي ملكها وولي عهده العظيمين . الراقدين في الرمال ، وهناك .. ذرفت رجال الحرب دموعها من جديد على قبر اذينة وهيروديس وأقسم القواد يمين الاخلاص للبيت المالك . ثم انثنوا يريدون عاصمتهم التي تقدمهم اليها سيار .

وكانت زينب . تلك المخلوقة العجيبة . تبكي زوجها وولده العزيزين كلما حجبتها الجدر عن العيون . وتلبس أمام وصائفها وأهل القصر لباس الجلد والصبر

وقلب كهيلة يقطر دماً .. انه ذو لوعتين . لوعة الوطن ولوعة الغرام . واذا استسلمت الى الهم فبحكم تينك العاطفتين القويتين ، وقد عاندها القدر فلم تزف الى الحبيب . وهي صابرة على الزمان تقف الحرب بينها وبين من تحب ، ولا يليق ببنت زبدا وأبوها أعظم رجل بعد الملك . ان تشكو هواها الى المرأة التي خسرت رجلها . بل لا يليق بها ان تذرف دمعة الحب في زمن تبكي فيه القلوب رب العرش التدمري النائم في حمص الى الأبد ..واية فتاة يستولي عليها الهوى كما استولى على كهيلة . ثم تنقضي السنون وهذا الهوى ينمو ويشتد وهي اقوى من أن يصرعها الضعف الكامن في كل قلب ! انها كانت في غرامها الرصين الهادئ ، مثلاً لكل فتاة تعرف ما هو الحب . وزينب تعلم كل هذا .. والملكة التي لا تستطيع ان تقرأ أسرار من حولها من نساء ورجال لا تستحق ان تلبس تاجاً وتستوي في عرش .. لكنها لم تكن تفكر في ذلك الحين الا في ذلك السهم

الدامي الذي اصيبت به . اذا فكرت في شيء فكما تمر سحابة الصيف ثم لا تلبث حتى تزول . ان الملكة المقيمة بالجسم في البلاط التدمري ، هي مقيمة بالفكر والروح في مدينة حمص .. تلك المدينة الثائرة هادمة العروش وقاتلة الأبرياء

وقد انقضت الأيام وهي لا تعلم شيئاً عن حطان ورجال حطان !. بل لا تعلم شيئاً عن الملك القاتل الذي تخافه على انجالها ولي العهد واخوانه الأمراء . فقام في ذهنها اولاً أن معني قتل . لكنها عندما انطوى عام ٢٦٦ ولم تر رسولاً آخر يقل اليها أخبارَ حمص . اضطربت للفكرة المروعة فكرة الفشل وجعلت تستعرض أيام العز وتعدّ اصحاب زوجها الذين تستطيع ان تستعين بهم على الملك الجديد . اذا احتدمت بينهما نار الحرب .. ثم استولت عليها فكرة أخرى هي ان تبعث الى حمص حارساً من حراس البلاط يدرس عن كثب احوال البلد ويرجع اليها حاملاً بشرى الفوز أو خبر الفشل الذي لا يبقى بعده غير امتشاق السيف .. وكانت ترتاح الى حديث سيدة الوصائف كهيلةبنت زبدا . فقالت لها يوماً : ياكهيلة .. الا ترين ان الملكة يخونها الحظ ؟..

فاجابتها قائلة : تعزي يا مولاتي فانصار العرش كثيرون وسيلبس مولاي وهبلات تاج أبيه .

قالت : هذا ما أشك فيه لان معني لم يزل ملكاً واصحابنا في حمص ساكتون

قالت : قد يكون هذا السكوت لمصلحة العرش .

— : ولكني لا أرى ما يدل على ذلك . ألم تسمعي ما نقله امس قهرمان القصر؟

— : سمعته يقول ان اليهود والأرمن القادمين من حمص يقولون ان حمص هادئة .. — : وهذا يثبت أن اعوان الملكة لم يظفروا بما أرادوه .

— : كما انه لا يثبت غير ذلك ولو فشلوا لثار ثائر الملك واهتزت حمص .

قالت : على كل حال سأبعث غداً رسولاً من رجال البلاط .

— : الى من تبعثين هذا الرسول ؟

— : أجعله تاجراً ثم ابعثه مع وفود الأرمن الذين يحملون الخز والعاج وهناك يتفحص من وراء الستار عن أحوال الملك .

قالت : أصبري يا مولاتي حتى يعود الجيش الى حمص .

— : لماذا ؟

قالت : ليستعين هذا الرسول بأحد القواد على معرفة ما تريدين .

ــ : خير لنا ان نبعث رجلاً آخر يتبع الجيش الى انطاكية من ان نمكث في القصر تحت رحمة الأقدار ..

قالت : اسألي الوفود الذين قدموا اليوم عما يعرفون .

ــ : هذا ما افكر فيه الان وسأدعو بعضهم غداً .

ــ : اظن ان الجيش وصل الى حمص ..

ــ : وما الذي يدعوك الى هذا الظن ؟ ..

فأحمر وجه كهيلة من الحجل ثم تمتمت قائلة : يدعوني اليه حديث سري يهمس به هذا القلب .. قالت هذا واخفت بيديها ذلك الوجه الذي ارتسمت عليه دلائل الحب .

* * *

في صباح اليوم الثاني مثل بين يدي الملكة فتى من فتيان الأرمن تجار العاج فقالت له : متى تركت حمص أيها الأرمني ؟

قال : منذ اربعة أيام يا مولاتي

قالت : أرأيت الملك ؟

قال : من أين لمثلي أن يراه وهو في قصر الوالي يحرسه الحجاب والجنود

قالت : سمعت رفاقك يقولون ان أهل حمص هاجموا ذلك القصر وخلعوامعني وحدقت اليه بعينيها الساحرتين تستخرج بفراستها أسرار قلبه ..

فقال : لقد كذب هؤلاء الرفاق يا مولاتي فحمص يسودها السلام بعد قتل الملك .. ولكني رأيت جيش زبدا وراء الأسوار ..

فاضطربت زينب في داخلها وقالت له : متى قدم الجيش ؟

قال : يوم تركنا حمص ..

ــ : وهل سمعت الجنود تهتف لابن خيران ؟

قال : ما سمعت حمص صوت جندي ولكنهم يقولون ان الجيش يحمل راية الملك الجديد .. وأن القواد على طاعته .. فابتسمت ابتسامة قصيرة اخفت فيها ارتجاف شفتيها ثم قالت : ومن خرج لاستقبال الجيش ؟

قال : لم يخرج أحد لأن الأبواب مغلقة والحراس يقومون عليها بالسهام والحراب ..

فأشرق جبينها وقالت مستغربة : كأن المدينة محصورة أليس كذلك ؟

قال : نعم وأني لأعجب من قولهم ان الجند على طاعة الملك ..

فنظرت الى كهيلة قائلة : لقد قتل معني واسماعيل فانصارهما لا يستطيعون ان يثبتوا أمام الجيش التدمري المخلص للملكة القتيل .. انصرف أيها الفتى وليعلم القوم أن تاج الشرق لا يلبسه غير وهبلات بن اذينة .. ثم قالت لكهيلة :

لم يبق من حاجة الى الرسول فقد وثقت الان بان الآلهة لم تنسَ تدمر .. ان الجيش باقٍ على العهد وعرش معني القاتل لا يعيش .

قالت : وهل خامر الشك قلب الملكة من قبل ؟

ـ : أما القواد فلم اشك في أحدهم . واما الجيش فقد كنت اخشى ان يفسدوا عليه طاعته واخلاصه فيثور ..

ثم نهضت بعظمتها المعروفة قائلة : عليّ برئيس الحجاب

فلما أقبل الرجل قالت له : أتعرف راية مولاك اذينة أيها الرجل ؟

فقال : راية الميدان أم راية القصر ؟

ـ : بل راية القصر .. واجعلها فوق البرج الأعلى الى جانب النسر الروماني فان اذينة لم يمت لأنه حي بولده وهبلات الملك .. فهمّ الحاجب بالانصراف لتنفيذ الأمر ، فاستوقفته قائلةً : وافتح أبواب القصر فان الملك ووالدة الملك التي هي وصي العرش يريدان ان ينظرا في شؤون الناس .. وقد نسيت في تلك الساعة ما وعدت به حطان . فقالت كهيلة : الا تذكر مولاتي الملكة انها وعدت سياراً بأن لا يطأ غريب عتبة القصر الا برسالة من حطان اليهودي ؟

فأجابتها قائلة دون ان تتردد : ان كرامة الملكة تقضي عليها بأن تجلس للناس ولكني وعدت ونسيت وعدي فيجب ان ينفذ هذا الوعد .. ثم قالت للرجل :

أرفع راية مولاك كما قلت وأترك الأبواب الآن

وكأنها شعرت بأنها أصبحت ملكة الشرق فمشت بجلال أمام كهيلة الى الرواق الأعظم .. وأرسلت نظرها الحديدي الى العلاء . لعلها تبصر نجمها اللامع في سماء العظمة والمجد .. وكانت الغيوم متلبدة في الفضاء الأعلى فلم ترَ غير نور ضعيف تلألأ فجأة ثم ما لبث حتى احتجب عن العيون ..

* * *

كانت كهيلة شديدة الأعجاب بالملكة الأرملة ، التي نزع الموت زوجها من حالق عزه . قبل ان يستوفي نصيبه من الحياة .

ان زينب كانت عظيمة في القصر الذي تحدق به الأخطار. كما كانت عظيمة أيام اكتنفتها فيه مظاهر القوة والسلطان . والخضوع والاحترام ، وقد رأت كهيلة ان ثقة الملكة بنفسها الكبيرة لا تنتهي عند حد . حتى ان القدر ولو جار لا يستطيع ان يسلبها شيئاً منها على مرّ الأيام والأعوام ، وقد ايقنت بعد سماعها حكاية الأرمني ان أمر معني قد انتهى وان أباها ورفاقه القواد الأمناء سيخلعون الملك الطائش عن عرشه اذا لم يقتله حطان .. وكانت تعلم كما تعلم الملكة ، انه ليس في حمص من يجسر على الوقوف في وجه الجيش اذا زحفت صفوفه ترسل الى المدينة الخراب والموت .. ولكن اذا عمد معني وأهل حمص الى الحصار فالمدينة لا تسقط قبل شهر وقد يحدث في هذا الشهر ما لا تعرفه هي ولا تعرفه الملكة وأنصار العرش .. وقد فات كهيلة ان حطان في الداخل . وزبدا وجنوده في الخارج . والاثنان يعملان على هدم ذلك البناء المشوه الذي بناه اسماعيل ، أما زينب فكانت قد اطمأنت الى ما سمعت وقام في ذهنها ان الجيش يستطيع متى شاء ان يدخل المدينة بفضل الحمصيين المتآمرين على معني . وراحت بدورها تزيل الخوف من قلب الوصيفة النبيلة . التي كانت تعزي سيدتها من قبل ، وتدعوها الى الصبر ، وعلى أمل الفوز القريب . زالت مخاوف أهل البلاط التدمري واقاموا ينتظرون بالهدوء والجلد اخبار حمص

ولم يطل زمن الانتظار . فان رئيس الحجاب اقبل على الملكة يستأذن لسيار ..

وكان الليل قد مدّ رواقه . وزينب في قاعتها الخاصة تقص على وهبلات وأخوانه اخبار أبيهم العظيم . منذ نشأ في البادية الى أن ضمه القبر ، وكهيلة والوصائف يسمعن مولاتهن الأرملة تتحدث عن زوجها القتيل .. فبرقت عينا الملكة وقالت بجلال : ليدخل سيار إنه الليلة رسول خير .. ماذا تقولين يا كهيلة ؟

قالت : أنه يحمل نعي معني كما حمل في المرة الأولى نعي الملك ، واتجهت العيون الى باب القاعة تنتظر دخول الناعي ..

أجل . انه كان ناعياً ، ولكنه ينقل في وقت واحد خبر موت فيه حياة .. وكان البشر ظاهراً على جبين سيار عندما دخل .. فجثا على ركبتيه قائلاً : مات معني يا مولاتي فليعش وهبلات .. ولعل المظهر الذي ظهرت به زينب في تلك الساعة كان أبلغ وأعظم مظهر تقع عليه العين ! ! ! فان دمعتين انحدرتا الى خديها وهي تقول : مسكين ! ! كان ولداً لأذينة وقد مات مغروراً ! ان الذنب ذنب

فقال : وقتل اسماعيل ابنها الملكة وجميع الخونة الذين تآمروا على اذينة فارتفعت أصوات الوصائف بالدعاء لوهبلات ..

أما هي فلم تنزل عن رصانتها ولم تنفرج شفتاها عن ابتسامة فرح . بل مشت والحنان في عينيها فقبلت رأس وهبلات قائلة له : لقد لبست يا بني تاج الشرق وستسند املك هذا التاج بيديها القويتين ..

فأجابها الغلام قائلاً : كل رجل في الشرق يلبس بعد اذينة تاجاً لا تسندينه أنت فذلك التاج لا يثبت على رأسه ، وتناول يد أمه وطبع قبلة الطاعة والخضوع .

فأومأت زينب الى الوصائف فسجدن لوهبلات كما يسجدن في الهيكل وتراجعن الى الوراء ، ثم أمرت سياراً بان يجلس في موضع قريب منها قائلة له : والان حدثنا بكل ما جرى في حمص .

قال : ان المدينة بما فيها ، أهلها واضيافها وجميع الغرباء فيها هتفوا لمولانا الملك . قالت : ومن قتل معني ؟

قال : قتله الحمصيون في قاعة العرش ثم ارتفعت الاعلام تعلن موته فدخل الجيش . قالت : اذن فزبدا وجنوده لم يخضبوا أيديهم بدمه ..

— : ان الحمصيين وحدهم هم الذين هاجموا القصر

قالت : ان في الجيش يا سيار انصاراً لمعني فماذا فعل هؤلاء ؟

— : جميعهم اسرى يا مولاني وقد جردهم زبدا من السلاح يوم زحف الى حمص . قالت : اذكر لي رؤوسهم .

قال : رئيسهم الاكبر زنباع ثم يتبعه بعض الضباط والحراس وبعض فتيان الرومان بينهم اسكندر ابن قائد الحامية الذي قتله معن بن حمدان ، فخفق قلب كهيلة لذلك الاسم العذب الذي ذكره رسول الجيش .. وكأن الملكة ذكرت غرام العاشقين . فقالت لسيار : أرأيت ابي وابن حمدان ؟

قال : رأيت جميع قواد اذينة الذين ظفروا بالخوارج واخضعوا المتمردين

— : ومتى يصلون الى تدمر ؟

— : غداً يا مولاني فقد تقدمتهم لأنقل اليك البشرى .

قالت : لقد وعدناك ان لا نفتح لأحد أبواب القصر الا اذا كان يحمل الينا رسالة من حمص . اما الان فقد انتهى أجل هذا الوعد وسيبدأ وهبلات منذ

صباح غدٍ ان يكون ملكاً ..

ــ : لكِ يا مولاتي ان تفعلي ما تشائين فقد زالت الاخطار الان .

قالت : خبرنا كيف تمّ حادث القتل .

قال : اقتحم الحمصيون قصر الوالي ودخلوا على الملك وهو في قاعة العرش فقتلوه .. قالت : وهل مات ابن خيران كما يموت الجبناء .

قال : لا فقد دافع عن نفسه كما يدافع البطل المجرّب تمتد اليه في ساحة الحرب سيوف الاعداء ولم ارَ يا مولاتي في كل ما رأيت من مشاهد القتل في الميادين رجلاً كان اعز وأعظم من معني في موته ، كأن العظمة التي ورثها عن بيته الكريم ولم يفهم معناها وهو ملك ، تجلت كلها في آخر مظهر من مظاهر حياته قبل ان يسقط قتيلاً على قدمي العرش . فظهرت دلائل الحزن مرة ثانية على جبين الملكة النبيلة وقالت لوهبلات : ان الظالمين يقتلون ولو كانوا ملوكاً فاذا ملكت فلا تظلم .. وأومأت الى من حولها بالانصراف الا كهيلة فقد أمرتها بالبقاء الى جانبها حتى انتصف الليل وهي ترى المجال متسعاً لتحدثها عن حبيبها معن بن حمدان بل لتعدها بالزواج عندما تخلع ثوب الحداد على اذينة .

وكان اليوم الثاني يوماً وطنياً عظيماً جعلته العامة والجيش عيداً لتدمر . يقيمون له الولائم والافراح كل سنة ، لقد شهدت تدمر مواكب كرامة وعز وصفها المؤرخون بجلاء كله أعجاب منها . موكب دخول الامبراطور فالريان في طريقه الى بلاد الفرس ليحارب سابور ، ومنها . مواكب رجوع اذينة القنصل ظافراً من ميادين الحرب ، غير ان تلك المواكب . على ما كان فيها من فخامة وجلال ، لا تستحق ان تذكر عند موكب الجيش العظيم القادم من حمص . حاملاً تاج الشرق الذهبي لمليكه الفتى . والمقام التاريخي العالي لوالدته اعجوبة الجيل الثالث

لم يبق في تدمر شيخ أو فتى الا خرج الى الساحة تدفعه عاطفة الحب الى الاشتراك بعيد جلوس الملك .

وكان القوم يعتقدون . ان الأرملة اللابسة ثوب الحزن على زوجها ستكون على رأس المستقبلين مع جلالة الملك الصغير يظهران الشكر للقواد الامناء الذين يلمع الاخلاص والوفاء فوق اعلامهم الخافقة في الفضاء ، ولكنهم لم يروا صاحبي الجلالة .. بل رأوا تيم الله وخيران . نجلي اذينة الصغيرين . تمشي وراءهما طائفة من الحجاب . وهما في عربة ابيهما المذهبة . ندبتهما الملكة

الوالدة ليقوما مقامها ومقام اخيهما في استقبال الجيش .

« أجل . ان زينب الباكية زوجها كانت ارفع من أن تخرج الى الساحة في لباس العيد بل كانت أرفع من أن تغادر البلاط لمثل هذا الأمر ، وقد جلست في عرش اذينة وأجلست ولدها الملك عن يمينها ووقف الحراس بحرابهم حول العرش واقامت تنتظر دخول القواد المخلصين . ان التاج بعد موت اذينة هو لها ولأولادها فليست بحاجة الى أيدي القواد تضع على رأسها هذا التاج .. أي أنها كانت ملكة ولم تزل وجلوس معني في عرش عمه بضعة أشهر لم يسلبها حقها في ذلك العرش .

كان زبدا وزباي وابن حمدان يتقدمون الجيش . وقلوبهم تكاد تثب عن الصدور شوقاً الى مولاتهم التي يفدونها بالمهج ، فلما وقعت العيون على عربة اذينة تحمل اليهم تيم الله وخيران . ذكروا ذلك القتيل الذي شرّف قومه . وترجلوا عن افراسهم ثم انحنوا على الصغيرين يقبلونهما وهم يبكون ويصعدون الزفرات ، ثم أخذ زباي حفيديه بين يديه . وحملهما أمام الموكب وهو يقول :

لقد خسر انجال اذينة أباهم ولكنهم لم يخسروا عطف الأمة ، وسار الموكب حتى قارب البلاط . فاصطفت الجنود حول القصر يحيون علم اذينة الخافق فوق الأبراج وصعد القواد شاهرين سيوفهم ليعترفوا الاعتراف الصريح بملكهم وهبلات ، وقد ملأ الضباط أروقة القصر وهم يهتفون حتى دخل زبدا ورفاقه قاعة العرش فرأوا صاحبي الجلالة يبتسمان ابتسامة لم تحجب دلائل الحزن .. فجثوا على ركبهم ومدوا ايديهم بالسيوف قائلين : ليعش الملكان وهبلات وزينب

وكان عليهم ان يهتفوا لوهبلات وحده .. غير أنهم رأوا زينب في عرش اذينة ووهبلات الى جانب العرش فعرفوا ان الأرملة أرادت ان تظهر لهم بذلك المشهد الصريح البليغ انها هي الملكة بعد اذينة وان وهبلات اذا وضع التاج على رأسه فانما يضعه حفظاً للأنظمة المتبعة في قصور الملوك ، فرفعت الملكة صوتها قائلة : أهلاً بقواد تدمر الذين حفظوا التاج لاصحابه ثم مشت وراء عاطفتها كزوجة . فقالت لهم : اين تركتم اذينة وهيروديس أيها القواد ؟

فقام زبدا فقال : ان اذينة وهيروديس ابنها الملكة هما على هذا العرش ..

فأجابته قائلة : أصبت أيها القائد العظيم انهما لم يموتا .. ومدت يدها فصافحت اولئك الأبطال ثم اومأت الى وهبلات فبسط لهم يده الصغيرة الناعمة

فطبعوا عليها قبلات الاحترام ، وزباي نفسه !! زباي ابو زينب . لم تخاطبه كالبنت تخاطب أباها . بل كالملكة تخاطب أحد قوادها ذلك لان الشرقيين جميعهم رعية لها وهي أعظم من أن تذكر صلة النسب والدم متى كانت على العرش ، أي أن الملكة هي ملكة ما دامت على عرشها فاذا هي تركت العرش جاز لها أن تكون بنتاً وأماً وأن تذكر ل شيء .

لم تقل لزباي يا أبي ولم يقل لها يا أبنتي .. بل كانت تقول أيها القائد ويقول ابتها الملكة ، حتى ان ذلك الشيخ الجليل الشريف ، كان بحكم التقاليد مكرهاً على الخضوع لحفيده الذي رباه على ذراعيه . كما يخضع له العربي القادم من طرف البادية . اجل ، ان زينب كانت تشعر بشوق شديد الى أن تضم أباها وتشكو اليه جور الأقدار . كما ان زباي كان يحس بعاطفة الوالد تهيج في صدره .. ولكنه لا يستطيع أن يأخذ ابنته بين ذراعيه وهي على كرسي الملك ، ثم طرح القواد بسيوفهم الى أرض القاعة وهم يقولون : لا تجرد هذه السيوف الا في طاعة الملكة والملك ،

فقالت زينب : لقد خبرنا هذه الطاعة فارجعوا السيوف الى الأغماد ، وكأنها أرادت أن تثبت وجودها لخصوم العرش فقالت : يا كبير القواد . لقد عرفت الملكة أنصار عرشها ولكن لم تعرف اعداءه .

فقال زبدا في نفسه : لقد دنت ساعة زنباع . ثم قال :

ان في الجيش يا مولاتي اتباعاً للخائن هم في الأسر ..

قالت : من هم ؟

— : فريق من الحراس والرماة يرأسهم زنباع ..

قالت : والرومان ؟

قال : ان الملكة تعرف الخائن الروماني وبعض رجاله ..

فقالت لوهبلات : ما هو رأيك في خصوم عرشك أيها الملك ؟

فقال : يجب ان يحاكم اولئك الذين تآمروا على ابي وأخي ، فمسح زباي دمعة تلألأت في عينه وقال : الان ..

فقالت زينب : الان .. فليحضروا وهم مقيدون ، ونظرت الى معن بن حمدان كأنها تأمره بان يفعل ، فخرج ذلك الفتى الشجاع وتبعه عشرون من حراسه فاحضروا الأسرى الذين تكتنفهم الخيانة والعار وهم يرسفون بالحديد .

فقالت الملكة : ادخلوا التدمريين وحدهم فهم الذين يحاكمون ..
فقال زباي : والآخرون ايتها الملكة ؟!..
قالت : اولئك خليط من جميع الشعوب لا يدرون ماذا يعملون .. ان الذنب
على هؤلاء التدمريين الذين قربهم اذينة وامطرهم نعماً وعطفاً فخانوه .
قال : أيخون الغريب ملكه ولا يعاقب !؟
قالت : ان العقاب الذي يستحقه هؤلاء يستحقه اولئك .. ولكن نحاكم
الرؤوس التي فكرّت في القضاء على الملك .. ادخل يا زنباع وارفع رأسك تيهاً
وكبراً فقد تمّ لك ما أردت من قتل اذينة ..! فمشى المسكين يجر قيده وهو مطرق
ووراءه بعض الحراس والرماة .
فقالت زينب : انك يا زنباع متهم بالمؤآمرة على مولاك وولده فماذا تقول ؟
فأجابها ورأسه في الأرض قائلاً : من هو الذي يتهمني أيتها الملكة ؟
قالت : الجيش بلسان قائده العام ..
— : لقد قتل اذينة وهيروديس وأنا في انطاكية ويدي لم تخضب بدمائهما
قالت : ان المؤآمرة تسبق القتل وقد وافقت معني واسماعيل في الغدر بمولاك
قال : ماكنت أعلم من قبل أن اذينة سيقتل ..
فقاطعه زباي قائلاً : كذبت فأنت أول من اقترح قتل الاثنين ولو استطعت
لأرسلتنا جميعنا الى القبر .. ثم قال : مري بادخال بعض الرماة ايتها الملكة .
فقالت : ليدخل ضباط فرقة الرماة . فأدخلوهم وهم عشرة معظمهم من
الأرمن . فقالت : اي رجل نفخ في صدوركم روح العصيان ؟
فأومأ أحدهم الى زنباع قائلاً : هذا ... فخارت قوى زنباع وكاد يسقط
على الأرض . ثم رفع رأسه قائلاً وشفتاه ترتجفان : متى كان الجندي أصدق من
قائده ؟ ..

فقال زبدا : عندما يكون الاثنان خائنين.. هب انك لم تكن شريكاً لاسماعيل
أفلم تدعُ مولاك اذينة غاصباً عندما نقل اليك رسل معني خبر موته ؟
فاصفر وجه الملكة وقالت : أعد علي قولك أيها القائد .
قال سمعت هذا الخائن يقول لرسولي معني على مسمع ومرأى من
الجيش : — قولا لمولانا الملك ان الجيش كله ارتاح الى موت الغاصب — .
فقالت : أتعتذر عن هذا يا زنباع ! ! فعاد الى اطراقه ولم يجب .

قالت : اعتذر أيها الرجل اذا قدرت .. فساد السكوت ..

فقالت : أتسمون اذينة غاصباً أيها الأنذال ولولا اذينة لكانت تدمر نهباً لاعلاج الفرس ؟! من رفع تدمر الى العلاء وجعل لها عرشاً . بل من هو الرجل الذي تصدى للفاتحين الطامعين بكم واقتحم بقوته وصدق عقيدته نار السياسة والحرب فجعل الرومان انفسهم الذين هم سادة العالم حلفاء له وجعل سابور يضطرب خائفاً من التدمريين ؟! قل أيها الجبان من جعلك قائداً ومن سلح يدك لتكون شريفاً يدافع عن قومه ؟! قل متى كنتم ملوكاً أيها الخونة ومتى اعترفت روما بالبيت التدمري المالك قبل اذينة ؟! ان أباه اذينة الاول ادعى الملك ولكن ما هي الا ليلة وضحاها حتى تدحرج رأس هذا الملك عن جسده وتعفر تاجه في التراب تحت أقدام الرومانيين .. ثم قام خيران فكان صنيعة روما ولم يجروْ على لمس التاج الساقط عن رأس أبيه خوفاً من النسر الروماني الناظر اليه بعينين من نار فقضى حياته مستسلماً هادئاً يتمرغ في احضان الرفاه واللذات . عندما كان أخوه الأصغر اذينة يعيش بين قبائل العرب خاطباً ودها . مغذياً نفسه الكبيرة بحرية البادية وطلاقةالصحراء. ومجرباً سيفه ورمحه وسهامه بصدور الأسودوالانمار

وكان وجه الملكة اصفر كوجه النبيل يغضب لكرامته . والبكاء يتردد في صدرها ولكنه لا يسيل دموعاً .. ثم قالت : اذينة غاصب !! فماذا غصبكم أيها الجبناء ؟ كنتم عبيداً فصيركم احراراً . وكنتم أمواتاً فاخرجكم من القبور . ثم اجتمعتم أيها الأموات فغدرتم بالمحسن اليكم وقام في اذهانكم ان الأرملة لا تستطيع ان تثأر بزوجها فيستمر معني على العرش ويستبد الخائن بالشرق ويجعلكم سادةً له !! الا فاعلموا ان الصولجان في يد وهبلات لا ينزعه منها القيصر وان هذه الأرملة لا ترضى بالشرق كله رعية لها بل ستمد رواق ملكها بقوة الرجال المخلصين فوق أقطار الغرب . وسترفع أعلام تدمر في عاصمة الرومان .

وزنباع لا يتحرك ولا يرفع رأسه .. فخيل الى القواد انه سيموت من الخوف وكأن الملكة لم تشأ ان تسترسل في حديثها مع الخائن . فقالت له بلهجة آمر لا يراجع في أمره : أفلا تعترف الان بانك اهنت مولاك وهو ميت ؟

فتمتم الجبان قائلاً : نعم وقد خدعت ..

فقالت : حكمكم ايها القواد .

فقال زبدا : لا يحكم غير الملكة والملك

فقال وهبلات : لست ملكاً ما دامت أمي هذا في الوجود ..
قالت : أليس لك رأي في هذا يا وهبلات ؟
قال : اذا أردت ان تستمعي رأيي فخير للمتآمرين أن يموتوا ..
وقال زباي : رمياً بالسهام أمام الهيكل ليراهم الناس ،
فانحنى زنباع حتى لامس وجهه الأرض وهو يقول : هذا هو العدل ونحن نستحق الموت . فقالت زينب : بماذا توصي اذن لبنيك ؟
قال : أوصيهم بأن لا يخونوا الملك ..
فنظر القواد والحراس الى الملكة فاذا وجهها يطفح بشراً وهي تقول : انهض أيها الخائن فقد عفونا عنك وعن كل شريك لك ..
فتراجع القواد الى الوراء قائلين : أيموت اذينة ويسلم القاتل ؟!!..
فاجابتهم قائلةً : نعم ان الملكة لا تريد ان تبدأ ملكها بالقتل ..!! ثم قالت لزبدا : أجعل كل رجل من هؤلاء في بلدٍ بعيدٍ عن تدمر على ان لا يرجعوا اليها ما بقينا .
فقال زنباع : لقد ندمت يا مولاتي فاجعليني خادماً في البلاط ،
فابتسمت قائلة : ان زينب الأرملة لا تصدر أمراً وترجع عنه . ارضَ بالنفي أيها الخائن واندب سوء حظك وأنت في منفاك .. اخرجوا الخونة من بلاط الملك
ثم تركت العرش ويدها بيد وهبلات . ومشت الى قاعة الجلوس يتبعها القواد الثلاثة وهناك فتحت ذراعيها لأبيها وهي تقول : اني الان بنت زباي ولست ملكة الشرق ، فضمها الشيخ الى صدره وهو يبكي ويقول : تعزي يا ابنتي بوهبلات واخوته .
فقالت : بل اتعزى بانصار العرش الذين لم أخسرهم كما خسرت اذينة . ومدت يدها الى زبدا فصافحته شاكرة ولم تنسَ ان تهز يد ابن حمدان وتبتسم له ابتسامة الرضى .. ثم جلست وجلسوا أمامها وقالت لهم :
والان . أين هو حطان فهل بقي في حمص ؟
فقال زباي : بل هو أمام القصر مع رفاقه الحمصيين ينتظرون الاذن في الدخول
فقالت : ادعهم يا ابن حمدان فهؤلاء قومك ، وكان حطان والحمصيون في الرواق المؤدي الى قاعة العرش ، فأومأ اليهم الحمداني بالدخول الى قاعة الجلوس فدخلوا يتقدمهم زعيمهم اليهودي .

فقالت زينب : أهلاً بنبلاء حمص وسادتها أعوان العرش التدمري . اعطهم يدك أيها الملك فهم شعبك المخلص لك ، فتدافع الحمصيون يلثمون اليد الصغيرة الممدودة برصانة وجلال ، ثم قالت الملكة : ان الملكة والملك لا ينسيان هذا الوفاء الذي اظهرتموه لهما بفضل هذا النبيل حطان .. أجلس يا حطان فتدمر ادينة لك .. فجلس وجلس الحمصيون وهم يهتفون للوالدة وللولد وحطان يقول ان الشعب كله مدين للملك الصغير الذي يخلف اذينة .

قالت : لقد تعبت في حفظ التاج على رأس أبيه كما تعبت في استرداد هذا التاج الذي مدّ الخونة اليه ايديهم وسلبوه أياه .. فاذا كان الولد سر أبيه فقد عرف ان يكافئ الخير بالخير .. والتفتت الى وهبلات قائلة : أتعرف أيها الملك ماذا فعل هؤلاء ؟

فأجابها قائلاً : نعم . انهم هاجموا ابن عمنا في قصره وقتلوه ليجلسوا ابن اذينة على العرش .

قالت : فاذكرهم اذن يا بني ولا تنسَ . ثم جعلت تحدثهم ويحدثونها عن أحوال حمص الى أن قالت لحطان   نجعل والي حمص وقائد الحامية فيها حمصيين فاختر لك اثنين من هؤلاء .

قال : انهم يختارون حاكمهم وقائدهم فهم يعرفون الاكفاء .. ثم قال : ليكن سيار قائد المدينة .

قالت : لقد جعلناه قائداً للرماة منذ الان . ان العرش بحاجة الى الفتيان المخلصين .. وكان سيار في القوم فاخذ يردد الفاظ الدعاء وهو لا يصدق انه أصبح من القواد في جيش الملك ، ثم قام شيخ حمصي فقال :

وليّ ايتها الملكة من تشائين فنحن اتباع الملك

قالت : لقد تركنا لكم الخيار في التعيين .. فاختاروا رجلين احدهما حمداني والآخر حنفي جعلتهما الملكة ولياً وقائداً للحامية واوصتهما بالطاعة .

ثم امرت فقضيت حاجات أهل حمص في الحكومة ولم يترك الحمصيون البلاط الا وقد غمرتهم بالنعم

* * *

ما نسيناك يا ابن حمدان فقد كنت ولم تزل من أصدق الناس .

فأجابها معن قائلاً : حسبي شرفاً اني اخطر ببال مولاتي الملكة .

الك : لقد خبرك اذينة فكنت وفياً له في حياته واذا انت أبر المخلصين لبنيه . فالملكة تعترف لك بالجميل وتعدك بان تزف كهيلة اليك عندما تخلع تدمر ثوب الحزن على الفقيدين .. هذه كهيلة كانت رفيقة الملكة في نكبتها . فصافحها وتعاهدا على الزواج .

انعقدت الدهشة لسان الفتى وصافح حبيبته والعيون تتحدث بلغة الحب ..

والملك مع القائدين الكبيرين وحطان ينظرون الى الحبيبين يبسط الغرام فوقهما جناحيه .

* * *

بة

الدولة بعد اذينة

حفيدة كليوبطرة — ادبها واخلاقها — عظمتها واطماعها — آراء المؤرخين فيها

عود على بدء

تربعت زينب في عرش المشرق . بالنيابة عن وهبلات في عام ٢٦٧ للمسيح ولقد اجمع المؤرخون على أنها كانت أجدر من جميع قياصرة الرومان . بان تسوس دولتهم الواسعة . وملكهم الكثير التي لا تغرب عنه الشمس .

حتى أن خصومها من هؤلاء المؤرخين . اثبتوا فيما كتبوه للاجيال التي تجيء بعدهم . ان ملكة تدمر يتيمة الدهر وأعجوبة الزمان كما مرّ . في عظمة النفس ونبالة الخلق . بل في جميع الصفات التي ترفع الناس الى العلاء . وفي الجمال الذي لم تقع عيون الناس في ذلك الجيل على أروع منه ،

كانت سمراء اللون الخلابة والسحر في عينيها السوداويين . وكل ما في وجهها فاتن يخطف الألباب .

وقد ضرب المثل بعفاف زينب . حتى انهم قالوا انها أعف النساء وأبعدهن عن كل مظهر من مظاهر الخفة والغرور والدلال ، كذلك قالوا . انه لم يقم في الشرق والغرب ملك له حزم زينب وحلمها وسياستها وجودها. وجرأتها واقدامها كما ان رجال ذلك الزمان ونساءه لم يستطيعوا ان يباروا الملكة الفتانة . في علم الادارة والاقتصاد الذي هو أحدى دعائم العرش ..

تبخل بالدرهم وتجود بالملايين !! هي في حلمها تبعث الهيبة الى الصدور تقتل الرجاء في قلوب المجرمين ، وليس لاطماع الملكة قياس أوحد . فنفسها الكبيرة لا يتسع لها الشرق . وشغفها بالمعالي اعظم من أن تصفه الاقلام

ولعل أغرب وأعجب هذه الاطماع ، انها كانت منذ استوت على العرش تفكر في الجلوس على عرش روما . والاستيلاء على املاك الدولة الرومانية المنتشرة في العالم كله !!

ان القيصر الروماني . كان في نظرها اضعف من أن تخفق اعلامه في فضاء اوسع من فضاء تدمر . وان يبسط نفوذه تحت سماء ليس لها تحتها نفوذ وسلطان

قد استولت هذه الفكرة على جميع مشاعر الملكة حتّى أنها اخذت تعد اولادها للجلوس على ذلك العرش العظيم . وتعلمهم لغة الرومان وآدابها كأبناء القيصر الذين يعدونهم للملك !!

وما هو شأن الملكة الشرقية اذا كانت سيدة الشرق ؟ انها تريد ان تسود العالم . ولا تتم لها هذه السيادة الا اذا ضربت القيصر ضربة لا يقوم له بعدها ذكر . والا اذا جعلت روما عاصمة لملكها تفد عليها وفود الشرق والغرب خاضعة لنفوذها الذي يملأ الأرض !!

أجل . كانت ترى ان الاستيلاء على عاصمة الرومان أمر لا بد منه ، تعد له عدة الفتح وعدة الدهاء وهي في كل ذلك حليفة القيصر .. اذا زحفت الى اقليم فلكي تستعيد له النفوذ فيه !!..

أي أنها لم تكن تحب ان تظهر الجفاء فطريق الجفاء صعب بل هو بحر من الدماء تغوص فيه قوى الدولتين . ولكنها تسلك سلوكاً سهلاً مرناً هو طريق السياسة واللين . حتّى اذا اكرهها القضاء على استخدام الشدة عمدت الى سيوف الرجال للحصول على الغرض الذي ترمي اليه ، فكرة ثابتة في اعماق نفسها لا تتزعزع . ولاعتقادها انها ستفوز بما رغبت فيه . أمرت صناع تدمر فاعدوا لها عربة من الفضة والذهب احاطوها باللؤلؤ والجواهر فجاءت تحفة في الفخامة والفن

أيستطيع القارئ ان يعلم اي غرض كان لزينب ؟!

إنها كانت تريد ان يركب اولادها هذه العربة . يوم دخولها عاصمة الرومان دخول الفاتح الظافر !!..

أجل . ان دولة تدمر التي هي أوسع من دولة الفرس . لم تكن لترضي تلك

الأطماع التي تملأ نفس الملكة . وذلك الطمع الذي يكتنفه الخطر من جميع وجوهه .. هو الذي هدم ذلك البناء الشامخ الذي وضعه اذينة . وحط تدمر من سماء مجدها الى حضيض الذل

ان القيصر كان ابعد نفوذاً وأطول سيفاً من زينب . وروما اضخم جاهاً وعزاً واكثر مالاً من تدمر . وجيش الرومان اكثر عدداً من جيش الفرس والجيش المصري مجتمعين .. والبر والبحر في قبضة القيصر ومراكبه تغطي سطح الماء .. ومع ذلك فزينب الأرملة .. زينب المقيمة على كتف الصحراء مع خليط من العرب والأرمن واليهود . تريد ان تخضع لقوتها تلك القوى الجبارة وتلبس تاج القياصرة الذين اخضعوا الأرض .

وزينب تعلم كل هذا . وهي لم تستخف قط بما تراه وتعرفه عن عظمة الرومان . ولكن عظمتها الخالدة كانت تملي عليها الثقة بنفسها المرتفعة الطامحة وتوحي اليها أنها فوق الضعف البشري على اطلاقه ..

لأجل ذلك لم تكن تعرف الخوف اذا هي اقدمت على أمر . بل لم تكن تتردد في الأقدام على ذلك الأمر بعد ان تهيئ له اسبابه

وأعظم شأن من شؤون تلك المرأة العجيبة انها كانت تستلذ خوض المعارك . معارك الحرب التي يسود فيها السيف . ومعارك الأدب التي يسود فيها الفكر . وينتهي بها الأمر الى الظفر بكل شيء

* * *

زباي قائد الفرسان وناظر التجارة كما عرفت . هو من آل السميدع . وبنو السميدع اشرف عيال تدمر وأكرمها نسباً . وقد مرّ ذكر هذا في الجزء الاول

ولكن زينب . التي لا ترضى بشيء من مظاهر الحياة العامة . لم تكن لترضى بهذا النسب الخامل !! الذي هو في نظرها نسب عادي ليس في عروق المنتمين اليه الدم الازرق . الذي هو دم الأمراء والملوك !!!!

أجل . كانت تخجل في باطنها ان تكون بنت قائد الفرسان او ناظر التجارة في تدمر . وكانت تحاول في شتى الوسائل والصور . ان تخفي ذلك النسب الوضيع وراء ستار من الادعاء !!!!

وقد كان طبيعياً ان تدعي زينب الملكة . ان الدم الجاري في عروقها ليس دماً أحمر . بل كان طبيعياً ان تنتمي الى الآلهة !!! فالشرق الذي كان منبتاً للوحي

والالهام كان في الوقت نفسه منبتاً للخيال والأوهام . وكان شائعاً بين ملوك ذلك الزمان ان أحدهم اذا خجل من نسبه استنزل له نسباً جديداً من السماء

يقول بعض المستشرقين الفرنج : ان سكوت بعض المؤرخين « من اليونان والرومان » عن صحة نسب زينب هو ملق . وليس غريباً ان يتملقوا الملكة العظيمة التي عاصروها ، بالسكوت عن أصلها والانصراف الى تخليد ذكرها في بطون التواريخ

وبما ان والدة زينب مصرية « من الاسكندرية » استرسلت الملكة في الادعاء فقالت أنها حفيدة كليوبطرة ملكة مصر

نعم . وقد اثبت هذا المؤرخ تريبيليوس بوليو الذي كتب حياة زينب بوضوح وجلاء .

ومعنى هذا كله . ان نوابغ الناس أصحاب النفوس الكبيرة .. النوابغ الذين ملأوا الأجيال عبقرية وعظمة . يستهويهم المجد الى حد أن يوجدوا شيئاً لا وجود له وذلك هو الضعف البشري ..

* *

كانت أقاليم الدولة التدمرية ستة . هي التي اخضعها اذينة لسلطانه بقوته وبفضل سكوت الرومان .. ثلاثة اقاليم كبيرة في سوريا . وأقليم جزيرة العرب . واقليم كيليكية . واقليم آخر يضم جزءاً كبيراً من آسية الصغرى ، في الداخل

فلم يمر شهر واحد على جلوس زينب على العرش . حتى عرفت جميع هذه الأقاليم ان معني بن خيران قتل في حمص . وان وهبلات بن اذينة لبس تاج الشرق بوصاية امه التي هي كل شيءً .. فاستقبل الناس ذلك الخبر مستبشرين . عند اعتقادهم انه ليس في تدمر ، بل ليس في الأقاليم الواسعة من هو أهل لان يخلف اذينة غير زوجته العظيمة . لما كانوا يسمعون عن صفاتها التي تفضل صفات الرجال . حتى ان نائب القيصر نفسه اظهر رضاه لمن حوله من الرجال عن الحادث الذي حدث في حمص وانتهى بقتل الملك . وبادر الى الاعتراف بوهبلات قبل أن يستأذن القيصر . في حين انه لم يشأ ان يعترف بمعني قبل ان يأمره بذلك مولاه. ثم كتب الى غاليانوس يقول : وتقوم الى جانب وهبلات الصغير أمه التي هي اعظم نساء الشرق ..

هكذا كانت زينب تملأ نفوس القوم واذهانهم . قبل ان تظهر للعالم بذلك

المظهر العجيب الذي فتنه وحمله على الاحترام والأعجاب . وزينب بدورها كتبت الى القيصر ان ولدها أصبح ملكاً بعد أبيه وأن مجلس الشيوخ جعلها وصياً .

لم تكن تخاف الامبراطور وسلطانه . فلو كانت تخافه لما اعتزمت ان تسلبه عرشه وتاجه .. ولكنها نهجت في ذلك سبيل الملوك . وأرادت ان تظهر للقيصر انها كفوء له في المقام .. وقد وضح دهاء زينب وطول باعها في السياسة . انها أوفدت الى سابور رسلاً يحملون اليه خبر تتويج وهبلات

أجل . انها لم تحفل بذلك العداء المستحكم بين الدولتين . ولم تذكر ان الفرس يضمرون لأذينة الفاتح حقداً وبغضاً . بل ذكرت انها أصبحت صاحبة عرش . وعلى أصحاب العروش ان يحترموا التقاليد ..

ولعل لها غرضاً آخر لم تشأ ان تبوح به لرجال الدولة . هو أنها كانت ترغب في عقد صلح مع سابور . يقوم هذا الصلح على معاهدة طويلة العمر . تذكر فيها مصالح الدولتين بجلاء .. هذا معناه انها رضيت باقاليم الشرق الستة التي تركها لها اذينة وانصرفت بكل قواها الى التفكير في روما والتوسع في الفتح وراء البحار وهي اذا سعرّت نار حرب جديدة مع الفرس لا تستطيع ان تتوغل في بلاد القيصر وقد تموت في صدرها تلك الاطماع ..!

ولكن الملكة التي تملأ نفسها الكبرياء . لا تكون البادئة بطلب الصلح ! ان العاجز وحده هو الذي يسأل عدوه الظافر ان يغمد السيف .. غير ان الأمر تمّ لها كما أرادت . فان سابور الجبار الذي لم تتعبه معارك الظفر . كان يفكر في ذلك الصلح عندما مثل رسولا الملكة بين يديه .. وقدجمع رجال مشورته في تلك الليلة وشاورهم في الأمر فكانوا من رأيه . فدعا اليه الرسولين . وهما من اشراف تدمر وقال لهما : ان الفرس يريدون ان يصالحوا أهل تدمر . فهل توافقنا الملكة في هذا ؟

فقالا : ليوفد الملك أحد خاصته فجلالتها تكره الحرب ..

قال : هل تضمنان رضاها ؟

فكاد الاثنان يضحكان من هذا السؤال . ثم قال احدهما : من يستطيع يا مولانا ان يقرأ نفس الملكة وأسرارها ولكن نخاطب زبدا وزباي في الأمر فالرأي الاول في الدولة لهذين القائدين قال : ومجلس الشيوخ ؟

قال : ان الدولة كلها تنحني أمام كل كلمة تخرج من فم زينب . فاذا أرادت

الصلح أرادته تدمر وإدا رفضت ردد المجلس والقواد ذلك الرفض لا يسألونها لماذا

فلم يشأ الملك الا أن يبقى ملكاً في نظر القوم فقال : أما نحن فنرغب في الصلح وسنرسل أحد المرازبة يحمل الى الملكة ارادة الملك في هذا . فاذا رغبت فيما نرغب فيه فقد حقنت دماء الجنود وانصرفت جهودنا نحن الاثنين الى استثمار السلام الذي ننشر لواءه فوق ربوع الشرق . والا فالسيف الذي شهرناه في وجه اذينة نشهره في وجه ارملته . والجيش الذي خاض بقيادتنا ميادين النصر لا يزال حاملاً عدة حربه وهو يتبع مولاه الى الموت في ساحات الشرف ولا يبالي . فانقلا تحية سابور الى الملكة ولتفعل ما تشاء .

وعمد الملك الى الصراحة فاستدعى أحد خاصته وقال له أمام الرجلين : سترافق هذين الرسولين الى تدمر لتضع باسمنا مع الملكة شروط صلح يضمن الراحة للشعوب التي تعيش في ظل العلم الفارسي والعلم التدمري . فاذا آنست رغبةً في ذلك فامضِ في عملك وانظر بدهاء فيما تصنع . والا فارجع فسيف الفرس لا يرجع الى غمده الا وقد تخضب بدماء الأعداء

ولم يزد على قوله كلمة بل اومأ الى المرزبان ليتهيأ للسفر مع غلامين من غلمان البلاط يقومان على خدمته في ذلك السفر الشاق .

* * *

وصل القوم الى تدمر في ليلة من ليالي الربيع الضاحك في الصحراء ، ولم يستطع الرسولان ان يقابلا الملكة . الا في صباح اليوم الثاني وقد جلست للناس .. فلما اقبلا خبراها ما رأياه وذكرا لها أن مرزبان سابور ينتظر الاذن في الدخول .. فأشرق جبينها لهذا الخبر وقام في ذهنها ان الأقدار تساعدها في نيل ما تتوق اليه من الرفعة والعز .. كانت تهتم لأمر الصلح ولا تريد ان تبدأ به . فاذا بسابور يسألها أياه ويوفد اليها أحد عظماء بلاطه للنظر فيه .. وهي على كرسي مجدها لم تنزل عن كبريائها التي هي صورة لكبرياء الآلهة ..

ثم قالت : لينصرف الغلمان الى خدمة المرزبان ريثما نأذن له .. وماذا رأيتما في بلاط الفرس ؟

فقال أحدهما : كل ما في بلاطهم يحمل على الأعجاب

قالت : متى دخلتما على الملك ؟

قال : مكثنا في المدائن يومين كاملين لا يأمرنا الملك بالدخول ولا يسألنا أحد

هما نريد . حتّى كان اليوم الثالث فاذن لنا ..

فابتسمت قائلة : يا غلام . قل للمرزبان رسول سابور ان ينتظر ثلاثة أيام ثم قالت لخاصتها : لعل سابور يعلم اننا نحترم أنفسنا قبل ان نحترم رسوله .. فلاحت على شفتي حطان ابتسامة الرضى بما رآه وتهامس القواد قائلين : ان الملوك في نظرها أصغر من فراشة السراج . ثم قالت : صف لنا مجلس الملك منذ دخولكما اليه حتى خروجكما منه .

قال : اربعون جندياً يقومون على حراسة الباب الكبير بايديهم الحراب .

قالت : في النهار والليل ؟

قال : نعم والذين يتناوبون على الحراسة يجاوز عددهم المائتين

ــ : ثم ماذا ؟

قال : وفي الدهليز اربعون مثلهم ولكنهم سود الوجوه ..

قالت : لقد اكثر صاحبنا من الحرس على بابه

قال : وفي البهو يا مولاتي عشرون رجلاً يشهرون السيوف وهكذا من خارج القصر حتّى باب المجلس لا يمرّ المرء إلا بين صفوف الحراس

فقالت لمعن : أهذا ما رأيته يوم أوفدك اذينة الى بلاد الفرس ؟

قال : ما دخلت على الملك في قصره يا مولاتي . بل دخلت عليه وهو في خيمته في المعسكر . ولكني رأيت حراساً وحجاباً كثيرين لم أجد ما يدعوني الى عدهم ..

قالت : صدقت فقد كان سابور على ضفة الفرات في ذلك الحين .. ثم قالت للتدمري : وكان سابور على عرشه يحف به وجوه دولته ووفود الناس ..

قال : لم نرَ في المجلس وفوداً بل رأينا طائفة كبيرة من الغلمان والخصيان وقبل ان نخطو خطوة واحدة الى الداخل امرنا رئيس الحجاب بان نخر ساجدين أمام الملك وهكذا فعلنا ..

فبانت على جبينها دلائل العز قائلة : يجب أن يسجد الناس لملوكهم لان هؤلاء الملوك ذرية الآلهة !..

أجل . ان زينب لم تسأل رسوليها عبثاً ولكنها كانت تحب ان تحذو حذو ملوك الفرس في بلاطهم . وهي تعلم ان جلد ذلك البلاط تشتمل على المجد الشرقي الخلاب والعظمة الخالدة

وقد اكتفت بما سمعته من الرسولين . فقالت لقوادها :

أتؤثرون السلم على الحرب أم ماذا ؟

فاجابها زبدا قائلاً : نؤثر نفوذ الملكة على كل شيء .. فاذا رأيت يا مولاي ان نزور المدائن من جديد لنبسط هذا النفوذ فوق اقاليم الفرس . فقد زرناها فيما مضى ثلاث مرات رجعنا بعدها نجر ذيول النصر والفخار .. لولا خصوم القيصر وخروج اولئك الأوباش على صاحب هذا العرش لكان حاكم المدائن اليوم رجلاً من رجال الملكة ولأمسى سابور في اطراف بلاده يجمع فلول جيشه ويفكر في استرجاع عاصمته الزاهرة التي هي سيدة العواصم بعد روما

قالت : وما هو رأي قائد الفرسان في هذا ؟

فقال زباي : اني وإن كنت والد الملكة فما خرجت عن كوني جندياً يعرف قبل كل شيء ان يطيع قائده . اذا أرادت الملكة الحرب فنحن رجالها واذا رأت أن تصالح اعداءها فليس أحب الينا من صلح تحقن فيه الدماء ..

ولم يكن زبدا وزباي يتملقان زينب في ذلك القول . بل كانا يعتقدان أن رأيها أصدق الآراء وهي أبعد نظراً من شيوخ هذبتهم التجارب .. نعم ان القائدين العظيمين كانا رجلي الرأي كما هما رجلا السيف . لكن القوة والدهاء الغريبين اللذين يوجدهما دماغ زينب . لا تستطيع ادمغة الرجال الجبارة ان تخلق مثلهما اذا ادلهمت الخطوب واكفهر وجه الزمان

وهذان القائدان كانا يعترفان انهما اضعف من أن يجاريا الملكة في مجال السياسة وقوة التصور وبعد النظر

وكان حطان ساكتاً وقد قرأ على جبين الأرملة الحسناء . دلائل الرغبة في السلام ، لكنه لم يشأ ان يبدي في القضية رأياً قبل ان تسأله ، وكان جواب معن بن حمدان . كجواب القائدين الكبيرين فيما يعني الحرب والسلم

فرأت عندئذ ان تستشير اليهودي فقالت : وأنت يا حطان ما رأيك فيما سمعت

فقال : ان لحطان رأياً لا يوافقه فيه رجال الحرب ...

قالت : ولكن نريد أن نسمعه ..

قال : اذا أرادت الملكة الحياة لهذه الدولة التي جلست على عرشها فلتترك السيف

فابتسمت قائلة : ليس للدول حياة الا بهذا السيف الذي تريد ان نتركه .

فقال دون ان يتردد : الا من يسود البلاد يا مولاتي . وغزاة الشرق يحترمون

ملكة تدمر . فعلى هذه الملكة ان تحتفظ بسيفها للأيام السود التي تكره فيها على الدفاع ..

قالت : اذن فأنت تنصح لنا بأن نعيش عيش الترف والراحة بل عيش الخمول داخل القصور

- : بل غير ذلك أردت أيتها الملكة ..

- : لعلك أردت ان نرضى بما تركه زوجنا من أقاليم لا نزيد شبراً واحداً على ما ورثناه ..

فسكت الرجل ملياً ثم قال : أرى مولاتي الملكة تعمد الى التوسع في البحث

قالت : نفعل ذلك لنفهم هذه الألغاز التي سمعنا

فقال في نفسه : ان الملكة تريد أن تختبر حطان

ثم قال : اتريدين يا مولاتي ان يكون الحديث اكثر وضوحاً ؟

- : نعم فالملكة تريد الصراحة في كل شيء ..

فالتفت الى رجال المجلس كأنه لا يريد ان يبوح بما في صدره أمام هؤلاء

فعرفت زينب معنى نظرته فقالت : لك أن تقول ما تشاء فليس في مجلسنا من تحدثه النفس بخيانة الملكة ..

فارسل الرجل نظره الى سقف القاعة كما تعود ان يفعل ثم قال : لقد قرأت على جبين الملكة أسراراً ..

قالت : أمرناك بان تبوح بهذه الأسرار ..

قال : رأيت الملكة تميل الى السلم لتكون الهة الحرب ..

قالت : أتعود الى الألغاز ؟..

- : بل هذا هو الجلاء يا مولاتي ..

قالت : السلم والحرب نقيضان وقد اجتمعنا فيما قرأت .. !

قال : تلك هي أفكار الملكة طبعت على الجبين .. ثم قال : ورأيت يدي الملكة ممدودتين هذه نحو الشرق والأخرى نحو الغرب ..

فقاطعته قائلة : كما رأينا في عيني حطان بريق الجنون ..

فلم يبالِ بما سمع ولم ينظر الى أحد بل استطرد قائلاً : يد تحمل غصن زيتون كحمامة جدنا نوح .. ويدٌ تحمل سيفاً يقطر منه الدم ..

قالت : وهذه دلائل جنونك يا حطان ..

قال : انظري يا مولاتي .. هذا هو سابور ملك الفرس .. وهذا هو القيصر امبراطور الرومان وقد وقفت الملكة بين الاثنين ..

فظهر الاهتمام على وجه الملكة وقالت بجد : وماذا تصنع الملكة بينهما ؟..

ـ : وقفت لتعطي أحدهما غصن الزيتون وتشهر السيف في وجه الآخر .

فحبست زينب والقواد انفاسهم ليسمعوا نبوءة الاسرائيلي

أما هو فوضع احدى يديه على جبينه وأخذ يقرأ : لقد انتقل غصن الزيتون الى يد سابور .. ان الملكة ستصافح الفرس لتسحق القيصر وتجلس على عرشه ..! انظري يا مولاتي . ان الأرض في تدمر مصبوغة بالدماء .. وأنا أرى من أعالي الأسوار هوة بعيدة الغور تنحدر اليها جثث الأبرياء .. ثم قال : أجل ان الملكة تميل الى السلم لتصير الهة الحرب . اي أنها تصافح الفارسي لتبذل جهودها في سبيل القضاء على سيد الرومان

فاضطربت شفتا الملكة وقالت : لقد اخطأ من يقول انك مجنون يا حطان .. أذكر ما قرأت بعد ذلك ..

ـ : لا أستطيع ان اقرأ شيئاً بعد يا مولاتي لان سحابة سوداء تحجب السطور المكتوبة في فضاء القاعة عن عيني ..

قالت : اقرأ ..

ـ : اتحسبين حطان يا مولاتي إلهاً يعلم كل شيء ؟ ان السطور التي حجبتها السحابة لا يستطيع ان يقرأها غير الآلهة ..!

قالت : أيسقط القيصر عن عرشه أم ماذا ؟

قال : لقد اختفت الملكة وهذا القيصر وراء السحب لا يبين لها أثر .. ورفع يده عن جبينه وأخذ يتفرس في القوم ..

فقالت زينب : لنتحدث الان بجلاء .. أيها القواد ان القول الذي سمعتموه من حطان قول صحيح هو صورة عن فكر الملكة . فنحن نحب ان نصالح الفرس لنحطم نفوذ الرومان .. وسكتت تتبين تأثير دلك القول في النفوس

فقال زباي : لقد كان الرومان ايتها الملكة حلفاء اذينة وأعواناً له !

قالت : كما هم حلفاؤنا اليوم .. غير ان السياسة تمحو المحالفات وتهدم ما بناه الأولون .. قال : أتظهرين لهم العداء ؟!

ـ : بل نظهر لهم الود كما فعل اذينة حتى اذا طابت لنا الحرب حملنا سيوفنا

وملأنا البر زاحفين الى روما

قال : ان القضاء على دولة الفرس أهون من القضاء على دولة الرومان

فأجابته قائلة : لكن تاج القيصر أشد لمعاناً من تاج سابور وعرش الرومان أرفع شأناً من عرش الفرس ..! هؤلاء يبسطون نفوذهم في بعض بقاع الشرق . وأولئك يمدون رواق ملكهم فوق أقطار العالم . وزينب الملكة تطمع بان تصير سيدة العالم كله لا سيدة الشرق وحده ..!

وأطلت الكبرياء من عينيها اللامعتين

فقام حطان فقال : أما الطريق فصعب المسلك تحدق به الأخطار ..

فقاطعته قائلة : ما لبسنا تاج زوجنا الملك لنكون جبناء .. ان المجد لا ينال بالاستلقاء على وسائد الخز بل بخوض الميادين التي تسفح فيها الدماء .. أقرأت شيئاً جديداً في القضاء ؟..

قال زبدا : انه يقرأ الان في كتاب السياسة لا في كتاب الكهانة

قالت : انه سيد الكهان والسياسيين ولكنه يخاف ..

فابتسم الرجل بمرارة وقال : ان حطان يريد ان تصعد الملكة في سلم المجد حتى تبلغ القمة وهو لا يخاف شيئاً الا ...

ـ : قل ماذا تخاف ؟

ـ : أخاف تلك الصدمة الهائلة التي يقال لها الفشل ..

* * *

في ذلك اليوم عرف القواد أن مولاتهم تريد أن تساوي نفسها بالالهة في مراتب المجد .. وان حفيدة كليوبطرة لا ترجع عما فكرت فيه ولو تصدى لها شبح الموت وفي صدورهم قلوب كبيرة لا تعرف التردد ولا تتراجع الى الوراء .. وهم الذين مشوا مع اذينة الى العلياء وقد كان مثل زوجته لا يحب الرومان ولا يحفظ في داخله لهم عهداً .

وهو نفسه أراد ان يضع يده بيد سابور لينصرف هادئ البال الى تحطيم قوى روما ولو رضي سابور في ذلك الحين بان يحالف سيد تدمر . لما حالف اذينة القيصر . بل لما خطر بباله ان يخطب ود الرومان الذين تخفق بنودهم في سماء بلاده

ولكن .. ولكن هي السياسة بل هي المصلحة لا عهد لها ولا دين .. ان كبرياء

سابور . تلك الكبرياء التي ندم عليها بعد حين هي التي حفظت نفوذ الرومان في الشرق وقسمت اهواء الشرقيين ..

ولو اتحد الملكان . لوقفت روما في عرض البحر لا تجرؤ على أن تخطو خطوة واحدة في هذا البر الفسيح

اذن فقد استوت افكار زينب وافكار زوجها فيما يعني مخالفة الفرس لكن الاثنين لم يستويا في ما يعني الطموح الكامن في نفسيهما . الزوج يفكر في توحيد جهود الشرقيين ليطرد الفاتحين ثم يستولي على الشرق كله . والزوجة تريد اسكات سابور لا لطرد الفاتحين فحسب بل لتجلس على عرشهم كما قرأت

اذن فقواد تدمر في الحالتين جنود ملك يطمح بصره الى المعالي . ليس في طموح زينب ما يستوجب استغرابهم . اللهمّ الا تلك الناحية الخطرة ناحية العرش الروماني الذي ترغب في الاستيلاء عليه .. وكانوا في تلك الساعة ينظرون الى الملكة نظرات الأعجاب وهم يفكرون فقالت لهم : أتضعون ايديكم بأيدي الفرس ولا تخافون الفشل الذي يخافه حطان ؟

فأجابها زبدا قائلاً : حيثما تضع الملكة يدها نضع نحن هذه القلوب

قالت : وتحاربون الرومان الذين ملأوا الأرض نفوذاً وهيبة ؟

قال : بل نحارب الجن اذا كان في حربها ما يشرّف تدمر ويرفع شأن الملكة .

قالت : ان الملكة لفخورة بكم أيها السادة . وبقوة هذه السيوف التي تذودون بها عن العرش تستطيع ان تخضع روما وتسود العالم .. فانظروا الان في أمر هذا الفارسي الذي أوفده سابور ..

فقال حطان : وأي شأن لنا مع هذا ؟

قالت : ابحثوا بالاشتراك معه قضية الصلح قبل أن نقابله .

ففهم الرجل مغزى ذلك الجواب فقال : اي ان الملكة أرفع من أن تباحث رسولاً ..

قالت : أصبت فنحن في مثل هذه الشؤون لا نباحث الا الملوك .. لقد فوض سابور أمر الصلح إلى أحد خاصته ونحن نفوّضه الى خاصتنا حتى اذا انتهى الأمر بين الفريقين وافقناكم فيه

فقال زباي : ليست المعاهدة بين حليفين بل بين عدوين تصالحا ..

قالت : أجل بين عدوين يسأل الواحد منهما الآخر ان يكف عن القتال

قال : أي ان الاثنين يتعاهدان على حفظ السلام بين الامتين الا اذا اعتدى أحدهما على الآخر

— : اذن فليس هنالك شروط تستوجب البحث ..

قالت : لا ولكن لا نأذن لهذا الفارسي في الدخول قبل ان يتم كل شيء

ثم قالت : انزلوا الفارسي في أحد القصور واكرموا وفادته وعلى الملكة ان ننظر في غير ذلك من الشؤون ..

* * *

عهد القواد الى حطان في أمر المرزبان

فوضع الاثنان شروط صلح ثابت الدعائم وراحا بعد ثلاثة أيام يطلعان الملكة على ما وضعاه ..

فلما استأذن الحاجب للمرزبان قالت زينب لقائد الحرس : قل لصاحبنا الفارسي ان يجثو على ركبتيه أمام عرشنا كما يجثو أمام عرش مولاه

ومنذ تلك الساعة بدأ الناس عامتهم ونبلاؤهم يسجدون للملكة كلما مثلوا بين يديها . في قاعة العرش ..

فخرج ابن حمدان وقال للرجل : أتعرف عادة الملكة في استقبال الأمراء ؟

قال : لا ..

قال : يجري في بلاط تدمر ما يجري في بلاط الفرس فاذا أصبحت بالقرب من العرش فاسجد كما تسجد لسابور .. قال : نعم .

قال : واذا أمرتك بالجلوس فأجلس ساكتاً ولا تبدأ بكلام الا إذا كان جواباً

فملأت هيبة زينب نفس الفارسي وهو لا يعرفها ولم يرَ لها وجهاً من قبل ثم قال معن : واحذر ان تبدر منك بادرة فالملكة في مجلسها لا تعرف الرحمة والغفران .. فقال : أتعرف الملكة لغة الفرس ؟

قال : بل تعرف جميع لغات العالم ولكنها لا تخاطب زائرها الا بواسطة الترجمان

قال : تلك عادة مولانا الملك مع وفوده ..

وحطان يضحك في سره ويقرأ على وجه المرزبان دلائل الخوف .. وقد رأى ان يمد أصبعه في الأمر . فقال : أليس سابور هو الذي يسأل الملكة الصلح ؟

قال : بلى . — : يظهر اذن انه يخاف

— : ممن ؟

— : من زينب الملكة ، أن تمشي في طليعة الجنود وتزحف الى عاصمته ..

فأراد الفارسي ان يثبت وجوده فقال : ما سمعت قط ان سابور يخاف أحداً من الناس ..

فابتسم حطان ابتسامة الاستخفاف قائلاً : أجل . ولكن زينب ليست من الناس بل من الآلهة . ولو لم يكن خائفاً لما بادر الى الاعتراف بها وإرسال رجل عظيم من رجال بلاطه يطلب اليها ان تصالحه ..

فقال المرزبان في نفسه : لقد صدق الرجل والا فما هو معنى قدومي من المدائن الى تدمر ..

واستطرد حطان قائلاً : وأنا اخشى ان يفاجئك الخوف عندما يقع نظرك على الملكة العجيبة الجالسة على العرش والتي تخيف الأسود ..

وهكذا ملأ حطان وابن حمدان قلب الفارسي ذعراً قبل ان يقابل زينب . وقام في ذهنه ان صاحبة تدمر التي ما رأت العيون أجمل منها في ذلك الزمان ، أجل قام في ذهنه أنها صورة القبح وان وجهها وجه غول يبعث الرعب ! وأنما أراد الاثنان ان يخوفاه . لينقل الى مولاه هيبة المرأة التي تهلع لها قلوب الرجال ..

ودخل مضطرباً وركبتاه ترتجفان .. لكنه لم يرَ الملكة وعظماء دولتها الذين يحفون حول العرش .. لانه كان يمشي مطرقاً لا يجسر ان يرفع نظره الى العرش ويلتفت الى الجانبين .. حتى قارب الاسدين الرخاميين . الرابضين على قدمي العرش . فسجد ثم انحنى حتى لامست جبهته الأرض .. فسمع صوتاً يشبه صوت الرجال يقول له : انهض أيها الفارسي . فنهض ورفع عينيه ثم ارخاهما مسحوراً بذلك الجمال وذلك الجلال .. فأومأت اليه تأمره بالجلوس ثم قالت :

ليس في بلاطنا من الحراس ما في بلاط مولاك اي ان الملكة لا تستمد هيبتها من رؤوس الحراب ..

وكانت لهجتها ناعمة عذبة وحطان يترجم الكلام ..

فتمتم المرزبان قائلاً : لكل ملك رأي في هذا ..

قالت : أحسنت وملوك فارس أهل بذخٍ في مظاهر العظمة يجرون اذيال العز .. كيف هو مولاك سابور أصحيح انه لم يتردد في الاعتراف بولدنا الملك ؟

قال : نعم ان ما نقله اليك الرسولان عن مولانا سابور هو صحيح !

وتكلف الشجاعة فأخذ يحدق الى الملكة وقد استولت عليه الدهشة والاستغراب رأى وجهاً يطفح نوراً وجمالاً وهيبة . وعينين حدقتاهما كحدقتي النسر تبعثان السحر . والوقار يبسط ظله حول العرش وفي جوانب القاعة العظيمة التي هي الحلم قاعات القصر .. وأستعاد عندئذ قول حطان وابن حمدان فلم يجد في ذلك القول غلواً وكذباً فان هيبة الملكة كانت افعل في النفس من هيبة الأسد .. وضحك من نفسه عندما تذكر تصوره ان زينب قبيحة الوجه ..

وفيما هو غائص في لجة تفكيره وذهوله قالت زينب : الا يذكر مولاك ذلك اليوم الذي استقبل فيه وفد اذينة وقذف بهداياه الى الفرات ؟.. انه جنى في ذلك اليوم على نفسه وعلى الشرق ..

قال : لا أعلم اذا كان يذكر هذا ولكني رأيته يظهر اعجابه بجلالة الملكة التي خلفت زوجها على عرش تدمر ويأمرني بالمثول بين يديها اسألها باسمه ان ترضى بالصلح ..

قال : نعم غير ان هذا الوصي هو الدولة في نظر مولانا الملك

قالت : ان وهبلات هو الذي خلف أباه وأمه هي الوصي ..

— : أتعلم في أي شيء نفكر الان أيها الفارسي ؟

— : من يستطيع ان يعلم فكر الملكة ..

قالت : نهم بان نطرد رسول سابور طرداً قبيحاً يشبه طرده رسل اذينة يوم مثلوا بين يديه . ونرفض ما يقترحه علينا من أمر الصلح .. افلا تعترف أيها المرزبان بأن العدل يقضي بذلك ؟

فتردد المسكين في الجواب ..

أما هي فلم تعبأ بتردده فقالت : لقد استخف مولاك باذينة فرد رسله ولم يهتم باقتراحه . فلما هاجمت جنودنا بلاده ورأى بعينيه قتال اذينة وصبره في المعارك الحمر تكشف له الخطأ في الاستخفاف وراح يصلح مع الزوجة بعد موت رجلها ما افسده في حياته ..

قال : ان الملوك أرفع من ان يضمروا حقداً ايتها الملكة

قالت : لو رأى الحقد سبيلاً الى هذا القلب لأرجعناك وقد أهين مولاك . اننا اعظم من أن نرد رسول ملك او نستهين برأي صالح تستثمره الأمة التي جعلتنا الآلهة أرباباً لها وملوكاً .. فبماذا أوصاك مولاك وعلى أي شيء يريد ان

يبني صلحه ؟

قال : لقد وضعنا شروط الصلح أيتها الملكة

قالت : عرفنا هذا ولكن نحب ان نعرف ايضاً ماذا قال لك سابور

ــ : أوصاني باحترام رأي الملكة في أمر الصلح

ــ : اقرأ يا حطان ماكتب ..

فقرأ الرجل تلك السطور القليلة التي كتبها بالاشتراك مع المرزبان .

فارتسمت دلائل الرضى على جبينها وقالت : أفوض اليك مولاك أيها الفارسي ان توقع ما تكتب

قال : نعم يا مولاتي وارادة الملك مكتوبة وهي مع هذا الرجل ، وأشار الى حطان ..

فقالت عندئذ لزبدا : وقع هذه الشروط باسم الملكة الوصي

فقال القواد في أنفسهم: لقدكان اذينة يستشير المجلس في مثل هذه الشؤون ..

ولعلها فهمت ما يفكرون فيه فقالت لأبيها : خبر الشيوخ بما فعلنا وليأخذوا صورة عن هذه الشروط .. أما أنت أيها الفارسي فلك ان ترجع الى مولاك ساعة تشاء .. ومعنى هذا أنها لا تأذن في مقابلته مرة ثانية ..

اما تلك المعاهدة فقد اكتفى المؤرخون بذكرها ولم يوردوا الفاظها وقبل ان يخرج الرسول قالت له : قل لمولاك ان ينسى الماضي كما نسيناه ..

فأجابها قائلاً : لو ذكر مولاي ماضيه لما قدمت هذه البلاد .. وسجد كما سجد عند دخوله ثم خرج وهو يتنفس الصعداء

ان هيبة الملكة ووقار مجلسها اثرا في نفسه اكثر مما اثر فيها ذلك الجمال الخلاب

* * *

٢٠

عندما ورد جواب غاليانوس الامبراطور معترفاً بوهبلات . كانت شهرة زينب قد ملأت آسية . وأخبار أدبها وجمالها وعظمة نفسها تتناقلها افواه القوم .. وهي في عاصمتها وفي نظر شعبها نصف إله . النبلاء والقواد والعامة يحلفون باسم زينب .. ولم يكن في جميع مظاهرها مظهر واحد ينم على ضعف المرأة .

بل كانت حياتها حياة رجل رابط الجأش نبيل القصد . بل حياة قائد له دراية القيادة ودهاء يبلغ بجيشه أعلى مراتب العز والفخار ، حتى ان رجالها أبطال التاريخ كانوا اضعف من أن يصبروا صبر الملكة على متاعب الدولة وادارة الشؤون واضعف من أن يحتملوا ما تحتمله من شدة وعناء .

امرأة جبارة مشغوفة بالمعالي لا تهدأ ولا تستريح .. كأن جسمها الغض قطعة من الفولاذ .. وكل شيء يكتنف زينب هو مدهش . بلاطها وحراسها . تاجها وزينتها . جوادها وعجلتها . كل ذلك يخلب الالباب .. وقد تعودت ان ترافق اذينة في بعض حروبه ورحلات صيده . فلما قتل وتربعت في عرشه، لم تستسلم الى الخمول واللذة السائدين في قصور امراء الشرق . بل كانت تمعن في طلب الأسد والنمر تصيدهما في الغابات والأودية لا يصحبها غير حاجبها ونفر قلائل من الحراس !. وإذا أرادت السفر ركبت فرسها الأبيض الذي لا يلحق . لو نطقت ميادين تدمر لشهدت ان ذلك الفرس لم يجئ في ساعات السباق الا في أول الخيل !. ولم تكن تركب الهوادج . كما تفعل نساء العرب . الا قليلاً . واذا اضطرت اجتازت أمام جيشها مراحل واسعة مشياً على القدمين ..

كثيراً ما كان الملوك في تلك العصور يشربون الخمر مع الخاصة والندماء والامراء . أما زينب فاذا أمرت لاضيافها بالشراب . احيت معهم الليل لا تنزل عن رصانتها ولا تشرب . فكانت في ذلك بعيدة عن كل ما يمس وقار التاج ، وإذا دعت شيوخ تدمر وقوادها وأعيانها لدرس شؤون الدولة . أخذت بيدها ولدها وهبلات القيصر الصغير . وهي لابسة ملابس الجلالة . الكساء الارجواني على كتفيها وعلى رأسها التاج الذهبي .

وقد حذت حذو ملوك الفرس في بلاطهم . فجعلت في القصر طائفة كبيرة من الخصيان عهدت اليهم في ادارة أموره . واذا مشت في الرواق الأعظم أو خرجت من البلاط مشت خلفها طائفة اكثر عدداً من نساء الشرق بنات النبلاء تتقدمهن جميعاً كهيلة ابنة زبدا .

وزينب بين جنودها . رجل حرب لا سيدة قصر .. حتى ان الغريب عن تدمر إذا رأى زينب على جوادها حسبها رجلاً ، ولا يخطر بباله قط أنها بنت زباي

أنظر فاذا رأيت في ميدان تدمر ، قائداً على جواده يتلاطم سيفه وركابه على رأسه خوذة الحرب وعلى صدره درع من الحديد . يستعرض صفوف الجند.

القائمة كالتماثيل في الساحة . فقل هذه هي زينب ! ! كانت ملكة في كل معاني القوة والعز والجلال . وكانت اماً في كل معاني الحب والعطف والحنان . حتى ان موؤرخي المغرب والمشرق لم يستطيعوا ان يعيبوا الملكة والأم الا في طموح نفسها الغريب الى المجد ..

وليس في ذلك ما يشين زينب . ان الجبابرة الفاتحين الذين تقدموها كانوا اكثر طموحاً منها الى الشهرة وأبعد اثراً في الاطماع . وهم على رغم الزمان عروس الشعر وانشودة المؤرخين ..

كان اليونان عشاق مجد . فهدموا وخربوا . واستعمروا وبنوا ونشروا الويتهم في كل افق . ثم جاء الرومان بعدهم فملكوا البر والبحر وسادوا العالم كله . فلماذا لا تطمع زينب كما طمع هؤلاء . وعقلها عقل جبار . وذكاؤها شعله نار . ونفسها تناطح السماء ؟.. بل لماذا لا تتبع خطوات ذي القرنين والقياصرة الأبطال وهي منذ تركت الاسكندرية تقرأ سير حياتهم في كل يوم ؟!..

ان الاسكندر لم يكن اعظم نفساً من حفيدة كليوبطره ، ويوليوس قيصر لم يكن أسمى عقلاً وأثبت جناناً من بنت زباي

فاذا خانها القضاء فقد خان قبلها وبعدها معظم الأبطال الغزاة الذين دانت لهم الدنيا وخضعت لهم بلاد الناس ..

وكانت قد ظهرت في بلاد غالية قبل زينب امرأة تدعى فكتورية نازعت الرومان السلطان والنفوذ . فكان ذلك الجيل جيل نساء يسابقن الرجال الى كراسي الحكم ويظهرن من البطولة والجرأة ما تصغر عنده نفوس القياصرة الذين ورثوا الأمجاد . على ان فكتورية لم تكن تذكر اذا ذكرت الأرملة الحسناء ومع ذلك فقد اتعبت القيصر ورجاله . والقت الرعب في قلوب الرومان .

وليس غريباً ان تقوم الفتن في بلاد الرومان ويكثر الخوارج في الأقاليم الخاضعة لهم . فملكهم أوسع من أن يضبطوه ويقوموا بأمره ، لا سيما وغاليانوس الأمبراطور لم يكن ذلك الرجل الذي يحمي بلاده بسيفه . بل كان ضعيف الهمة خوّار العود . ذا خلق لا يشبه في شيء اخلاق الملوك الذين يصونون الملك .

* * *

التبسط في البحث عن زينب . وعن كل ما فعلته تلك الملكة الجبارة بعد جلوسها على العرش امرٌ لا بدّ منه .. نفعل هذا . كي لا تفوت القارئ العزيز ناحية واحدة من نواحي ذلك الحدث العظيم الذي جرى في الشرق . في أيام الملكة الحسناء ، ان زينب لم تنصرف الى المظاهر الخارجية الخلابة التي تكتنف العرش فحسبُ . بل انصرفت الى الاصلاح والتعمير . وهيأت لرعيتها جميع وسائل الراحة وأسباب الرفاه والعمران .. أرادت اولاً ان تكون عاصمتها اكثر بهاء وأعرض جاهاً . بل أرادت أن تجعلها سيدة المدن على الاطلاق . ليكون كل شيء في تدمر مدهشاً وعظيماً . كما كانت الملكة خلاّبة وعجيبة .. وكان فن البناء اليوناني شائعاً في تدمر منذ زمن طويل . وصناع الرومان والسوريين يملأون المدينة . تقاطروا اليها من كل بلد ليشيدوا فيها المعابد والقصور الباقية أثارها ما بقي الزمان . ولماذا لا تغص تدمر بالصناع وجميع صنوف الناس وملكتها تريد أن تبني فيها كما بنى الاولوُن وتسابقهم في هذا المجال .

عمدت الى المال تبذله بسخاء . وبنت الحصون والهياكل والأبراج الى جانب تلك الابنية الجبارة التي شيدها الاولون . فأصبحت تدمر عروس الشرق وتحفة العصور . اذا نظر اليها الملوك والفاتحون نظروا خاشعين ..

أجل . ان الآثار التي تراها اليوم وأنت في القرن العشرين . ليست كلها بقايا عظمة زينب . لكن نصيبها منها نصيب وافر يخلد ذكر الملكة كما يخلد ذكر الاولين .. ان هيكل الشمس المدهش العجيب . وتلك الهياكل الصغيرة والقصور الضخمة التي تقوم بالقرب منه لم تشيدها زينب الملكة . غير ان القلاع والقصور التي رفعتها تهزأ بالزمان . وكانت ولا تزال مفخرة من مفاخر الفن وشهادة لعظمة بانيها الخالدة

وقد يستطيع القارئ الراقي الذي يعرف تدمر ان يفرق بين الآثار التي بنيت قبل زينب وبين التي بنيت في زمانها . لان صناعة البناء كانت قبلها صناعة ضخمة فخمة أروع ما فيها انها ساذجة . لكن هذه الصناعة في عهدها . انتقلت من الطراز الساذج الى طراز كثرت تصاويره ونقوشه . وان تكن حفظت فخامتها

الرائعة . آما الطراز الساذج فهو المعروف « بالكورنثي السوري » وهيكل والدة الملك الذي قرأوا على أحد جدره اسم ادريان القيصر . وغيره من القبور الأبنية التي ترتقي الى اوائل الجيل الثاني للمسيح هي من هذا الشكل .

ولعل الهيكل العظيم وما يتبعه من قصور واروقة يرتقي كله الى هذا العهد . ذلك ما يرجحه علماء الآثار الذين انطقوا الانقاض وقرأوا الاسرار التي طمستها يد الزمان .. ولشدة إعجاب الناس بزينب وانتشار ذكرها في البلاد على مرّ الأجيال . تراهم ينسبون ما لا يجوز نسبته اليها من الآثار والاخربة التي فاتهم اسم بانيها والزمان التي بنيت فيه .

تلك كانت عناية الملكة بعاصمتها الزاهرة . فلما تم لها فيها ما أرادت ، أرسلت نظرها البعيد الى الحدود القائمة الى جانب حدود الفرس . وفكرت في شروط الصلح التي وضعتها مع سابور . تفكير الملك الحكيم الذي لا يستسلم الى الأقدار .

ان بناء ذلك الصلح يسقط الى الحضيض . عندما تهب العاصفة الهوجاء بين الدولتين .. فعلى الملكة ان تتهيأ وتستعد للأيام .. كذلك كان عليها ان تنظر الى مصلحة الشعب وتجارته فتعد له جميع أسباب الحياة الهادئة والعيش الرغيد .

*

في عصر النصرانية الاول شيد أحد ملوك الفرس من بني ارشك بالقرب من الفرات مدينة كبيرة هي مدينة « فولوغيسية Vologesias » التي تعرف اليوم باسم كفيل .. كان الغرض من بنائها استعمار النواحي التي تجاورها . واستيراد الحبوب والاقمشة والطيوب من بلاد الهند والشام واسية الصغرى .. ثم تعهد ملوك فارس هذه المدينة بالعناية والحفظ من دولة الى دولة . فزهت وكثر أهلها وامتدت شهرتها الى جميع الآفاق .. وعلى مرّ الزمان ، أصبحت المدينة التجارية بلداً حربياً فيه الحصون والابراج لجيش الفرس . وفيه معدات القتال كاملة اذا استعرت نار الحرب على الشاطئ .

فرأت زينب ان تبني على ضفة الفرات مدينة مثلها تمحو ذكر كفيل وتحجب شهرتها الى الأبد .. ولم يمضِ الزمن القصير حتى ارتفعت بيوت المدينة وحصونها وقامت أسواقها وقصورها فاطلقت عليها اسمها اليوناني ودعتها زنوبية.

وللمستشرقين والعلماء الفرنج رأي في مدينة الفرس هذه على ما ذكر الأب

رنزفال اليسوعي في نبذته عن زينب قال : « ورد اسم هذه المدينة (كفيل) في الكتابات التدمرية على صورة (الحسيا) وهي المدينة التي سماها الفرس وعرب الجاهلية بلاسكرد او بلاشكر وقد ارتأى المستشرق بلو أنها واقعة في مكان كان يعرف في القرون المتوسطة (بالوجلة) الا أننا نفضل رأي العلامة نولدك الذي قال : ان بلاشكرد انما هي مدينة أليس الوارد ذكرها مراراً في تاريخ الطبري . وعلى كل حال فان للمدينة القديمة آثاراً باقية في قرية كفيل الحالية على نهر الهندية وموقعها جنوبي بابل على مسافة اربع ساعات منها »

فبعد صيت المدينة الجديدة في الشرق . وتقاطر اليها الهنود وأهل الشام وعرب الجزيرة والعراق . فحجبت نفوذ كفيل كما تقدم .. وتعرف بقايا زنوبية اليوم بالحلبية يقصدها السياح من تدمر . والى جانبها على ضفة الفرات اليمنى بقايا اخرى وأخربة اسمها حلبية قد تكون بقايا قصر عظيم بنته زينب .

ثم نظرت الملكة نظرة اخرى الى الصحراء التي تفصل دمشق عن تدمر . والصحراء الممتدة من هذه الى بعلبك . فشيدت فيهما القلاع للجنود يحمون البر وأعدت القني للمياه تريد ان تجعل تلك الأرض جنات تجري فيها الأنهار ..

وشواطئ لبنان ! أجل ان شواطئ لبنان تعترف بفضل زينب . فقد جعلت طرقها واسعة رحبة وشوارعها كبيرة مرصوفة . وغرست على طول الشاطئ عمداً تحصي ما يمشيه المسافر من الاميال ميلاً فميلاً .

نعم . ان الذي تفعله الحكومات اليوم سبقتهم اليه زينب منذ الف وستمائة وستين سنة . كأن أسباب العمران والرقي التي تعنى بها الدول في هذا الجيل ، بقايا مدنية زاهرة ورثتها الأجيال .. وليست تلك المدنية استنتاجاً او خيالاً . بل هي حقيقة لمستها الأيدي منذ ثلث قرن ولا تزال تلمسها في كل يوم . فان علماء الفرنج اكتشفوا على طريق الشاطئ عمودين حفر عليهما اسم زينب واسم وهبلات الاول بين جبيل وجسر الفيدار . والثاني شمالي جبيل في المكان المعروف ببرج الريحان وهذان العمودان يقومان مقام الاحجار الصغيرة التي تضعها الحكومات اليوم على جانبي الطرق ، مكتوبة عليها الأرقام تدل على الأميال .

وبالقرب من عين الفيجة ولبوة ، في دمشق وبعلبك . اثار قنوات وأخربة بين انقاضها ومجاريها أثر تلك العزيمة الثابتة والعناية التي ادهشت العالم .

وقد يقوم في ذهنك ان الملكة في كل ما شيدته من مدن ومباني وقصور ، كانت

تظهر في ذلك رغبتها لرجالها المخلصين وعمالها في الأقاليم . فيبنون لها ما يحفظ ذكرها الى الأبد . وتنصرف هي الى احضان اللذة في البلاط ..

لا . ان الأرملة التي نشأت يكتنفها الدلال والعز كانت تشرف بنفسها على بناء زنوبية ، ثم تنتقل الى الصحارى تلفحها السموم والشمس لترى بعينيها آثار عظمتها الباقية . ثم تزور الشام ولبنان مارة بهما كما يمر السحاب فوق الجبال ..

لم تطر بالملكة طيارات تدمر الى البادية ، ولم تحملها السيارة الى الشواطئ البحر ورؤوس الجبال . بل كانت تطوف في السهل والجبل وهي على ظهر الفرس ، كأنها الطود الراسخ لا تشكو ولا تعرف تعباً !.

وانت ترى ، ان في هذا وحده دليلاً على تلك القوة الكامنة في صدر المرأة وذلك العزم الحديدي الذي لا توهنه الحادثات ، أضف الى ذلك أن زينب هي كل شيء ، هي رأس الجيش الاكبر وناظر التجارة التي تقوم عليها الدولة . بل هي وزير العدل ووزير المواصلات . لا يُرسل جندي في مهمة .. ولا يحكم على مجرم .. ولا يوضع في البلاد حجر على حجر الا بأمر الملكة .. عين يقظى ساهرة لا تغفل ولا تنام . وفكر ثاقب منحتها اياه السماء لم تمنح مثله رجال ذلك الجيل .. والويل للتدمري يستبد بأمرٍ او يخفيه ولو كان زبدا او زباي بل لو كان وهبلات نفسه ..! ان الملكة تريد أن تجعل تدمر بل تجعل الشرق كله آلةً تحركها يدها وهي في البلاط . يغضب لغضبها الشرق ويبتسم اذا افترّ ثغر الملكة . واذا أرادت امراً فعلى كل مخلوقٍ في بلادها ان يفتح لذلك الأمر ذراعيه ..

٢٢
معن وكهيلة

لم ينقضِ العام الاول على ملك الأرملة الجبارة حتى أصبحت تدمر عاصمة الشرقيين . ومحجاً لوفود الامم والقبائل من جميع الأقطار ، حتى ان أمراء الناس واشرافهم ، لم يزوروا تدمر الا ليروا وجه المرأة العجيبة التي ملأت شهرتها النفوس والأذهان ، والكثيرون من العامة ، تركوا بلادهم الى الأبد ، ليقيموا في المدينة الآمنة الزاهرة مدينة النعم والبركات ..

لماذا تدمر أعظم من المدائن واكثر سكاناً ، بل امست في العالم الشرقي مثلما هي روما في العالم الغربي . ميداناً فسيحاً تعج فيه العشائر والشعوب .

كان سكانها انباطاً وعرباً بينهم بعض طوائف الغرباء . ولكنهم في السنة الاولى للملك زينب ، اضحوا خليطاً من السوريين والأرمن واليونان والفرس واليهود . وغير هؤلاء من شعوب آسية المترامية الأطراف .

أجل ، ان العرب والأنباط أقدم الامم في تدمر ونفوذهم فيها أوسع من نفوذ غيرهم . ويدلك على رسوخ قدمهم في المدينة ،ان المستشرقين العلماء قرأوا على الانقاض الفاظاً عربية حفرت في الحجر . منها — لفظة فخذ ورخام وأمجد وزبيد وأذينة . ومنها اسماء الاعلام كجميل وسعد وكهيلة وخير وسعيد وجميلة ومعن . واسماء القبائل والأسر الشريفة كبني حنفي وبني متبول وميثاء وحمدان . يرجع عهد هذه الاسماء المحفورة الى الجيل الاول قبل المسيح . وفيها الدليل الذي لا يرد على نفوذ العربي في عاصمة الشرق ،

وزينب ترى مدينتها تزهو وتصعد في سلم المجد وشهرتها تملأ الآفاق والاقاليم . فيزيد طموحها الى المعالي وترتفع نفسها الى سماء الآلهة تيهاً وعزاً .

وكانت كهيلة تعرف أسرار الملكة وأطماعها فهي أقرب الناس اليها بعد زباي ووهبلات .. فهالها ان يموت غرامها تحت أقدام الشهرة وعظمة الملك ، بل هالها أن تنصرف الملكة الى طلب المجد . وتنسى ذينك العاشقين اللذين تمر السنون على غرامهما المبرّح وهما مستسلمان الى الصبر .. ان قلب كهيلة العاشق لا تنفعه مظاهر الابهة والجلال في البلاط . واذا أمست زينب سيدة الأرض فتلك العاطفة الوثابة في صدر العاشقة لا تهدأ الا اذا زفت الى من تحب ..

أجل ، انها توثر وطنها على كل شيء ولكن هذا الوطن لا يخسر شيئاً ولا ينزل عن عزه اذا هي أصبحت زوجة لابن حمدان .. ولم تكن حياتها في البلاط كما كانت وهي في قصر زبدا ، انها تعيش في ذلك البلاط كما تعيش سيدة نساء الشرف في قصور الملوك ، يحدق بها الواجب من كل جانب . وعيون الوصائف والخدم والخصيان تنظر اليها من وراء الجدر وهي لا تستطيع ان تهمس في اذن الحبيب لفظة من الفاظ الحب لئلا تبصرها فتجرح كبرياءها تلك العيون ..

أي أنها كانت حرة في قصر أبيها ؛ فأمست عبدةً للواجب في قصر الملكة تكتم هواها في الصدر وإذا خاطبت معناً خاطبته بتلك اللغة التي لا يفهمها غير العشاق .

اذن فموعد زواجها لا يعرفه الا زينب ، وزينب لا تذكر وعدها لان جميع مظاهرها تدل على أنها نسيت ذلك الوعد ، ولم يكن حول كهيلة من يذّكر الملكة أمر العاشقين الا زباي وحطان . ان زبدا أعظم من أن يعترف للملكة بلوعة وصيفتها التي هي ابنته . ومعن بن حمدان ، القائد الباسل اللامع في الجيش ، لا يقف أمام صاحبة التاج موقف الضعيف المسترسل في هواه .. لكنه لم يكن يأنف من أن يبوح بكل ما في صدره ، لذلك اليهودي الذي يعطف عليه كما يعطف الوالد على ولده ..

ففي ليلة من ليالي الشتاء . وقد خرج القوم من قاعة العرش همس في اذنه قائلاً : اني بحاجة اليك الليلة يا حطان .. فابتسم الرجل ابتسامته المعروفة ومشى وراء قائد الحرس دون ان يقول كلمة حتى وصل الاثنان الى غرفة معن فدخلاها وأغلقا الباب ، وحطان لا تفارق الابتسامة شفتيه ..

فقال معن : لقد مرّ العام الاول على موت الملك

فأجابه دون ان يتردد : ومع ذلك فالملكة لا تذكر انها وعدت قائد حرسها بان تزف كهيلة اليه بعد انقضاء هذا العام ..

قال : أراك عارفاً ما سأقوله لك أيها النبي

— : لا خير في حطان ان لم يقرأ ما في الصدور ..

— : وما هو رأيك ؟

: لقد قتلك الغرام يا بني وهذه صورته في عينيك ..

— : نعم وقد نفذ الصبر ..

فأطرق اليهودي ملياً ثم قال : يجب ان تبرّ الملكة في قولها في هذا الشتاء ..

قال : أما أنا فأرضى ان تعين الموعد ولو كان في الصيف

— : إذا رضيت أنت فأنا لا أرضى — : ولماذا ؟

فرفع نظره الى العلاء وسكت ..

فقال : ان في سكوتك لاسراراً .. قال : أجل ..

— : وأنت تخشى ان يفضح ابن حمدان هذه الأسرار ..

— : لا ولكني اقرأ الصفحات المكتوبة في هذا الفضاء

فدبت قشعريرة الخوف في جسم معن وقال : أليس لهذه الصفحات من نهاية يا حطان ؟..

قال : لا تنتهي الا اذا انتهت الحياة .. اني أرى مواكب تروح وتجيءُ هي مواكب النصر ..

وكأنه ندم على هذا القول فجعل يحرك شفتيه كأنه يتكلم والالفاظ لا تخرج من فمه .. ثم وضع يده على جبينه وامعن في التفكير .. وقلب معن يخفق من الذعر ثم قال : أيحول الزمان بيني وبين كهيلة أيها النبي ؟..

قال : ما رأيت شيئاً من هذا ولكن يجب ان نتعجل في أمر الزواج ..

قال : يظهر ان الأخطار التي كانت تكتنف اذينة هي نفسها تكتنف زوجته

— : ان النور الساطع الذي لينبعث من تاج الملكة منعني من أن ارى ما وراءه .. قلت يجب ان نعجل في الزواج وهذا ما استطيع ان أقوله ..

— : ولكن قل لي لماذا ؟

فتجهم جبين العرّاف قائلاً : لان ساعات زينب اثمن من الذهب يا بني

— : ومع ذلك فأنا لا أفهم ..

— : ان نفسها الكبيرة ترتفع الى العلاء فلا تنظر الى ما حولها على هذه الأرض .. ارأيت النسر يحلق في السماء ثم هو لا يهبط الا الى رؤوس الجبال ؟ تلك هي زينب ايها القائد

قال : اقسم لك برأس الملكة اني لم أفهم شيئاً .

فاستوى حطان في مجلسه وقال : سأعمد الى الجلاء يا بني . افلم ترَ ان الملكة لم تستسلم الى الراحة منذ جلوسها على العرش ؟

— : بلى

— : وقد انصرفت بأشد ما في صدرها من قوة وايمان الى بناء المدن والحصون والابراج فأمست دولتها أعظم دول الشرق .. الا ترى هذا ايضاً ؟

— : بلى .

— : اذن فأنت تعلم ان الملكة صاحبة اطماع لا ينطبق على مثلها صدر ملك

— : نعم .

— : وستخوض الميادين تتفجر فيها الدماء وتهتز لها روما ..

— : وأية صلة لهذا كله بزواج قائد الحرس ؟!..

فهزّ حطان رأسه قائلاً : عندما يشهر أول سيف ويرسل اول سهم في ساحات الشرف فمعنى ذلك أن زينب نسيت كل شيءٔ وأرسلت نظرها الى عالم

آخر بعيد عن هذه الديار تريد ان تخفق فوق جباله اعلامها الظافرة .. وفي ذلك الحين .. أجل في ذلك الحين يصبح ابن حمدان قائداً يحمل سيفه ليضمن النصر لبلاده . وقد يغلب فيه قلبُ القائد قلبَ العاشق فينتقل من هذه الساحة الى هذه الساحة حاملاً علم تدمر وكهيلة في البلاط تبكي غرامها الذي طوته الحرب وداسته اقدامها القاسية ..

فقاطعه الفتى قائلاً : لقد جاوزت الحد في الظنون يا حطان أفيقوم في ذهنك أن مواقف الشرف تستطيع ان تمس هذا القلب الذي استسلم الى الهوى وأحب كهيلة حتى الموت ؟!..

قال : قد يثبت حبك الى الأبد ولكن زينب لا تبالي بهذا الحب ..

— : وكيف ذلك ؟

— : قلت لك ان زينب ستسعر حرباً لا تنتهي الا اذا انتهت حياة التدمريين أو حياة الرومان .. وعندئذ يصبح من العار على الشريف الحمداني ان يترك ميدان القتال ليتزوج الفتاة التي أحب .. والملكة نفسها ، الملكة الصاعدة في سلم المجد ستهزأ اذ ذاك بعواطف المحبين ولا تفتح عينيها الا على ذلك المجد الذي تبنيه .. أفتريد ان تقتحم المعارك الحمراء قبل أن تصبح صهراً لزبدا ؟..

قال : لا ولكني اخشى هذه الساعات التي تقرأ فيها ما يكتبه القدر أمام عينيك .. فقل لي يا حطان أتسقط زينب من سماء عزها كما سقط اذينة ؟.

فارتسم اليأس على جبين الرجل ثم اختفى فجأة وهو يقول : ان مثل هذا السؤال لا يوجه الا الى الآلهة ولم يكن حطان الهاً ..

قال : لقد قرأت حياة اذينة سطراً سطراً ..

— : أجل فقد كانت تلك السطور ظاهرة في سماء صافية .. اما سماء زينب فيسطع فيها نور وهاج كما قلت لا تنفذ فيه العيون ..

وادار وجهه ليخفي ابتسامة الاسى التي ظهرت على شفتيه .. ثم قال :

يا بني ، اتذهب معي الى الملكة ؟

قال : من يستطيع ان يرى الملكة في مثل هذه الساعة وقد تركت قاعة العرش

— : لا نقابلها الليلة بل نكون اسبق الناس الى المثول بين يديها عند الصباح

— : ايليق بقائد الحرس ان يظهر لملكته عواطف حبه ؟

قال : انك شجاع في الحرب جبان في الحب يا بني ..

— : اصبت ولن اكون البادئ بذكر غرامي لأرملة اذينة

— : ولكن حطان سيتكلم باسمك أيها العاشق وستعلم الملكة انك ندبتني لهذا الغرض .

— : ذلك خير من ان أكون رسول نفسي .. ولكن اتسألها ان تأذن في زواجنا وزبدا وزباي لا يعلمان ؟

— : سأراهما الليلة لأقول لهما اني مندوب القائد الذي برّح به الهوى الى الملكة

قال هذا وضحك

فقال معن : أتهزأ بي يا حطان ؟

— : بل اضحك لمظاهر الضعف الذي استولى عليك .. ماذا تقول للملكة اذا امرت باحضارك وسألتك عن غرامك ؟

— : سأقول لها ان القائد الذي يخوض الميادين ظافراً لا يجسر على ان يصف هواه ..

قال : اما انا فسأصف لها هذا الهوى واقص عليها ما جرى من حادثات الغرام في بلاط جدتها العظيمة كليوبطره ملكة مصر ...

أتستأذن علينا يا حطان في هذا الصباح قبل ان نجلس للناس ؟

— : نعم يا مولاتي ان حطان الان هو رسول ..

فقالت مستغربة : رسول من ؟

— : رسول قائد كان احب القواد الى اذينة وهو اليوم احبهم الى الملكة واشدهم اخلاصاً للعرش

— : انه معن بن حمدان على ما نرى

— : نعم معن بن حمدان الذي يبذل دمه في سبيل الملكة ..

فاجابته بهدوء قائلةً : يخيل الينا ان المهمة مهمة غرام ..

فقال حطان في نفسه : ما اعظم هذا الدماغ الجالس على عرش الشرق ..

ثم قال : لقد اصابت الملكة فحطان سفير عاشقين لم يجمعهما الزمان ...

فذكرت زينب وعدها وقالت مبتسمة : لقد انقضت السنة وكهيلة لم تزف الى معن ، أليس هذا ما تريد ان تقوله ؟

— : نعم وانا اسألك يا مولاتي ان تأذني في اجتماع الاثنين ...

قالت : ارأيت وصيفتنا كهيلة يا حطان ؟

ـ : بل رأيت معناً ومتى رأيت احدهما فكأني رأيت الآخر ..

ـ : أيبعث الينا ابن حمدان رسولاً وهو يرانا في كل ساعة فلا يذكر لنا شيئاً ؟..

ـ : انه اجبن من رأيت من المحبين ..

ـ : ومع ذلك فهو يستطيع ان يسأل الملكة قضاء حاجته دون ان يسترسل في وصف غرامه ..

قال : انه العاشق الذي لا يبوح بهواه الا لحطان.

فأجابته قائلةً : اما الملكة فلا تريد هذا . انها تريد ان تعرف اسرار قائد حرسها قبل ان تعرفها انت

ـ : ولكنك تعرفين هذه الأسرار

ـ : نعلم ان ابن حمدان يحب كهيلة وقد وعدناه بان نزفها اليه . ولكن يجب على ابن حمدان عندما تنسى الملكة وعدها ان يلجأ اليها ويذكرها هذا الوعد قبل ان يلجأ اليك .. ان له مرجعاً واحداً في هذا البلاط هو نحن ولا نحب ان تضعف ثقته بنا الى حد ان يظن اننا لا نقبل رجاءه ...

قال : القضية قضية حياء يا مولاتي لا قضية ثقة

ـ : ان زينب تعرف ماذا تقول .. افلم يقم في ذهنه اننا نسيناه ؟.

ـ : بلى

ـ : اذن فللثقة وجود في هذا ... ماذا تريد الان ؟..

ـ : لا اريد شيئاً بل ارجو وقد عرفت الملكة معنى هذا الرجاء

ـ : اذكر ما جئت لأجله بجلاء

قال : جئت لاسأل مولاتي الملكة ان تأذن في الزواج

ـ : انأذن في زواج رجل قبل ان نسمع رأيه ؟..

قال : اترفضين يا مولاتي رجاء حطان ؟

ـ : ما كنا لنمنع رجالنا امراً نستطيع قضاءه .. ثم قالت : يا غلام ادع معناً..

وما هي الا لحظة حتى دخل معن وجثا على ركبتيه

فقالت له : اهلاً بقائد حرسنا الباسل اين زبدا وزباي ؟

فآنس في لهجتها نغمةً جديدة ما سمعها من قبل فقال : انهما في قاعة مولانا الملك يعلمانه ضرب السيف

قالت : ليحضرا ايها الغلام ..

فكأن الملكة ارادت ان تعقد مجلساً حربياً يحاكم الفتى الحمداني ..وبدت على ثغر حطان ابتسامته المعروفة وقد عرف ان الملكة ستلقي على اركان حربها المحاولة جديدة في الدهاء .. فلما دخل والدها والقائد الاكبر فاجأتهما بقولها :
هل تعلم الملك كيف يضرب عدوه بالسيف ؟
فقال زبدا : كلما تناول الملك الصغير سيفه خيل الي اني ارى هيرو ديس .
قالت : اصبت فهو يشبه اخاه في بعض مواقفه . ومن يعلمه ركوب الخيل ؟
فاستغرب زبدا وزباي هذا السؤال ونظر احدهما الى الآخر ..
قالت : لا سبيل الى الاستغراب .. اني اسأل زبدا عن هذا ...
قال : ولكن الملكة تعلم ان ابن حمدان هو الذي يقوم بهذا الواجب ..
قالت : ان ابن حمدان يشك في مولاته فلا يصلح لهذا الأمر
فدهش القواد لما سمعوه واصفرّ وجه الحمداني ..
اما هي فاستطردت قائلة : وقد بلغ في شكه حداً لم يبلغه قبله واحد من قواد الحرس في العالم ..
فقال زبدا : اكاد لا اصدق ما اسمعه ايتها الملكة . ماذا فعل قائد الحرس ؟
قالت : لقد عرف هذا الرجل ان الملكة تعد ولا تبر في الوعد فأوفد اليها رسولاً يسألها باسمه ان تذكر ما وعدت.. كأن ملكته لا تستحق ثقته وكأنه ارفع من ان يخاطبها رأساً ووجهاً لوجه . افلم ترَ سابور كيف ارسل مرزبانه الينا يسألنا الرضى بالصلح ؛ هكذا جاءنا رسول ابن حمدان يملي علينا شروطه وقد يشهر علينا الحرب ان لم نبادر الى تنفيذ ما أراد
فاشرقت وجوه القوم بعد ذلك التجهم لانهم عرفوا معنى ذلك القول .. وزينب لا تبتسم ولا تفارق الرصانة جبينها الزاهي .
فقال زباي : لقد عرفت ذنب قائد الحرس الان وانا ادافع عنه ..
قالت : بل يدافع هو عن نفسه اذا استطاع ..
فقال حطان : بل يفوض الى رسوله حطان امر الدفاع
فأجابته قائلة : نقبل هذا اذا اعترف امامنا وامام القائدين بانه عاجز عن القيام بهذا الأمر ؛ فرفع الفتى رأسه وجعل يتفرس في العرش .
فقالت : ماذا تقول يا معن ؟
قال : ابسطي قضيتي يا مولاتي فانا ما عرفت ذنبي الى الآن ..

قالت : ألم توفد حطان الينا في مهمة تتعلق بك ؟

قال : سألته رأيه في هذه المهمة ولكني لم اطلب اليه المجيء الى الملكة .

قالت اتكذب ايضاً ؟ — : مولاتي الملكة ! !

فلم تعبأ بذلك المظهر الشريف الذي ظهر به الفتى بل التفتت الى حطان قائلة من ارسلك الينا ؟

قال : لقد صدق معن في قوله ؛فانا الذي اظهرت رغبتي في استعطاف الملكة.

— : ولكنك ذكرت لنا انك رسول ..!

— : نعم يا مولاتي وما برحت رسولاً .. غير ان معناً لم يبعثني اليك .

قالت : انك تمزح يا حطان والمجلس مجلس جد لا مزاح فيه .

قال : ليس في ذلك مزاح يا مولاتي . قلت لابن حمدان اني ذاهب الى الملكة استعطفها باسمك ، ثم اتيت وليس له رأي في هذا فكنت في ذلك رسولاً فضولياً تعرّض لما لا يعنيه فاسمعته الملكة مالا يرضيه ..

ومع ذلك فلم تبتسم ..

ثم قال حطان : سلي القائدين عما يعلمان ..

قالت : وزبدا وزباي يعرفان هذا ؟.

— : نعم فقد ذكرت لهما امس اني سأخاطب الملكة في هذا الشأن . والاثنان اظهرا رغبتهما في ذلك فنحن جميعنا مذنبون ..

قالت : الذنب ذنب ابن حمدان وحده .. لماذا لم تلجأ الينا ايها القائد افلا تثق بالملكة التي غمرتك بمظاهر الرضى ..

فاحمرّ وجه الفتى خجلاً ولم يقم في ذهنه قط ان صاحبة التاج تهتم بحادث بسيط مثل هذا وكان الناظر اليه في تلك الساعة يحسبه احد اولئك المجرمين الجبناء الذين اذا مثلوا بين يدي الحاكم هلعت قلوبهم من الخوف .. وهو الجندي بطل نصيبين وحرّان والمدائن وقاهر الخوارج في آسية ! بل هو اثبت الجنود جناناً في ميادين الحرب ! اجل . انه كان اجبن المحبين ولكن ليس في ذلك عار يلحق بالجندي .. ان نفسه الكبيرة الراقية كانت اعظم من ان ترضى الظهور بمظهر العاشق الذي وله الغرام امام الملكة التي يحترمها الاحترام كله .

وكانت زينب الداهية تدرك قوة ذلك الخجل وتعلم انه شيمة النفس المهذبة التي تأنف من الاقرار بالضعف ، وان لم يكن الحب الطاهر ضعفاً . ولكنها

اردت كما مرّ ، ان تظهر لقوادها انها الملجأ الوحيد الذي يجب ان يفزعوا اليه في شؤون الدولة والأمور الخاصة دون ان يكون لهم عذر ولو وفرت الاعذار

وبدأ القوم يتغامزون وحطان يكاد يرفع صوته بالضحك .. وساد السكوت ومعن لا يتكلم ..

فقالت الملكة : بماذا تعتذر يا معن عن الشك الذي قام في نفسك ؟

فاستيقظ الاباء الكامن في صدر الفتى واجابها قائلاً : لا اعتذر عن شك لا وجود له .. وكان جوابه بليغاً كما ترى وقد افترّ له ثغر حطان .

قالت : ان في اعترافك لحطان دليلاً على وجوده

قال : بل ذلك دليل على نفاد الصبر .. واما اني اشك في عطف الملكة فهذا ما ارجو من مولاتي ان لا تذكره لي .

قالت : ولماذا لم تبح لنا بنفاد صبرك ؟

قال : لان الملكة العظيمة التي ستسود العالم هي في نظري ارفع من ان تصغي الى شكوى المجبين ، وهنالك شيء آخر ذكرته لحطان وهو الذي يمنعني من الاعتراف للملكة بهواي .

فابتسمت قائلة : ما هو ذلك الشيء ؟

قال: ان قائد الحرس الذي هو اجرأ جنودك واصدقهم قتالاً هو في الوقت نفسه اضعف الناس في مجال الغرام .

فضحك القوم عندئذ وتمتم حطان قائلاً :

لقد حلت عقدة لسانه فالشكر لإله اسرائيل ..ولو لم يروا ابتسامة زينب لما خطر ببالهم ان يضحكوا . ومعن نفسه كان يبتسم وقد طلقه الحياء .. ثم قال :

لنترك الماضي يا مولاتي فانا الان غيري بالامس .

قالت : اتجرؤ على القول انك تحب كهيلة ؟..

قال : ان حبي اضحى حديث الجيش

— : ومع ذلك فقد كنت اضعف من ان تسأل الملكة ان تأذن في زواجك

لقد جعلنا الان اجلاً لهذا الزواج .. قال : متى ؟

قالت : بعد خمسة اعوام ..

فخفق فؤاده ونظر مستغرباً الى القائدين ..

فقال حطان : معنى ذلك ان جلالة الملكة لا تريد ان تزوج قائد حرسها الا

وهو كهل ..
قالت : اجل وقد يستريح في الكهولة من متاعب الحرب .
فقال معن : ومن يضمن حياتي ايتها الملكة ؟
قالت : ان حياة الناس ليست في يدنا لنضمن حياتك .
ـ : واذا قتلت ؟
ـ : اذا قتلت فلست اول شهيد مات في سبيل غرامه .
وغمزت زبدا بعينها قائلة : الا ترى رأينا ايها القائد ؟
قال : بلى فخير لابن حمدان ان يستسلم الى الصبر ..
فنهض الفتى قائلاً : اما الصبر فلا سبيل اليه لان هذا القلب لا يطيقه .
قالت : انس اذن كهيلة فهي لا تريد ان تزف اليك اليوم ..
قال : اعرف كهيلة كما اعرف نفسي ايتها الملكة وانت تقتلين اثنين ..
قالت : ان حياة الجندي لوطنه يا ابن حمدان ..
قال : نعم ولكن لهذا الجندي قلب فاذا قتلت عاطفة قلبه فقد خسر كل شيء ..
وتمادى في الجرأة فقال : لقد احببت كهيلة كما احببت تدمر فاذا ابعدتني الملكة عمن احببت فكأنها ارادت ان تقذف بي الى هوة الموت .
ـ : اذن فانت لا تعيش الا لكهيلة ..
فعرف الفتى معنى سؤالها فقال : كما اعيش لوطني يا مولاتي .
قالت : ماكنا لنصدق هذا قبل ان نختبر ..
قال : ألم يكن في ماضيّ ما يثبت اخلاصي لهذا الوطن .
قالت : بلى ولكن تركنا الماضي كما قلت وخيرناك الان بين امرين .. اتعرف ماذا نريد ؟ قال : لا
قالت : ان الجيش التدمري سيزحف بعد شهور الى بلاد بعيدة جداً لم يفكر في الاستيلاء عليها اذينة الملك ..
قال : نعم ! واصغى القواد الى ذلك الحديث .
ثم قالت : والملكة بحاجة الى رجال لا يربطهم بتدمر رابط هوىً وغرام يفتحون الاقاليم الجديدة ويرفعون فوقها العلم التدمري ..
قال : اي ان الملكة تريد ان يكون رجالها جماداً
قالت : بل تريد ان يكون هؤلاء الرجال تماثيل لا تتحرك الا اذا شاءت واذا

كان لهذه الاصنام قلوب فهي لا تسمح لهذه القلوب بان تخفق الا على حب الفتح ولنشر النفوذ التدمري في بلاد الناس ..

فقوّى الحب جنان معن واجابها قائلاً : واذا كتب لاحدهم ان يعشق وجب عليه ان يخنق عاطفته في صدره .

فقالت : بعظمة وكبرياء : احسنت وعليك ان تختار واحداً من امرين : اما ان تخنق غرامك وتصبح آلة في يد الملكة واما ان تستسلم الى هذا الغرام وتلقي بسيفك على قدمي من تحب .

قال : واذا احتفظت بسيفي لمولاتي الملكة وبغرامي لكهيلة ؟..

قالت : لا تشترط علينا يا ابن حمدان . ان في حمل السيف طاعة لنا وفي اتباع هواك عصياناً فاختر لنفسك ..

ولم يظهر على وجه الملكة دليل واحد من دلائل المزاح .

فقال : ليس في غرامي يا مولاتي ما يشين وطني ويضعف اخلاصي ، لقد كنت عبداً لأذينة اقتحم تحت رايته الميادين ،لا ابخل بدمي في سبيل بلادي وانا العاشق الذي علمني الحب ان ابتسم للموت واستهين بالاخطار .. فماذا جرى لابن حمدان بعد موت اذينة حتى ارادت الملكة ان تنزع حبه من صدره وتبعده عن الفتاة التي زاده حبها اخلاصاً للعرش ؟..

قالها وعيناه تتلألآن والقائدان اللذان لا يقولان كلمة ينظران اليه نظرة اعجاب .

فقالت : جرى ان زينب ليست اذينة ، وان من رأي الملكة ابعاد اصحاب العاطفة عن الجيش لئلا يفسدوا عليها الأمر .. قل ! اتطيع ام تكون ذلك المتمرد الذي يهدم امجاد ماضيه باستسلامه الى الضعف .

فتحير الفتى في موقفه ، لقد ظن منذ ساعة ان الملكة تهزأ به وتختبر صبره فاذا موقفها كما بدا له موقف جد وقد خيل اليه ان تلك الوجوه المشرقة تجهمت له والقوم ينتظرون جوابه .

وماذا يفعل العاشق النبيل في مثل تلك الساعة الرائعة التي يقف فيها على شفير الهاوية ؟ ايتخلى عن السيف فتقول العرب ان سيد آل حمدان باع مجده وشرف قومه بابتسامة فتاة ساحرة ام يترك كهيلة التي وهب لها قلبه فيقول الناس ان الحمداني يخدع النساء وينكث عهده ليحتفظ بمنصبه في الجيش ؟. فتردد في الجواب وقلبه يرقص في صدره ، وخاف حطان ان يتعثر لسان الفتى فيفضح

نفسه فحبس انفاسه ليسمع الجواب كما فعل القائدان ، اما الملكة فقد نفد صبرها .. فقالت : قل كلمتك يا ابن حمدان اتنسى غرامك ام تترك السيف ؟

فارتسمت النبالة على جبينه وقال : لو خيرتني الملكة بين ان اترك كهيلة وبين ان اموت لآثرت الموت على خيانة من احب . واما ان اغضب مليكتي واهجر صفوف جيشي الذي رفعته بفضل مولاي اذينة وفضل القائدين الكبيرين الى سماء الظفر والعز فهذا ما لا افعله ولو ذاب هذا القلب اسىً وغراماً .. اجل سأحمل السيف فاضرب به ما بقيت اعداء الملكة . واحفظ حبي في صدري ما دام يجري في جسدي فانا ما احببت لانسى وسينزل حب كهيلة معي الى القبر ..

فسمع في المجلس همس الاستحسان وهمت الملكة بالكلام فاستطرد قائلاً : دعي قائد حرسك يتكلم يا مولاتي فهو لم يستوفِ نصيبه من القول . قلت اني سأحفظ حبي في صدري وهذا معناه ان كهيلة تملأ قلبي فلا يستطيع وطني ولا تستطيع الملكة ان ينتزعا صورتها من اعماق نفسي واذا كنت ارغب في الحياة بعد فلأجل ان اخدم هذا الوطن مستلذاً ذكرى ذلك الغرام الحي الذي لا تنطفئ جذوته ولا يموت .. فليستثمر الوطن والملكة سيفي ولتعلم حمدان والعرب ان الفتى الحمداني لم تبقَ له رغبة في الزواج .. ولكن .. قولي لكهيلة يا مولاتي اني مقيم على العهد وانها تستطيع على رغم هذا كله ان تتزوج من تشاء من فتيان العرب النبلاء فمعن بن حمدان لا يصلح لان يكون لها زوجاً .. والتفت الى زبدا قائلاً : لقد رأيت يا مولاي ان الوفاء شيمتي وشيمة آبائي ولكن الملكة لا تريد الا ان يكون قائد حرسها نذلاً لا وفاء له ثم وضع يده على صدره وقال : ليمت هذا القلب في سبيل الملكة .. فتنهد القائد تنهد الارتياح لان الازمة في نظره ونظر الآخرين قد انفرجت ورأى القوم شفتي الملكة تختلجان ثم سمعوها تقول لحاجبها بهدوء :

قل لرئيس الخصيان ان يدعو كهيلة بنت زبدا ..

فقال حطان في نفسه : لقد انتقلنا الى مشهد آخر ستدفع الملكة ثمنه من مال التاج .. واقبلت كهيلة بقامتها الهيفاء وجمالها الرائع ورصانتها الساحرة ، فحنى ابن حمدان رأسه وارخى نظره الى الارض كي لا يرى تلك الفتاة التي امست غريبة عنه .. اما هي فحيت الملكة وقد استولى عليها الاستغراب . لقد مضى على وجودها في البلاط بضعة عشر شهراً لم تدعَ خلالها مرةً الى قاعة العرش في

ساعات جلوس الملكة للناس . وزاد استغرابها ذلك المجلس الصامت الذي تسوده الهيبة .. فأومأت اليها الملكة بالجلوس قائلة : يا كهيلة انك تحبين معناً وقد وعدنا بان نزفك اليه .. فبرقت عينا الفتاة وتمتمت الفاظ الدعاء والشكر ..

ولكن الملكة فاجأتها بقولها : غير ان الزمان يقضي علينا بان نخلف هذا الوعد فمرت سحابة سوداء امام عيني الوصيفة ونظرت الى ابيها نظرة خوف كأنها تسأله ان ينتصر لقلبها الجريح . فلم تبال الملكة بما رأت فقالت :

ولقد خيرنا معناً بين امرين فاختار احدهما وهو العدول عن الزواج والانصراف على رأس حراسه الى اخضاع الاقاليم التي لم يخضعها زوجنا الملك في حياته . فماذا تقولين ؟

فكانت كهيلة اجرأ من معن اذ قالت : أتسأليني رأيي في هذا ايتها الملكة ؟

قالت : نريد ان نعلم اولاً اذا كنت توافقين معناً في عدوله عن الزواج .

فلمع الغرام في عينيها السوداوين قائلة : اسمحي لي يا مولاتي بان اسأل ابن حمدان سؤالاً . — افعلي

فقالت وصوتها يضطرب : اتنكث العهد يا ابن حمدان ؟..

فأجابها قائلاً وهو ينظر الى الارض : لقد ارادت الملكة ان افعل هذا فكانت ارادتها التي لا ترد ..

فقالت لزينب : اذن فمولاتي الملكة هي التي ارادت معناً على العدول ..

— : اجل . ونحن نريد وصيفتنا على امر آخر ..

قالت : على ان لا يكون هذا الأمر نقضاً للعهد فابنة زبدا لا تخون .

قالت : اما الملكة فسترى .. لقد اخترنا لك زوجاً من اشراف تدمر نزفك اليه بعد غد لان الملكة تحب ان تنسي حبيبك القديم ..

فقالت دون ان تتردد : ولكني ارفض هذا الزواج ايتها الملكة !

قالت : لو عرفت الفتى الذي اخترناه لما ترددت في القبول !

فدمعت عينا العاشقة ورفعت رأسها بكبرٍ تقول لملكتها : لو كان هذا الفتى مولاي الملك وهبلات نفسه لرفضت .

فاهتز ابوها في مقعده وانحدرت دموع القوم لطهارة وجدان الفتاة ونبالة ذلك الخلق . اجل ، كانوا يعلمون ان الملكة تمتحن العاشقين وتقرأ غرامهما ولكن المواقف الشريفة تستنزل الدموع من عيون الرجال الاشراف ولو كانت مواقف هزل .

وتمادت الملكة في الاختبار فقالت : ولكن معناً لن يصبح زوجاً لك ..
— : اذن فسأبقى عذراء اندب سوء حظي وابكي غرامي .
قالت : انك تعصين الملكة يا كهيلة ..

قالت : لم يخرج احد من بيتنا عن طاعة احد من بيت اذينة الملك .. انظري الى الشعرات البيض في رأس ابي انها ابيضت يا مولاتي في خدمة اذينة الاول واذينة الثاني من بعده ، وقد يهلك صاحبها في ساحات القتال وهو يدافع عن العرش الذي تجلسين عليه . ولكن .. ولكن لي يا مولاتي قلب يخفق في هذا الصدر لا يعرف ان يحب اليوم ثم ينسى غداً . كما ان ابي ما عرف في زمانه ان يخون مليكه .. ومسحت دموعها ثم قالت : ألا تثقين باخلاصي ايتها الملكة ؟

قالت : لا نعترف بهذا الاخلاص الا اذا عمدت الى الطاعة
قالت : أليس في ماضيّ وانا في البلاط ما يشهد لي به ؟
قالت : بلى ولكن الملوك لا يذكرون غير حاضرهم .. فانت الان امام امرين لا ثالث لهما أتتزوجين نبيلاً من شيوخ المجلس ام ترفضين ؟
— : ارفض ..
— : اذن فاخرجي من البلاط الى السجن القائم وراء الهيكل واذكري فيه ما شئت غرامك الذاهب محرومة عطف الملكة .. وحدقت اليها تشهد تأثير ذلك القول . ولكن حدث في تلك الساعة حادث فجائي لم يخطر ببال احد فان ابن حمدان نهض قائماً وهو يقول :
ان مولاتي الملكة تستطيع ان تختار رجلاً غيري لقيادة الحرس
قالت : أتترك الجيش ؟
— : نعم يا مولاتي بل سأترك هذا العالم الذي لا خير فيه ..
فقالت للقوم : لقد جنّ ابن حمدان وسيقتل نفسه .

قال : ومن يصير الى مثل ما صرت اليه ولا يفقد عقله ؟.. ايكون جزائي بعد ان خنقت حبي بضعة اعوام ان الملكة التي اعبدها تكرهني على نكث عهدي وترك من احب . ثم تطرد كهيلة من البلاط كما تطرد العبيد وابوها هو الذي يحمي بسيفه هذه الدولة التي بناها اذينة ؟.. اني اذا جننت ايتها الملكة فانا من لحم ودم . واذا قتلت نفسي فلأني لا ارغب في الحياة والفتاة التي احببتها تقيم كالمجرمين في ظلمات السجن ..

قالت : لقد اظهرت لنا الطاعة منذ ساعة ايها الحمداني !

قال : نعم ولكن على ان تبقى كهيلة سيدة نساء البلاط تفتح عينيها للنور كل يوم . وترسل تحيتها مع نسيم الصباح الى معن بن حمدان الحامل روحه باحدى يديه وسيفه باليد الاخرى يضرب به في اقاصي آسية خصوم الملكة . أجل يا مولاتي . لقد خنقت هواي احتراماً لذلك الملك الذي اقسمت على قبره المقدس يمين الطاعة لأرملته ونجلها الملك وصوناً لهذا العرش الذي لو استطعت لرفعته الى الجوزاء . ولكن يميني لا تلزمني الطاعة اذا كان فيها قتل اثنين بريئين هما اصدق العرب حباً واشدهم اخلاصاً لخليفة اذينة اللابسة تاج الشرق

فمدت الملكة يدها تأمره بالسكوت ثم قالت : حسبك يا ابن حمدان . لقد اعتزلت خدمتنا فقبلنا اعتزالك وستعوضنا الآلهة منك رجلاً اثبت منك جناً واطول سيفاً .. قم فاخرج قال : اتطردني يا مولاتي ؟

— : بل نأمرك بان تتهيأ للذهاب الى سجن آخر يقيم فيه الاشقياء .

فابتسم ولم يجب .

فقالت : لقد ظهر خوفك يا ابن حمدان ..

قال اني لا اخاف في هذا العالم احداً الا نفسي ولكني سكتُ لاني اصدّق ما سمعت — : لماذا ؟

— : لان الملكة التي تفكر في الاستيلاء على العالم لا تعمد الى مثل هذا الظلم..

قالت : أتسجن كهيلة بنت زبدا ونرسلك حراً ؟

قال : وهل هان قائد جيشك الاكبر الى حد ان تقتل ابنته وهو ساكت؟

قالت : ان قائد الجيش يحترم ملكته فلا يقدم على العصيان وسترى بنفسك .. قم يا زبدا فاقبض على الاثنين ..

فوثب الفتى كما يثب النمر الجريح ورفع صوته المضطرب قائلاً :

اسألكِ باسم وهبلات ألاّ تفعلي ..

قالت : اتندم على ما قلت ؟

قال : ما فكرت في الندم ولكن اخشى ان يحملني الغضب على ما تكرهين

قالت : اضرب لنا مثلاً !

قال : اقسم بتربة اذينة اني اجعل هذا الخنجر في صدر زبدا اذا امتدت يده الى القبض على كهيلة ..

قالت : اتقتل قائدك وهو والد من تحب ؟

قال : اجل اقتله لان العدم خير من الوجود ثم اقتل كهيلة واقتل نفسي فتسفح الدماء في قاعة العرش ويقول العالم اجمعان زينب الملكة قاتلة الابرياء. وجرد خنجره الذي لا يفارق ثوبه ويداه ترتجفان ..

فنهض حطان قائلاً : مولاتي الملكة !

كأنه يقول لها : لقدكفى فاحفظي حياة الحبيبين

فابتسمت عندئذ ابتسامة الرضى وهي تقول لقد انتهى الان كل شيء .. امسحي دموعك يا وصيفة الملكة واغمد خنجرك يا قائد الحرس فانتما احب الخاصة الينا وستمسيان زوجين تحدق بهما البركات والنعم بعد عشرة أيام ..

فارتمت كهيلة الى حضن ابيها تذرف الدموع وراح ابن حمدان يتفرس في الملكة كأنه اصيب بالذهول

والقوم يضحكون وكثيراً ما كانت زينب تترفع عن الضحك ثم استفاق الفتى من ذهوله فقال : لقد اختبرت قائد الحرس فكان مجنوناً ..

قالت : لكنه جنون يستحق اعجاب الملكة .. انهضي يا كهيلة .. فقامت كهيلة فجثت على قدمي العرش وهي تشهق بالبكاء

فقالت لها : لقد كان امتحان الملكة قاسياً يا كهيلة أليس كذلك ؟

ـــ : نعم يا مولاتي حتى احسست ان روحي تتفلت من جسدي

ـــ : وكنت تقولين في نفسك ان الملكة التي احييتِ الليالي في خدمتها كانت ملكة ظالمة تقابل الخير بالشر

قالت : لم يتسع لي يا مولاتي مجال التفكير في غير السجن الذي تحجب جدره ابي وحبيبي ومليكتي عن عيني .

فقال معن : اما انا فقد فكرت فيما تقولين ايتها الملكة !

قالت : ومع ذلك فقدكانت الامثولة ابلغ مما نظن

ـــ : ولكني لم ادرك الحكمة في كل ما جرى

فقال حطان : لان الغضب استولى عليك فلم تدرك شيئاً . ان الملكة تريد ان تكون في بلاطها اماً لجميع ابناء المشرق ومستودعاً لاسرار رجال البلاط أفهمت الان ؟ ـــ لا

قال : ألم يبرّح بك الغرام حتى كاد يقتلك الصبر ؟

— : بلى

— : اذن فاعلم انه لا يجوز لك ان تبوح لاحد قبل الملكة بعاطفة قلبك .

قال : ما كنت لأ كتم الملكة سري لولا هيبتها التي تملأ نفسي .

فاجابته الملكة قائلة : اما خليفة اذينة فلا تريد ان تطرف عين في بلاطها دون ان يكون لها في ذلك رأي .. ان حياتنا لا قيمة لها ان لم تكن عنايةً بخاصتنا وعطفاً على المخلصين لنا .. فاذا اردتم امراً فاجعلوا الملكة وسيلةً للحصول عليه ولا تعيشوا في القصر وراء حجب من الاسرار ..ثم قالت : واما ما رأيته من مظاهر الجفاء فقد كان درساً خاصاً تعنى به الملكة في حياتها لتلمس بيدها جميع نواحي البطولة في الرجال .

فقال حطان : وقد جاء دور حطان الان في الاختبار

قالت : تختبر ماذا ؟

قال : اختبر جود الملكة .. ألم تجعلي موعد الزواج بعد عشرة ايام ؟

قالت : بلى

— : ثم ألم تروعي هذين العاشقين حتى كادا يلمسان ليأسهما شبح الموت ؟

فابتسمت قائلة لزبدا وزباي : سيسمعنا هذا النبي شيئاً جديداً .. نعم يا حطان

قال : أليس لهذا الترويع ثمن يا مولاتي ؟

فقال زباي : ان ثمنه الاذن في الزواج .

قال : اما هذا وحده فلا يكفي لانه لم يقم في ذهن الملكة ان تمنع هذا الاذن..

قالت : اطلب اذن ما تشاء

قال : ان قائد الحرس لا يملك في تدمر قصراً خاصاً يليق به

قالت : كأنك تسألنا ان نهب له قصراً ! قال : نعم

قالت : لقد اعطيناه قصر الابراج القائم على ضفة الغدير

فقال معن : حسبي رضاك يا مولاتي الملكة !

قالت : ليس المجال مجال رضى بل مجال دلال قل يا حطان

قال : والقصر تتبعه ارض فسيحة الارجاء ليست في الوادي ولا في الجبل .

قالت : اقطعناه ارضاً في هذا السهل الممتد الى الجنوب الشرقي من المدينة مع خولها والعبيد .

قال : أتهبين كل ذلك لقائد الحرس في الدولة ام لمعن بن زبيد الحمداني .

قالت : لمعن بن زبيد   قال : وكهيلة ؟

قالت : اما كهيلة فهي وصيفتنا وسيدة نساء الشرف وسنرى ماذا يصلحها !

قال : استحلفك برأس مولانا وهبلات ان تذكري لنا احسانك اليها .

قالت : ولماذا تلج في الطلب ؟

ـ : لاني حلفت ان آخذ من خزينة التاج مالاً كثيراً للعروسين

فضحكت الملكة والقائدان لهذا الاعتذار الغريب .

ثم قال زباي : اذن على الملكة ان تبرّ في يمينك ! !

قال : اجل افلا تريد الملكة ان نبوح لها باسرارها ونجعلها وسيلةً للحصول على اغراضنا .

قالت : اصبت ايها اليهودي .. انك اظرف الناس وسنفعل ما تشاء .. لقد اعددنا لوصيفتنا عقداً من تلك العقود التي تحلي عنق الاميرة ابنتنا الكبرى ومشملة من الارجوان تشتمل بها يوم العرس كالمشملة التي تضعها الملكة على كتفيها . ولا تنسَ يا حطان ان الملك سيفعل كما فعلنا ونحن نعطي باسمه .

قال : ما هي عطية الملك يا مولاتي ؟

قالت : اربعة افراس ومئتا ناقة وعشرون بعيراً لابن حمدان من افراس ونوق وهبلات . وخمسمائة ناقة من نوق الملك . ومثلها من نوق خيران وتيم الله

قال : ارى الملكة تذكر وهبلات ثم تذكر الملك ..

قالت : ان وهبلات ابن اذينة بصفته اميراً لا ملكاً . يعطي معناً ما ذكرنا من الافراس والنوق ـ ثم يعطيه بصفته صاحب التاج عطيةً اخرى كما تقدم ـ ايعجبك هذا ؟

وكهيلة ومعن ينظران الى الملكة بعيون تطفح بالشكر وهما لا يتكلمان وقد استند زبدا الى جدار القاعة وهو يبكي بكاء الفرح .

فقال حطان : بقي شيء آخر يا مولاتي لا بد منه ليفاخر ابن حمدان غيره من قواد الجيوش والمقربين الى المللوك ..   قالت : ما هو ؟

قال : ان تشهد الملكة والملك حفلة العرس ..

قالت : يظهر انك تحب معناً كما تحب نفسك

فقال زباي : لقد سبقني حطان الى هذا الرجاء .. اني انا ايضاً اطلب اليك ان تفعلي فليس احد اعز عليّ في هذا العالم بعد الملكة وابنائها من هذا الفتى . افلا

اماه.ن ايتها الملكة اني امسيت اباً له بعد قتل زبيد وان ذلك القتيل عهد الي ّ في العناية به والعطف عليه عنايتي وعطفي على زينب ؟

فترددت في الجواب . لقد ذكرت في تلك الساعة كبرياءها وعزها اللذين هما صورة عن كبرياء الآلهة وعز الآلهة . وراحت تفكر في ذلك الاقتراح الذي يحطها من سمائها ويطمع بها وجوه الدولة واهل البلاط

ولكن معناً سليل النبلاء وسيد قومه ، وهو قائد الحرس الثابت اخلاصه للعرش . وكهيلة بنت القائد الاكبر الذي ينتمي الى آل السميدع وله المقام الثاني في الدولة . وزباي .. زباي ابوها وابو معن بحكم وصية ابيه .. واي رجل في نظرها اعظم من ذلك الاب البار الذي يخضع لها كما تخضع العامة ويطوف في الاقاليم الشرق لينشر مع فرسانه نفوذ العرش .. وحطان .. ان حطان حارس التاج وخادمه والباذل راحته ليحميه من خصومه ولولا حطان ورفاقه الحمصيون لكان التاج باقياً على رأس معني .. فماذا تعتذر لهؤلاء وهم رجال الشرف والوفاء واصحاب الفضل على الدولة ؟..

لقد استعرضت في تلك الساعة جميع هذه الشخصيات اللامعة ورجعت الى نفسها فلم تجد انها اكرم منها محتداً واشرف نسباً بل رأت انها لا تفضلهم - فيما يعني المقام - الا بذلك الكرسي العالي الذي جعلتها فوقه الاقدار .فغلب عقلها السامي . تلك الكبرياء العجيبة . وآثرت الظهور بمظهر العطف على الظهور بمظهر العز . ان في مثل هذا الامتزاج الملكي الهادئ تستطيع الجالسة على العرش ان تشتري قلوب النبلاء

ولكنها لا تظهر قبول ذلك الرجاء . قبل ان يلتمسوه بجميع مظاهر الاستعطاف ذلك كان اسلوبها الذي تمليه عليها الكبرياء .

فقالت لزبدا : وانت يا زبدا . اتريد ان ترأس الملكة حفلة الزواج ؟

فقال : اذا رأيتِ يا مولاتي اننا اهل لهذا فافعلي

قالت : لقد ذكرنا الان ذلك القيصر التعيس فالريان يوم قدم تدمر زاحفاً الى الرها .. أنسيت يا زبدا ذلك اليوم ؟

قال : بل اذكره يا مولاتي كأنه يوم امس

قالت : ان اذينة في ذلك الحين لم يكن ملكاً .

قال : نعم

قالت : ومع ذلك فزينب التي كانت زوجة قنصل لم تخرج من قصرها لتستقبل الامبراطور . اتعرف لماذا ؟

قال : لان شخصية زينب لم تكن شخصية عامة كما هي اليوم . كان على اذينة وحده ان يستقبل القيصر دون ان ترافقه زوجته في ذلك الاستقبال .

قالت : ولكن نساء القياصرة يخرجن الى الساحات في حفلات الروم ومواكب النصر .

قال : هبي ان غاليانوس الامبراطور قدم تدمر اليوم افلا تخرج الملكة لاستقباله وهي رأس الدولة ؟

قالت : لا وقد نمنع ولدنا وهبلات من الخروج لهذه الغاية .. ان تحجبنا عن القيصر في ذلك اليوم . كان دليلاً على ان زوجة القنصل اعظم منه وارفع من ان تمد يدها اليه قبل ان ينحني هو امامها ماداً يده اليها .. نعم انه اوسع منا سلطاناً وابعد نفوذاً ، وهو ينشر ظله فوق ثلث الأرض . غير انه لم يكن ولن يكون اعز نفساً ولو اجتمع الرومان خاصتهم وعامتهم لما استطاعوا ان يذلوا هذه النفس

فتصدى حطان قائلاً : ويوم قدم الجيش من حمص حاملاً لزينب تاج اذينة وطاعة الشرق ؟. قالت : ماذا تريد ان تقول ؟

قال : اقول ان الملكة لم تشأ ان تغادر بلاطها لتصافح قوادها بل ارسلت اليهم تيم‌الله وخيران .. قالت : نعم

قال : لاجل ذلك ارى انك ستقولين ايضاً ، ان الملكة التي لم تشهد موكب فالريان ولم تستقبل قوادها الظافرين لا تنزل عن كرسيها لتشهد حفلة زواج ..

فابتسمت قائلة : لقد صدق الذين قالوا انك نبي

قال : ولكن الرومان شيء ونحن شيء آخر ايتها الملكة

قالت : اجل ولكن جميع تلك المظاهر مظاهر خفة . فاذا ترفعت الملكة عنها فلكي يعلم الرومان انها اعز من نساء قياصرتهم .

قال : اذن اسمحي لحطان الذي اراد ان يعجل ابن حمدان في زواجه أن يسأل الملكة ان تترك هذا العز الآن .

قالت : اشرح لنا ما تقول يا حطان . لماذا تعجلت في طلب الزواج ؟

قال : لاني رأيت ان الحمداني اذا لم يتزوج اليوم فقد قضي عليه بان يهجر كهيلة الى الأبد .

: لماذا ؟

ـ : لان الملكة ستنصرف الى التوسع في الفتح . ومتى غادر جيشها تدمر لاحل هذا الغرض فمعنى هذا ان العاشقين قد افترقا

ـ : اذن انت الذي ظننت ان الملكة لا تفي بما وعدت ؟

قال : بل اعتقد انها مثال الوفاء واحرص الملوك على البر بالوعود ، ولكن الحرب يا مولاتي .. آه يا مولاتي ان الحرب لا ترحم احداً واذا صعد المرء في سلم مجده وارتفع الى الاعالي صعب عليه ان ينزل من سمائه لينظر في امور المخلوقات التي تعيش على سطح هذه الارض ..

انك تعطفين على الرجال الذين يحرسون التاج غير ان هذا العطف لا يلبث حتى يتوارى وراء حجب الفتح كما قلت . وذلك التيار العظيم الذي يقذف بالجنود الى ساعات القتال يجرف الآمال والعاطفة ويلقي بها في قاع البحر ..

قالت : قد تكون مصيباً في هذا ولكنك مخطئ في الطلب الآخر .

قال : أليس لحطان خدمة تستحق الجزاء ؟

قالت : أتمن علينا ايها اليهودي ؟؟

قال : ليس في هذا منة بل استعطاف ، اني اسأل الملكة ان تكافئ هذا اليهودي بالعطف على ابن حمدان .. وهل يطمع هذا الفتى بأكثر من ان تشهد الملكة حفلة زواجه وتظهر للرومان انه الخادم الأمين الصادق في خدمة مولاته ؟

فقاطعته قائلة : يكفي .. انك تحسن الالتماس كما تحسن قراءة الافكار لقد وعدناك بهذا ايضاً فماذا تريد بعدُ ؟

قال : اريد ان تخفق اعلام الملكة فوق جميع هذا العالم وذلك حسبي .

فنظرت عندئذ الى العاشقين قائلة : ستجري حفلة الزواج في البلاط وستكون الملكة على رأس المهنئين ، فهتف القوم جميعهم لزينب ولوهبلات ..

ثم امرت بالقهرمان فاحضر . فقالت له : بعد خمسة ايام يحتفل التدمريون بزواج هذين الحبيبين في بلاطنا . فاعد للحفلة كل شيء ..

فحياها الرجل وهمّ بالانصراف

فقالت : على ان تعلم ان هذا الاحتفال يشبه الاحتفال بعيد جلوسنا على العرش

فارتمى العاشقان على قدميها وهم يرددان الفاظ الشكر ، واشرقت وجوه الوالدين وحطان من الفرح .

٢٣

الأيام الخمسة التي مرّت على العاشقين كانت في نظرهما اطول من خمسة اعوام وقد قضياها مجتمعين لا يفترقان الا في آخر كل ليل . ذلك لان امر الزواج قد انتشر في القصر وتناقلت الافواه ارادة الملكة . فاخذت الوصائف والخصيان ينظرون الى الاثنين نظرهم الى ملكين ترتفع بهما اجنحة الغرام الى الجنة

وذلك الحياء الذي كان يفصل بينهما ويبعد الواحد منهما عن الآخر لم يبق له وجوده فقد كانا يتشاكيان الهوى في وضح النهار وفي ظلام الليل . لا يخشيان ان تفضحهما العيون .. وكانت الرسل قد اتجهت الى البادية والى حمص تدعو رؤساء العشائر وآل حمدان وغيرهم باسم الملكة للاشتراك في العرس . فلما حان الموعد . كانت تدمر تعج بسادة القبائل وابطال الصحراء . واشراف حمص وبعلبك ودمشق . اقبلوا جميعهم ليهنئوا البطل الحمداني ، ويشهدوا ذلك العرس العظيم الذي تهتم له الملكة المعبودة . وقد لبس البلاط حلة زاهية خلابة وبدت على وجوه المقيمين فيه مظاهر الفرح والاستبشار . وفتحت ابواب القصر واذن في الدخول .. فامتلأت قاعاته واروقته ودهاليزه نساء ورجالاً واقاموا ينتظرون الملكة والعروسين .. وعلى مدخل قاعات الملكة والملك . قامت الحراس بالجنود والحراب ، ووقف فريق من صغار القواد في مقدمة الصف ليحيوا الملكة وموكب العرس . هذه هي زينب قد اقبلت .. يدها بيد وهبلات الملك الحامل صولجان ابيه ، ترسل عيناها اشعة الكبرياء والجلال وتبتسم لمن حولها ابتسامة هي ابتسامة الاله لعباده .. ووراءها معن بن حمدان الى جانب والد الملكة وكهيلة مستندة الى ذراع ابيها زبدا ، وبين هؤلاء تيم الله وخيران بلباس العيد

وقد خلعت زينب ثوبها الأسود ، وظهرت بثوبها الأبيض الناصع ، ابلغ مظهرٍ تقع عليه العين من مظاهر الجمال الفتان ..ومشت خلف الجميع طائفة كبيرة من حسان العرب ، هنّ وصائف الملكة ونساء الشرف في البلاط يتدفق الحسن من وجوههن وتتمشى الفتنة في اعطافهن . وليس في ذلك موضع للغرابة فنساء زينب اميرات الجمال في تدمر وفي قبائل العرب ، اذا درن حول ملكة القصر كانت شمساً وكنّ طفاوة لتلك الشمس .. وحطان يمشي على مهل وهو

يحمل اكليلاً من ازاهير الصحراء التي تنبت في ظلال الصخور .. فضج القوم بالهتاف ، وانفرجت صفوفهم ليسير موكب القصر بين الصفوف الى قاعة الجلوس

وكان رئيس كهان الهيكل وبعض رجاله ينتظرون في تلك القاعة قدوم الملكة والملك ومعهما طالبا الزواج ، ان رئيس الكهان العظيم لم يكن يغادر هيكله الا لمصافح الملكة والملك في عيد الجلوس ، ولكن زينب ارادت ان ترفع العروسين في نظر الشعب ، فبعثت اليه تأمره بالحضور ، ويكفي ان تظهر زينب رغبتها في امر ليبادر كهنة هيكل بعل وسدنته الى تنفيذ ذلك الأمر .. حتى ان رئيس الكهان الذي تخضع له الملوك كان خاضعاً لزينب دون ما نظر الى نفوذه الذي لم يكن له حد في طبقات الشعب . ومن الطبيعي ان تملأ هيبة الملكة نفوس هؤلاء الرؤساء ففي دولة الشرق ماتت الرئاسات بعد ان تربعت الارملة في العرش ، واستسلم اليها ذوو السلطان لا يرتفع صوت الا صوتها ولا يصدر امر غير امرها الذي لا مرد له . فلما دخلت القاعة حنى القوم رؤوسهم من جانبيها فمرّت لا تنظر الى احد ولا تعبأ بتلك الرؤوس حتى جلست مع الملك وأومأت الى الناس تأمرهم بالجلوس .

ثم قالت : لقد اردنا ان نظهر حبنا لقائد حرسنا فجعلنا زواجه تحت رعايتنا وامرنا بان يحتفل في بلاطنا بهذا الزواج .. ان العروسين احب الناس الينا وليس في الدولة من هو اسبق منا الى مكافأة المخلصين .

انظروا . لقد كان زبدا والد كهيلة . ومعن بن حمدان اصدق الرجال في خدمة اذينة كما هما اصدقهم في خدمتنا ، فاذا بالغنا في تكريمهما فذلك لاننا نعترف بفضل الرجال وما كنا لنغمط اصحابنا ونغض طرفنا عما يبذلونه في سبيل العرش .. انك يا زبدا ركن عرشنا وانت احد حراسه يا ابن حمدان ، فاعلما وليعلم الناس ان هذا العرش مدين لكما بقوته وثباته . وليس في هذا العالم قوة تستطيع ان تنسي الملكة وفاء انصارها الامناء الذين التفوا حولها في ساعات الضيق . ولكن .. ولكن الملكة التي تعرف الانصار تعرف في الوقت نفسه اعداء التاج والويل لهؤلاء من يوم يظهر فيه كل شيء .

ولم يكن للملكة اعداء كما رأيت ، بل لم يكن في دولة الشرق كلها رجل واحد يضمر لزينب شراً فاولئك المتآمرون الخونة لا يملكون في المنفى وسيلة واحدة من وسائل الثورة والاغواء . ولو وفرت لهم جميع هذه الوسائل لما

حدثتهم النفس بالخروج على ملكه تدمر التي يعبدها ابناء الشرق

ولكنها كانت تجس نبض القوم ، في ذلك الأسلوب الجاف فتبعث الخوف الى الصدور ، ويستولي الذعر على قلوب الذين يظهرون لها طاعة كاذبة اذا وجدوا بينهم .

فاجابها الكاهن الأعظم قائلاً : اتظن الملكة ان في تدمر خصوماً للتاج ؟

قالت : ان الملكة تعرف اين يوجد هؤلاء الخصوم .. ثم غيرت حديثها فجأة قائلة لحطان : أيطيب لك شرب الخمر يا صاحبنا ؟

فقال : اني لا اشربها كما تعلمين ..

قالت : واذا امرناك بان تفعل حتى تصرعك ويهزأ بك القوم ؟

قال : لو كان الموت كامناً لحطان في كأس الخمر لما تردد في شربها اذا كان في ذلك رضى الملكة .

قالت : كنا نظن انك تفر من الموت اذا تمثلت لك صورته الرائعة ..

قال : اما الفرار فمن شأن الجبناء وما كان حطان جباناً .. لقد رأيت ان اسأل الملكة سؤالاً

قالت : سل ما تشاء على ان لا تجاوز الحد في سؤالك .

قال : ان في هذه القاعة غلماناً كثيرين يسقون الناس .

قالت : نعم !

قال : فلينصرفوا الى اروقة القصر حيث يكثر القوم !

قال : واجعليني يا مولاتي ساقياً اهب الخمر لمن اشاء وامنعها من اشاء .

فقالت لمن حولها : لقد عرف اللعين كيف يحتاط لنفسه .. سنفعل هذا يا حطان بعد ان يتم الزواج ..

وباسلوب مختصر هادئ – على عادة القوم في ذلك الزمان – تم العقد بين العروسين ، واصبحا زوجين .

فسجدا امام الملكة . وتناولت هذه عقداً من اللؤلؤ الثمين في وسطه قطعة من الذهب حفرت على وجهيها صورة زينب وصورة وهبلات ، فطوقت كهيلة اياه . ثم اعطتها احدى الوصائف مشملة من الارجوان فجعلتها على كتفي العروس ، ومدت اليها يدها لتلثمها علامة الرضى .

ثم جاء دور الملك ، الملك الصغير الذي يستظل بظل امه .. فقال لمعن :

انهض ايها الخادم الأمين !

فنهض ابن حمدان ودنا من الملك ليشد وسطه بيديه الصغيرتين الناعمتين منطقة من الذهب تشبه جدائل السيف المصنوعة من خيوط الحرير . ولما لم يستطع ان يفعل ذلك . اومأ الى جده زباي فاخذ هذا المنطقة منه واحاط بها خصر قائد الحرس والناس ينظرون ويهتفون . ثم أمر له بالخيل والنوق التي ذكرتها امه قائلاً له : كل ولد يولد لك يا ابن حمدان فهو في حمى الملك ما بقي في تدمر عرش للدرية اذينة .. ولو نظرت الملكة والقواد الى زاوية من زوايا القاعة ، لرأوا دموع حطان تسيل على خديه ودلائل اليأس والقنوط مطبوعة على جبينه ..

ان في بكاء ذلك اليهودي لسراً غامضاً لم يبح به لاحد من الناس . اجل ، قد تكون الدموع مظهراً بليغاً من مظاهر البهجة والاستبشار . كما هي مظهر من مظاهر الكآبة واللوعة . ولكن دموع حطان لم تكن دموع فرح .ان وجهه المكفهر كان في تلك الساعة وجه رجل مهموم ساهٍ . والناظر الى عينيه الذابلتين يرى فيهما كآبة نفسه ! ! وقد نسي الرجل موقفه فاستسلم الى البكاء .. والقوم غافلون عنه منصرفون الى ذلك المشهد الفاتن الذي يسمعون فيه وهبلات الصغير يتكلم كملك .. وازدحمت الوفود تسجد للملكين وتهنئ الزوجين .. وحطان لا يتحرك ولا يبصر احداً .. كأنه في عالم آخر لا يرى منه ما يجري في بلاط زينب..

حتى افاق من ذهوله وهو مذعور . كالنائم يرى حلماً مزعجاً ثم يستيقظ ناظراً الى جانبيه .. ومسح دموعه ومشى الى الامام وعيناه ترسلان شعاعاً من الذكاء .. لكنه لم يصافح معناً وزوجته . بل يحدق الى الملكة وقلبه يضطرب في صدره .. وكان يقول في نفسه : ارى جبين زينب كجبين اذينة .. خطوطه متقاربة سوداء . وبين حاجبيها سطر عريض لا يظهر حتى يختفي .. اللهم .. يا إله اسرائيل ما هذا الذي اراه ؟.. ولعلّ القدر لم يشأ ان يتمادى حطان في تفكيره

فان عيني الملكة كانتا تبحثان عنه حتى وقع نظرها عليه فأومأت اليه بان يدنو منها ثم قالت : اين كنت يا حطان ؟

قال : كنت غائصاً في هذا البحر العجاج ! واشار الى القاعة .

قالت : يخيل الينا اننا نرى آثار الدمع في عينيك !

فبدت على وجهه ابتسامة صفراء ثم قال : اجل يا مولاتي . لقد رأيت الناس يسجدون للملكة كأنها بعل . ويحنون رؤوسهم امام فتاك الصغير الذي هو صورة

ابيه اذينة ورأيت معناً وكهيلة يبتسمان لحياتهما الجديدة كأنهما طفلان والاخلاص يطل من عيون حراس العرش الذين يحفون حول الملكة .. اجل رأيت كل هذا فاستهوتني روعة المشهد فبكيت .

قالت : اذا كانت الدموع دليل الضعف فان دموع حطان دموع القوة ، اتريد ان تكون ساقياً ؟

قال : بل اريد ان تعطيني الملكة يدها لتلمسها شفتاي .

ثم جثا على ركبتيه وقبّل تلك اليد الممدودة اليه قبلةً طويلةً حبست معها انفاسها فاحست زينب ان النار في تينك الشفتين .. ثم قبل يد وهبلات ونهض يصافح معناً وكهيلة ويدعو لهما وقد طاقته الكآبة ونسي تلك الخطوط التي ظهرت في تلك الساعة على جبين زينب .

* * *

اسقِ القوم يا حطان حتى يخيم الظلام

قالت زينب هذا وخرجت مع وهبلات تتهادى بين الوصائف حتى حجبتها الجدر عن العيون .

ان القوم سيشربون ، وهي لا تجالس غير السفراء والامراء في مجالس الشراب..

فعمد حطان الى الخمر يسقي الناس دون حساب . وسكروا حتى ملأت عربدتهم بلاط زينب ، وحجاب القصر وخدمه يطوفون حولهم بأمر الملكة ويمطرونهم خمراً . حتى اقبل الليل ، فاذا عطايا الملكة تملأ الأيدي واحسانها يعم الجماعة الى حد انه لم يخرج من القصر رجل الا والمال بين يديه .. فلما انصرف القوم خرج العروسان الى قصرهما الجديد الذي انعمتهما به الملكة يتبعهما الخدم وفريق من الحراس . ودخل زبدا وزباي الى قاعات الملكة بامرٍ منها ليدرس الثلاثة بعض الشؤون .. اما حطان فانزوى في غرفته يستعرض الماضي وينظر الى المستقبل بعينين مضطربتين حائرتين ..

زينب والقياصرة

الانصراف الى الفتح – جنود زينب من العرب

لقد قرأت فيما مرّ . ان غاليانوس قيصر . اضحى في السنة الاولى للملك ابيه ، ملكاً جباناً خوّار الهمة ، لا يستطيع ان يصون تاجه ويحمي الملك .. وكان وزراؤه ورجال بلاطه، واركان حربه الابطال ينفخون في صدره روح اسلافه الذين اخضعوا العالم ونشروا الويتهم فوق السهل والجبل في الغرب والشرق خفاقة في سماء الظفر .

ثم تمادوا في القول ، فامسى نصحهم عذلاً . ثم جاوزوه فلاموا القيصر على قصوره . وملأوا مجالس روما من هذا اللوم . وكانوا اذا ارادوا ان يصفوا عجزه ذكروا نهوض زينب وتراخيه ، وعز الارملة وخموله ، وقوتها وضعفه . قائلين له : ان هذه الأرملة التي خلفت زوجها ستسلب القيصر تاج الملك .

ذلك لان شهرة الملكة الجبارة تغلغلت في بلاط القيصر وقصور امرائه واكواخ الرومانيين ، حتى اذا ذكرت زينب في المجالس دب الذعر في القلوب .

اجل . كان الزمان يرفع زينب ويخفض غاليانوس . هي تمشي الى العلياء وهو يرجع الى الوراء ، وقد ينتهي الأمر بان تدخل المرأة روما دخول الفاتح وتحطم عرش الرومان . فأثرت في قلب القيصر نصائح رجاله ، وافاق من غفلته متذرعاً بالعزيمة الثابتة ورباطة الجأش . وماذا يفعل القيصر ليحفظ عرشه ؟. انه يبث العيون في عاصمة الشرق على الملكة الطامعة . ويحصي عليها انفاسها وهي في القصر ، حتى اذا دنت منه شبراً دنا منها ذراعاً ، وفي غير هذا الحرص لا يستطيع ان ينجو من اطماعها التي ليس لها حد .. ومن حق القيصر ان يفعل هذا ؛ وهو يرى اسم حليفته ملء النفوس ، وعماله وسفراؤه في الشرق ينقلون اليه من حين الى حين اخبار تلك العظمة التي يبصرون . بل كانوا ينقلون اليه ان المرأة تستخف بسلطانه ؛وقد ذكرت لقوادها غير مرة انها سترحف الى عاصمة الرومان وتدك اسوارها . وتدخلها على عجلة من الذهب يجرها النبلاء والامراء ..

وانت ترى انهم لم يكذبوه القول ، فذلك ما كانت تفكر فيه ملكة الشرق كما قرأت . وللجدر اذان تسمع الاحاديث التي تقال ؛ فتتناقلها الأفواه حتى

تبلغ السفراء ، وهؤلاء يبعثون بها الى الجالس على العرش . نعم ، ان زينب لم تنسَ روما ، فروما في نظرها هي العالم ، وعندما تعصب رأسها بتاج القيصر فمعنى ذلك انها استولت على كل شيء ودان لها البر والبحر .

وفي تلك الليلة .. ليلة زواج معن بن حمدان دعت اليها قائدي الجيش لتضع بالاشتراك معهما خطة الفتح .. لم تكن آسية الصغرى كلها خاضعة لزينب .. ان الاقاليم التي اخضعها اذينة تركها له الرومان . واما الباقي ، القسم الداخلي من آسية ، فأقاليم يخفق فوقها علم القيصر ، وسلامة ملك الرومان ، تقضي عليهم بالاحتفاظ بهذه الاقاليم . على ان زينب كانت ترغب في اخضاع جميع الاقطار ، تملك آسية اولاً ثم تزحف الى مصر .. حتى اذا تمّ لها الفتح كما تشاء ، اختارت لها بعد ذلك باباً يدخل منه عاصمة الرومان .. ولكنها حليفة القيصر كما كان زوجها حليفاً له . والسياسة تقضي بان تجد لها عذراً قبل المجاهرة بالعداء .

فلما اقبل عليها زبدا وزباي كانت قد خلعت ثياب العرس وجلست بين الوسائد في احدى القاعات تحمل في يدها درة من جلد قبضتها من العاج

فأومأت الى الوصائف بالانصراف واغلق الباب ..

فقالت : اين تنتهي حدود دولتنا في آسية ؟

فأجابها زباي مستغرباً : انك تعرفين يا ابنتي اين تنتهي هذه الحدود ..

قالت : نخشى ان تخوننا الذاكرة فالامر خطير ..

فقال زبدا : تنتهي حيث تبدأ حدود الرومان في اقليم بيتينية

قالت : ويفصل بيننا وبين حلفائنا نهر صغير ..

قال : نعم وعلى ضفته الشرقية يقوم حرّاس الدولة .

قالت : صف لنا يا زبدا اقليم الرومان .

قال : اقليم واسع جداً لا اعرف آخره ، وهو البلد المخصب الكثير الخيرات .

فقاطعته قائلة : لا نسألك عن هذا ؛ فالخصب في ارضنا يكفي الشرق كله . ولكن نسألك عن قوة الرومان فيه .

— : ان قوى الرومان تقل في الاقاليم التي تجاورنا لاننا حلفاء .

قالت : هذا ما نريد ان نعرفه .. ومن يرأس الحامية من قواد الرومان ؟

— : لا اعلم لاني لم ارَ قط هذا القائد .

— : وانت يا ابي ؟

فقال زباي : وانا ايضاً لم اره في زحفنا الاخير .
قالت : والنهر ضيق كما قلنا لا يمنع عبور الجيش ..
قال : اذا وثبت الخيل طبعت حوافرها على الشاطئ الآخر .. أتبدئين بالفتح يا زينب ؟
– : اجل . فقد انتهينا من الداخل وسننتقل الى بلاد الناس ..
فاستوى زبدا في مقعده وبرقت عيناه
فابتسمت قائلة : لقد تاقت نفسك الى الحرب يا قائدنا أليس كذلك ؟
قال : نعم فلقد استسلمت الى الراحة حتّى كدت انسى القتال .. ولكن ..
– : ولكن ماذا ؟
– : ان الرومان سادة الميادين فعلينا ان ننظر في امر الجيش قبل ان نشهر السيف
قالت : لا ننقل قدماً قبل ان ننظر في كل شيء
قال : وهنالك شيء آخر ايتها الملكة ؟
– : ما هو ؟
– : هو هذه المحالفة التي بيننا ، اتقتحمين بيتينية ولا تبالين
– : بل نقتحم روما اذا كان لا بد لنا من الفتح ..
– : اذن فقد اصبحت روما وتدمر عدوتين ..
– : وماذا يمنعنا من هذا العداء ؟
– : امامنا امران لا ثالث لهما . اما ان تحملي السيف وتطردي الرومان من الشرق على ان لا يكون بعد ذلك صلح ، واما ان تفتحي الاقاليم ويعقب الفتح الاعتذار

فاعجبها رأي زبدا الذي هو رأيها . ولكنها تجاهلت قائلة :
واي امر من الاثنين تختار ؟ قال : اختار الثاني
وهكذا قال زباي فقالت : لماذا ؟
قال : لانه اسلم عاقبة ايتها الملكة ، ومنذ تولّي اذينة امر الملك الى اليوم ونحن نظهر الاخلاص للرومان ونمشي الى غايتنا بقدم ثابتة لا يعرض لنا سيف روماني
– : ولكنها سياسة خداع ايها القائد !
– : بل هي القوة والدهاء .. ان آسية الصغرى كلها كانت للرومان فاخضعنا بعضها لتدمر والرومان ساكتون ..

— : وما هو السر في هذا ؟

— : هو اننا لا نجرد السيف الا باسم القيصر واذا ظفرنا استثمرنا نحن ذلك الظفر ..

قالت لقد نسيت شيئاً يا زبدا .. ان القيصر نفسه هو الذي ندب اذينة الى قتال خصومه في تلك الاقاليم ، ولولا تمرد بعض قواد الرومان على غاليانوس لما خطر ببال هذا ان يستنجد بزوجنا لضرب اولئك المتمردين . اذن فنحن – على هذا القياس – لا نخطو خطوة واحدة الا باذن روما وان لم تأذن لنا قضي علينا بان نرضى بهذه البقعة الصغيرة من الشرق ملكاً لنا ولمن يخلفنا على العرش .

قال : اما انا فلم انسَ الماضي يا مولاتي . ان القيصر لم يأمر اذينة بالذهاب الى آسية كما تقولين . لقد كنا نحاصر المدائن في ذلك الحين وكان سابور يهم بالاستسلام الينا لو لم تبلغ اذينة اخبار مكريانس الذي خان فاليريان وعزمه على اغتصاب العرش الروماني .. اجل يا مولاتي ، اني اذكر ذلك اليوم ولا انساه . فان زوجك الملك . آثر ان يحفظ الأمن في الشرق على فتح عاصمة الفرس ، فرجع الى تدمر حيث نودي به ملكاً ثم زحف من هذه المدينة الى حمص فالجزيرة فبعض اقاليم الفرس . يفتح الاقطار ويخوض الميادين باسم القيصر ، ثم يضمها الى ملكه والقيصر راضٍ عنه لا يقول كلمة ..

قالت : كأنك تقول اننا لا نحمل السيف الا لنضرب به اعداء الرومان

قال ان عدو الرومان هو في الظاهر عدو الملكة ، فاضربيه يا مولاتي .. اضربيه ان تلك الضربة التي تسقط على رأسه تسقط في الوقت نفسه على رأس القيصر فيحني ذلك الرأس ولا يجرؤ ان يرفعه ..

فالتفتت الى ابيها تسأله رأيه . فقال هكذا كان يفعل اذينة من قبل ، ان الجيش الذي تقودينه لاخضاع بيثينية ، سيتصدى له جيش آخر يقوده الرومان . فتنصرف قوى الفتح الى الدفاع ويفنى الجيش في حروبٍ لا تنتهي بيننا وبين قيصر .

قالت : وماذا ترى ؟

قال ان الخوارج الذين طاردناهم في جبال آسية يحملون من جديد لواء العصيان ..

قالت : وقد رأت الملكة ان تخمد ثورتهم فارسلت جيشها لهذا الغرض .

— : نعم ولكن بعض هؤلاء الخوارج فروا الى املاك الرومان ..

: اي انهم لجأوا الى بيتينية ..

- : نعم، فاضطر الجيش التدمري الى دخول ذلك الاقليم ليقضي على الجماعة

فضحكت زينب قائلة : انها حيلة لا بأس بها وهذا ما فكرنا فيه .. ولكن ، النطلي على الامبراطور ؟

فقال زبدا : سواء علينا ارضي بها ام لم يرض فقد فعلت الملكة ما يفعل الحليف مع صاحبه .

قالت : اتركوا آسية الان ..

فاجابها زبدا بهدوء قائلاً : لقد تركناها ..

- : وفكروا في تلك البقعة العظيمة التي يسقيها نهرها الفياض ..

- : مصر ؟ . - : مصر ..

- : أتفكر الملكة في الاستيلاء على ارض فرعون ؟

قالت : اجل . فهي اغنى اقاليم الرومان واعظمها آثاراً .. أنزحف اليها قبل آسية ام ماذا ؟

- : ليس لنا بمصر صلة ايتها الملكة

- : لو كانت لنا صلة بها لما كنا نفكر في فتحها . ان التوسع في الملك لا ينظر فيه الى البلد البعيد الذي تفصل بيننا وبينه السهول والبحار نعم يا زبدا ان الملكة ستستولي على ارض فرعون ولو عرض لها فيها القيصر وجنوده .

ثم قالت : ان تلك البلاد عزيزة علينا لاننا نشأنا فيها . وهي موطن امنا وملك كليوبطره ، وقد قام في ذهن زينب الفتاة – ايام كانت في مدرسة الاسكندرية – انها ستصير ملكة وتبسط نفوذها فوق ربوعها الزاهرة .

فعرف القائدان ان امر مصر قد انتهى وقد لا توجد في تدمر قوة تمنع الملكة من ذلك الفتح .

فقال زبدا : نبدأ اذن بآسية ايتها الملكة ، ثم نعود منها لنزحف الى مصر .

قالت : اصبت والاستيلاء على بيتينية سهل المسلك . اتعرف لماذا ؟

قال : لان لنا على الحدود جيشاً يفدي ملكته بدمه . والاقاليم التي وراءنا هي اقاليم تدمر لا نخشاها اذا اوغلنا في البلاد ، واما مصر .. مصر التي لا يربطنا بها رابط سياسي فليس لنا فيها احد الا اولئك الذين لا يحبون الرومان ونحن لا نعرفهم

قالت : بقي علينا النظر في امر الجيش كما قلت .

قال : اجل ، وعلى الملكة ان تبذل المال لرؤساء العشائر من جديد .

قالت : لقد اخطأ زوجنا في بذله المال لهؤلاء ..

قال : الذنب في ذلك ذنب الرومان فهم الذين وزعوا ذهبهم في البادية منذ فتحوا فتحهم الاول واشتروا الرجال .

— : ان الرومان غرباء ، اما نحن فأهل البلاد تجمعنا مع امراء الصحراء صلة الجنس والصحبة ، واذينة وحده هو الذي جمع كلمتهم وشرف موقفهم في نظر الفاتح الاجنبي

— : واذا كان هذا ؟

— : اذا كان هذا فالمال الذي يبذل للعشائر نبذله في شؤون الدولة وينتهي الأمر

— : ولكن الجنود تتقاضى الملوك اجراً يا مولاتي وليس في العالم جندي يشهر سيفه في الميادين الا اذا تناول هذا الاجر .

— : لم نرد افراد الجند فيما قلناه ، اننا اذا منعنا مالنا فعن الرؤساء الذين يستأثرون بنصيب الجماعات .

فقال ابوها : احذري ان تفعلي هذا يا زينب .

قالت : أتنقض علينا صواعق السماء اذا فعلنا ؟

قال : نعم فلا تهزئي بما تسمعين .. ان هؤلاء الزعماء انصاف آلهة في عشائرهم ولهم جعالة من بيت المال فاذا حُرموا جعالتهم فقد دفعتهم الملكة بيدها الى العصيان

فاهتزت لهذه الكلمة يقولها قائد الفرسان فقالت : لا نريد ان نصدق ان في دولتنا مخلوقاً يدفعه الغرور الى ان يعصي الملكة . ولمعت الكبرياء على ذلك الجبين الوضاح ..

قال : انهم قوم تعودوا العصيان والصحراء واسعة تحجبهم عن عيون الجيش.. ألا ترين يا زينب انكِ بحاجة الى سيوف هؤلاء ؟

— : ولكن هذا هو العجز !

— بل هي الحكمة فيما تفعلين . انك يا ابنتي تطمعين بملك الرومان والطامع بهذا الملك يحتفظ بجميع القوى التي تحطم عرشه . لقد صالحتِ سابور وكان عدواً لأذينة فاشتريت بذلك الصلح سكوت الملك الفارسي . وتمتع الشعب التدمري في جميع الاقطار ، بهدوء وراحة زهت معهما بلاده . ووفرت خيرات تلك البلاد ، أتريدين يا زينب ان توجدي لكِ في الشرق عدواً من قومك فيطمع بك الروماني الذي تمشين الى حربه ؟.. اني لا استطيع ان اعتقد ان زينب الملكة

التي ملأت المشرق د. ، وحكمة . وانحنت لها رؤوس الملوك فيه . لا استطيع ان اعتقد انها تنفر ابطال العرب الذين التفوا حول اذينة ، وخاضوا المجال تحت رايته يبعثون هيبته الى صدور القوم .

قالت : اذن ينتهي الأمر باصحابك الى استصغار شأن الملكة .

— : بل ينتهي الى الاستسلام والخضوع لها كما يخضعون لاصنامهم .

— : ثم ينفد المال فتزول هيبتنا من قلب الصحراء وتعمد العشائر الى المساومة والدلال . .

— : ان هذا المال لا ينفد وليس غريباً ان تعطي العشائر بعض الخراج الذي تدفعه لتدمر في كل عام . وكان زباي يتكلم وزبدا يهز رأسه ثم يحنيه مستحسناً ذلك الكلام .. اما زينب فقد بدت على وجهها دلائل عدم الرضى ..

فقال : سأقص على الملكة قصة الفتح الروماني في هذا الشرق .

قالت : وهل تجهل الملكة اسباب ذلك الفتح ؟

— : لا ولكنها درس جديد لنا في القضية التي نبحث الان .

— : ستقول لنا ان الرومان لم يملكوا الشرق لولا السيف العربي .

— : اجل ولولا العرب لما كان للرومان شبر من الارض ولما استطاعوا ان يثبتوا يوماً واحداً امام الاسد الفارسي .

— : وسيسترجع العربي ملكه بفضل المرأة التي تسود العرب اليوم .

— : الا تفعلين ذلك يا مولاتي بسيوف العرب ؟

— : بلى

— : لقد رأى القياصرة من قبل انهم يحتاجون الى ذلك البدوي المقيم في الصحراء ليبنوا بقوته دولتهم تحت هذه السماء .

— : ليس في هذه الدولة رجل اوسع اطلاعاً على تاريخ الرومان من الملكة

— : ولاجل ذلك اعيد ذكر ذلك التاريخ ، ان اهل يحدور — شمالي جولان — واهل حوران والرها كانوا رماة في جيش الروم

— : نعم !

— : وهم اعلم الناس بفن هذه الصناعة .

— : نعرف هذا !

— : وكان التدمريون واخوانهم رجال الصحراء يمشون في مقدمة ذلك

الجيش فتتراجع امامهم قوى العدو ..

— : ذلك لا ريب فيه

— : فلما رأى اذينة ان الرومان يستولون على الشرق بسيوف اخوانه . ترك قصره والعز الذي يكتنفه وعاش بين اوئلئك الاخوان في الصحراء ينفخ في صدورهم روحه المستقلة الحرة ويعدّهم لحادثات الزمان ..

فعرفت زينب الى اين يريد ان يصل زبدا في حديثه فقالت : وبذل لهم ماله فاصبحوا جنوداً له بعد ان كانوا جنود قيصر .

قال : نعم وفي طليعة هؤلاء الجنود وثب اذينة بعد موت خيران واستولى على العرش ثم قادهم بعد ذلك الى مواقف النصر لا يبخل عليهم بماله ولا يبخلون بدمهم في سبيل تاجه ..

— : واليوم ؟

— : اما اليوم فقد قامت الملكة التي خلفت اذينة تبعد عنها اولئك الرجال وتقول بوضوح لقيصر هؤلاء هم ابطال الصحراء الذين رفعوا من قبل اواء الرومان ، فخذهم .. ان الملكة تستطيع بدونهم ان تهدم روما ..فيعمد القيصر الى ذهبه من جديد يزرعه زرعاً في الصحراء ، ويستعين باخواننا الذين نفرّتهم الملكة ، على تحطيم العرش التدمري . وسكت قليلاً ليتبين تأثير ذلك القول ..

ان تلك الرواية التي رواها للملكة . كانت جلية بليغة فيها كل الحكمة وكل الدهاء .. حتى ان زينب الحديدية ، على رغم ذكائها العجيب ، لم تجد ما ترد به قول القائد الذي خبر زمانه .. ثم قال : الا تريدين يا مولاتي ان تسودي العالم ؟

قالت : لولا هذا الأمل لما لبسنا التاج .

قال اذن فانت لا تبلغين الغاية بالجيش الوطني ومتطوعي الاراميين والارمن .. ان التدمريين وحدهم اضعف من ان يهدموا عرشاً . وذلك الخليط الارامي والارمني لا يحمل السيف عن عقيدة وايمان .. لقد خبرت جميع الناس في الميادين فما عجبت الا للتدمري يغضب لشرفه ، ولابن الصحراء يستهين بالموت وهو يراه امامه على شفرات السيوف .. وهؤلاء الرومان .. اجل يا مولاتي ان كتائب الرومان المقيمة في المشرق لا تستظل بظل الملكة اذا شهرت سيفها في وجه القيصر . بل تخرج عن الطاعة عندما يدعوها قيصرها الى القتال تحت لوائه . ولا يثبت في المجال غير الجندي العربي الذي تحاولين ابعاد رئيسه

من الجيش ..

قالت : انك خير من دافع عن قومه بالسيف وباللسان .

قال : هذا هو الواقع يا مولاتي واليوم الذي نبعد فيه عشائر الصحراء عن تدمر ، هو ذلك اليوم الذي تغرب في مسائه شمسنا ويسقط عرشنا الى الابد .

فانفرجت شفتاها عن ابتسامة ساحرة ثم قالت : ليكن ما تريدان وليبذل المال

قال : ولكن لا تنسي يا مولاتي اننا حلفاء القيصر كما قلنا .

قالت : وسنتظاهر بأننا باقون على عهده . ولكن اعلم يا زبدا انه سيأتي يوم تخرج فيه الملكة عن هذا العهد ، وتمنع رؤساء العشائر هذا المال الذي يتناولون .

وانتهى الحديث بين الثلاثة قبل بزوغ الفجر

٢٥

اما العرب المنتشرون في القطر العربي . فبنو سليح في البلقاء الذين سبقوا آل غسان الى الشام ، وفريق من بني لخم يقيم في جنوبي فلسطين ، وبطون اخرى بين تدمر ودمشق .

وفي العراق والجزيرة قبائل من نسل قضاعة واياد بن نزار ، وفي الصحراء الممتدة من الحجاز الى جنوبي دمشق ، بطن من مضر يعرف ببني كلب ، جعل دومة الجندل بعد ذلك موطناً له . ولا تنس اولئك المضريين الآخرين الاشداء . الذين يعرفهم ابناء هذا الجيل بقبائل — العنزه — عرفوا من ذلك الزمان الى هذا اليوم بهذا الاسم . وهم قبائل كثيرة تملأ الصحراء . وتشهد لهم الحادثات بالقوة وشدة البأس . اقاموا اولاً بالارض التي تجاور خيبر والانبار ، ثم ما لبثوا حتى قدموا بلاد الشام فاتخذوها لهم وطناً . وهم الى هذه الساعة يطوفون في بوادي سوريا الشمالية وحوران وضفة الفرات ، منهم السبعة والحديديون والموالي والفدعان . الذين يعيشون بالغارات والغزو على عادة القبائل التي يعرفها القارئ ..

تلك هي القبائل التي دان معظمها لأذينة ، يخوض ابطالها وفرسانها ميادين الحرب تحت لوائه . وهم اشد الجنود واصدقهم اخلاصاً . هذبهم اذينة تهذيباً عسكرياً ايام امتزج بهم في الصحراء . واستمالهم بمنطقه الساحر وعظمة نفسه وبريق ذهبه فكانوا ركناً قوياً من اركان تدمر . ولرؤساء العشائر منزلة محترمة

كما ترى . فهم مرجع قومهم وسادتهم اصحاب الكلمة الاولى بينهم ، وذوو الرأي المقدس الذي لايعلوه رأي .. ولكن زينب .. زينب التي خضع لها هؤلاء بعد موت اذينة ، تريد ان تستبد .. فتسلب اولئك الزعماء سلطانهم ، وتحرمهم ما جعله لهم اذينة من مال .. استخفاف لا يقدم عليه عقل سام الا في حالة شذوذ غريب يسكت عنه المؤرخون . على ان قائدي تدمر تصديا لهذا الرأي كما قرأت ، وهما لا يخشيان الثورة ففي تدمر جيش يخمد لظاها ، انما يخشيان ان تنصرف تلك العشائر عن خدمة الملكة وترحل الى الصحراء البعيدة التي لا يخفق فوقها العلم التدمري فيخسر الجيش رجالاً هم ازاهيره ، ويتداعى العرش العظيم المرتفع الى الجوزاء فوق اجنحة الغمام .. قد تكون تلك الفكرة الطائشة التي خطرت لزينب انذاراً لرجالها بالمستقبل الأسود الذي ينتظر الملكة ، ولو عرف القائدان الكبيران ان المرأة المتكبرة لم تقتنع بالرأي الذي ابدياه .. بل لو عرفا انها لم تسكت عن تلك الفكرة الا لانها ارادت ان تجاملهما . لقام في ذهنيهما ان قوائم العرش العالية لا تلبث حتى تتحطم تحت عوامل ذلك الاستخفاف الذي لا يفارق كبرياءها الالهية !

* *

استلقت الملكة على فراشها لتنام .. ولكنها لم تطبق جفنيها الا لترى الاحلام.. القيصر جاثٍ على ركبتيه امام الملكة ووراءه قواد الرومان الفاتحون يرسفون بالحديد ، وبين يديها ، على العرش العظيم عرش القياصرة الذي تربعت فيه كرة تعبث بها كما تشاء هي كرة الارض !.. ووفود الامم الجبارة التي لم يغزها غازٍ ولم تطأ بلادها اقدام الفاتحين تسعى بخضوع ورهبة الى الملكة التي سادت العالم . لتحرق على قدميها بخور الطاعة والاستسلام وتقرب لها القرابين .. ورأت السفن تغطي سطح الماء وتتهادى في البحار رافعةً اعلام تدمر . والهواء يلاعب تلك الأعلام فتبدو للناظر كالنسور المحلقة فوق السحب.. حتى ان طوائف السمك جمعت صفوفها على الشاطئ لتحيي الجالسة على العرش . والطيور في الجو ترفع اصواتها الغريبة هي اصوات الدعاء لآلهة الشرق . ثم رأت الصحراء الواسعة تموج بصنوف الناس . من فلسطين والجزيرة والعراق والحجاز وبلاد الفرس ، ينظرون جميعهم الى السماء ليروا حفيدة كليوبطرة. بل ليروا بنت الآلهة صاعدةً في عجلتها النارية الى احضان العلي .. وهي في تلك العجلة ارفع من ان تبتسم

لمخلوقات الارض ابتسامة رضى ! ذلك هو الحلم الرائع الذي رأت مشاهده مخيلة الملكة النائمة عند الفجر فاستفاقت وهي سكرى .. خدّرت اعصابها اخيلة المجد .. واستهواها منظر السماء التي جعلتها لها كرسياً .. فافترّ ثغرها ، وطفقت تستعرض تلك الآمال التي مرّت بها كما يمر البرق امام عينيك .

ثم جعلت تفكر في آسية الصغرى . وانتقلت بعد قليل الى مصر .. ومن مرفأ الاسكندرية وثبت الى روما تملي ارادتها على قيصر .. وزينب ، كما رأيت ، لا تفكر الا لتجعل ذلك الفكر حقيقة ثابتة تلمسها الايدي . واثراً ظاهراً من آثار عزيمتها الصادقة التي تبعث الى عالم الوجود ما تفكر فيه . ولعل اغرب ما في تلك الشخصية العظيمة ، انها لم تكن تعبأ بالخطر يتصدى لها شبحه بصورته الراعبة بل لم تكن تعترف ان الخطر يجرؤ على الوقوف في وجه ارادتها الجبارة ، فهي كانت متمردة على جميع المخاوف والاوهام والنصر في يدها تمنحه جيشها ساعة تشاء . أرأيت الرياح الهوج تصدم الطود الراسخ فيهوي الى الحضيض ؟ تلك هي ارادة زينب .. ستملك آسية وتستعيد ارض فرعون ملك جدتها كليوبطره.

اجل ، وبفضل جنودها الاقوياء الذين يستمدون قوتهم من روحها تنشر هيبتها في كل قطر . ولكن رؤساء العشائر الذين يتدللون يجب ان يخضعوا لها خضوعاً جديداً لا أثر للمنفعة فيه !! خضوعاً تاماً اعمى لا يتقاضونها فيه مالاً ولا يطلبون دلالاً ! والا فليست هي الملكة التي جعلتها السماء سيدة الارواح والاجساد ومعبودة تنحني لها رؤوس الزعماء كما تنحني لها رؤوس العامة .

واي شيطان استهوى الملكة فملكت عليها تلك الفكرة جميع مشاعرها ؟ ان ذلك الشيطان هو القدر الذي لا يغلب . والذي تنتهي عند ارادته اطماع المتكبرين

واستعرضت في تلك الساعة ايضاً ، اقوال ابيها ورفيقه زبدا فاستحسنت تلك الأقوال . ان مجاهرة الرومان بالعداوة تفصل بينها وبين ما تهوى ولو الى حين . وقد تنشب بين الفريقين معارك حمراء تبعدها عن الغاية ، كما ان حرمان رؤساء العشائر جعالتهم يفضي الان الى توغلهم في الصحراء فتعجز على الوصول اليهم ولو طلبتهم بالجنود .. فلتصبر ريثما يتم لها الفتح . وذلك الشأن الذي تستصغره بالفكر ستستصغره بالفعل بعد حين .

وكان الصبح قد طلع وهي في الفراش .. فنهضت تلبس ثيابها لا تستعين بالوصائف . وخرجت تدعو حطان الى قاعة الجلوس لتستشيره في كل مافكرت فيه

لقد رأينا ان نستشيرك يا حطان قبل ان نبدأ بتعبئة الجيش .

فذعر الرجل وقال : ماذا تفعلين يا مولاتي ؟

قالت : لقد مرّ بضعة عشر شهراً على موت اذينة ونحن نعيش في تدمر عيش الخاملين ..

— : ان في هذا لعجباً .. تملأين البلاد عمراناً وتقولين ان الحياة في تدمر حياة خمول ؟

— : لا نستلذ يا حطان هذه الحياة التي ذكرت .. ان الملكة التي لا تخلق دولة جديدة اضخم واوسع حدوداً من الدولة التي تركها اذينة ليست بالمرأة التي تصلح للعرش

— : اذن ستبدئين بالفتح

— : اجل وسنزحف الى الاقاليم التي تجاورنا في آسية فنضمها الينا .

— : والقيصر ؟

فقالت في نفسها : انها نغمة زبدا وزباي ..

ثم اجابته قائلة : ما الذي تعنيه بقولك يا حطان ؟

— : اعني ان القيصر صديق لنا ولا اجد للملكة عذراً فيما تفعل .

— : واذا وجدنا هذا العذر ؟

— : تغوص تدمر في بحرٍ من الدماء !

— : اذن تصبح في لونها الأحمر فتنة للناظرين .. اتريدون ايها الرجال ان نملك العالم ونحن نرفل في البلاط بثياب الخز والديباج ؟

— : مولاتي . اذكري لي كل ما تريدين فعله اذكر لكِ كل ما اعلم .

— : ولا يرجع الجيش من آسية حتى يزحف الى مصر وعندئذٍ .. وعندئذٍ تفاخرون العالم بالملكة التي تخضعون لها ويرتفع لكم ايها التدمريون ذكر في الشرق لم يحلم بمثله ملوك الفرس .

فأرخى الرجل نظره الى الأرض ثم اغمض عينيه . فقالت هازئة : لقد استسلم صاحبنا الى الاحلام ..

وكانت لهجتها جارحة كما ترى . فقال : وهل تلجأ الملكة الى الراحة بعد استيلائها على مصر ؟

قالت : ما خلقنا لأجل الراحة . ان الأرض التي نفتحها اليوم لا نتركها الا لنزحف الى غيرها غداً ..

فتبسم يقول : ولكن الأقدار ؟..
- : لا تحدثنا بلغة الأنبياء .. ما هي هذه الأقدار يا نبي اسرائيل ؟
فلم يعبأ بهذا الجرح الآخر فقال : هي حياة الناس مكتوبة على الجباه ..
- : نحن اعظم من ان نصغي الى هذا .
- : اذن احدثك بلغة الحكماء
- : وماذا تقول هذه اللغة ؟
- : ان يقتنع المرء بما قسم له
- : ذلك شأن العاجز ياحطان ونحن نؤثر حديث اهل السياسة والحرب ..
- : اعرف من السياسة غير ما تعرفين
- : رضينا بما تعلم فما هو رأيك في هذا الملك الذي هو اصغر من اقليم واحد من اقاليم الرومان ؟!..
- : ولكنه يا مولاتي اوسع من دولة الفرس
- : لتمت زينب ان لم تخضع روما .. ثم قالت : وهذه العشائر التي تعيش في الصحراء ؟
فعرف الرجل انها لم تستلذ قوله . فقال : ما بال هذه العشائر ايتها الملكة ؟
- : سنمنعهم جعالتهم التي يأخذونها في ايام الحرب من بيت المال .
فأجابها دون ان يتردد : اذن لا يبقى الا ان تسودي العالم بالجيش الوطني وبالجماعات الضعيفة من الأرمن .. اذا فعلت يا مولاتي فخير لك الا تزحفي الى حيث تريدين ..
- : ستكون الى جانب الملكة يوم ندخل عاصمة الرومان أليس كذلك ؟
- : كلما ذكرت للملكة رأياً عمدت الى تغيير حديثها معي كأنها لا تطيق سماعه ..
- : اصبت يا حطان فنحن لا نحب ان نسمع غير الآراء التي تقوي الجنان .. ان في حديثك خوفاً نكاد نلمسه بهذه اليد .
فهزّ رأسه قائلاً : متى تزحفين الى روما يا مولاتي ؟
- : اما الان فلا نعلم متى يكون ذلك ولكن لا ننتهي من امر الشرق حتى تمشي جنودنا الى نزع القيصر من كرسيه ..
- : وتدخلين المدينة على عجلة الذهب ..

ـ : اجل واصحابك الرومان يحملونها على الاكتاف

ـ : ومع ذلك فانت تستسهلين هذا الأمر كأنه رحلة صيد الى الوادي ! !

ـ : ما تعودنا ان نستصعب شيئاً يا حطان .

ـ : هبي يا مولاتي انك فتحت مصر افلا تكفيك الارض التي رضي بها رعمسيس الاكبر ؟!

ـ : كل ملك لا يزيد على ملكه ملكاً آخر فهو خامل ومستسلم الى اللذات.. أرأيت انك تخاف الرومان يا حطان ؟

ـ : قولي ما تشائين يا مولاتي فالخوف يملأ نفسي ولست قادراً على كتمان ما اعلم

ـ : انتم معاشر اليهود ينزل عليكم الوحي من السماء كما نقرأ في الاسفار . أكتب في كتابكم ان زينب ستسقط في حربها مع قيصر ؟

ـ : ان الذي يخاطبك الان لا يذكر وحي كتبه بل يذكر انه تدمري ومن عبيد الملكة ويرجو من مولاته ان تصغي الى حديث قلبه .

ـ : ستنصح لنا بالعدول عن فكرة الفتح وذلك لا سبيل اليه .

ـ : افتحي ما طاب لك الفتح ايتها الملكة ولكن لا تغضبي روما .

ـ : هذا هو الخطأ في الرأي ، ان آسية ومصر والبر الذي يحيط بنا من الشمال والجنوب والغرب ملك لقيصر فأي بلد نضع قدمنا فيه ولا يغضب ؟

ـ : اذن فتدمر يا مولاتي .. اه يا مولاتي ان تدمر ستسقط الى الابد .

ـ : كذبت وكذب وحيك فتدمر لا تسقط حتى تسقط اقاليم الرومان واحداً واحداً وسترى بعينيك !

ـ : اخشى ان يرتفع الباز الى القمة ثم يتبعه سهم الصياد فيمرق من احشائه !

ـ : حسبنا ان يرتفع كما قلت وليسقط بعد ذلك

ـ : معنى هذا ان مولاتي الملكة لا تسمع نصائح المخلصين ..

ـ : اخطأت فالملكة لا تقدم على امر الا اذا استشارت رجالها فيه . واما ان يحملها هؤلاء الرجال على الخوف ويبعثوا الى قلبها الضعف فهذا لا يكون . اسمع يا حطان . ان الملكة ستمضي في أمرها الى النهاية . فاما ان تحطم الرؤوس الكبيرة وتجعلها موطئاً للنعال واما ان تموت وهي في طريقها الى العلياء فيقول الناس لم تمت زينب كما يموت الضعيف بل كما يموت الجبار او كما يسقط النسر من

الا اذا وقع نظري على جبينها الوضاح كل صباح ..

فلمع الاخلاص في عينيها قائلة : ان كهيلة نفسها لا ترضى ان تمد اليها يدك قبل ان تنقذ الملكة . اجل يا معن ، ان حياتنا هي لها ، والساعة التي تهلك فيها الملكة نهلك نحن .. ودخل حطان ..

فبادر الاثنان الى استقباله وهما يبتسمان ، ان حطان من احب الناس الى الزوجين السعيدين .. فابتسم هو بدوره لذينك الفتيين اللذين عطف عليهما كالوالد على بنيه وقال : اين زبدا وزباي لا اراهما ؟

فقالت كهيلة : كأنك جئت للسؤال عن رجال الحرب ؟

قال : نعم فقد جعلتني الملكة من اركان حربها منذ ساعة

فقال معن : أرأيت الملكة في مثل هذه الساعة يا حطان ؟

قال : اجل فلم يتنفس الصبح حتى دعتني اليها لتستشيرني في شأن الحرب

فبغتت كهيلة قائلة : ان السلام يسود الشرق اليوم وانا لا ارى حرباً .

قال : ولكن الملكة تبغض هذا السلام ونفسها ظمأى الى خوض الميادين .

فلم تفارق الابتسامة ثغر الفتى الحمداني كأنه هو بدوره ظمآن الى المعارك الحمراء

وقبل ان يقول كلمة ، اقبل حموه وزباي يسألان عن حطان

فرفع اليهودي رأسه وقال : لقد كتب لهذا القصر ان يشهد بعد زواج صاحبيه اول مجلس من مجالس المشورة .. اجلسوا لنتحدث

فجلس الجميع وكهيلة بينهم تريد ان تسمع كل ما يقال .

* * *

ايها القواد لقد امرتني الملكة بان انظر بالاشتراك مع اركان حربها في امر الجيش

فأجابه زبدا قائلاً : اذن صرت من رجال السيف يا حطان .

— : ما كنت قط ولن اكون منهم ولكنا في زمن يمسي النهار فيه ظلاماً اذا شاءت الملكة . افأنتم مستعدون للحرب

— : ما كنا لنستعد لها وهي صناعتنا منذ عرفنا العالم

فقال معن : ومن يهدد تدمر من الملوك ؟

— : اقسم بآلهة اسرائيل ان الفرس والرومان الذين تتألف منهم دولتا الشرق والغرب لا يجسرون ان يشهروا السيف في وجه التدمري وزينب في الوجود . لقد قلت لكهيلة الان ان نفس الملكة ظمأى الى خوض الميادين ولا ارجع عن هذا القول

فصاح القواد الثلاثة قائلين : هكذا نريد ان تكون ملكة تدمر

قال : اتريدون ان تخسروا الشرق ؟

قال زبدا : ومن ينزع الشرق منا ؟

قال : قيصر ..

قال : أغاليانوس الضعيف المستسلم الى لذاته يقدم على هذا ؟!

قال : ان هذا القيصر الضعيف يقتله قومه ليضعوا على العرش قيصراً اقوى منه .. ان الرومان لا يطيقون ان يرأسهم غاليانوس الى الابد

قال : ذلك شأن الرومان مع قياصرتهم من قديم الزمان .. واذا قتل غاليانوس يا حطان فماذا يفعل خلفه ؟

قال : يكره ان ينصرف الى لذته وهو يرى خيول زينب تغزو ملكه وسيفها يلمع من الموت فوق رأسه .

قال : اذا استطاع الرومان فليخمدوا نار الثورة المستعرة في اقاليمهم قبل ان يطفئوا هذا النور المتفجر من تدمر .. انهم كانوا ولا يزالون يلجأون الينا ويستنصرون اذينة ليخمد تلك النار ..

- : اجل وغاليانوس وحده هو الذي فعل هذا .

- : كأنك تريد ان تقول ان الرجل اعجز عن ان يصون ملكه بسيوف جنوده

: نعم وسيستفيق الرومان من ذهولهم فيقذفون بقيصرهم الضعيف الى الهوة ويجلسون على العرش رجلاً يعرف كيف يحفظ كرامة قومه ..

- : وماذا يحدث بعد ذلك ؟

: يحدث ما يبعث الرعب الى القلوب . فان الملكة التي لا تعلم اليوم اين تضع قدمها . سترى امامها جيشاً مجرباً يمنعها من الوصول الى القمة . وعلى رأس هذا الجيش جبار روماني يذود عن العرش ..

قال : ولكن هذا الجبار يسقط كما سقط سواه وعلى جثته وجثث رجاله تمضي زينب الى الغاية

قال : ارجو ان لا تستخف بالزمان ايها القائد

فقال زبدا : نحن قوم لا يمنعنا احد من الصعود الى العلاء . ان روما ، لولا اطماع الغزاة الذين تربعوا في عرشها ، لم تسد العالم ولم يكن الرومان اثبت جناناً منا ونحن اعز العرب .. اسمع يا حطان ، ان الملكة لا تطيق ان ترى على سطح

هذه الأرض رأساً يرتفع فوق رأسها المتوج ، وصوتاً ينحني له الناس قبل صوتها وهي ترى ان العرش لا يثبت تحتها الا اذا حطمت عرش القيصر وجعلت الرومان اتباعاً لتدمر .. أفتريد ان تمنعها من المضي في الأمر الذي يرفعها الى مراتب الآلهة؟

فعرف حطان ان روح الملكة هي التي تملي على القائدين ما يقولان .. فأطرق ملياً ثم قال : ان تدمر .. ثم ارتجفت شفتاه واكفهر جبينه ، وارخى نظره الى الأرض لا يقول كلمة فقال زبدا : ماذا ؟

فسقطت دمعتان على صدر اليهودي ورفع رأسه قائلاً : يخيل اليّ ان تدمر لم تخلق لتعيش ..

فاهتزّ القوم لتلك الكلمة الرائعة التي كانت حكماً بالموت صادراً من فم العرّاف اليهودي . وتمشت قشعريرة الخوف في جسم كهيلة وهي لا تعلم شيئاً من ذلك الحديث الذي جرى بين القوم وبين الملكة في الليل الماضي ..

ثم قال : وخير لها .. اجل خير لتدمر ان تسود الصحراء وتبقى من ان تطمع بروما فتسقط الى الابد ..

فأجابه زباي قائلاً : أتستوحي الآلهة يا حطان ؟

— : ان الوحي لا ينزل الا على الانبياء .. اما انا فاستوحي الحكمة . بل استوحي هذه السياسة التي تعالجون ..واستوى في مجلسه قائلاً : ستزحفون الى بيثينية بعد اجتماع الجيش أليس كذلك ؟

— : نعم

— : ثم تملكونها على رجاء ان تمدوا ايديكم الى ما يجاورها من الاقاليم ؟

— : نعم

— : وستقولون للقيصر انكم تطاردون القوم الذين خرجوا على دولته ؟!!

— : ذلك ما صحت عليه عزيمة الملكة .

فابتسم اليهودي وقال : كأن القيصر الذي تستولون على بلاده ابله لا يعرف الغاية من وراء هذا الزحف ..

— : تلك كانت طريقة اذينة في التوسع

قال : نعم وقد سكت غاليانوس على ما رآه لشدة حاجته الى اذينة في حرب الفرس اما اليوم فقد تغيرّ الزمان ..

— : ما الذي تغير فيه ؟

: لقد صالح سابور زينب ولم يكن هذا الصلح في نظر الرومان غير مقدمة للحرب كالنمر يتحفز للوثوب ..

فقال زبدا : لو عرف القيصر ان هنالك صلحاً لبعث يسأل الملكة

- : بل لا يخطر بباله ان يسألها عن ذلك — : لماذا ؟

— : كي لا يدخل الشك الى قلب الملكة التي تصالح اعداءه .

— : اذن فالرومان يقفون اليوم موقف الحذر .

— : هذا ما اراه وستعلمون ايها القواد اني مصيب في رأيي كما كنت مصيباً يوم نصحت لأذينة واستخف بي ..

فعرفت كهيلة عندئذٍ ان الحرب لا بدّ منها وان الزوج الحبيب الذي زفت اليه سيخلع ثياب العرس ويتقلد سيفه من جديد ليحارب في سبيل الاطماع التي ليس لها حد .. ولكن ماذا تقول للقوم ؟ بل ماذا تقول للملكة وهي ترى الواجب يدعو معناً الى خوض الميادين ليشرّف تدمر ؟ وهب ان الملكة اذنت لمعن في البقاء الى جانب زوجته فهل يرضى الفتى الشريف الباسل ان ينصرف الى لذته ودماء اخوانه تسفح في آسيا دفاعاً عن الوطن.ومتى كان ابن حمدان الذي عرفته الحرب انه اجرأ القواد واثبتهم جناناً جباناً الى حد ان يجرر في القصور اذيال الرفاهة والموت يبسط جناحيه فوق حراسه الذين قادهم الى النصر ؟..ان ذلك لا يليق بقائد الحرس بل لا يليق بكهيلة التي تنتمي الى زبدا والتي صارعت عاطفة غرامها زماناً هو في نظرها اطول من الدهر . ولماذا تفكر الفتاة النبيلة في امر يحط النفوس الكبيرة من مواقف عزها الى دركات الذل ؟ فوضعت يدها على صدرها في موضع القلب الذي يضطرب ويخفق . ولم تقل كلمة .

وخرج معن من عزلته فقال : اذن الى آسية ..؟

فأجابه حطان قائلاً : نعم الى اتون النار .. حيث تخطو تدمر الخطوة الاولى الى الهلاك .

قال : أتنظر الى الرومان كالعدو ينظر الى عدوه ؟

— : اجل وهم يلبسون لباس الاصحاب .. اني لا اريد ان اصدق ان ملكاً يرى الايدي تمتد الى تاجه ولا يعمد الى السيف ..

قال : اما الملكة فستحارب باسم القيصر ..

— : ذلك ما تفعله عندما تشتعل نار الثورة في الاقاليم . واما ان تهاجم البلد

الآمن الخاضع للرومان وتقول لهذا القيصر لقد جئت افتتح بلادك باسمك فذلك هو التحدي بكل معناه .. حاربوا الفرس باسم القيصر ايها القواد ، واضربوا الخوارج باسمه ضربة لا يرتفع لهم بعدها ذكر . ولكن لا ترسلون السهام الى صدره قائلين له : هذه سهامنا نرسلها الى صدور اعدائك ..

فرأى القواد ان الحكمة فيما يقول حطان . غير ان الملكة ارادتهم على المضي في الأمر فسيفعلون ولو عرفوا انهم يمشون الى الموت .

فقال زبدا : أحسنت فذلك هو النصح الصادق الذي لانشك فيه ولكن الملكة لا تريد ..

قال : ما رأيت الملكة تعمد الى امرٍ الا اذا شاورت فيه .

— : اجل ولكنها تعمد الى الحجة فينتهي البحث بالفوز .. ماذا قلت للملكة يا حطان ؟ — : قلت لها ما اقوله الان ..

— : فاستسلمت الى رأيك ولم تتردد أليس كذلكِ ؟..

— : بل اظهرت لي انها لا تحب سماع احاديث الانبياء ..

— : أرأيت اننا جميعنا اضعف من ان نقنع الملكة ؟

— : وهل حاولتم اقناعها كما فعلت انا ؟

قال : نعم وزباي هو الذي اقترح قضية الخوارج حفظاً لصداقة القيصر .. اسمع . ان الملكة لا ترجع من بيتينية الا لتزحف الى مصر ..

قال : وهذا ما ذكرته لي .

— : ولم نكن من رأيها اولاً ؛ثم رأينا ان الطاعة تقضي علينا بالاستسلام

— : وبعد ذلك نستسلم الى روما وينتهي الأمر ..

— : انك ترى السحب السوداء تملأ الفضاء يا حطان ..

— : وستتكاثف هذه السحب حتى تصير جداراً من فولاذ .

— : ان السيوف التي اخضعنا بها الشرق لم تغمد بعد .. فلنمشِ وراء الملكة في طريق المجد ولنمت رجالاً ..

فقال معن : هذا ما نستطيع ان نقوله .. ان ارادة الملكة هي الشريعة التي نتبع .. أفرأيت يا حطان ان تعصي موسى في كتابه ؟

قال : لا !

— : اما نحن فلا نعصي زينب في كل ما تقول .

: اذن فلا بد من الحرب

: لو استطعنا العدول عنها لفعلنا ، ولكن هكذا ارادت الملكة فليكن ما ارادت .

فتنهد الرجل قائلاً : يا زينب بنت زباي .. يا لؤلؤة المشرق ومعبودة الجيش الى اخشى ان يخونك القدر وتحني رأسك لقيصر .. ثم قال : يا الله . يا ناصر اسرائيل وقاهر فرعون .. نجِ الملكة . ومسح دمعةً سقطت على خده وقام يحاول الانصراف

فقال زبدا : ألم تسألك الملكة عن زعماء العشائر ؟

قال : بلى . وهي تفكر الان في ان تحرمهم حصتهم من بيت المال

قال : اما هذا فلا نرضاه وما كنا لنهدم في ساعة ما بناه اذينة العظيم في هذا الشرق

ونهض القوم فخرجوا من القصر وهم يفكرون في امر واحد هو ذلك الفتح الجمالي الذي تتهيأ له سيدة البلاط التدمري .

وراح ابن حمدان يحدث كهيلة احاديث المجد واحاديث الحب ، بلغة القائد الفاتح والعاشق المفتون الذي برّح به الغرام ..

٢٦

غاليانوس وزينب

او آسيا وروما حليفان يتحاربان

الوفود تلي الوفود الى عاصمة زينب ، من الشواطئ والصحارى والأقاليم وجميعها من رجال الحرب دعتهم الملكة الى حمل السيف . وهم لا يعلمون اي عدو يمشون الى حربه . الزعماء في الصحراء يقولون للعشائر : سيوفكم ايها القوم . فتلتف الرجال حول الزعيم لا يسألونه لماذا . ثم يسيرون الى تدمر بكل ما في العشيرة من عدة الحرب . حتى اذا بلغوها خيموا في ظاهرها ينتظرون امر زينب . وعمال تدمر في الاقاليم . يحشدون الجيوش ويبعثونها الى الملكة ، تحمل لواء الطاعة العمياء ، والخضوع المطلق الذي لا يسيطر عليه نظام .. وكان القوم في ذلك الفصل منتشرين في السهول يزرعون ارضهم الخصبة الواسعة التي عرفوا

كيف يستثمرونها بفضل صاحبة التاج . فتعجلوا في حمل السلاح تاركين كل شيء . لا يهتمون لأمر الملكة النازل عليهم من السماء .. حتى ان جنود روما المقيمين في الأقاليم . كانوا في مقدمة القوم الذين وفدوا على تدمر .

اجل . ان الرومان انفسهم ، سفراءهم وقوادهم وعامتهم كانوا في الشرق خاضعين لبنت زباي جنود القيصر جنود لها عندما تشاء . وعماله عبيدٌ لإرادتها ترسلهم الى الموت ولا يبالون . ولكن هؤلاء السفراء والعمال المستسلمين الخاضعين . كانوا في الوقت نفسه عيوناً على الملكة كما تقدم . ينقلون الى القيصر ما تهامس به رجالها في البلاط ويطلعونه على كل ما يجري في تدمر من شؤون وسياسات . وقد قرأت فيما مرّ انهم بعثوا يقولون له . ان ارملة اذينة تطمع بتاجه . فلما دعت الجنود الى تدمر ، استطاعوا ان ينتزعوا سر هذه الدعوة من الصدور وكتبوا اليه من جديد :

ان الملكة ستزحف الى بيتينية لتخضع آسية كلها للعلم التدمري

فغضب غاليانوس لكرامته تمسها المرأة المتكبرة ولم يطق ان يقوم في الشرق من تحدثه نفسه بالوقوف في وجهه .. وهو سيد الأرض كلها الناشر ألويته فوق السحب !! ففكر في اخضاع اللبوءة الثائرة التي لا تعترف بسلطان ولا تحني رأسها لملك ، ولم يتردد في جعل تلك الفكرة حقيقة واضحة تلمسها الأيدي وتبصرها العيون .. ففعل في روما كما فعلت هي في تدمر . وبعث الى عماله في الاقطار يأمرهم بتعبئة الجيش .. وماذا يريد ان يفعل القيصر المتراخي الجبان ؟.. ايريد ان يخوض الميادين حفظاً لهيبته وهو عبد لذته واسير هواه ؟!! ام يريد ان يحشد جيشه على الحدود ليثبت للملكة الطامعة انه لا يغفل عن شيء ؟

ان غاليانوس الضعيف القلب اصبح في ذلك الحين الملك الحازم الشجاع الذي لا يعرف الخوف وقد قام في ذهنه ان التاج الذي يلبسه سيتدحرج عن رأسه اذا هو لم يعمد الى السيف يجعله حكماً بينه وبين زينب . وفي روما قواد كثيرون هم اصحاب الشرف والمفاخر ، فاختار ابسلهم واصلبهم عوداً ودعاه اليه .

وكان هراقليانس – القائد الذي اختاره – رجلاً شديد المراس جباراً له في بلاده شهرة القائد الظافر في ساحات الوغى ، والمنزلة الاولى بين اركان الحرب الذين يملأون بلاط الامبراطور . ولم يكن في قاعة القيصر عندما دعاه ، غير كاتب سره . ورجل من اعضاء مجلس الشيوخ يحبه غاليانوس ويثق به .

فدخل هراقليانس وهو باسم الثغر وانحنى امام مولاه

فقال الامبراطور : اجلس ايها القائد فسنقص عليك حكاية جرت حوادثها في الشرق .. فجلس وهو مطرق حتى سمع مولاه يقول : أتعرف آسية ايها القائد .

فرفع رأسه واجابه قائلاً : لقد زرتها سبع مرات ليس غير ..

قال : أسائحاً كنت ام فاتحاً ؟

: بل كنت جندياً في جيش ابيك الامبراطور .. ان رجال الحرب في روما لا يزورون الشرق الا ليخضعوه ..

قال : احسنت وسنرسلك اليه مرةً اخرى .. أتعرف زينب ؟

— : ملكة تدمر ؟

— : نعم .

— : ما رأيت لها وجهاً يا مولاي ولكني اسمع اسمها تردده الشفاه ..

— : لقد جعلنا لهذه المرأة ولزوجها قبلها عرشاً في تدمر فابطرتها النعمة وطمحت ببصرها الى الاقاليم الخاضعة لنا تريد ان تبسط فوقها نفوذها بقوة السيف ..

فدب الذعر في قلب هراقليانس واصفرّت شفتاه

ان هيبة زينب تسود نفوس القواد في بلاط القيصر .. اجل . كانت زينب في نظر رجال البلاط الامبراطوري نفسه ، آلهة في الدهاء وفي الحرب .. فكيف يستطيع هراقليانس ان يخضعها لروما وهي في عاصمة ملكها اعزّ من الأسد ؟ بل كيف يستطيع الانسان ان يظفر بالإلهة القادرة على كل شيء ! !

فقال وهو يخفي تخوفه وراء مظاهر الجلد : أيريد مولاي الامبراطور ان يفتح تدمر وهي ملكه ؟

فهز القيصر رأسه قائلاً : اما ان تدمر ملك لروما فهذا خطأ . انها ملك الأرملة التي تصغر عندها نفوس الرجال .. واما اننا نطمع بفتحها فهذا ما لم نفكر فيه .. ولكن نريد ان تعترف اللبوءة الهائجة بان امبراطور الرومان لا يغلب . وانها اذا مدت اليه يداً ضرب تلك اليد حتى تعجز عن حمل السيف بل حتى تعجز عن الدفاع ، وعندئذ . وعندئذ يضمن القيصر تاجه ويرتاح الى مستقبله

: وكيف يكون ذلك يا مولاي ؟

حدودنا فيه ؟

— : لا اعلم ما الذي يعنيه مولاي بهذا القول .. ان معظم آسية هي له

فلم يشأ القيصر ان يتملقه قائده الى هذا الحد فقال : تملك معظم آسية بالاسم فقط . اما زينب فتملك بالفعل اكثر من النصف .. قل اين تنتهي حدودنا ان كنت تعلم ..

فأطرق القائد ملياً ثم قال : في بيتينية يا مولاي

— : لقد عرفت فاعلم ان زينب تطمع بهذا الاقليم لتثب منه الى الداخل

— : الى اين ؟

— : الى خلقيدون ثم الى بيزانتيوم « اي القسطنطينية » وانت ادرى بالذي يحدث بعد ذلك

— : لا اظن ان في العالم رجلاً يقدم على مثل هذه اللعبة التي تكتنفها الاخطار

— : اجل ليس في العالم كله من يجرؤ على هذا غير زينب

— : اذن فهي تمشي بخطوات سريعة الى الفناء ..

— : للحرب

— : مالك ولهذا الان أمستعدٌ أنت ؟

— : لأي شيء يا مولاي ؟

— : ان الجندي لا يترك سيفه .. ما هي مهمتي يا مولاي ؟

— : ان لك مهمتين تستعين على قضائهما بالدهاء ..

— : اذكرهما ان شئت

— : ان سابور الفارسي قاتل والدنا فالريان هو عدو دولتنا أليس كذلك ؟

— : نعم يا مولاي

— : وأولئك الخونة الذين غدروا بأذينة هم خصوم القيصر وكأنهم غدروا بنا..

فاستولى الاستغراب على الرجل ، أيدفعه مولاه الى حرب زينب ثم يعترف بان الذين تآمروا على اذينة هم اعداؤه ؟..

ورأى الامبراطور استغرابه فقال : أفلا يكون القيصر صديقاً لأذينة وعدواً لزينب في وقت واحد ؟ — : لا يا مولاي

— : ولكن هذا الجيل جيل العجائب كما ترى ، اسمع ! ان الملكة الزاحفة الى آسية تقول لمن حولها من الناس انها ستخمد باسم القيصر ثورةً سعر نارها الخوارج

: اجل وهذا السلاح الذي ستحاربنا به سيكون سلاحاً لك ..
: اي انها تظهر الطاعة حتّى تبلغ الغاية ؟
وهراقليانس يحاول الظهور بمظهر الاستخفاف كي لا يثير غضب مولاه .
ثم قال : وانت تريد يا مولاي ان تتصدّى لها قبل الوصول الى بيتينية ستقضي عليها الى الأبد ..
- : بل نريد ان تعلم آسية كلها انك زاحف للانتقام من سابور وقاتلي اذينة
- : لقد عرفت الان ماذا يجب ان افعل
- : اذكر ما عرفت
- : ألبث مع الجيش في بيتينية حتّى تقدم الملكة ..
فقاطعه قائلاً : بل تتجاوزها الى انطاكية بل الى حدود الفرس لتتم الحيلة
- : وهناك ..
- : وهناك تلتقي جيش الملكة ثم تناجزها القتال باحدى الوسائل ..
- : وهل تكون زينب على رأس الجيش ؟
- : يخيل الينا انك تخشى النساء ايها القائد افإذا قادت زينب جيشها تهبط السماء
- : اني لا اخاف يا مولاي ولكني احب ان اعلم كل شيء قبل ان اشهر السيف
- : لقد عرفنا غاية زينب من الزحف الى الاقاليم الخاضعة لنا واما انها ستقود جيشها فهذا لم يقله لنا أحد . ثم قال : وقد اعددنا لك خمسين الفاً من الرجال الذين طافوا غير مرة في بلاد الشرق ، فكن ذلك القائد الداهية واحفظ السر لئلا تسبقه الالسنة الى تدمر فتفسد علينا الأمر
- : واركان حرب الجيش يا مولاي ؟
- : تبوح لهؤلاء فقط وتأمرهم بالكتمان .. أواثق انت بالفوز .
ان الخوف كان يملأ قلب الرجل فكيف يقول لمولاه انه سيظفر بالملكة على انه لم يتردد في الجواب فقال : سأضرب المرأة ضربةً تثبت لها قوة مولانا القيصر .
- : اذا فعلت جعلناك امير الجيش الروماني كله واحطناك بالنعم ..
- : حسب العبد ان يثق به مولاه — : سنرى
فسكت القائد يفكر في الأمر الخطير الذي ندبه اليه القيصر ، وفي الامارة العليا التي وعده بها والتي تكتنفها العظمة والمجد
ورأى الأمبراطور ان الحديث قد انتهى فقال : اذهب الان وتهيأ كما تشاء

فالجيش لا يلبث حتى يجتمع تحت لوائك .. فحنى القائد رأسه وخرج وهو اصفر الوجه .. اما القيصر فنظر الى كاتب سره والشيخ الروماني الجالسين بالقرب منه كأنه يسألهما رأيهما فيما سمعاه

*

وقد بدت على وجه الامبراطور دلائل الرضى فقال للشيخ :

أتظن أن المرأة الجالسة على عرش تدمر تطمع بروما بعد الآن :

قال : من يعلم يا مولاي فقد تفوز المرأة ويتغير وجه الزمان

قال : لقد تغللت شهرة زينب في نفوس رجالنا حتى ضعف أملهم بالظفر واستولى عليهم الذعر ...

قال : هذا هو الواقع يا مولاي . إن المرأتين زينب وفكتورية هما حديث الناس اليوم .

قال : وماذا يقول مجلس الشيوخ ؟

قال : ينظر إلى المرأة العربية نظره إلى الغول المروّع الذي يبتلع كل ما يراه . وقد أظهر خوفه غير مرة لمولانا القيصر . أفلا تذكر ما قاله لك بعض أعضائه في ملعب الوحوش ؟

قال : سألونا أن نعمد إلى الشدة وقد فعلنا

قال وأحسبهم لا يقولون شيئاً حتى تنتهي الحرب فاذا فازت جنود الامبراطور ضفر لك المجلس والأمة أكاليل الغار ..

— : وإذا ظفرت زينب ؟

قال : لا تحدثني بهذا يا مولاي فالمجلس لا يصبر إذا تراجعت جنود روما إلى الوراء ... قال : وما عساه أن يفعل ؟

قال : لا تسألني يا مولاي فأنت تعلم كل شيء ...

قال : بل نسألك رأيك في هذا أيخلعون القيصر كما سمعنا ؟

فلم يجب ...

فقال : آمرك بأن تقول للقيصر كل ما تعلم .

قال : قد يدفعهم الغضب واليأس إلى أعظم من الخلع ..

فاصفر جبين الامبراطور وقال : إذن فرأس القيصر لا يثبت فوق عنقه إلا إذا ثبت جيشه في آسية أمام زينب ..

فخاف الشيخ أن يفضي تصريحه إلى ما يكره . وهو يحب القيصر كما قرأت
ويحفظ له في صدره إخلاصاً صحيحاً ليس فيه شيء من الرياء . فقال :
لكني لست واثقاً بهذا يا مولاي بل أظن ..
قال : ونحن نخشى أن يصبح هذا الظن حقيقةً رائعة .. إن قتل القيصر ليس
هيناً كما يتصورون ! قال : أراك وثقت بما قلت يا مولاي ..
قال : أجل لأننا سمعنا همساً منذ أيام في هذا البلاط .. لقد طلبوا إلينا أن
نقضي على زينب لأنها عدو القيصر .. ولكن العدو البعيد أخف ظلاً وأقل شراً
من العدو القريب الذي يظهر الطاعة ويضمر البغض ..
ونهض يتمشى وهو يترنح من الغضب ثم قال :
سيموت الخونة قبل أن يموت القيصر .. نعم .. المجلس المتآمر قبل آسية
الأمينة فلنبدأ به . فذعر الشيخ وقال : ماذا تقول يا مولاي ؟
قال : أقول إن شيوخ روما الذين يستخفون بالقيصر ويتآمرون عليه يجب أن
يموتوا ! قال : لقد كذب الذي نقل إليك أن المجلس يتآمر
قال : يكفي أنه يهزأ بنا وقد يتمادى في ذلك فيقدم على كل شيء ..
قال : أتشك في إخلاصي يا مولاي ؟ قال : أما أنت فلا ..
قال : ألم أكن خادماً لمقاصد الخير منذ قتل فالريان إلى هذا اليوم ؟
قال : بلى قال : وتثق بي يا مولاي ؟
قال : نعم فماذا تشاء ؟
قال : إذن فالخادم الأمين الذي تثق به ينصح لك بالعدول عن هذا الرأي
قال : لماذا ؟ قال : لأنك إذا فعلت حطمت عرشك بيدك
قال : ذلك وهمٌ فلا تذكره ..
قال : بل هو الثورة الهوجاء تعصف بهذا البلاط فتسحقه سحقاً .. أتريد يا
مولاي أن تمهد للأجنبي سبل الدخول إلى روما دخول الفاتحين؟
قال : لا يطأ أرض روما فاتح وأنا حي !
قال : ما أردت المدينة يا مولاي بل أردت الدولة . إن الثورة تشتعل نارها
في الأقاليم والخوارج يسودون الأقطار . وفي بلاد العرب زينب التي لا تهدأ حتى
تعصب رأسها بتاج القياصرة . فاذا مددت يدك إلى قومك فقد نفرت الأمة
وامتدت اليك أيدي الفاتحين من الجهات الأربع . فتغرق بلادك في بحر من

الدماء . وتتقسم الحروب الرومانيين فيضمحل ذكرهم إلى الأبد .

وكان الشيخ يتكلم والإخلاص يلمع على جبينه والدموع تتلألأ في عينيه وهو قول لا يستطيع القيصر أن يرده فيه .

فقال : إذن نصبر على مظاهر الاستخفاف حتى تبلغ القحة بهم إلى انتزاع التاج أو .. أو إلى انتزاع هذا الرأس ...

قال : بل تصبر حتى تستسلم زينب إليك فتمسي معبود الشعب

فعاد الامبراطور الضعيف الخامل إلى مقعده وقد أتعبه الهم ..

ثورة سيفٍ في بلاده . وثورة فكر في بلاطه . وعزيمة ضعيفة لا يقدر معها أن يطفىء نار الثورتين

وهو المتقلب المتردد في كل شيْ . لا تكاد تسمع ألفاظه الخلابة تقذف بها نفس حرة ، حتى ترى العجز ظاهراً بالمظهر البليغ الواضح على محياه . ولا تحس فيه الشدة حتى تحس الاستسلام إلى اللين الذي هوالذل . في تلك المواقف الخطرة التي تعرض للملوك المتوجين الذين يسودون الناس ..

ان غاليانوس لم يكن ملكاً إلا بالتاج . أما خلقه فخلق رجل استعبده هواه وشهواته .

كان في بدء أمره ملكاً له همة الملوك وحزم الرجال . لكن التمرغ في أحضان اللذة والعز صيّره جامداً خوّار العود . فاذا جاهر قومه بلومه . بل إذا هم خافوا زينب على عرشهم فقد أصابوا في الأمرين

وبعد سكوت ساعة قال لكاتب سره : وأنت يا صاحبنا ماذا رأيت ؟

فأجابه قائلاً : رأيت أن تحفظ قول الشيخ يا مولاي !

قال : وننتظر حتى تلقي سلاحها ملكة العرب ..

قال : نعم وعندئذٍ ينقلب مجلس الشيوخ إلى طائفة من العبيد يحملون المباخر على قدمي العرش

قال : بل قل غير ذلك أيها الرجل :

قال : ماذا ؟

قال : وعندئذٍ يفضح القيصر أسرار الشيوخ الذين خانوه ويرسلهم إلى ملعب روما حيث تسحق عظامهم أنياب الأسود ..

قال : لك أن تفعل عندئذٍ يا مولاي ما يطيب لك

فتنهد قائلاً : أما الطامعونَ بعرشنا من هؤلاء فسنعلمهم كيف يكون الجلوس

على العرش ...
قالها بصوت رنان مضطرب كأنه يلفظ خطاب العرش أمام نواب أمته ..
ووثب إلى خارج القاعة يتنفس الصعداء ويفتح رئتيه المختنقتين للهواء الحر .

* * *

إلى آسية أيها القوم كما أراد القيصر ..
نعم إلى آسية الفتانة . ذات السماء الصافية والأديم الزاهي ...
ذلك ما كان يردده أركان حرب هرقليانس الذين تهيأوا للقتال
وقد أطلعهم قائدهم على ذلك السر بل على تلك الخدعة التي أراد القيصر أن
يخدع بها ملكة الشرق وأوصاهم بالكتمان كما أوصاه مولاه ...
على أنهم ما لبثوا حتى نقلوا الخبر ونشروه في روما فتناقله النساء وأرسلنه إلى
الأقطار .
وقد تكون المرأة أسرع من الحمام الزاجل في نقل الكتب من قطر إلى قطر
فرددته الجنود في آسية بعد حين . وبعد حين آخر حملته وفود العرب
والأرمن إلى تدمر . فراح أحدهم يقصه على الملكة كما شاع . لا زيادة في ذلك
ولا نقصان ..
لكن الملكة لا تهتم للحديث المشاع يتهامسه الناس . ان في أقاليم آسية عمالاً
للملكة يكتبون إليها كل ما يسمعون ..
انهم كالسفراء الرومانيين في الشرق . عيون للملكة كما أن هؤلاء عيون عليها
فلماذا لم يقصوا عليها في رسائلهم ذلك الخبر المروّع الذي يبعد تدمر عن
روما . وقد يفصل الشرق عن الغرب
إنه إذا صح فالقيصر الهادىء اللين يضمر الشر لزينب وهي لا تعلم ..
وكان القواد يقولون لها : إن غاليانوس لا يجروُ على هذا
أما حطان فكان يقول : بل هو الفاعل وقد بدأ يشعر بأنه ملك
حتى وردت كتب العمال على زينب . تحمل إليها أقوال الجند الروماني في
هذا الشأن . وتثبت لها أن خمسين ألفاً من الرجال يتركون روما إلى بلاد الفرس
متظاهرين بالانتقام من قاتل فالريان
فجمعت قوادها قائلة لهم : لقد أصاب حطان في ظنونه فالقيصر بدأ يشعر
بأنه قيصر وهذا ما نرغب فيه

آما قول عمالنا ان في روما خمسين ألفاً من الرجال يرسلونهم إلى الشرق فهو خطأ . إن الجيش الذي يحاربون به آسية يأخذونه من آسية نفسها ليقتل الشرقي أخاه وهم ينظرون إلى الاثنين

* * * *

كان الجيش التدمري قد تهيأ وهو ينظر الأمر بالزحف إلى ذلك الإقليم البعيد. الفرسان والمشاة والقواسون جميعهم في تدمر . يعرضهم قوادهم كل يوم وينفخون في صدورهم روح الجندية المستهين بالأخطار .

وزينب نزلت عن عرشها وخرجت إلى الساحات ...

تقضي الساعات على ظهر الجواد تزور خيام الجنود مع أركان الحرب . وتلمس بيدها عدة الجيش ومؤونته وتسأل كل زعيم عن حاجة قومه لتقضيها له والجيش يهتف لها ويدعو للملك الصغير وأخويه

وقد انقلبت السياسة كما رأيت . فبينا زينب تفتش عن السبب لتناجز الروم القتال . قام القيصر يجعل جنوده ذلك السبب . وقد تقوم العداوة بين الفريقين مقام تلك الضجة . وتحتدم بينهما نار الحرب لا تخمد حتّى يفنى أحدهما ويبقى الآخر ..

هكذا تنبأ حطان وتلك طلائع نبوءته تظهر في بدء الدور الرائع الذي ستلعبه زينب في الوجود ..

أجل . أنها كانت تريد في الظاهر أن تحفظ الولاء للروم . وتدك باسمهم أسوار المدن وأبراجها ثم ترتفع إلى الفضاء الأعلى وراء حجاب من الإخلاص .. لكن القيصر تصدى لها وهي في فجر عصرها الجديد . فلم يبق أمامها إلا أن تنحني للأقدار . وتمشي بخطى سريعة جبارة إلى الأمام

وستتذرع بالحيلة كما تذرع بها القيصر نفسه .. فاذا حاربت جيشه في آسية فانما الذنب ذنب قواده .. وهي إنما اضطرت إلى امتشاق الحسام بحكم الدفاع عن النفس ليس غير .

ذلك ما كانت تفكر فيه قبل أن تترك تدمر والأطماع التي تملأ نفسها هي التي تملي عليها التظاهر بالإخلاص لروما كما قرأت

على أن القيصر في اجترائه عليها وإقدامه على قتالها في ذلك الشكل الهادئ الذي أوحى إليه به الدهاء . لا يستطيع أن يغير حرفاً واحداً من ذلك المنهاج الذي

وضعته للوصول إلى الغاية

نعم . ستحارب الرومان وتظل حليفة لهم .. وتفتح بلادهم وهي لا تنكث العهد .. كما فعل أذينة قبلها وخدمته الأقدار ..

ومتى استهوى المجد نفساً . أعمى بصيرتها عن الأخطار التي تكتنفها من كل ناحية . ومشى بها في الطريق الصعب لا يلوي على شيء ..

ثلاثة أيام بلياليها مرّت على الملكة بعد قراءتها كتب العمال

فدعت إليها قوادها في صباح اليوم الرابع تسأل كل واحد منهم رأيه في حيلة الامبراطور فقام أحد أمراء الصحراء يقول :

إن قبائل البادية . من دمشق إلى الحجاز إلى بلاد الفرس لا تعرف لها ملكاً غير زنوبيا . فمري هذه القبائل بالزحف إلى روما تزحف إليها على ظهور الجياد .

وقام زعيم آخر يقول : ليس لنا في كل ما تفعله الملكة كلمة أو رأي . لقد تركنا الصحراء لنطيع ولو بعثنا إلى الموت ..

وقال آخر : لقد استخف بنا قيصر الرومان ولم يبالِ . فسنثبت له ان جيشه أضعف من أن يقف في وجه العرب .

وراح زعماء الآراميين والأرمن يقولون مثل هذا القول والملكة تنظر إلى الجميع بعينين تطل منهما الكبرياء ... حتى وقف زبدا فقال :

ليس في جيش الملكة جندي واحد لا يبخل بحياته في سبيل بلاده ... هؤلاء الزعماء يفدون بدمهم ملكة الشرق .. والسيوف التي رفعت تدمر إلى الجوزاء هي التي ستلمع في آسية شريفة ظافرة إذا ادلهم ظلام الحرب . ولكن يجب أن يعلم الجميع إرادة الملكة قبل أن يخطو إلى آسية خطوة واحدة

قالت : أما إرادتنا فهي أن نضرب القيصر قبل أن يمد يده إلينا !

قال : أتفاجئين جيشه بالسيف ؟ ..

قالت : بل نفتح صدورنا لذلك الجيش ونستقبل قواده كما نستقبل قواد تدمر قال : وإذا سبقنا الرومان إلى آسية ؟

قالت : إن القائد الأكبر في تدمر يجب أن يعلم إننا السابقون ..

قال : وبعد ذلك ؟

— : وبعد ذلك يختلط الرومان بالعرب وتجمع الفريقين مجالس اللهو والشراب

فقال ابن حمدان : لقد عرفت ما الذي تعنيه الملكة

قالت : هات يا ابن حمدان !

قال : إن لكل حرب سبباً وستكون أسباب حربنا كلمة جارحة يقولها قائد عربي لآخر من قواد الروم . فيغضب الرومي لكرامته وتشهر السيوف .

قالت : إنك شعلة ذكاء أيها القائد ...

قال : وعندئذ ينضم العرب إلى فرقهم والروم إلى فرقهم وقبل أن يتلاحم الجيشان تطلب الملكة إلى قائد الروم أن يعتذر عن رجاله فيأبى وينتهي الأمر .

قالت : لقد قرأت أفكارنا يا ابن حمدان كما يقرأ حطان السطور المكتوبة على صفحة الفضاء ... وكان حطان حاضراً فقال :

إن الرومان قد يخلقون قبلنا أسباب الحرب .

قالت : إذا فعلوا فقد أحسنوا إلينا من حيث لا يريدون ..

ثم قالت : يا حطان أتوافق الملكة في هذا الرأي ؟

فرأى اليهودي الأمين أن يحترم ملكته أمام القواد . فقال :

إنك يا مولاتي أعلى رأياً من جميع الناس. مع إنه لم يكن راضياً عن هذه الحرب كما مرّ . ثم قال زباي :

لقد قام في ذهن الجيش أنه زاحف إلى الأقاليم البعيدة لإخضاع الخوارج

قالت : هكذا يجب أن يكون والويل لمن يبوح بكلمة من مقاصد الملكة .

فهز حطان رأسه قائلاً : عندما فكرت الملكة في فتح بيتينية حمل الهواء فكرتها من تدمر إلى روما ونقلها إلى القيصر ..

قالت : تريد أن تقول أن رجالنا يفضحون الأسرار ..

— : بل أريد أن أقول إن الآذان التي تسمع الأحاديث والشفاه التي ترددها ثم تبعث بها إلى الجالس على عرش الروم . هي آذان وشفاه الجواسيس

فبان الغضب في وجهها وقالت : من العرب ؟!!

قال : بل من الروم .. قالت : أتعرفهم يا حطان ؟

قال : كما تعرفهم جلالة الملكة وكما يعرفهم قوادها ورجال البلاط ..

قالت : أذكر واحداً منهم

قال : بل أذكرهم جميعاً فهم الرومانيون المقيمون في تدمر وفي الأقاليم لا أستثني أحداً منهم وعلى رأسهم سفراء القيصر ونوابه ..

قالت : ومتى كانت الملكة تثق بهؤلاء ؟ إننا أرفع من أن نسألهم عنهذا .

فليفعلوا ما يشاؤون

وسكتت تعبث بوسادة من الخز ثم قالت : من يوقد النار أيها القواد ؟

قال حطان : خير لنا أن يوقدها قواد الروم

قالت : وإن لم يفعلوا ؟

قال : أيرسلهم القيصر لهذا الغرض وحده ثم لا يفعلون ؟

قال زبدا : ذلك أمر لا نبحث فيه لأنه ابن ساعته .. متى يصدر أمر الملكة بالسفر ؟ قالت : بعد غد

قال : أيذهب الملك مع شعبه ؟

قالت : إن وهبلات ضعيف الجسم لا يستطيع أن يغادر البلاط والعرش لا يبقى بدون ملك .. وبرقت عيناها وهي تقول :

إن أمه ستنوب عنه في قيادة الجيش ؛ فانصرفوا الآن !

فهتف القوم للملكين وخرجوا من القاعة وهم يهتفون

* * * *

كان جيش الملكة في مروره بالأقاليم . مظهراً من مظاهر النفوذ والقوة اللتين تتمتع بهما مليكة البلاد . الوجوه والأمراء والعامة يستقبلون الصفوف ويخضعون لزينب . ورجال السيف والرماة من كل قطر ينضمون إلى الجند الزاحف إلى إخضاع الخارجين عن الطاعة . والرؤوس العالية تنحني لإرادة المرأة العظيمة الحاملة لواء المجد العربي

وزينب أعظم جندي عرفه التاريخ . في الصبر على الشدة . واحتمال الأهوال . والعيش الشاق القاسي الذي لا يبدو فيه أثر للرفاهة والنعمة

وفي كل يوم . أجل في كل يوم تعطي زينب جيشها مثلاً بليغاً في رباطة الجأش والاستخفاف بالمصاعب

تمشي اليوم واليومين على الرمل الملتهب الحار . وتصعد في الجبل على ظهر فرسها لايحرسها جندي . وإذا هبطت الوادي . حملت كالجندي الصغير عدة حربها لا تستعين بأحد في الصعود والنزول . كان جسمها جباراً كنفسها . وكل شيء فيها قوي ثابت كإرادتها . وإذا أحست بتعب صبرت صبر الكرام حتى تأوي إلى خيمتها في أول الليل . وقد يبزغ الفجر والملكة على جوادها تطوف حول المعسكر كالحارس الأمين لا يغفل عن شيء . وكثيراً ما كانت ترافق الجنود

الذين يتناوبون على السهر في رواحهم ومجيئهم بين الخيام . وتحادثهم بسذاجة وعطف . وتقضي حاجاتهم التي لم يجسروا من قبل أن يلتمسوا قضاءها .
وأول جندي يستيقظ في المعسكر هو زينب !! حتى إذا أقبل القواد على خيمتها رأوها بثياب الحرب . وبين يديها شيخ من شيوخ الخصيان يقص عليها حوادث ماضية . وقد أجمع المؤرخون على أنها لم تعرف الراحة في جميع أدوار حياتها وهي ملكة . فاذا استراح جسمها عمدت إلى التفكير . وإذا فكرت بدأت بالمريخ حتى تنتهي أخيراً إلى الأرض وما فيها من عروش وتيجان ...

مشى الجيش أكثر من أربعين يوماً . حتى أقبل في آسية . على حدود الفرس
وقد عرفت الملكة وقوادها أين يجب أن يضربوا خيامهم وبأية بقعة سيمر الجند الروماني زاحفاً بالظاهر إلى بلاد سابور . وقد ذاع في حمص أن الرومان القادمين إلى آسيا إنما قدموا ليعاقبوا الخونة الذين اشتركوا في قتل أذينة .
غير أن هذه الرواية التي نشرها الرومان جاءت بعد الأوان . وبعد أن عرف الناس أنها خدعة من خدع الحرب .
فلما قصوا على الملكة ما يقوله أتباع القيصر . ابتسمت قائلة لهم :
ونحن إنما تركنا تدمر لنكون عوناً للروم على ما يفعلون .
ولماذا تعبأ الملكة بما يقال وإرادتها لا تتزعزع والفكر التي قدمت لأجله لا يتغير ؟ .. فليقل الرومان ما يطيب لهم من القول . ان أقاويلهم وحيلهم لا تؤثر في الجيش التدمري . وكانت كثيرة الحذر بل لم تكن في زمانها أكثر حرصاً على جيشها منها في ذلك الحين . فقد يغدر بها الجيش القيصري في ساعة من ساعات الليل . فتسقط جنودها تحت سيوف الغادرين . ويرفع غاليانوس الضعيف رأسه قائلاً : إن ملكة المشرق لم تثبت في وجه روما ساعة واحدة . والحرب لا ترعى حرمة ولا تعرف عهداً . فان لم تسهر الملكة نفسها ساقها القائد الروماني ذليلة إلى روما . أو عادت إلى تدمر بدون جيش ...
وعيون القواد لا تنام . وقد أصابوا أمرهم بأن لا يترك الجيش سلاحه لا في النهار ولا في الليل . وإذا نام الجندي ضم سيفه إلى صدره ووضع قوسه ورمحه عند رأسه . يتناولهما عندما يفتح عينيه .
ولعل أغرب ما فعلته الملكة . هي أنها جعلت رجالها فريقين . أحدهما ينام

النهار كله . والآخر الليل كله . وهي تتناوب مع قوادها على الحراسة باشد ما منحتهم الطبيعة من قوة وجلد . وعلى رغم ما في نظام الجيش من صرامة وتعب فاذا رأيت الجيش التدمري . رأيت جيشاً لا ينام . هو في ليله ونهاره نشيط متيقظ . حارسه مليكه ! وخدمه قواده ! وقد وفرت الخيرات وأسباب الراحة بين صفوفه

ولقد أرسلت زينب رسلها إلى الأقاليم ينتظرون أصحابها أبناء زوما . حتى إذا ظهرت أعلامهم عادوا إليها يقصون عليها ما رأوه

وزينب لا تثق بأحد وثوقها بحطان . فقد كان الرسول الأول الذي بعثته لهذه الغاية . وعلى المسكين أن يطيع ولو في الأمر هلاكه . إذ لا حيلة له بغير الطاعة . وهو على كل حال . يؤثر الخضوع للملكة على العصيان

وهب أنه لم يطع . أفلا تجد الملكة رجلاً غيره يقوم مقامه ؟

إن الشرق كله عبد لزينب . وحطان اليهودي مخلوق صغير وصغير جداً في هذا الشرق ....

* * * * *

مرّت أيام وزينب تلهو بالصيد حول المعسكر ولم يرجع أحد من الرجال

وكانت تقول لقوادها : يظهر أن الرومان يترددون في المجيء .. إن الجيش الزاحف إلى بلاد عدوه لا يصرف الزمان كله في الطريق ...

ولكن انتظارهم لم يطل بعد ذلك فبينا الملكة وقوادها يعرضون الجيش . أقبل حطان وبعض الرسل وقد غطّى وجوههم غبار السفر .

فقيل للملكة : هذا حطان ..

فقالت : نعرض جيشنا وبعد ساعة نراه ...

ولم تشأ أن تغادر الساحة قبل أن تمر الصفوف وترى جميع الوجوه ..

ثم عادت تريد خيمتها . وهناك أنعمت على حطان بأن مدت يدها اليه فقبلها جاثياً وانحنى رفاقه على قدمي الإله الداخل بجلال إلى مجلسه ...

وأومأت بالجلوس قائلة : أرأيت أصحابنا يا حطان ؟

: نعم يا مولاتي وعرفت كل شيء ..

قالت : ما هو عدد الجيش الذي رأيته ؟

قال : خمسون ألفاً يا مولاتي يحملون السلاح ووزاءهم خمسة آلاف

يتبعونهم من بعيد .   قالت : من هم هؤلاء التابعون ؟
قال : خليط من الشعوب فيهم الباعة والتجار ومعظمهم من اليهود .
قالت : إنكم معشر اليهود قوم مجاهدون تحبون المال . صف لنا أولاً مارأيت
قال : قيل لي وأنا في إحدى مدن كيليكية أن جيش الرومان قد أقبل فمشيت إلى كثيب مرتفع في الطريق أنظر إلى صفوفه ..
قالت : وهو من جميع الأجناس ...
— : نعم يا مولاتي . رأيت في المقدمة رجالاً سود الوجوه عراض الصدور تغطي أجسامهم جلود الوحوش وعلى رؤوسهم ريش الطاووس ..
قالت : أولئك هم البربر والزنج فتحوا بعض بلادهم واشتروا منها عبيدها الحفاة العراة الأبدان ..
قال : وهم لا يجاوزون الألفين يحملون الرماح الطويلة على أسنتها خطوط بيضاء وصفراء   قالت : وبعد هؤلاء ؟
قال   فرق الأرمن المنضمين إلى الرومان من الأقاليم يبلغون العشرين ألفاً بينهم ضباط من فتيان الرومان
قالت : لقد أقبل الأرمني يحارب أخاه ليحيي الأجنبي .. ذلك هو مرض الشرق ... نعم يا حطان إنك عذب الحديث فصيح اللسان ...
قال : ورأيت ثلاث فرق من أبناء خلقيدون لابسي القلانس ..
قالت : يخيل إلينا أن الجيش كله ليس فيه جندي من روماني الجنس .
قال : القواد يا مولاتي ليس غير . أما الجنود فجميعهم من الأقاليم التابعة لقيصر .
فهزت رأسها قائلة : أجل فدماء الشعوب جميعها تبذل في سبيل الرومان أما هم فحسب العالم شرفاً أنهم يقودونه إلى مواقف الشرف ...
ثم قالت : أين تركت الجيش ؟
قال : لا يصل قبل عشرة أيام على الأقل
قالت : نسينا أن نسألك عن قائده فمن هو ؟
قال : لم أرَ قائداً يا مولاتي بل رأيت ملكاً ..
قالت : كيف ذلك ؟
قال : لا أستطيع أن أدعو الرجل الذي تحيط به السيوف من كل جانب

وتحجبه مظال الحرير عن العيون قائداً من قواد الجيوش .. إن ذلك الموكب الذي وقعت عليه العين صورة عن موكب القيصر حتّى خيل إليّ أن غاليانوس في القوم

قالت : لا خير في قائد يمشي إلى الميادين تحت مظال الأرجوان .. ما اسمه يا حطان ؟

قال : هراقليانوس يا مولاتي وقد أرسله فالريان من قبل إلى أنطاكية لإخماد نار الثورة . قالت : نذكر أننا عرفنا هذا الاسم ..

قال : بقي شيء آخر لم تعرفه الملكة ! قالت : ما هو ؟

قال : ان هراقليانوس الذي تكتنفه مظاهر العظمة يخاف المرأة التي قدم ليحطها من سماء العز .. قالت : من قال لك هذا ؟

قال : إن حطان لا يحتاج إلى أحد يقص عليه أخبار الناس .. لقد قرأت دلائل الخوف على وجهه ولا أحسبه أوفر حظاً من فالريان ..

قالت : لا نستغرب ذلك فالقائد التي تحفظ حياته حراب حراسه لا يخرج من الساحة حياً .. وكانت تحدثه هذا كأن الأمر لا يعنيها وكأن الحرب حفلة في بلاطها لتنحني لها فيها جباه القوم ... ثم قالت : والجنود ماذا يقولون ؟

قال : يقولون أنهم سيرجعون من بلاد الفرس حاملين رأس سابور ورؤوس مرازبه . قالت : وقد نسوا قاتلي أذينة ؟

قال : لا بل سيتبعون الخونة أولئك ولو اختفوا في بطن الأرض ...

قالت : لقد طوقنا الرومان جميلاً لا ننساه إلى الأبد ... قل لنا يا حطان ما رأيك في مسيرهم . أيواصلون السير إلى هذا الإقليم أم ماذا ؟

قال : لقد عرفت أشياء كثيرة لا تلبث الملكة حتّى تلمسها باليد .. إن الرومان زاحفون بالفعل إلى أرض الفرس ..

قالت : أبخمسين ألفاً يقضون على سابور في بلاده ؟

قال : لا يبلغ الجيش تلك البلاد حتّى يصبح في صفوفه مئة ألف .

: إذن فأنت واثق بهذا ؟

: نعم يا مولاتي وقد لا يعرض جيشهم للملكة إلا إذا تم لهم النصر .

فابتسمت قائلة : أي غمام يحمل جيش الروم إلى بلاد الفرس ؟ ! إن سابور يجب أن يبقى قذى في عيني القيصر . ولم تكن زينب لتترك حليفها الفارسي في أيام الضيق .. يريد غاليانوس أن يقضي على الشرق كله ليخلو له الجو . هو يحاول

أن يمحو سابور من الوجود ثم يجيء دورنا فيحصد رجالنا بسيوف جنوده . وتمسي جبال الشرق وسهوله . ومدنه وغاباته . ميادين تتجول فيها خيوله . وملكاً ثابتاً له تخفق فوق ربوعه أعلامه . ذلك دهاء في الحرب أقدم عليه القيصر في آخر الزمان .. ولكن زينب لو علم هذا القيصر لا تؤخذ بالأساليب الناعمة والدهاء المشوه . ولا تستسلم إلى حلفاء يريدون من وراء الستار أن يقوضوا أركان العرش التدمري المتربعة فيه بقوة الحق .؟ قالت هذا بصوت خافت وهي هادئة . كأنها أرفع من أن تغضب لحادث بسيط مثل هذا ...

أجل . كانت الحرب وما يتبعها من أسباب الفناء حادثاً بسيطاً في نظر الملكة . والرومان أنفسهم لو اجتمعوا لا يستطيعون أن يخرجوها عن تلك الرصانة المقدسة التي منحتها إياها السماء .. والتفتت . فرأت الدموع في عيني حطان . فقالت :

أتبكي ؟ ! قال : نعم

قالت : وما الذي أبكاك ؟

فتردد قليلاً في الجواب ثم قال وهو يخفي سبب بكائه :

لقد ذكرت أذينة يا مولاتي قبل رجوعه إلى حمص ..

قالت : أتظن أننا نرجع كما رجع فيقضي علينا المتآمرون ؟ ..

قال : ليحرس إله إسرائيل الملكة فأنا لم أفكر في هذا ولكن لو بقي أذينة حياً لرأى أصحابه الرومان يغدرون به ...

فعرفت زينب أن في صدر اليهودي أسراراً لم يبح بها ولعلها أسرار الغيب التي يقرأها الرجل من حين إلى حين ، لكنها لم تعبأ بدموعه بل سألته قائلة

أبقي لك ما تقوله يا حطان ؟

قال : أسألك سؤالاً يا مولاتي . أتعرضين لجيش هراقليانوس إذا هو لم يفعل ؟

قالت : أجل . فمن الخطأ أن يخطو الرجل خطوة واحدة إلى بلاد الفرس

قال : إذن ستكون هذه الأرض ميداناً للقتال ؟ قالت : نعم

قال وإذن ففي هذا الميدان تموت علائق الصحبة بين زينب وقيصر وتدفن روابط الولاء بين الشعبين إلى الأبد ؟ ..

قالت : هكذا أراد غاليانوس فليكن ما أراد !

فقال حطان في نفسه : مسكين غاليانوس . . إن أطماع الملكة هي التي فعلت كل هذا ..

وكأنها أحست أنها أخطأت . فقالت :
ان الملكة ستجهد في حفظ الولاء بين الأمتين ولو حاربت الامبراطور ..
قال : لكن ذلك الجهد سيضيع على ما أرى
قالت : سواء علينا أضاع أم أثمر فنحن لنا دولة ولنا عرش ومن حقنا أن
نجعل هذا العرش فوق الجميع العروش .. ثم قالت لأركان حربها :
لا تنسوا أن الرومان سيكونون هنا بعد بضعة أيام
وأومأت إلى معن بن حمدان وبعض أمراء العشائر ليتبعوها إلى الصيد

* * * * * *

عادت طلائع الرومان جيش تقول لهراقليانوس :
في هذا السهل جيش لجب ضرب خيامه على الجانبين ..
فقال : لعله جيش تدمر .. قالوا : نعم وعلى رأسه الملكة ..
فأصابه من الخوف ما أصابه يوم أمره غاليانوس بالسفر
ثم قال لضباطه : أنقتحم السهل لا نبالي ؟
فأجابه أحدهم قائلاً : نحن جيشان يرأسهما في الظاهر ملكان حليفان . فاذا
أردت فابعث إلى الملكة من يقول لها إنك هنا وإنك زاحف إلى فارس تريد حرب
سابور قاتل القيصر . قال : فنرى عندئذٍ ماذا تفعل الملكة !
قالوا : نعم وهذا هو الرأي
فبعث كبير ضباطه يحمل كتاباً منه . ومعه فريق من الحراس .
وفي مساء ذلك اليوم مثل الضابط الرسول بين يدي الملكة وهي في ثوبها
الأرجواني وفي يدها سوط تعبث به يقوم مقام الصولجان ...
ومدّ الضابط يده اليمنى إلى الأمام حانياً رأسه كما ينحني أمام القيصر .
وتناول زبدا كتابه وقرأه بصوت عال .
فقالت الملكة وهي تبتسم : أرأيت القيصر قبل أن تترك روما أيها الضابط ؟
قال : إن مثلي لا يستطيع أن يرى القيصر إلا إذا دعاه إليه
قالت : أما هراقليانوس فقد رآه ...
قال : نعم فهو من عظماء قواده وأركان دولته .
قالت : إن هراقليانوس يعرف آسية ولكنه لا يعرف تدمر على ما أظن
قال : لم أسأله عن هذا أيتها الملكة .

قالت : أهو كهل أم فتى ؟ قال : بل شيخ جاوز الستين .

قالت : إن القواد الذين يبلغون هذا العمر يضمنون لجنودهم النصر . وكم هو عددكم ؟ فلم يتحفظ الضابط من إقراره فقال :

ثمانون ألف جندي ..

قالت : لا نسألكم عن غرضكم في آسية فقد ذكر قائدكم هذا الغرض في كتابه . إنكم تريدون أن تثأروا بالقيصر القتيل .. قال : نعم ..

قالت : وما الذي يريده قائدكم من قوله أنه هنا ؟

قال : لتعلم الملكة أن الجيش الذي سيمر بهذا السهل هو جيش حليفها الامبراطور ...

قالت : لقد عرفنا ذلك الآن فقل لقائدك إن الملكة تنتظر قدومه مع الجيش الذي ترى ولم تشأ أن تكتب إليه كتاباً ..

لقد كانت أرفع من أن تكتب إلى غير الملوك ...

أما الضابط فلم يعلم أن كلمتها كانت أمراً بالانصراف .

وليس في ذلك شيءٌ من الغرابة . فهو فتى نشأ بين الجنود ولم يوفده رؤساؤه من قبل إلى أصحاب العروش ..

فقالت له : قم فاذهب أيها الضابط واحمل لجيش روما تحية جيش الشرق

فقام الرجل فخرج وركب جواده في ذلك الليل راجعاً مع رفاقه إلى المعسكر

وبعد يومين أقبل الجيش وفي مقدمته طائفة من الزنوج كما قال حطان .

وقد جعلت زينب جيشها جناحين يربطهما حاجز ضخم من خيام الفرسان وراءها المؤونة والنوق .. وعلى طول هذا الخط تقوم من الأمام خيام الرماة

وهو دهاء حربي أخرجته زينب وقوادها إلى الوجود في يوم واحد ليصبح جيش تدمر كالحلقة المستديرة يحدق بجنود الرومان الذين سيخيمون في الساحة

وقد اصطف جيش الشرق رافعاً أعلامه . ووقف قواده يستقبلون هراقليانس العظيم الحامل على شفرة سيفه مستقبل الشرقين ...

حتى إذا دار الجيش في الساحة الواسعة . في الموضع الذي أراده زبدا لنزوله. ولم يبق غير فرقة الحرس التي تحيط بالقائد . شهر قواد تدمر سيوفهم على عادة الجندي يستقبل الجندي . وقفز هراقليانس إلى الأرض بخفة النمر يصافح زملاء

وقام حطان بلغته الرومانية الفصحى يذكر لهراقليانس أسماء القواد والأمراء

ورحب به وبجيشه بلسانهم وباسم الملكة . التي تأذن له بالمثول بين يديها على الأثر
وراح ضباط الجيشين يتعاونون على إنزال الرومان.أما زبدا ورفاقه فمشوا مع الأمير الروماني إلى خيمة زينب ؛
وكانت جالسة على مقعد كبير من خشب الأرز فوقه الوسائد
وبباب الخيمة رئيس الخصيان وحده وليس هنالك جندي
فلما دخل أمير الرومان مدت إليه يدها وهي تبتسم
فانحنى المسكين يصافحها وقد اصفر وجهه ..
كانت هيبة الملكة ملء نفسه وهو في روما . فماذا يفعل الآن ليبعد عنه شبح الخوف وقد وقع نظره عليها ومدت يدها إليه ؟ ..
رأى وجهها الرصين الأسمر يتدفق منه الجلال وعينيها الكبيرتين السوداوين تتلألأ فيهما العزيمة والقوة وترسلان الأشعة الساحرة ..
فاضطرب في داخله وجلس حيث أشارت إليه وهو يتكلف الابتسام ويجهد في إخفاء ذلك الاضطراب .. وكان ضخماً طويل القامة بيضت السنون شعره وجعدت الأيام والأهوال وجهه ...
فقالت له وهي تقرأ أعماق نفسه : نسألك عن صاحب الجلالة القيصر ..
قال : إن صاحب الجلالة أمرني بأن أنقل تحيته إلى الملكة .
فقالت في نفسها : يخافنا ويكذبنا القول ..
ثم قالت : عرفنا من كتابك أنك تريد بلاد الفرس
قال : بل جئت آسية أتبع آثار المتآمرين الذين غدروا بأذينة الملك ثم أنازل سابور في بلاد قومه .. بهذا أمرني جلالة القيصر
قالت : لو لم نقرأ كتابك لما صدقنا .. أيبعث القيصر جيشه إلى قتال سابور ولكن لا نعلم ؟ قال : لقد أمرني بأن أطلع الملكة على بغيته ..
قالت : لقد كان يكتب إلى أذينة قبل أن يفعل ..
قال : إنه لم يكتب الآن قائد جيشه يقوم مقامه كتابه
قالت : وكان يستعين بأذينة ويسأله أن يقود الجيشين
قال : وقد أسرّ إليّ أن أستعين بجيش الملكة على عدوه إذا قضت الحاجة بهذا
قالت : ليس في الشرق جيش للملكة . إن الجيوش جميعها جيوش قيصر .
فنظر إليها القائد فاذا هي هادئة لا تبتسم وقد ظن في بدء الأمر أنها تهزأ به .

فقال : أينازل جند الملكة جند سابور ؟
قالت : إن جندنا يفعل كل ما يشاء قيصر
فبرقت عينا الروماني وقال : إذن لا ننتهي من أمر أهل حمص الخونة حتّى نذهب إلى فارس ونقضي على ملكها الظالم القاتل أسيره ..
فكادت الملكة تضحك لبلاهته .. لكنها أرادت أن تمشي في عبثها إلى النهاية فقالت : سننظر في هذا بعد أيام فهم بالجواب فأسكتته قائلة :
لقد قدمت آسية قبل اليوم أليس كذلك ؟
وكأنه لم يرد أن يغير حديثه فقال : قدمتها سبع مرات أيتها الملكة
قالت : وهذه هي المرة الأخيرة على ما نظن
قال : نعم فاذا ثأرنا بأذينة وفالريان تركنا آسية على أمل عدم الرجوع إليها وقد فات الشقي أنها أنذرته بالموت ..
فقالت : أما أذينة الملك فقد ثأرنا به وقطعنا الأيدي التي ضربته والرؤوس التي فكرت في قتله فلم يبق عليك إلا أن تظفر بالفارسي وتدبغ جلده وتجعله فوق باب الهيكل في روما كما دبغ هو جلد فالريان وجعله في بيت النار ...
قال : سأفعل كل هذا بقوة الآلهة ..
فتمتمت تقول : اذا بقيت يا لعين فافعل ما تشاء . ثم امعنت في عبثها قائلة : أكنت تعلم من قبل انك سترى الملكة هنا على حدود الفرس ؟
قال : من اين لي ان أعلم ذلك ؟
قالت : تقول ان القيصر امرك بان تنقل تحيته الينا وتستعين بنا على امرك
قال : نعم
قالت : اذن كان عليك ان تمر بتدمر لهذه الغاية
قال : لو لم ارَ الملكة لذهبت الى حمص ومنها الى تدمر
قالت : اما هذه الطريق فطريق الفرس ..
فتلجلج قائلاً : لقد عرفت منذ عشرة أيام انك في هذا السهل فجئته
قالت : ومتى تزحف الى عدوك ؟
قال : يستريح الجيش بضعة عشر يوماً ثم نواصل السير حتى نحط الرحال في الأرض التي تنشب فيها الحرب ..
قالت : ان سابور في الميادين ايها القائد ..

قال : ونحن الرومان امراء السيف ايتها الملكة

قالت : وحول سابور مئة وخمسون ألفاً من الرجال يحملون السلاح ليلاً ونهاراً يفدونه بالمهج .

قال : وورائي ايتها الملكة مئة وخمسون الفاً خلقوا في ساحات الوغى ..

فاظهرت الاستغراب قائلة : أتقود هذا العدد ايها الأمير ؟

قال : جنود القيصر مئة الف وجنود الملكة خمسون الفاً .

قالت : اما اذا عنيت الجيشين فنحن نعطيك اكثر من جيش سابور ولكن لا لننس ان عدول في بلاده وانت غريب .

قال : ليس للشجاعة وطن ..

قالت : لا سيما وانت لا تعرف سابور ولم تشهد حربه .. ان جيش فالريان كان من اعظم الجيوش فابتلعته سهول الرها وغاص اكثر من نصفه في الرمال ..

قال : ذلك فعل الخيانة ايتها الملكة

قالت : وقد يكون في جيشك من يخونك فيفوز الفارسي

قال : أتخافين ملك الفرس ؟

قالت : بل نرتجف خوفاً اذا ذكر اسمه .. انه مستبد قاسٍ لا يعرف الرحمة ولقد قيل لنا انه يشرب دماء القتلى كما تشربون الخمر ..

فاستصغر هراقليانس الملكة الخائفة ، وخيل اليه ان شهرتها التي ملأت روما شهرة كاذبة غرسها الوهم في الصدور .. فقال : هذا اغرب ما سمعت يا مولاتي

: ولكنه الواقع

قال : مع ان الجيش الذي تقودينه حاصر المدائن اكثر من مرة ورجع ظافراً .

فهزت رأسها قائلة : كان يفعل ذلك واذينة حي !!!

فأومأ باستخفاف الى قوادها يقول : وهؤلاء ؟

: ان هؤلاء لا يجسرون على قتال سابور الا تحت راية بطل مثل اذينة الملك

فرفع رأسه والكبرياء تلمع في عينيه قائلاً : انا هو ذلك القائد ..

فابتسمت عندئذٍ ابتسامة الرضى وقالت له : اذا كان هذا فقد هوى عرش الفرس وساد القيصرُ الشرق كله .. ثم خاطبت قوادها قائلة انظروا فيما ستعملوه الآن ريثما يستريح الجيش ويتهيأ القائد للرحيل ..

وعندما خرج هراقليانس من خيمة الملكة كانت الثقة بالظفر تملأ نفسه . كما

ملأها الخوف من قبل . ولم يلبث قواد الملكة حتى قهقهوا ضاحكين ..

* * *

ومرت عشرة أيام اخرى ورجال الجيشين يتزاورون . والجنود تجمعهم مجالس اللهو والشراب . وكان هراقليانس يفكر في الوسيلة التي يبلغ بها غايته .
أيضرب جيش الملكة في ذلك السهل ام يستعين به على حرب الفرس ثم يعمد الى السيف ؟.. ان أمر القيصر كان صريحاً ولم يكن يحذر سابور ويخشاه كما يحذر زينب . وزينب وحدها هي التي ترفعه وتحطه ، اذا حطم عرشها رفع الرومان عرشه على مناكبهم وجعلوه الهاً ، واذا فشل انزلوه بذل عن ذلك العرش وداسوه بالنعال .. وهو لا يجرؤ ان يمس مجلس الشيوخ في روما كما رأيت . ذلك المجلس المضطرب الثائر . خوفاً من ان تستعر نار الثورة في العاصمة وفي الأقاليم . فيجرفه التيار ويرسله الى الأعماق . وأمر هراقليانس نفسه في يد زينب ، انه اذا سحقها أجلسه القيصر على عرش امارة الجيش ، وان خذلته الحرب هزأت به روما وحمل عاره وذل الهزيمة الى القبر . اذن فلتمت زينب قبل ان يدخل بلاد الفرس ، وقد يتراجع بعد موتها تاركاً حرب سابور ، فسابور في نظره ونظر مولاه عرَض لا يعبأ به . ولم يفكر في القدر ان الغدر لا سبيل له اليه بين جنود يحدقون بالملكة . بل كان يفكر في الحرب وقد قام في ذهنه انه ظافر بالمرأة الخائفة المضطربة التي تهرب من ذكر سابور ..
فقال لضباطه : لقد أتت الساعة فانظروا في سبب تخلقونه لنناجز الملكة القتال
فقالوا : مرها باسم القيصر لتمشي مع جنودها الى بلاد الفرس تحت لوائك
فقال : أخشى ان ترضى بهذا فقد رأيت منها دلائل الطاعة والرضى .
قالوا : بل ترفض وان رضيت فقوادها لا يرضون ان يجعلوك سيد الحرب
قال : لنفرض انهم استسلموا الينا فماذا نفعل بعد ذلك ؟
قالوا : تسوم الملكة الاستخفاف والذل فتثور ويثور جيشها وينتهي الأمر .
قال : اعرضوا الجيش اولاً وليقف بسلاحه ..
قالوا : نفعل . وقاموا في ذلك اليوم يعرضون الجنود
فقالت الملكة لرجالها : لقد صحت عزيمة الرومان على القتال
فقال زبدا : وقد حملوا سلاحهم تحت ستار العرض
قالت : امكثوا هنا فسيقدم هراقليانس بعد قليل .

وكان جيشها مستعداً كما علمت . فلم ينقضِ النهار حتى اقبل امير الرومان يستأذن على الملكة . وكانت فرقة الحراس هذه المرة تحيط بالخيمة ، وببابها الحجاب من رجال الصحراء ، والملكة بثياب الملك تبسط العظمة حولها ظلها البعيد

فدخل الروماني وهو يرى غير ما رآه ..

ففاجأته قائلة : ان القواد يعرضون جنودهم قبل ان يخوضوا المجال أليس كذلك ؟ قال : نعم

قالت : وقد مللت الراحة على ما نرى ..

قال : نعم فجئت اسأل الملكة ان تتهيأ للرحيل ..

فقطبت حاجبيها قائلة : الى أين أيها الأمير ؟

ـ : الى فارس ..

ولم تكن قد امرته بالجلوس . فقالت : اجلس واذكر ما قدمت لأجله .

فجلس وهو يقول : ليس هنالك غير الدعوة الى السفر .

قالت : أفي هذا الليل ؟.. قال : غداً عندما يبزغ الفجر

قالت : أمهلنا ننظر في الأمر

قال : ما تركت روما لأطوف في الغابات باحثاً عن الصيد .. اني قدمت للحرب ايتها الملكة وقد استراح الجيش ..

قالت : اذن تذهب غداً ونحن نتبعك بعد يومين من طريق آخر فقل لنا اين نلقاك ..

قال : اسمحي لي ايتها الملكة بأن أرفض هذا الرأي ..

ـ : لماذا ؟

: لاني لا اريد ان اجزئ قوى الجيش قبل الوصول الى ساحة البراز .

قالت : أيمشي الجيش كله تحت لوائك ؟

قال : اللواء لواء قيصر ونحن جميعنا رعية له .

قالت : ليس من شأن الملكة ان تباحثك في امر الحرب .. هؤلاء قوادنا فاسألهم ما تشاء

وأومأت الى زبدا قائلة : هذا كبير القواد وهو اكثر خبرة من الملكة

فقال زبدا : ألا يطيب للقائد ان نزحف الى ارض الفرس جيشين مستقلين لكل منهما راياته واشياؤه ؟

قال : القيصر قيصر في كل مكان .. ألستم خاضعين له ؟

قال : ليس في الأمر خضوع وعصيان ، اننا في ميدان الحرب ولا شأن للقياصرة في الميادين .

قال : اما انا فلا اقدم على امر يمس كرامة مولاي . يجب ان يستظل الجيش كله بظل النسر الروماني الظافر .

قال : اذا كان هذا فاذهب وحدك ؛ فقواد تدمر لا يخفق فوقهم في الحرب غير العلم التدمري ..

فتحير الروماني في موقفه ، لقد رأى الشدة الآن ، تقوم مقام اللين بالامس والمرأة الخائفة بدت له في مظهرها الحاضر اعظم جداً من مولاه الإمبراطور الذي يندب الناس للخضوع له . لكن كرامة القيادة تقضي عليه بان لا يتردد فقال :

ان انفصال الجيشين يفضي الى الفشل وأنا في مثل هذه الحال لا اضمن النصر .

قال : أتريد أن تظفر بعدوك أيها القائد ؟

فقال : لا أريد غير هذا !

ـ : اذن اقترح عليك اقتراحاً .. قال : افعل !

قال : فاذا رضيت به دفعت اليك سابور يجر قيوده ..

قال : ما هو ؟

قال : تقود جلالة الملكة هذا الجيش ، وتجعلك مثلنا من اركان الحرب

وبعد ذلك ؟. انك تستطيع بعد ذلك ان تنشر راية مولاك في اي فضاء شئت .

قال : ان الرجل الذي يمثل الأمبراطور لا يتقدمه أحد

فأرتجفت شفتا زباي وقال : إذن أنت السيد هنا ؟..

قال : نعم بقوة من جعلني قائداً لجيشه ..

قال : أتستعينون بنا وأنتم السادة ؟..

قال : القيصر لا يستعين برعيته بل يأمرها بأن تفعل

قال : إذا كانت له رعية في آسية ..

قال : ألستم من أتباعه ؟

فأرسل الشيخ ضحكة عالية وقال : هل رأيت أم سمعت أن الناس يتبعون ملكين ؟ إننا في هذا الشرق أتباع قيصر غير قيصركم هو وهبلات الاول ابن القيصر اذينة .

فرأت الملكة عندئذ ان تضع حداً بين الأثنين فقالت بهدوء :
إذن تريد ان يتبعك الجيش كله بما فيه الملكة ..
قال : إذا وجد ممثل القيصر فليس لغيره وجود .
ولقد جاوز القائد الحد كما رأيت ..
فقالت : أما نحن فنريد غير ما أردت ..
فلم يستطع الرجل الا ان يبتسم قائلاً : ما هي إرادة الملكة ؟
قالت : أن يقود زبدا وزباي جيش الأمبراطور ونجعلك من أركان الحرب.
فالتفت الرجل فرأى عينيها ترسلان شعاعاً من نار . فاضطرب وقال :
هذا لا يكون ..
قالت : إن هذه الكلمة لا يقولها في بلادنا القيصر نفسه .. ومع ذلك فلنعمد
الى الجلاء ، ألم يقل لك مولاك ان في الشرق ملكة حجب نفوذها نفوذ روما ؟
فحدّق اليها الرجل وقد عاوده الخوف ..
فقالت وهي لا تنتظر جوابه : ألم يسلح يديك لتضرب هذه الملكة فلا يرتفع
لها صوت بعد الآن ؟
قال : لا اذكر شيئاً من هذا ايتها الملكة ..
قالت : كذبت فأنت الجبان الذي لا يجرؤ على القول ، لقد عمد مولاك الى
الحيلة فأظهر للناس انه وجه الى المشرق جيشاً ليثأر بأبيه وبأذينة وأسرّ اليك انت
امير جيشه لتثأر بنفوذه الذي قتل وبهيبته الضائعة .. وقد رأيناك ايها الروماني
الضعف من ان تشهر الحرب على الملكة التي قدمت آسية لأجلها فنحن نقوم
مقامك في هذا ونجرد في وجهك سيفنا منذ الآن .. قم الآن فأعد جيشك للقتال
ولو اردنا الغدر بك وبجيشك لفعلنا ذلك منذ أيام ..
فحاول ان يجيب فأسكتته قائلة : ليس لك ان تقول كلمة الا اذا امرناك . قم
فاخرج وإذا قدرت فاضرب عنق الملكة في الميدان وأحمل رأسها الى مولاك ..
ونظرت إلى قوادها قائلة : نحن الآن في حرب مع هذا المغرور فتدبروا امركم
ثم اومأت الى هراقليانس تأمره بالانصراف فارتجفت ركبتاه وقام فخرج
وهو يتعثر بخجله وخوفه ..

* * *

لم يبقَ لجيش الرومان بدّ من الحرب .. الساحة واسعة الأطراف ، والفريقان

تحت السلاح . وعلى الاثنين – روما وآسية – ان تتنازعان السيادة والسلطان بحد السيف .

وراح هرقليانس يقص على قواده حكايته مع الملكة .. فغضبوا لكرامة القيصر وتهيأوا لإسترجاع تلك الكرامة بهوس الجندي الفاتح الذي اخضع الأمم ودانت له الأقطار .. وقد استولى الخوف من جديد على أمير الرومان . وقام في ذهنه ان تلك المرأة الفتانة لا تغلب . على انه لم ينسَ واجبه . فقد أمر الصفوف بالتراجع الى الوراء ليصون مؤخرة الجيش ، ولكي يجعل الساحة التي خيموا فيها ميداناً للخيل .. والملكة وقوادها ينظرون الى تلك الصفوف وهم ساكتون ، كالقائد الشريف لا يفكر في الغدر . ولا يشهر السيف في وجه عدوه قبل ان يستعد

وكانت الملكة تقول لهم : هذه هي المرة الاولى التي تحارب فيها تدمر روما بعد ان وضع اذينة يده في يد القيصر ، فاذا ظفرتم فقد ظفر الشرق ، واذا ظفر الرومان فخير لنا ان لا نحمل السيف بعد الآن لأن فشلنا معناه الموت . واعلموا اننا نريد رأس هرقليانس ولو لجأ الى السحاب .. ان هذا القائد استخف بنا وان يكن خائفاً ، والمخلوق الذي تحدثه النفس بالاستخفاف بزينب يجب أنلا يعيش

فقال حطان في نفسه : اذن فلتقتل الملكة امبراطور الرومان وقواده فقد بدأوا يستخفون ..

وأجاب الملكة قائد في مقتبل عمره قائلاً : سأحمل لمولاتي رأس الروماني

وكان ذلك المتكلم معن بن حمدان .. ومن حقه ان يقول هذا لأن الإقدام عادة له ، ولأن الحرب – ان لم يقتل أمير الرومان – لا تنتهي بسنة . فقد يستطيع – اذا لم يقتل – ان يجمع الجموع من آسية ويرجع بها الى الساحة فيحرم الحمداني النظر الى كهيلة ، اياماً طويلة تقضيها العروس بالبكاء .

فهو يذكر دموعها في ساعة الوداع ولم ينس كآبة نفسها الماثلة امام عينيه

فقالت زينب : إذا فعلت رجعنا الى تدمر بعد أيام..أتقدر أن تصل اليه يامعن؟

قال : وتربة أذينة وهيروديس لا أرجع اليها إلا إذا كان رأسه بين يدي !

* * *

تزاحفت الكتائب واشتعلت النار .. وحجب الأفق غبار كثيف ارسلته المعركة الحمراء الى الفضاء .. والأرض تحتضن الجثث ثم تبعثرها حوافر الخيل كالعاصفة الطائشة تذر الرمال .. والدماء تخضب الثياب والوجوه بلونها الرائع ..

وقواد الجيشين يتبارون وهم يصيحون : الموت في ظلال السيوف خير من الحياة ولقد علت اصوات الجرحى وسكتت أصوات الأبواق .. وابن حمدان ينقض كالعقاب ليشق الصفوف وهو لا يستطيع ، ان تلك الصفوف لا تنفرج حتى تلاحم . وهراقليانس لا يبدو في هذه الناحية حتى تحجبه الخيل ثم يظهر على فرسه في الناحية الأخرى يضرب ضرب اليائس ويظهر لجنوده انه في كل مكان..

يوم كامل لم يكتب فيه النصر لأحد .. غير أن الليل طويل .. ويجب ان تختلط روعة الظلام بروعة الدم المسفوك بل يجب ان يترامى الجيشان كالعميان لا يعلمون اين يضعون الأسنة والسهام . ان تلك النفوس البريئة التي خاضت المجال لتشبع اطماع ملكين غاليانوس وزينب ؛ كتب لبعضها ان يرقد في ذلك الليل فلا يستيقظ الى الأبد . كما كتب للبعض الآخر ان يفتح عينيه في الصباح ليرى الجثث الخرساء المكفنة بالتراب والدم ..

وقد كاد الرومان يضيعون الأمل ، وبدت على الوجوه مظاهر الذعر .. بل لقد هم هراقليانس بطلب الهدنة فأحست زينب بعجزه وغاصت بين الجنود تقذف بهم بالخطب الساحرة الى اشداق الموت .. حتى اذا انقضى نصف النهار الثاني كان النصر قد بدأ يتلألأ فوق أعلام التدمريين . وبينما الرؤوس تتدحرج . وصفوف الرومان تتراجع ، والسهام تخترق الصدور ، والخيل تهيم في ذلك البر وهي ذاهلة نافرة ، اذ أقبل فريق من الحراس يهتف للملكة . ووراءه قائد الحرس ابن بن حمدان يحمل رأس قائد الرومان بين يديه ..

فضج القوم حتى اهتز السهل ، ورفع رأس هراقليانس على سنان رمح ثم التحم جيش زينب تلك البقية الباقية من جند العدو ، فتسابق القوم إلى الفرار . وتلك الأفراس التي لم يطب لها الركض استسلم أصحابها إلى الأرملة الجبارة وسدل الستار ..

ان التدمريين الذين قتلوا في ذينك اليومين كانوا كثيرين ، معظمهم من فتيان الصحراء عشاق الحرب . وبينهم ثلاثة من رؤساء العشائر الأبطال .

اما زينب فلم تنظر الى الساحة التي تغطيها الأجسام بل كانت أرفع من أن تلتفت إلى الأرض الحمراء ! ! ! ان الذين قتلوا في الحرب قتلوا في سبيل الشرف والملكة التي تقود جيشها لا تقف خاشعة أمام الموت .. وكان فرسها الأبيض يلهث من التعب وقد صبغته المعركة بالدم ، وذلك الثوب الروماني الذي كانت

تلبسه مزقته رؤوس الحراب .. فلما أبصرت رأس عدوها على رأس السنان وصفوف جيشه تستسلم وتفر لوت عنق الفرس لتستريح في خيمتها . ولتسامح الحمداني الظافر الذي برّ بوعده .

وامام الأمراء والقواد هزّت يد معن ، ثم تفرست في الرأس الذي يشخب دماً وأومأت الى الحراس بان يدفنوه قائلة : مسكين هذا الشيخ المغرور مثل مولاه

وكان الجيش كله سكران بخمرة النصر ، الا حطان فالكآبة كانت تملأ نفسه . وذلك الظفر العظيم كان في نظره فاتحة عهد جديد تحني الملكة فيه رأسها للاقدار .

* *

الرجوع عن بيتينية

كلوديوس قيصر – فتح جديد – حطان في مصر

لم تشأ الملكة الا أن تستشير قوادها في أمر بيتينية مرة أخرى . بعد ظفرها بالرومان . ان الزحف إلى ذلك الأقليم بعد قتل هراقليانس معناه المجاهرة بالعداوة وهذا لم يكن من رأي الملكة في ذلك الحين . كما مرّ .

أجل . لو لم تنشب الحرب بينها وبين الرومان لانتهى أمر بيتينية وعرف كيف تسترضي القيصر . وأما أن تقتل قائده ثم تفتح اقليماً من أقاليمه فهذا غير معقول .. ولعلها أرادت أن تصبر لترى ماذا يفعل القيصر

فقالت لحطان والقواد يسمعون : لقد انتصرت الملكة يا حطان ..

فقال : ما خلقت الا لأدعو للملكة بالنصر ..

قالت : مع ذلك فلما استشرناك في أمر الزحف الى هذه الربوع نصحت لنا بالعدول عنه .

قالت : لقد كانت ساعة رأيت فيها الأبيض أسود فاستولى علي الخوف ..

فابتسمت قائلة : انه اعتذار لا بأس به والآن ما رأيك ؟

قال : في اي شيء يا مولاتي ؟

– : في الحرب .. أنغمد السيف أم نتوغل في أقاليم الرومان ؟

قال : وأية فائدة لهذا الرأي إذا كانت الملكة لا تقبله

قالت : قل يا حطان ولا تظهر الدلال .. إن الملكة ترى الرجوع إلى تدمر
خيراً من المضي في أمر الفتح .

قال : يظهر ان الملكة تريد الأحتفاظ بصداقة الأمبراطور . ان هذه الصداقة
قد اضمحلت الآن .

قالت : بل نحفظها على رغم كل ما جرى

قال : تضربين الرومان بيد ، ثم تصافحينهم مبتسمة باليد الأخرى فينسيهم
ذلك الابتسام كل شيء ..

قالت : نعم والسياسة تفعل العجائب

قال : وإذا ثار الرومان بقيصرهم وخلعوه ؟

قالت : يقوم قيصر آخر نمدّ يدنا اليه فيزول الماضي

— : ثم ترجعين إلى فكرة الفتح بعد قليل ..

— : نعم فالفتح لابدّ منه وعرش روما سيكون في النهاية لسلالة اذينة .

فأجابها واللوعة في عينه قائلاً : إنك تحدثيني بشيء لا أفهمه يا مولاتي !

قالت : كلما ذكرت لك الملكة اطماعها اضطربت اعصابك من الخوف ..

قال : أجل فأنا رجل راحة وهدوء أيتها الملكة لا اطمع بالكثير ..

قالت : لو كنت ملكاً لفعلت كما نفعل

قال : لي كلمة اقولها يا مولاتي — : قل كلمتين

قال : لقد تغير الآن في نظري موقف تدمر

قالت : وكيف ذلك ؟

قال : لقد كنا بالأمس حلفاء الرومان ..

فقاطعته قائلة : واليوم ؟ ..

— : أما اليوم فقد انقطع الحبل بيننا ونحن في نظرهم أشد خطراً من الفرس

قالت : أتظن ؟

قال : بل أنا واثق بهذا . فاذا مشيت في سبيل عظمة التاج فامشي مستقلة
منفردة كما يمشي سابور .

قالت : أفلا ترى اننا مستقلون يا حطان ؟

قال : أما في الداخل فنعم وأما في الخارج فلا .

فنظرت الى قوادها وهي تهزأ بهذا القول .

فقال : اهزئي ما شئت يا مولاتي فرأي حطان لا يتغير واخلاصه للعرش لا يتزعزع .. ان هذه السياسة المضطربة لا تنفع الملكة

قالت : يخيل الينا انك لا تفهم من السياسة شيئاً

قال : بل لا أريد ان أرى سياسة الشدة تعقبها سياسة اللين . ومظاهر الولاء تتبعها مظاهر الخصومة . ان النقيضين لا يجتمعان يا مولاتي فاختاري احدى السياستين ليثبت العرش ..

قالت : تلك هي نغمة حطان لم يغيرها الزمان لقد مشينا الآن وزينب لا تقدم على امر ثم ترجع عنه .

قال : إذن فانظري الى الرومان كما تنظرين الى عدو العرش ، واحملي السيف للوقوف دائماً في وجه هذا العدو ..

فقالت لقوادها : ألا توافقون الملكة في الرجوع عن بيتينية الان ؟

فقال زبدا : إذا كان لا بد من اظهار العداوة للرومان فافتحيها اليوم .

قالت : بل نظهر للقيصر ان حربنا مع قائده كانت دفاعاً ونرى ما يكون ففهم حطان ان الحديث معه قد انتهى .. فخرج من الخيمة وهو يتنفس الصعداء

وبعد قليل خرج القوم وقد اجمعوا على ترك بيتينية

* * *

عاد الجيش إلى تدمر والهدوء يشمل الأقاليم

وانصرفت فلول الرومان تقص على القيصر حادث القتل الرائع والهزيمة المحزنة

وكان ذلك في سنة ٢٦٨ للمسيح

وقد استقبلت تدمر ملكتها كما كانت تستقبل أذينة الظافر .

والرومان انفسهم، اولئك المقيمون في تدمر . حنوا رؤوسهم لقاتلتهم، غير ان صدر الروماني في جميع الأقاليم الخاضعة لزينب اصبح بعد ذلك الحادث العظيم وعاء لا يتسع لغير البغض .

لقد أصاب حطان في قوله ان تلك الصداقة بين الأمتين قد اضمحلت . وكان على زينب ان تعلم هذا ، لكن وثوقها بقوة الدهاء والسياسة جعل بينها وبين الحقيقة حجاباً ، وأنستها عظمة نفسها وظفرها الفجائي المدهش . ان حلفاءها الرومان من لحم ودم .

قال المؤرخ الفرنسي دي شامباني في كتابه : « أجل . إن آسية ظفرت

في ذلك اليوم بروما ، غير أن الصحبة بينهما تهدم بناؤها إلى الأبد »

وكان وهبلات مريضاً كما تقدم . والملكة تعنى به . والطب الشائع في ذلك الزمان يتعهده بالعناية وهو يزداد نحولاً . ومعدته التي هي داوءه تزداد ضعفاً .

وكادت السنة تنتهي والملكة لا تعلم ماذا جرى بروما .. حتى كان الشهر الأخير وقد اضطربت زينب لسكوت القيصر وحسبت لذلك السكوت حسابه ..

وبينا هي تحدث رجال البلاط بالأمر ، أقبل على القيصر رسول من الرومان وقيل لها انه رسول نائب الأمبراطور .

فقالت في نفسها : لقد ذكرنا القيصر أخيراً ولكنه لم يكتب الينا ..

ولقد فاتها ان الروماني القادم يحمل اليها خبراً يتبدل معه موقف الغرب والشرق وأذنت للرجل في الدخول وهي مع رجال البلاط في قاعة لها تجاور الرواق الأعظم فدخل وفي يده كتاب ، وحطان في القوم وقد اكفهر وجهه ..

فمدت يدها كأنها تقول لرجالها : دعوني اقرأ

فدفع أحدهم اليها الكتاب وساد السكوت .. وراحت تقرأ كتاب النائب وهي هادئة .. ثم أصفر جبينها وارتجفت شفتاها وحولت نظرها تحدق إلى حطان ..

وكانت ساعة صامتة حبست فيها الأنفاس .. ثم طرحت الكتاب وقالت للقوم لقد قتل غاليانوس قيصر .. فدهش القواد لما سمعوه واستولى عليهم الاستغراب

ثم قالت : وخلفه على عرش الرومان احد عظماء القواد وهو اريليوس كلوديوس .. والقوم لا يعرفون هذا القيصر الجديد الذي وثب الى العرش .

فقال زبدا : من قتل القيصر ؟

قالت : ما كنا لنسأل عن هذا . ان غاليانوس كان طيب القلب وقد يكون كلوديوس اطيب قلباً منه .

ثم قالت للرسول : أأنت الذي نقلت الخبر من روما ؟

قال : لا يا مولاتي بل أنا مقيم في بيروت .

قالت : ومن حمله الى نائب الأمبراطور ؟

: لا أعلم يا مولاتي فقد امروني بالقدوم الى تدمر احمل هذا الكتاب ففعلت

قالت : أما نحن فقد عرفنا الآن ماذا جرى في روما .. اكتب يا زبدا الى نائب القيصر ان رسالته وصلت الينا . وأنت ايها الرسول تستطيع ان تنتظر الجواب في الرواق .

وهذا معناه أنها طردت ذلك الرجل ولم تشأ ان توجه اليه سؤالاً آخر .
فتحير القوم وتردد زبدا في أمره . فقالت له : اكتب ولا تتردد ان القيصر الجديد أرفع من ان يكتب الى الملكة .. ولعله يكتب إلى سابور ..
فعض حطان على شفته وأطرق يفكر .. وقام زبدا يكتب سطرين لا ثالث لهما ولما هم بأن يقرأهما قالت له : وقّع ما كتبت بأمر الملك ..
ففعل ودفع الحاجب الكتاب الى الرسول
فتنهدت عندئذٍ قائلة : يظهر ان كلوديوس لا يريد ان يعترف أمام ابناء قومه ان في الشرق عرشاً !
فأجابها حطان قائلاً أتستغربين أيتها الملكة ؟ إنه إذا أراد أن يفعل هذا منعه مجلس الشيوخ . وفي لهجة حطان نغمة عتاب ..
فلم ترد أن تسترسل في البحث معه لأن عظمتها قد جرحت ولأن نبوءته عن غاليانوس قد تمت .. ومدّت يدها تريد ان تقرأ الكتاب مرة ثانية ..
لكن الحاجب استأذن لرجلٍ يطلب المثول بين يدي الملكة .
فقالت : من العرب أم من الرومان ؟
فخرج الحاجب ثم عاد قائلاً : من كيليكيا
— : فحنت رأسها تأمره بأدخاله
وكان الزائر ربعة وهو أسمر الوجه صغيره . وفي عينيه عذوبة وصفاء
فقالت تخاطب رجالها : وهذا رسول من عند الرومان .. اذكر حاجتك ايها الرجل .. فتمتم قائلاً : اذكر هذه الحاجة للملكة وحدها
قالت ان هؤلاء الرجال الذين تراهم هم أركان ملكنا ونحن لا نكتمهم أمراً . قل اولاً من أنت ؟ قالت ذلك وهي تغتصب الإبتسام
فقال : جندي من جنود اذينة في كيليكيا
قالت : أتعرف أذينة ؟
قال : وأعرف هيروديس كما أعرف زبدا وزباي وغيرهما . وأشار الى القائد
قالت : أما الملكة فلا تعرفها من قبل
— : بل عرفتها في مطلع هذا العام .. قالت : اين ؟
قال : في تلك المعركة اللاهبة مع جنود الرومان وكنت بينهم ..
فقالت ضاحكةً : اذن كنت عدواً لنا ..

قال : نحن قوم لا نخدم الرومان يا مولاتي ولكن اتباع هراقليانس أكرهونا
على حمل السيف في وجه الملكة . قالت : وأي شأن لك عندنا ؟
قال : أعرف أشياء لا يعرفها في آسية إلاّ واحد من جنود روما
قالت : وقد قدمت لتقصها علينا ؟
: نعم يا مولاتي قبل أن يرويها للملكة احد غيري
فقطبت حاجبيها قائلة : من أين أنت قادم ؟
— : من الوطن الذي نشأت فيه والذي رجعت اليه بعد الحرب
قالت : احذر أيها الرجل فالملكة لا تغفر للجاسوس ذنبه ..
قال : ابقي يا مولاتي في تدمر ريثما يثبت لك كل ما أقول .
قالت : أذكر اسرارك الآن ..
قال : إن حليفك القيصر قد قتل .
فابتسمت قائلة : كيف تعرف أيها الرجل أن القيصر القتيل حليف لنا ؟
فدهش الجندي لذلك الهدوء الذي رآه وقام في ذهنه أن زينب تعلم كل
شيء .. فقال : لقد كان حليف اذينة من قبل وكان الاثنان كالأخوين كما يعلم
العالم كله .
قالت : إذا كان هذا سرك فقد عرفناه كما عرفنا اسم القيصر الجديد
قال : أقسم أن الجندي الرومانيّ مرّ بتدمر ..
قالت : أي جندي هذا ؟
قال : رسول روما الى نائب القيصر في فينيقيا
قالت : قصّ علينا أولاً خبر هذا الجندي ..
فكاد الرجل يقع على الأرض من شدة يأسه والملكة تراه ..واختنق صوته فلم
يجب فقالت : أندمت على ما قلت
قال : بل استولى عليّ اليأس أيتها الملكة — : لماذا ؟
لأني ايقنت أن الحديث الذي جرى في مجلس شيوخ روما بعد مقتل
القيصر لم يبلغ الملكة ، وبناء على هذا الاعتقاد تركت كيليكيا لأكون أول من
يروبه فأخدم مليكتي التي غمرني زوجها بخيراته ..
قالت : وماذا جرى الآن ؟
قال : لقد اتضح لي أن الملكة تعرف كل شيء ولكن من غيري ..

وتردد البكاء في صدره ثم سقطت دموعه على خديه . وعندئذٍ ، أجل عندئذ تبينت الملكة اخلاصه فقالت : وإذا قلنا لك أن ذلك الحديث لم يبلغ الملكة ؟

فأرسل الرجل زفرة طويلة وقال : اذا كان هذا فقد رجعت الى نفسي وأنا فخور بأن أخدم زوجة المحسن اليّ كما قلت :

قالت : ابدأ بحكاية الجندي .

قال : هو الرجل الذي يحمل لنائب القيصر هذه الأسرار .

— : وهو الذي قصها عليك ؟

— : نعم فقد كان رفيقاً لي ومرّ بكيليكيا في طريقه الى بيروت

— : وبعد ذلك ؟

—: فعرفت منه ان غاليانوس قتل وان اريليوس كلوديوس عصب رأسه بالتاج . ثم اطلعني على أحوال روما وثورة الشعب ، وذكر لي اجماع الشيوخ على أمر يهتز له العالم ..

قالت : لعلهم اجمعوا على قتل ملكة تدمر ؟

— : نعم فعلوا هذا بعد انتخاب القيصر الجديد !

— : ومن أين لصاحبك الجندي أن يعلم كل هذا ؟

فقال : كان بين الحراس الذي حفظوا أبواب المجلس بالحراب

— : ثم جعلوه رسولاً يحمل البشرى الى آسية

— : نعم وقد دعاني الى المجيء معه فرفضت ثم تركت كيليكيا وحدي بعد عشرة أيام لأطلع الملكة على كل شيء .

— : وهل عرفت منه انه لا يمر بتدمر ؟

— : بل عرفت منه ان القيصر عندما دفع اليه الكتاب أمره بكتمان أمره وهدده بالموت اذا باح في آسية بما رآه ..

قالت : أعد علينا ما سمعت

قال : كانت روما حزبين قبل المبايعة ..

قالت : ذلك شأنها من قديم الزمان ..

قال : وكان الشيوخ انصاراً لكلوديوس فرفعوه الى العرش وقام الجيش يسكت الثائرين .

قالت : يظهر ان كلوديوس هذا من اعضاء المجلس

قال : بل هو أحد القواد الذين يخضعون الخوارج في الغرب وكان قد عاد الى روما من احدى المعارك تخفق فوقه اعلام النصر .

قالت : وقد ظن الشيوخ ان النصر سيكون حليفاً له في كل مكان ..

قال : لو لم يثقوا بذلك لما انتخبوه ولما وعدهم بالقضاء على الملكة .

قالت : اذن اصبحت حياتنا في يد القيصر يأخذها ساعة يشاء ؟

قال : هكذا يعتقد القوم فانهم لم يبايعوه بالملك حتى ارتفعت اصواتهم تملأ المجلس قائلين : « يا كلوديوس اغسطس نجنا من زينب وفكتورية كما وعدت » ورددوا ذلك القول بصوت واحد سبع مرات

« ذلك ما ذكره المؤرخ تريبيليوس بصراحة وجلاء »

أما القيصر فوضع التاج على رأسه ووعدهم باخماد النار المشتعلة في الأقطار . وبارسال الجيش إلى آسية للقضاء على زينب

قالت : وهل أرسل هذا الجيش ؟

قال : لقد رأى أن دولته تحدق بها الأخطار من كل ناحية فتحير اولاً في الأمر

قالت : إذا كان هذا فهو لا يبدأ بتدمر .

قال : لا بل اثر الزحف الى شواطئ نهر الطونه الذي عبرته قبائل الجرمانيين بثلاثمائة وعشرين الف رجل .

فبرقت عينا الملكة قائلة : أواثق أنت أيها الجندي

— : نعم يا مولاتي ، وهذا ما كتبه القيصر الى نائبه في هذه البلاد .

قالت : وماذا فعلت تلك القبائل في بلاده ؟

قال : فتحت بلاد ميسيا جميعها ورفعت فوق حصونها اعلامها الحمراء .

— : وجنود الرومان ؟

— : تركوا البلاد للقوة الغازية وولوا الأدبار .

— : اذن لم يبقَ هناك أثر لسلطان الرومان

— : بل لم يبقَ لهم في ذلك القطر جندي

فأطرقت ملياً وهي تفكر . ثم قالت للقواد : ان صاحبنا القيصر إذا رجع من تلك البلاد ، رجع بعد سنة .. وفي هذه السنة تتحطم عروش وتقوم عروش ..

فعرف حطان أن ذلك الدماغ الكبير لا يفكر إلاّ في الفتح .

ثم قالت : وفيكتورية ؟

قال : يشد أزرها قائد كبير خرج عن الطاعة
قالت : ما اسمه ؟
قال : تريتيقوس وهو جبار لا يهدأ ولا يستريح
قالت : لقد كثر اعداء الرومان حتى ملأوا الأقطار .. ان كلوديوس سيتعبه التاج الذي وضعه على رأسه

— : وفي ميلانو خارجي آخر يا مولاي .. — : من هو ؟

— : اريولوس وعلى القيصر ان يضرب جميع هؤلاء ليثبت عرشه ويستقيم له الأمر ..

قالت : انك من اذكى الجنود أيها الرجل وقد اعجبتنا حكايتك ..
قال : حسبي ان يكون فيها ما ينفع عرش المشرق
قالت : وحسب الملكة أن يحبها شعبها الى حد أن يترك الرجل كيليكيا ويقدم تدمر ليخدمها باخلاص ، أتؤثر تدمر على بلدك ؟

— : لماذا تسألني الملكة عن هذا ؟
— : لنجعلك من رجال هذا البلاط الذي لا تضم جدره غير المخلصين
— : ان خدمة الملكة فوق كل شيء ولأجل هذا قدمت تدمر

فالتفتت الى حطان قائلة : قل لقيم القصر ان يعطيه ثلاثين بدرة من المال ، وأجعله جاراً لك تستعين به على قراءة الأسرار ..

فأجابها الرجل قائلاً : أما المال فاحفظيه يا مولاتي لإخماد نار الحرب ، ومتى كنت من رجال الملكة وفي بلاطها فلا حاجة لي اليه .

وأما حطان فابتسم بمرارة ولم يجب ..

* * *

٢٨

إن كلوديوس الإمبراطور لم يخفِ سياسته وراء ستار من الولاء والدهاء كما رأيت . فقد كان صريحاً إلى حد أنه باح لرجال مشورته ورجال حربه ، بذلك البغض الذي يتغلغل في صدره ، وكان واثقاً بنفسه حتى وعد شيوخ روما بالقضاء على زينب ، بعد رجوعه ظافراً من حرب الخوارج . وهو من رجال السيف

اصحاب الصوت البعيد والشهرة الواسعة في اقاليم الرومان . لكن خصومه السياسيين كثيرون في الدولة ، وهم الذين بدأوا ، منذ تربع في العرش ، باعداد الوسائل الخفية لاسقاطه عنه . وليس في ذلك ما يدعو الى العجب ، إن ذلك العرش العالي لم يكن ارثاً ينتقل إلى الإبن بعد أبيه كما هي الحال في نظام العروش اليوم ، بل كان مشاعاً يقتحمه الجريئ الثائر من الأمة ، دون ما نظر الى الدم الأزرق أو الأحمر .. ودون أن يكون للأمة رأي في معظم الأحيان .

أجل ، إن الجالس على العرش الروماني لا يستوي في مجلسه إلاّ إذا بايعه الشيوخ بالحكم . غير ان السيف في ذلك الحين ، كان ابعد أثراً وأعظم هيبة من اولئك الرجال الذين يشبهون التماثيل .

ومن صفات كلوديوس انه لا يتراجع إلى الوراء إلا إذا سحقته القوة . ولا يتردد في الأمر الذي يريد ولو رأى بعينيه شبح الموت .. قفز الى العرش وهو يهزأ باعدائه ، وعصب رأسه بالتاج وهو ينظر اليهم كأنهم صور ليس لها شأن ..

ثم مشى إلى الحرب بالعزيمة الحديدية الصادقة والقلب الفولاذي الكبير طامعاً بالشهرة الساحرة ينالها بحد السيف فيلقي الرعب في قلوب أعدائه ، الطامعين مثله بالوصول الى القمة .. فإما أن يسحقهم تحت قدميه فيستقيم له الملك ، وإما أن يخسر شرفه وحياته وهو قابض على حسامه ..

وزينب ، أجل زينب الأرملة .. كانت في طليعة اولئك الاعداء الذين يجب ان يختفي أثرهم من الوجود .. يجب أن يحطمها من سمائها ليصفو له وحده جو تلك السماء .. بل يجب ان تموت لتبتسم له الحياة .. غير أنها بعيدة عن روما .. وهي لا تستطيع ان تمد يدها إلى العرش قبل ان يمر الزمان .. أما الخوارج الآخرون ، الذين يحيطون بالعاصمة ، فهم أقرب الى الوصول اليه وأشد خطراً

إذن ليموتوا قبل زينب .. ان موتهم دعامة لسلطانه ، ثم ينصرف بعد ذلك إلى ضرب الملكة الشرقية المستخفة بذلك السلطان ..

ولكي تقرأ افكار الأمبراطور بوضوح وجلاء ، اقرأ هذه الكلمات القليلة التي وردت في كتابه إلى شيوخ روما وهو زاحف الى شواطئ الطونه :

« ويحمر جبيني خجلاً عندما أذكر أن جميع قواسي المشرق الذين يخدمون الرومان ، أصبحوا من جيوش تدمر يخدمون زينب » ..

وفي هذا وحده دليل على أن شهرة المرأة الكبيرة كانت تملأ قلب الرجل

الكبير كما ملأت قلوب القياصرة الذين تقدموه ، وعلى ان فكرة القضاء عليها ولدت في ذهن غاليانوس ، ثم إلى ذهن كلوديوس ، ثم إلى ذهن الملكين اللذين جلسا بعده على العرش . كما سيجيئ .

*

أما زينب فقد عرفت كل شيئ وكأنها لم تعرف شيئاً .. اي أنها لم تكترث لما سمعت . ولم يجد الخوف سبيلاً إلى ذلك القلب الذي لا تروّعه الحادثات .

ليفعل كلوديوس ما يشاء ، وليذلل رقاب خصومه في كل قطر .. ولكنه عندما يزحف بجيشه إلى آسية ليسلبها التاج ، عندئذ تعرف الملكة كيف يكون النصر

هذا ما كانت تقوله لرجالها كل ما ذكروا الرومان .

وقد مرت شهور على حرب القيصر وهو ظافر . حتى ردّ الجرمانيين إلى بلادهم . واسترجع الأقاليم التي استولوا عليها بسرعة وقوة غريبتين ، شهد له بهما خصومه السياسيون .. وطاف في البلاد ينشر هيبة القيصر من جديد . ويستعيد النفوذ الذي خسره غاليانوس القتيل . وصفوف الخوارج المتمردين تترك الساحة بذل . وتتراجع أمام سيف البطل الروماني الجبار ..

ومع ذلك فزينب لم تحفل بذلك الظفر . ولم يخطر ببالها قط ان السيف الذي اخضع به القيصر اعداء ملكه ، يستطيع أن يمس نعلاً من نعال جندها الذي يتلألأ الشرف والعز فوق راياته ..

فمضت في سياستها كأن القيصر غير موجود ، وكأنها سيدة الشرق والغرب تخدم الدولتين وتشتغل للمصلحتين .

ونسي الرومان قائدهم هراقليانس الذي قتل في الميدان فلم يسألوا الملكة عنه .. ولم يعتبها نائب القيصر على قتله ، باسم مولاه ! ! ذلك لأن العتب يعقبه الرضى ويظهر أنهم ملوا سياسة اللين والاسترضاء . وهب أنهم سألوها فقد اعدت لهم جواباً يهتز له غاليانوس في قبره .. ان الشر الناتج عن تلك الحرب كان القيصر القتيل سبباً له .. وهذا ما لا يستطيع الرومان ان ينكروه .. أولم يأمر غاليانوس جنوده بان يناجزوا زينب القتال ، حفظاً لهيبته التي زالت من نفوس قومه . ونفوس أهل الشرق ؟..

اذن فالملكة كانت مكرهة على الدفاع ، وهي الباقية على العهد تحفظ الولاء للقيصر كما حفظه اذينة من قبل .. وإن لم يقبل الرومان هذا الأعتذار فليأمروا

سفراءهم بترك آسية وليشهروا السيف .. فتلك السياسة المضطربة المتزعزعة لا ينقضي أمرها حتى تسيل دماء الفريقين ويظفر احدهما بالآخر فلا يرتفع بعد ذلك للمغلوب صوت ..

* *

كانت أعلام النصر تخفق فوق جيش كلوديوس قيصر كما قرأت وكانت زينب في ذلك الحين تفكر في الاستيلاء على مصر . ولكنها لجأت هذه المرة إلى الحكمة فلم تشأ ان تدخل مصر دخول الفاتحين .. أي أنها أرادت ان تتعلل بشيء للدخول .. وكان رجالها من هذا الرأي . اما حطان فكان يقول :

اتركي مصر يا مولاتي فهي البلد الذي لا يعنيك أمره .. ولكن .. كيف تسكت حفيدة كليوبطرة عن بلدٍ نشأت فيه جدتها العظيمة ثم جلست على عرشه؟!

إن مصر في نظرها ملك لها غصبه الرومان ؛ فمن العجز ان تصبر على هذا الذل وتستسلم الى الغاصب . وعقدت للأمر مجالس الشورى من المخلصين ، فاجمعوا على الصبر ريثما تخلق لهم الأيام سبباً .

أجل . ان طعنتين ترسلهما الملكة إلى صدر روما ، الواحدة منهما تتلو الأخرى . عداوة صريحة ظاهرة كالشمس فخير لها ان يكون ظاهر طعنتها الثانية ولاء ودفاعاً من ان تجعلها تحدياً يتهدم بعده بناء تلك الصحبة بين الامتين إلى الأبد

وفكرت في إرسال رجل يدرس لها أحوال مصر . ومن يكون ذلك الرجل غير حطان صاحب الرأي الصادق والسياسة الرشيدة ؟.. انه الرسول الدائم في المهمات .. لكن حطان يخالفها في هذا وهي تخشى ان يكتمها الأسباب التي تبلغ معها غايتها من الفتح.. فرأت أن تستعين برجلٍ آخر تجعله رفيقاً لحطان هو ذلك الجندي الذي ترك بلاده ليقص عليها حكاية القيصر . والرجل أمين لا تقوم الشبهات حول اخلاصه . فدعت الاثنين ، ورجال الدولة في المجلس وقالت لحطان: انك لا تريد يا حطان ان تبسط نفوذنا فوق شواطئ «النيل» أليس كذلك ؟

فأجابها قائلاً : ليس في القضية ارادة يا مولاتي بل رأي ..

قالت : احسنت وذلك هو رأيك ..

— : نعم

فقالت : أما نحن فقد صحت عزيمتنا على استرجاع مصر التي هي ملك كليوبطرة . فماذا تقول ؟

فنظر إلى القواد قائلاً : يظهر أن مولاتي الملكة تريد أن تهزأ بي ..
ثم قال : آمر الملكة بأن لا تفعل ..
فضحكت قائلة : وإذا فعلنا ؟
— : ملأت تدمر جنوداً يستولون على هذا العرش بقوة السيف ..
قالت : وهؤلاء القواد ؟!
قال : لا تجول الخيل جولة حتى يستسلموا الى حطان .. قلت لك اتركي مصر
فاختفت ابتسامتها وقالت : ونحن نقول لك ان تترك المزاح ..
قال : اذن لماذا تسألني الملكة رأيي من جديد . لقد ذكرت لها كل ما أعلم وأنا لا املك غير هذا اللسان يظهر لمولاتنا الملكة عاطفة صاحبه ولست من اولئك الرجال الذين لهم في كل يوم رأي . فاذا أردت مصر فما عليك الا ان تأمري فتشهر السيوف وينتهي الأمر .. قد أكون جباناً يا مولاتي وليس للجبان رأي في الحرب . فارسلي الجيوش تحمل راية تدمر الى مصر وسعري النار في أقاليم الرومان فحطان لا يرضى الا أن ينحني القيصر نفسه لهذه المرأة العظيمة التي يحترم ويحب ولكن يا مولاتي .. آه يا مولاتي اني أخشى ان تمتد النار إلى هذا البلاط والقصور التي حوله فيضمحل هذا العز الذي رفع تدمر الى السماء ..
قالت : كفى فأنت من الجبناء ونحن لا نسمع لك . ثم غيرت لهجتها قائلة : تهيأ للسفر بعد بضعة أيام .
فدمعت عيناه ثم قال : قبل ان اعرف مهمتي اسألك للمرة الأخيرة يا مولاتي أن تعدلي عن فتح مصر .
قالت : بل نفتحها ونحن نهزأ بهذه الأوهام التي تريك النور ظلاماً ..
فأشرق جبين اليهودي قائلاً : إذن لقد تهيأت للسفر فإلى أين ؟
— : إلى مصر التي تبغضها أتذهب ؟
قال : لو عرفت أن الموت يكمن لي وراء اهرام فرعون لما ترددت في الذهاب .
قالت : انك خير الرجال ولو كنت جباناً ..
— : ولكن ما هي مهمتي ايتها الملكة ؟
— : نريد أن تقرأ أفكار الشعب المصري كما تقرأ أسرار القدر ..
— : لكي تعلم الملكة إذا كان أهل مصر يبغضون الرومان ..
— : أصبت وبعد ذلك ننظر في أمر الفتح .

قال : لقد فهمت كل شيء إنك لا تحارب مصر إلا إذا تهيأت لك اسباب هذه الحرب .

فقالت لقوادها : ان الملكة احسنت الاختيار وحطان يعرف كل شيء كما قال ثم قالت له : هذا ما أردناه وسنبعث معك هذا الرجل تستعين به على أمرك وأشارت إلى الفتى القادم من كيليكيا .

قال : لم يبق الا أن تأمري بالسفر ..

قالت : لك ان تترك تدمر ساعة تشاء .

— : اذن أتركها غداً عند الصباح قبل أن تجلس الملكة للناس

— : ليكن هذا وليحرسك إله اسرائيل ..

وجعلت تنظر في حاجات الناس الذين يملأون الرواق حتى انصرفوا . فعادت الى حديث الفتح والحرب تسمع فيهما آراء الرجال ..

أتذهب غداً إلى مصر ؟

— : نعم يا كهيلة فتلك إرادة الملكة التي لا يطيب لها العيش الا في الميادين .

— : ومتى تعود ؟

فظهرت على شفتي حطان ابتسامة غريبة وقال : لا يعلم ذلك غير الله !

فقال معن : بيننا وبين مصر جبال وسهول وقد لا يعود منها قبل ثلاثة أشهر .

فقال اليهودي : وقد لا أعود ..

وكان صوته يضطرب وهو يتكلف الهدوء ..

فذعرت كهيلة قائلة : ذلك جواب لا أفهم معناه !

قال : معناه ان الحياة بيد الله فإذا ذهبت غداً فعلى أمل العودة إذا لم يدهمني الموت قالت : يخيل الي انك ستذهب غداً وأنت مكره ..

قال : ليس في هذا الوجود من يستطيع إكراه حطان .. لقد نشأت حراً وسأموت وأنا حر .. قالت : ألا تخاف الملكة ؟

— : اخاف كائناً واحداً هو هذه النفس التي تتردد في جسمي الضعيف .

قالت : ولماذا تذكر الموت ؟

: اذكره لأني عاجز وخير للعاجز ان يموت ..وذلك لغز لا تفهمه كهيلة

فقال معن : لقد نصح للملكة بالرجوع عما تفكر فيه من أمر مصر فلم تقبل

قالت : وأين هو العجز في هذا ؟

قال : أيستطيع حطان أن يرغم الملكة على قبول نصحه ؟

— : لا .

— : إذن فقد بدأ عجزه وذلك ما عناه بقوله . اسمع يا حطان ، ألم تفعل ما يجب عليك فعله ؟ قال : نعم

قال : حسبك هذا ولتفعل الملكة ما تشاء .

فتمتم قائلاً : لكن هذه المشيئة ستسلبها التاج ..

فاهتز الحمداني لهذه الكلمة وقال : ان الرومان لا يقدرون على ذلك .

قال : نعم كما ان المتآمرين على اذينة لم يستطيعوا ان يقتلوه .. لقد كان كلما ذكرت له خصومه يبتسم ابتسامة الاستخفاف بهؤلاء الخصوم حتى وضعوا خناجرهم في قلبه وقلب هيروديس !! ان نفراً من أهل تدمر يرأسهم غلام صغير ازالوا اذينة عن العرش ولولا بقية من الوفاء في صدور رجاله لرأيت زينب وامراء بيتها المالك يرسفون بقيود الشقاء والذل . أفلا يستطيع الرومان وهم أبطال العالم ان يحطموا العرش الذي جعلته زينب فوق عرشهم ويقذفوا بالتاج المتلألىء اللامع إلى هوة الفناء ؟

فصاح ابن حمدان قائلاً : حطان !!..

أما الرجل فلم يسمع وكان يقول ! لقد هادنها الملوك وخضع لها الشرق واعترفت لها روما بالسلطان، أفتريد ان تحملها السحب الى حضن الله لتنازعه الملك وتملي ارادتها على كل كائن يعيش على سطح الأرض !! وكان جسمه يرتجف وهو ينظر بذهول إلى الأمام كأنه يرى أشباح المستقبل السود ترتقص على الجدار .. أجل ، هذه سلاسل الذهب حول عرش تدمر ، وتلك يدٌ من حديد تهز العرش ليسقط ، والملكة فوقه تضطرب كالزورق في البحر الهائج ..

ووهبلات !! وهبلات الضعيف المريض يغمض عينيه بتعب .. ومع ذلك فهم يهزأون بحطان ويسخرون .. بقلوبٍ أعماها الطمع وسادتها الكبرياء ..!

ولم يستطع ان يتمادى في القول ، فان صوته اختنق في صدره وهوى الى الأرض وقد اغمي عليه .. فقامت كهيلة وهي تستغيث . ولكن معناً عمد الى الخمر وجعل يصب منه في فم حطان حتى استفاق .

ولعله أنكر على نفسه ذلك الضعف الذي استولى عليه . فاستوى جالساً كأنه لم

قليلاً وقد ظهرت على ثغره ابتسامة جديدة لا يستطيع الناظر اليه ان يعرف ماهي.
وكانت كهيلة خائفة . فقال معن : اتخافين أيتها الحبيبة ؟؟
فأجابته قائلة : ألم ترَ وجه حطان الأصفر وعينيه الملتهبتين ؟
فقاطعها اليهودي قائلاً : ذلك حلم ..
- : ولكنك لم تنم .
فقال : شرّ الأحلام يا ابنتي تلك التي ترى في اليقظة .. أعد عليّ قولي يا
معن .. ولكن لا فقد نسيت كل شيء ومن الخطأ ان تذكرني ما نسيت .. ثم غير
لهجته قائلاً : إذا ظفرت زينب بمصر فقد ظفرت بارضٍ ترابها من الذهب .
قالت : وتلك السلاسل التي رأيت ؟!
قال : هي حاجزٌ تجعله الملكة حول عرشها لتمنع يد الزمان من الوصول اليه .
إني أحب مصر يا معن واوثر الرقاد على شاطئ نهرها على الأقامة في قصور الملوك
قال : وتدمر ؟ قال : مللت السكنى في الصحراء !.
- : ان تدمر اعظم مدن الشرق ..
قال : نعم غير ان هذا السهل الذي يكتنفها لا أحبه ..
- : متى خلق هذا البغض ؟
- : اليوم حمله اليّ هواؤه الجاف ..
- : إذن فحطان يحب ويبغض . كلما هبّ الهواء !
- : نعم وتلك هي تعاليم السياسة في هذا الجيل ..
ثم قهقه ضاحكاً وهو يقول : لقد اصبحت كثير النسيان يا بنيّ
قال : ماذا نسيت ؟
- : نسيت ان البغض والحب عاطفتان وان عواطف الناس في تدمر ملك الملكة
: أإلى هذا الحدّ ؟
قال : نعم فإذا احببتك الآن وقامت الملكة بعد ساعة تأمرني بأن أبغضك فأنا
مكره على قبول ذلك الأمر ..
فقالت كهيلة : لقد عدنا إلى الأحلام !.
قال : أتستغربين ما ذكرت ؟
قالت : الغريب فيه أنك تلوم الملكة ..
قال : صدقت ان الرجل الذي يفكر في لوم الملكة يجب أن يموت

قالت : قصّ علينا ما تعرفه عن مصر
وهي تريد أن يعود حطان إلى حديثه الأول الذي دعاه حلماً .
فقال : ستقصّ عليك الأيام حكايات مصر
قالت : بل تقصها أنت .
فهزّ حطان رأسه قائلاً : أما حطان فقد هرمت ذاكرته حتى نسي نفسه ..
ووضع رأسه بين يديه واستخرط في البكاء
فبكت كهيلة وهي تقول : لو سألني أحد عن هذه الدموع لترددت في الجواب
فقال معن : ذلك شأن القلوب في ساعات التوديع .
فنهض حطان ماداً يديه الأثنتين إلى الزوجين قائلاً : أجل . ونحن نفترق الآن
ثم صافحهما دون أن ينظر اليهما ومشى إلى الباب .
فمشيا وراءه وهما يقولان : قل إلى اللقاء يا حطان ..
ولكنه كان قد خرج فلم يسمعا جواباً ..
فقالت كهيلة : ما رأيت حطان قط كما رأيته الليلة .
قال : أما أنا فكهذا أراه كل يوم ..
— : ومع ذلك فقلبي يضطرب من الخوف وأشعر أني أكره مصر ! !
قال : لو كنتِ وكان حطان مستشاري الملكة لنصحتما لها بان ترضى بتدمر وما حولها . ان هذا الخوف لا أجد له سبباً غير الضعف والاستسلام إلى العاطفة
قالت : لقد صدق حطان في كل ما قاله منذ أصبح أذينة ملكاً الى هذا اليوم
قال : بل أخطأ في قوله للملكة أن ترجع عن حرب الرومان ، ألم تري كيف قتلنا هراقليانس وهزمنا جيشه ؟
قالت : انه لا يخاف الحاضر يا معن
قال : اما الآتي فليس لنا ان نفكر فيه لإننا لا نعرفه ..

وجعل يمازحها ويصف لها مصر كما وصفوها له حتى زال اضطرابها وعادت إلى الإبتسام . وكان الهزيع الثاني من الليل قد انقضى فاستسلم الاثنان الى نوم هادئ يبتسمان فيه لحاضرهما الزاهي الذي تكتنفه الآمال ..

* * *

انه يوناني الأصل ايتها الملكة !

قالت : نذكر اننا جعلنا رجلين يونانيين ضابطين في الجيش ..

ثم فكرت قليلاً وقالت : ونذكر انهما تركا جيش الرومان في مصر وقدما تدمر ليخدما الملكة .. أليس كذلك يا زبدا ؟

قال : نعم يا مولاتي واحدهما الذي نتحدث عنه يعرف القطر المصري كما يعرفون تدمر .

— : ومن قال لك ذلك ؟

— : كثيراً ما سمعته وسمعه زباي يحدث رفاقه باخبار تلك البلاد .

— : ما أسمه ؟

فقال زباي : أسمه تيماجين وهومن أصحاب الرأي ومن الضباط الاشداء .

— : إذن نراه الليلة ونسمع رأيه ، ليحضر !

فخرج أحد الغلمان يدعو تيماجين اليوناني الضابط في جيش المشاة .

وكان ذلك ساعة ذهاب حطان إلى قصر الحمداني . وزينب في إحدى قاعاتها مع أبيها وزبدا وحدهم وقد نام الملك .. وبباب القاعة نفر من الحجاب . وبعد ساعة اقبل الضابط واذن له في الدخول . فإذا هو في مقتبل عمره ، أسمر الوجه براق العينين ، وعلى جبينه أثر جرح كبير ينطق برباطة جأشه .

فسجد وهو لا ينظر إلى أحد .

فقالت الملكة : انهض يا تيماجين وأجلس على هذه الوسادة ، انك لا تعلم لماذا دعوناك .. قال : لا

فأرادت على عادتها ، ان تختبر شجاعته . فقالت : دعوناك لنضرب عنقك !

فابتسم قائلاً : أهلاً بالموت تأمر به مولاتنا الملكة ، ولكن أتقتلين يا مولاتي بدون ذنب ؟

— : بل نقتلك لأنك فررت من جيش الرومان في مصر والموت عقاب الجندي الفار كما تعلم .

قال : إن الجندي الذي قضى حياته في الميادين لا يفرّ .

— : وكيف تركت مصر ؟

— : لقد انتهت مدة خدمتي في جيش القيصر !

— : كذبت فقد كتب الينا انك عصيت قائدك ثم استولى عليك الخوف فهربت

— : الكاذب هو الذي كتب اليك هذا .. ومع ذلك فضرب اعناق الجنود لا يكون الا في الساحة وعلى مرأى من الجيش .. اذكري لي الليلة يا مولاتي ما تريدين وليخضب الجلاد يده بدمي عند الصباح ..

— : إذن فأنت غير خائف ..

— : ماذا أخاف يا مولاتي وقد كنت أصدق الجنود في خدمة الرومان كما أنا أصدقهم في خدمة الملكة ..! إني اخاف شيئاً واحداً هو أن يكون الموت في تدمر جزاء للمخلصين .

قالت : لقد صدق القائدان فأنت شديد البأس .. والآن نسألك عن مصر !

— : لتسأل الملكة عما تشاء

قالت : قل لنا اولاً متى حملت السيف ؟

— : منذ خمسة عشر عاماً أيتها الملكة .

— : إذن كنت صغيراً

— : بل كنت في العشرين من العمر

— : ومكثت هذه الأعوام كلها في أرض فرعون ؟

— : كنت اتركها مع الجيش لنحارب اعداء القيصر ثم أعود اليها حتى امست مصر وطناً لي . — : ولماذا تركتها ؟

فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : إنها يا مولاتي ارض حارة تحرق الأجساد

قالت : ليست تدمر اطيب هواء منها ، قل ولا تتردد .

فتمم قائلاً : خفت ان تستعر فيها نار الثورة وأنا على غير دعوة الثائرين

فحدقت اليه ثم استعادت قوله . فقال : نعم يا مولاتي ان نار الثورة ستلتهم مصر

— : ومن يوقدها ؟

— : قائد جيش الرومان فيها الذي يخون وطنه ..

قالت : إن ذلك القائد هو نفسه نائب القيصر . أهو الذي تعنيه ؟

— : لا أعني سواه ، ان بروباتيس خائن وكثير الطمع

— : ان حديثك عجيب أيها الرجل

قال : وأعجب منه ما سأقصه عليك الآن .
قالت : احذر يا تيماجين ..
ـ : اعرف قبل كل شيء يا مولاتي أني أخاطب الملكة ..
: احسنت فاذكر ما تعرفه دون ان تنسى شيئاً .. وارسلت عيناها ذلك الشعاع الساحر ..
فأرخى الضابط عينيه ينظر إلى الأرض ثم قال :
كنت من ضباط القائد يا مولاتي وكان يستشيرنا في أموره
فقاطعته قائلة : متى تركت مصر ؟
ـ : منذ أربعة اشهر قالت : ثم ماذا ؟
قال : فدعاني اليه قبل أن اعتزل الخدمة وقال لي : أتريد ان تصير قائداً ؟
قلت من يمنحني رتبة القيادة ؟ قال أنا لأني سأحمل لواء العصيان وانفرد بأمر مصر
وكنت قد رأيت في الرواق خمسين رجلاً من الضباط ينتظرون الإذن في الدخول . فعجبت لسؤاله يلقيه عليّ ولم يتحفظ . وترددت اولاً ثم قلت : لقد انهكتني الحروب وسأطرح سيفي لاستثمر أرضاً لي ، قال : واجعلك حاكماً . قلت : أوثر زرع النخيل على الحكم .. وكنت أظن أنه سيأمر بقتلي ولكنه لم يفعل خوفاً ان يفضح نفسه بل أشار عليّ بترك الجيش وكتمان السر .
ـ : وبعد ذلك ؟
ـ : رأيت ان الجيش كله استسلم اليه الا بعض صغار القواد الذين آثروا الموت على الخيانة . قالت : هل قتلهم ؟
قال : لم يقل لي ذلك أحد ولكني فتشت عنهم كثيراً فلم أجد لهم في مصر أثراً
فنظرت إلى القائدين وهي تبتسم ابتسامة الفوز كأنها تقول : لقد تهيأت لنا اسباب الفتح . ثم قالت : ولكن الثورة لم تنشب بعد !
قال : ستنشب بعد أيام ريثما يستطلع الرجل رأي الزعماء . ان مصر كبيرة جداً يا مولاتي لا يدرس المرء أحوالها في شهرين .
قالت أما وقد استسلم الجيش فلم يبق سبيل إلى الثورة ، كم هو عدد الجيش يا تيماجين ؟
: خمسون الفاً في الحرب وهو عدد قليل جداً بالنظر الى ذلك القطر .
: أتقول قول خبير ؟

— : نعم يا مولاتي ومعظمه يقيم في المدن .

— : وكيف هو صاحبك بروباتيس ؟

قال : أتريدين أن اصفه لك أيتها الملكة ؟

قالت : أجل ومن جميع نواحيه !

قال : من احيل الناس ولكنه شجاع .

قالت : وما الذي يدعوه إلى خيانة مولاه ؟

قال : أنه كثير الطمع كما قلت وقد رأى رفاقه القواد يخرجون عن طاعة القيصر ويصبحون ملوكاً وهو لا عرش له ..

قالت : انه أحد ابطال هذا الزمان ولكنه لا يلبس تاجاً ..

فقال بل يلبسه يا مولاتي لأن القيصر لا يذكر مصر الآن وهو يسترجع الأقاليم التي انفصلت عن روما

قالت نعرف عن كلوديوس اكثر مما تعرف أنت ، ان الذي يمنعه من الصعود الى العرش هو نحن .

فأجابها مستغرباً : الملكة ؟!

— : أجل ان قائدك زبدا هو الذي يحطم عرشه ..

— : إذن فمولاتنا الملكة ستحارب مصر !

— : سنحاربها بعد بضعة أشهر ريثما يعود الرجل الذي أرسلناه اليها

— : أتنتصرين لقيصر ؟

— : نعم فليمت المتمردون فلا خير في رعية تعق ملكها ..

قال : تخضعين والي مصر اليوم ثم يعود العصيان غداً ..

فظهر العز بصورته الرائعة على وجه الملكة وهي تقول :

أما القيصر فيعصونه وأما زينب فلا ..!!

قال : لي كلمة أقولها إذا أردت . — قل :

— : افتحي مصر وأجعلي لك فيها نائباً تحميه الجنود ..

فابتسمت وهي تهزأ به قائلة : الأرض التي تطأها أقدام التدمريين تبقى لهم إلى الأبد ، انك يا تيماجين ستخدم تدمر خدمة نذكرها لك .

— : وأبذل نفسي في سبيل الملكة

قالت : وسيكون لك شأن في حرب مصر .. فتهيأ ..

قال : متى تكون الحرب ؟
قالت : لا نجرد سيفاً قبل أن يخرج صاحبك خروجاً تاماً عن الطاعة ، وسيحمل حطان اخباره .. أواثق أنت بكل ما ذكرت .
– : بل اثق بأن رسولك لا يصل إلى مصر حتى يلمس بيده عصيان الرجل
قالت : وعند ذلك نبعث اليه الجنود يعلمونه الإخلاص والوفاء لبلاده ..
ثم قالت : عنده خمسون الفاً من الرجال ليس غير .. ألم تقل هذا ؟
– : ينقص هذا العدد ولا يزيد .. ومعظمهم يا مولاتي من ابناء البلاد .
– : حسناً فاكتم ما سمعت وقم فانصرف .
فخرج الرجل وهو يقول في نفسه :
لتقتلني الآلهة ان لم ابلغ الغاية في مصر وأصبح سيد الموقف.
« وهنا يجب ان يعلم القارئ ان المؤرخين يقولون :
كان تيماجين يتملق زينب وهو الذي حرضها على الفتح »

وكأن الملكة لم ترد أن تنام .. ان الزمان اوغر صدرها على القيصر المتكبر وهي لا تطيق الصبر على استخفافه .
فقالت للقائدين : هذه يد الآلهة في قضيتنا وسيتم لنا ما نشاء أفنعدل عن ارسال حطان أم ماذا ؟
فقال زباي : عندما ترك تيماجين مصر كان واليها يهمّ بالعصيان ويستشير قواده ، ولكن من يضمن لنا انه فعل ؟
فقال زبدا : لو ثارت مصر لملأ خبر ثورتها الأقاليم . ولكتب نائب القيصر هلدا الى الملكة .
قالت : بل لا يكتب الينا لانهم قادرون على اطفاء النار دون ان يستعينوا بنا ..
قال : أتظنين ؟
- : نعم وذلك العهد الحافل بمظاهر الاخلاص والولاء قد انقضى ..
قال : إن القيصر نفسه أرفع من ان يكتب وأما نائبه فلا بدّ له من ذلك .
: لماذا ؟
: لكي يكون له وجود وإلا فما هو معنى اقامته في هذا القطر ؟
وهكذا قال ابوها زباي .

فقالت : إذن من الرأي ان نبعث حطان وقد يخرج بروباتيس على دولته وحطان في مصر ..

قال : نعم والسياسة تقضي بان لا نتعجل في الأمر .

قالت : لقد خطر ببالنا ان ندعوه فنأمره بالبقاء الآن .

قال : بل خير لنا ان يذهب ولنصبر بعد .

قالت : ليكن ما تريدان فمصر أصبحت لنا لا ينزعها منا ذو سلطان وليستخف كلوديوس قيصر ما طاب له الاستخفاف .. ونهضت تريد الانصراف

فقال زبدا : سمعت الملكة تقول لتيماجين ان زبدا هو الذي سيحطم عرش مصر فما معنى هذا ؟

قالت : معناه أنك ستكون وحدك على رأس الجيش ..

— : وزباي ومعن وسيار وجميع القواد ؟

— : سننظر في أمر ذهابهم معك وأما والدنا فيبقى في تدمر مع فريق من الفرسان ورجال الصحراء

قال : أعتقد أن لهذا سبباً فهل لك يا مولاتي أن تذكريه ؟

— : ان لم نذكره لحامي عرشنا فلمن نذكره .. ان الملكة اليوم غيرها بالأمس .

قال : لعلها تخشى خيانة أحد ؟

قالت : أجل نخشى ان يفاجئنا عدونا الجديد ويخوننا ابناء قومه المقيمون بيننا فنضطر الى الوقوف موقف الدفاع وهذا ما لا نريده .

قال : أتعنين القيصر وأتباعه ؟

قالت : لا نعني سواه . فجميع ظواهره تثبت لنا انه ذلك العدو ..

— : ولكن ..

فقاطعته قائلة : ولكن نريد أن يكون البادئ بحمل السيف وهذا كل ما في الأمر . ولم تنتظر جواباً بل تركتهما لتستريح في فراشها وتستسلم إلى الأحلام ..

* * *

كان للعلم في أيام زينب ، كما قرأت ، دولة عريضة الجاه بعيدة الصوت ، وكان بلاطها نادياً كبيراً لأ هل الأدب والعلماء . وكما كانت فخورة برجال السيف الذين بسطوا نفوذها في كل فضاء ، هكذا كانت فخورة برجال القلم الذين فاض بيانهم في ذلك الجيل فشمل الأقطار .

أبطال اليونان والأرمن ، واليهود والعرب . ينضوون إلى الجيش التدمري ليخدموا تلك المرأة التي هي مفخرة الأجيال . وادباء ذلك الزمان ينضوون الى بلاطها ليخدموا العلم في جوٍ هادئ وتحت سماء صافية خفقت فيها أعلام زينب ، وهي تبسط لهم كفها وتغمرهم بالنعم . وهم النفر المحترمون رفعتهم الى مراتب الاستشارة . فانحنت لهم رؤوس القواد والشيوخ . ولم يكن أحب اليها بعد النظر في شؤون الملك ، من مجلس يقعد فيه اولئك الأدباء تناظرهم بذلك الذكاء العجيب والحجة التي لا ترد ، ومعظمهم من ابناء البلاد . أجل من سوريا التي انبتت على مرّ الأجيال الرؤوس المفكرة والأدمغة الكبيرة .

ولا بد من ان نذكر لك بعضهم بسطور قليلة .

منهم : كليكراتيس الذي قال المؤرخون أنه أعلم الكتبة في الأدب اليوناني والمقدّم على جميع مؤرخي اليونان ، وهو من صور . وقد كتب حياة اوريليان قاهر عدو الملكة .

ومنهم اوبر كوس . واضع الكتب الكثيرة في اللغة والنحو والفلسفة والأدب . وهو من بيروت .

ويوسانياس المؤرخ وهو من دمشق .

ونيكوماخوس السوري ، ولا نعرف مسقط رأسه .

وهنالك سيد الأدباء والعلماء لتجينوس الفيلسوف الذي دعاه زملاؤه كنز العلوم ، وهو من حمص .

قدم تدمر بعد أعوام طويلة قضاها في فلسطين واثينة ومصر . ففتح له بلاط الملكة ذراعية . وجعلته زينب نديمها وكاتبها له الرأي الاول في شؤون الأدب والبحث السياسي

وكان القوم في ذلك الجيل ، مزيجاً من المذاهب ، هذا نصراني ، وذلك يتبع موسى ، والآخر يعبد الصنم . وزينب الحرة ، تعترف لاتباعها بانهم أحرار في اعتناق المذهب الذي يشاؤون ..

أما دين زينب فغير معروف ، أي ان المؤرخين لم يثبتوه . ولم يجمعوا عليه . قال بعضهم ، وهذا قليل : انها تهوّدت ، ولكنّ الدلائل الكثيرة تفسد هذا القول ، اهمها ان التمثالين الباقيين في تدمر حتى الآن ، واللذين جعلهما لها ولأذينة ، زبدا وزباي القائدان ، لا تبيح نصبهما ديانة اليهود كما هو معلوم .

وقال بعضهم ، وهذا قليل ايضاً : انها تنصرت ولم يقم برهان على صحة ما ذكروه .

وقال البعض الآخر ، وهذا كثير : انها كانت تعترف بوجود الله وتنكر الوحي وهو مذهب التوحيد ، غير أنهم اجمعوا على أنها لم تسجد للحجر . لان عقلها السامي العجيب ، كان أعظم من ان يعبد الصنم .

أجل . ان الوثنيين في تدمر كانو كثيرين ، يرجعون في عبادتهم الى إلهين هما بعل ويرحبول . يريدون بهما القمر والشمس ، الذكر والأنثى . وأن الهيكل الأعظم في تدمر هو هيكل الشمس . لكنه بني قبل زينب . ولم يكن عصر الملكة عصر هدم وتخريب ، بل هو عصر البناء والتجديد والتعمير . وعصر الحرية المطلقة في اختيار الأديان كما مرّ .

لم تهدم الملكة هيكلاً للعبادة ولم تضطهد ديناً . بل هي التي احترمت أديان القوم كما احترمها اذينة . ومؤرخ الاضطهادات المعروف . « مسيو ألاد » يقول : إن الشعب الخاضع لزينب تسوده الراحة والسلام . والشعب المسيحي الذي يجاور روما تهرق دماؤه ..

ولقد قرأ المركيز دي فوكيه تلك العبارات التي حفرت على القبور في عاصمة زينب وهذا مثالها : « نقدّم هذا المذبح او القبر لمن اسمه مبارك الى الأبد الرؤوف الرحوم الى آخره » فقال : كأني بهذه الكلمات تذكر الصلاة النصرانية المعروفة « ليكن اسم الرب مباركاً منذ الآن إلى الأبد » .

فإذا صحّ القول ان هذه العبارات من صنع المسيحيين ، جاز لنا من الناحية الأخرى ان نقول ، انها كلمات وثنية ويهودية ايضاً . كما نطقت بذلك الآثار التي يرجع عهدها إلى الزمان القديم . قبل أن يولد المسيح .

أما رأي لونجينوس في المذهب اليهودي فهو هذا :

قال في كتاب الايغال   ان هميروس الشاعر بذل وسعه ليجعل الناس آلهة والآلهة ناساً .. لكن موسى الكليم لم يكن انساناً بسيطاً بل رجلاً مجيباً انار الله عقله فتصوّر تعالى وقدرته تصوراً لا مثيل له .

* *

أما احبّ العلماء إلى زينب ، فرجل من سميساط اسمه بولس ، كثير الدهاء والذكاء وكثير المال ، نادى به القوم – لقربه من أذينة وزينب ، ولغزارة علمه – بطريركاً على الكرسي الانطاكي في سنة ٢٦٠ . وكان قبل ذلك من رجال البلاط . وصاحب الكلمة النافذة بينهم . وقد وفرت له أسباب الجاه والعزّ في ظل الملكين . والناس جميعهم النصارى واليهود وعباد الأصنام يحترمون الرجل ويهابونه ، ويعترفون له بالجرأة وصحة الرأي .

وكان يتملق الملكة كما تملق زوجها من قبل . ويلبس للاخلاص في كل يوم ثوباً جديداً يحمل المرأة المتكبرة على الوثوق به والركون اليه .

حتى عهدت اليه أخيراً في وظيفة « الدوكنار Ducenarius » التي كانت في نظره أعظم من رئاسة الدين ..!

والدوكنار « في الأصل » موظف يجمع الخراج للحكومة . وقد دعي بهذا الاسم لواحد من سببين : إما لان راتبه كان مئتي الف « ستسترس اكثر من ٣٥ الف فرنك » وإما لأنه كان يأخذ اثنين عن كل مئتين ؛ كما كان نظام الخراج في ذلك الزمان . غير أن هذا « الدوكنار » لم يبقَ في الجيل الثالث على اصله ، بل أصبح رئيس مجلس الولاة أي رئيس الحكام ، لذلك ترى ان بولس البطريرك اشترك في ادارة شؤون آسية . باعتبار انه أحد كبار الموظفين في دولة الشرق .

ولكن .. ولكن ثبت بعد قليل انه اضعف من ان يتقدّم الناس ويسودهم . فقد بطر واستقوى ، واستهواه الجاه والمال حتى خرج عن حدّه . ولم تستطع نفسه الصغيرة احتمال النعمة التي اكتنفت حياته في الرئاستين ..

وزينب تغضي على الاذى ، وتبسط له يد الرضى واللين . وهو يمعن في الغرور والخفة حتى هوى الى الحضيض وعين الملكة تنظر اليه ولا تقول كلمة .

وذلك أصدق دليل على كبر الجالسة على العرش ، ووقوفها فيما يعني الدين ، وقوف ملك لا يعنيه من أمر شعبه ، غير ان يضبط شؤونه ، ويصون استقلاله .

إن الناس أحرار في الإعتقاد كما تقدم . والملك الذي يكره شعبه على قبول مذهبه ليس بالملك الجدير بالسيادة والحكم .

ولكي تلمس بيدك أخلاق ، بولس ، ونفس زينب المهذبة الحرّة نورد لك بعض السطور من فصل تاريخي كتبه منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ، الأب سبستيان رونزفال اليسوعي عن البطريرك المشار اليه . لعلاقته في الموضوع الذي نكتب .

ولو لم يكن التاريخ قاضياً علينا . بان نعرّفك بزينب من جميع نواحي الأخلاق والحياة . لما عرضنا لذكر مذهبٍ ديني مهما يكن غريباً وشاذاً .

ولك ، بعد أن تقرأ السطور الآتية ، انً تفترض ما تشاء فيما يعني دين زينب. ولك أن تظن أنها تنصّرت او تهوّدت او عبدت الحجر . فالمظهر الذي ظهرت فيه يدلك على أدبها العالي والسيادة النزيهة .

وهذا هو قول الكاهن اليسوعي ،والضمير يعود الى البطريرك :

« وكان الناس قاطبةً يعظمون هذا الأسقف ويحسبونه رجلاً جرئ المقدم ذا عزم ودهاء ، أما بولس فما عتم ان ظهرت أسرار قلبه المكنونة . فاشهر مقاصده وجاهر برغائبه السيئة ، فافرغ كنانة جهده ، ولم يأنف أن يتخذ السلطة المقدسة التي خولها كوسيلة لتحقيق آماله وتنفيذ مطامعه . فجعل ينفق هذه الأموال التي كسبها بالنفاق والتعديات في لبس ثياب فاخرة ذات اثمان فاحشة . فكنت تراه يتزين بالحلى والطرائف شأن الملوك ، أو بالحري شأن ربات الجمال ويحذو حذو العالميين قولاً حتى صار عثرة للنصارى ولعبدة الأوثان انفسهم .

قيل أنه أمر الناس في كنيسته أن يصفقوا له استحساناً كما يصفق للممثلين في المراسح ، وكان خطابه ابداً ثناءً على نفسه ، او تنديداً بآباء الكنيسة الأقدمين .

ولم يقف عند هذا الحدّ من السفاهة . بل اتى يوم عيد الفصح بنساء فرتلن في بيعة الله التراتيل العالمية وانشدن الأناشيد يمدحنه ويعظمنه ..

وقد بلغت هذه القبائح الى اقصى غايتها لما استفزّ الشيطان قلب بولس السميساطي ، وسوّل له ان يتخذ في خدمته فتاة من أهل الريبة . اسكنها في داره ولعله استند في ذلك الى بعض الحجج الواهنة التي من شأنها التمويه على الجمهور .

وبعد حين ادّت به قحته إلى أن يستصحب ابنتين في عنفوان الشباب كانتا تصحبانه حيثما ذهب « دي شمباني »

فهذا الذئب الخاطف الذي دخل الحظيرة جعل على مثاله الاكليريكيين

الدين تحت سلطته . فاقتصوا معالمه وتخلقوا باخلاقه . وافسدوا الخراف التي وكل أمرها اليهم . وماكنا لنصدّق خبر هذه الفظائع لو لم يثبتها مجمع انطاكية في رسالته هذا ولم يألُ بولس جهداً في أن ينال رضى زينب . وقد ارتأى بعض المؤرخين اعتماداً على قول ثيودوريتوس ، ان الغيرة حملت اسقف انطاكية على اتيان ما أتى ، ابتغاء ان يكسب الملكة الى الدين المسيحي . لكن هذا الزعم واهن لا صحة له لأن قلبا فاسداً ملطخاً بالرذائل والادناس لا يستطيع ان يضطرم بالايمان والغيرة على مجد الله . والأولى القول ، ان هذا المبدع لم يبتغِ سوى الحظوة عند زينب ، لكي يظل في كرسيه ثابتاً . ويتمكن من شهواته الذميمة لا يقمع كبره قامع ، ولا يردع اهواءه رادع

وعليه لم تكن سيرته الا تملقاً ومخادعة ومخاتلة للملكة ، التي لم تكُ بعد عرفت ديانة المسيح حق معرفتها . فكان يبيح لها في أمر الدين والآداب ما تستبيح . ويخفف عن عاتقها ما تستثقله . بل كان يعجب بزينب ايّما اعجاب . ويطلق للوها ما استطاع ، ويظهر ما تظهر من العظمة والتجبر والسلطة والدهاء . وفي صورة الحرم الذي رشقته به الاباء يقال : « انه كان على شاكلتها ما غلبته الاّ بعفتها »

فهذا المثل الرديء الصادر عن اسقف نافذ الكلمة في سوريا جمعاء ، هاج له الشرق وماج . وكان من قبل ، في سنة ٢٦٤ قد التأم في انطاكية مجمع لازييف تعليم بولس المذكور فحرم لأول مرة . باتفاق الكلمة .

فلما كشف القناع عن سيء اراء بولس . سقط في يده . وتظاهر بالتواضع والقبول للرأي السديد والايمان الصحيح . ووعد ان يغيّر خطته ويؤمن ايماناً مستقيماً . ولكن عقيب خمس سنوات ، اي سنة ٢٦٩ ، رجع الى ضلاله وشرّ اعماله . او بالأحرى ما زال طول المدة ينهج منهاجه الأول نا كثاً مواعيده دون ان يصلح سيرته او يصحح تعليمه .

فهرع إلى انطاكية ثمانون اسقفاً لمقاومة هذا اللصّ الذي اتلف الخراف اللالا . فانتصب في وسط الجماعة الكاهن ملخيون القديس وفنّد حجج المبتدع الواهنة وأفحمه امام المجمع بتعداد ما عزي اليه من الأضاليل والآثام . فعزل بولس عن كرسيه . واقيم مقامة دمنوس بن ديمتريانوس اسقف انطاكية سابقاً .

ورغبة في اشهار هذا الحكم وانفاذه . بعث المجمع رسالة الى اسقف

رومة ورسالة اخرى الى اسقف اسكندرية . والى عامة الاساقفة والكهنة المنبثين في كل الأقطار .

أما زينب فما انكرت على الأساقفة صنعهم . ولا سلبتهم حرّيتهم . بل تركتهم وشأنهم يحكمون على حميمها وجليسها . واكتفت بان لا تنفذ حكمهم بالقوة الجبرية ، غير أن بولس أبى ان يجحد كفره ويتخلى عن الاوقاف . اتكالاً منه على حزبه العظيم في انطاكية ، وحسن التفات زينب فيما مضى . فلم يبرح هو وأنصاره في دار الاسقفية متمتعاً بالأموال والأوقاف إلى يوم سقوط انطاكية في يد اورليان . كما سيجيء . انتهى »

يحرمون صديق زينب الذي هو أحد رجال البلاط . ثم يعزلونه ويولّون سواه وهي ساكتة ، والموت والحياة بين شفتيها المقدستين .. أفلم تقرأ كيف كان قياصرة الرومان يسوقون الناس بالحديد ليعبدوا احجارهم ؟ ويسفكون دماء الأبرياء على اقدام آلهتهم الصماء ؟ ويقذفون بالفتيان والعذارى الى اقفاص السباع تشبع بهم معدها الهائجة ؟؟ ان زينب كانت أرفع من ان تستبد وتظلم وتقتل في سبيل الدين .. اولئك هم العلماء الذين زها بهم بلاط الشرق بل زها بهم الشرق كله . وعلى رغم العبقرية والنبوغ اللذين حملوا أعلامهما في البلاد ، لم يكونوا أغزر علماً وأصدق نظراً في الاجتماع من تلك المرأة الكبيرة التي جمعتهم حولها وبذلت لهم مالها ، لترفع دولتها الى المستوى الراقي . وتبزّ الرومان في نشر الأدب . الذي كان شائعاً في ذلك العهد .

على أن القضاء بخل عليها بالزمان الذي تستطيع فيه بلوغ الغاية . وحياتها كلها على العرش . كانت اقصر من أن تتسع للاطماع . بصفتها الملكة الفاتحة . والمرأة الحاملة لواء العلم ، في جيل ساده الجهل والظلام .

إن السياسة التي علمها إياها اذينة وهو ملك يؤثر الإنفراد بالتاج ، سياسة مضطربة كما تقدم لم تلبث حتى ظهرت . وانجلت الرغوة فبانت اغراض الملكة من وراء ستار الاخلاص ، وتهيأ الرومان للأمر

لقد عرف غاليانوس قيصر أن زينب تطلب روما لتجلس بنيها على العرش الروماني الذي تسنده الآلهة .. فوجّه اليها جيشاً خانه الحظ فقتل قائده ثم خان هذا الحظ القيصر نفسه وامتدت اليه يد الموت . فخلفه كلوديوس وهو يقسم لشيوخ دولته انه سيثأر بالشرف الذي أُهين

إذن فزينب مجرمة في نظر الرومان . وليس عليها الا أن تستغفر او تمضي في أمرها إلى النهاية لا تبالي بغضب الرومان ولو كانوا كلهم قياصرة وأصحاب تيجان وهب أنها استسلمت إلى روما كما استسلم من قبل خيران أخو اذينة . أفلا ترجع تدمر ولاية رومانية كما كانت ، لسفير القيصر فيها القول والرأي وعليها الخضوع والطاعة ؟؟

وهل تطيق الملكة الجبارة ان يكون على سطح الأرض إرادة فوق إرادتها وهي حفيدة كليوبطرة وزوجة اذينة قاهر سابور وسيدة نساء العالم في كل شيء؟! .

لا . إن تاجاً تلبسه هو عطية القيصر ينزعه ساعة يشاء ، ليس بالتاج الثابت على الرأس ، وإن ملكاً لا تقوم حوله سيوف قومها التدمريين ليس بالملك الباقي ما بقي بيت اذينة .. فإلى الأمام يا زينب ولو تصدت لك طوائف الجن ..!!

هذا ما كان يجول في خاطر الملكة في ذلك الحين ..

وقد استشارت العلماء والندماء في الأمر فلم يبدوا رأياً

فعولت على السير في ذلك الطريق وهي تعلم انه وعر المسالك كثير الأخطار ..

أجل . لم يكن بين رجال البلاط من نصح لها بالعدول عن حرب مصر غير حطان .. حطان الأمين الشريف الذي غادر تدمر والدمع في عينيه والذي لم يرد ان يغادرها قبل ان يرى ذينك الزوجين الحبيبين اليه ، كهيلة بنت زبدا ومعن ابن حمدان

إن جميع من في القصر التدمري ، لم يكونوا أهلاً ليروه قبل سفره !!

ولعله لم يشأ أن يظهر ضعفه أمام الأمراء والقواد . فقضى بعض الليل في قصر الحمداني يذرف دموعه بتعبٍ ويأسٍ ظهرا على وجهه الشديد الاصفرار ..

ثم عاد إلى البلاط ولكنه لم ينم ، وكيف يغمض عينيه والهم يكاد يخنقه وقلبه يضطرب في صدره من الكآبة والخوف !.. وعند الصباح ترك العاصمة مع ذلك الرفيق الجديد المخلص لزينب ، والذي ندعوه خادم الملكة ، لاننا ما عرفنا اسمه

ولما جلست زينب للناس ، سأل زباي عن حطان فلم يقل له أحد انه رآه ، فعرف القوم أن الرجل في طريقه إلى أرض مصر .

* * *

بعد ان تصالحت الدولتان ، تدمر وفارس . وانتهى أمر العداوة بين الاثنين . عمد سابور الى بلاده يبني ما هدمته الحرب . وإلى رعيته ينظر في حاجاتها وقد

نسي الرومان أن زينب حليفة له، فإذا مدّ الرومان أيديهم اليه وقفت تدمر حاجزاً بينهم وبينه حتّى يجمع صفوفه ويبرز الى الساحة .

ولكن ، بقي عليه أن يرد غارات العرب الغزاة ، الذين يستولون على أرضه من حين إلى حين ، كلما طاب لهم الغزو والقتال .

والعرب هنالك ، قبائل من بني عبيد بن الاجرم وبني قضاعة وغيرهم تجاور سواد فارس ، وقد تضيق بها أرض العراق « العربي » فتعمد إلى التوسع بالهجوم الفجائي ، على حدود الفرس .

سيد هذه القبائل أمير من الجرامقة يقال له « الساطرون » وهو الذي يقول فيه أبو دؤاد الايادي :

وارى الموت قد تدلّى من الحضر   على رب أهله الساطرون

أما العرب فتسميه الضيزن كما يقول الطبري ، وهو من أهل باجرمى . ويزعم هاشم بن الكلبي أنه من قضاعة . ابوه معاوية بن العبيد بن الاجرم .

وكان فارساً غازياً ، اقام في مدينة الحضر ، الى جانب « تكريت » بين دجلة والفرات . وبعد صوته حتّى هابه أهل الجزيرة ؛ الا قبائل منهم وفرت نعمها وكثّر عددها فلم تبالِ به .

وله في الحضر حصن منيع يلجأ اليه في أيام الضيق ، وأي شيْ أحب إلى الغازي العربي من مروج خضراء تسرح فيها نوقه وأغنامه . ومكان خصيب تطيب له فيه الأقامة والعيش . وسواد العراق اخضر .. في نباته وشجره وزرعه ، فاذا ضمّ الضيزن اليه بعض ضياعه فذلك حقه أوحى به الطمع .. او أملته الحاجة!

هكذا فعل صاحبنا ، أطلق مواشيه على سواد الفرس فاغضى سابور عينيه ثم اطلقها بعد ذلك مستخفاً بالملك الفارسي فلم يتصدّ له أحد . ثم وضع يده على بعض « السواد » فأوغر استخفافه صدر حليف زينب ، وهو في خراسان .

« سواد العراق أرض خضراء الأشجار والزروع »

فماذا يفعل سابور ؟ أيسكت وهو القادر على قطع تلك اليد السلابة الّتي تستهين به فتطمع به العرب ويكثّر السلابون !..

أم يصبر بعد وفي الصبر مذلة وهوان ؟؟

ان الملك الذي قهر الرومان لا يتراجع إلى الوراء ، وسابور المتكبر القويّ لا يطيق ان تستضعفه العرب .

ولقد كان الأمر هيناً لو لم يقتل الضيزن وقومه رجال الفرس . ولو لم يحمل الفارّون منهم ذلّ الهزيمة وعارها إلى مولاهم الملك .
ولغنى عمرو بن الـهِ القضاعي بشعره يصف الواقعة . قال :

لقيناهم بجمعٍ من علافٍ وبالخيل الصلادمة الذكور
فلاقت فارس منا نكالاً وقتلنا هرابذ شهرزور
دلفنا للاعجام من بعيدٍ بجمعٍ كالجزيرة في السعير

فطفح الكيل ، وقاد الفارس جنوده الى الحضر وهو يعلم أن العرب هنالك ليست رعية لزينب ..
حتى اناخ على الحصن والضيزن فيه مع قومه لا يجسرون على الخروج منه ..
لكنّ الحصن لا يؤخذ في ساعة كما توهم الفرس .
فأقام سابور عليه زماناً طويلاً قيل أنه جاوز السنتين لا يقدر على هدمه ولا يصل الى صاحبه وفي ذلك يقول الأعشى ميمون بن قيس من قصيدة :

ألم ترَ للحضر اذ أهله بنعمى وهل خالد من نعم
أقام به شاهبور الجنود حولين يضرب فيه القدم
فما زاده ربّه قوةً ومثل محاوره لم يقم
فلما رأى ربه فعله أتاه طروقاً فلم ينتقم
وكان دعا قومه دعوة هلموا الى امركم قد صُرم
فموتوا كراماً باسيافكم أرى الموت يجشمه من جشم

ثم ان ابنة للضيزن يقال لها النضيرة « وهذا على رواية الطبري » وافقت سابور في أمره ، وسقت الحراس الخمر فصرعتهم ، فقتلهم الفاتح ودخل المدينة عنوةً والموت يمشي وراء سيوف رجاله حتى قتل الضيزن وهلكت قضاعة التي كانت معه .
فقال عمرو بن الـهِ :

ألم يحزنك والانباء تسمي بما لاقت سراة بني عبيد
ومصرع ضيزنٍ وبني أبيه واحلاس الكتائب من تزيد
اتاهم بالفيول مجللات وبالابطال سابور الجنود

واكثر الشعراء ذكروا الضيزن في أشعارهم ، واياه عنى عدي بن زيد بقوله :

شاده مرمرا وجلّله كلساً فللطير في ذراه وكور
لم يهبه ريب المنون فباد الملك عنه فبابه مهجور

ومرّ الزمان ، على قتل الضيزن وخراب الحضر ، وزينب لم تسأل حليفها الفارسي عما فعل ، بل كانت أرفع من أن تعين قوماً لم يستعينوا بها ولم يخضعوا لسلطانها . انهم من القبائل .. ورؤساء القبائل في نظرها يطمعون بالمال تبذله لهم . فيمشون تحت لوائها دون ان يدفعهم إلى خدمتها عاطفة حب واخلاص كما مرّ..

ولولا قوادها ورجال الرأي في البلاط لحرمتهم نصيبهم من الغنائم ، لان الذي لا يجود بحياته في سبيل الملكة – بدون أجر – لا يصلح لشيء !!..

ولقد ذكرنا لك ذلك فيما تقدم من الفصول .

كانت الوفود تقصّ عليها اخبار الحصار وهي تبتسم وكانت تقول في نفسها :

لو عرف سابور أن أهل الحضر يتبعون تدمر لما شهر عليهم السيف . وذلك هو الواقع ، فهذا الملك العظيم ، لم يخطر بباله قط ، بعد ان صالح زينب ، ان يحارب أتباعها الا إذا تحدّته هذه الملكة وارادت ان تسلبه ارضه

ومرّ زمان آخر وبلاد الفرس وما يجاورها من بلاد العراق في هدوء وراحة .

وقد عاد سابور الى التعمير فبنى مدينته شاذ سابور التي تعرف اليوم بجندي سابور ثم انصرف بعد ذلك الى النظر في شؤون دولته كالملك المطمئن لا يفكر في فتح أو في حرب .

وزينب تقول لرجالها : ان المعاهدة بيننا وبين هذا الفارسي مدّت رواق السلام فوق بلاد الفرس فسابور يستريح الآن ..

وعندما ، أرسل حطان وخادم الملكة إلى مصر ، لم يكن في بلاد الفرس شيء جديد ..

* * *

رسول فارسي !.

ورسل ملوك فارس لا يكونون عادة ، الا من المرازبة الأشراف .

فنظرت زينب الى من حولها قائلة : ما قدم هذا المرزبان الا لأمر أفي العراق اليوم ضيزن آخر ؟

فقال ابوها : لو كان الأمر كذلك لما استشارنا الملك ، إن المهمة أعظم مما نظن

قالت : هنالك امران لا ثالث لها ، إما أن الرومان فاجأوا الفرس فبعث

سابور يستعين بنا ، وإما ان الموت ...

وثم سكتت كأنها لم ترد ان تفكر في السبب الآخر ..

وأومأت إلى الحجاب بأن يدخلوا الفارسي ..

فدخل وسجد وزينب تقرأ ملامح وجهه .. ثم قالت :

اجلس ايها المرزبان . انك مندوب حليفنا الملك ومن اشراف بلاطه ؛

فتمتم شاكراً .

فقالت : أنستطيع ان نسألك عن أحوال مولاك ؟

فرفع نظره اليها وهو يقول : لقد مات مولاي ..

فقالت للقوم : لقد ثبت الأمر الذي فكرنا فيه الآن .. وظهرت على وجهها دلائل الاضطراب ، ولكن كما يظهر السحاب الأسود في الأفق الصافي ثم لا يلبث حتى يضمحل

أتراها اضطربت لموت الرجل الذي لا تعرفه ولم يقع نظرها على وجهه ؟؟..

ومتى كان الفاتحون مثل زينب يهتزّون لذكر الموت ؟. انها كانت تخاف أن يهدم خلف سابور ما بناه أبوه . أي أن ينفرد بسياسته ويقذف بالمعاهدة الى النار ، وهي اليوم احوج الى سكوت الفرس ، منها في كل زمان .

ثم قالت : من جلس بعده على العرش ؟

قال : هرمز ولي العهد ..

قالت : ذلك الذي ولاه سابور خراسان ؟

— : نعم يا مولاتي وقد ملّكه أبوه قبل أن يغمض الموت عينيه

: لماذا ؟

— : لأنه استقل بخراسان استقلال المتكبر لا يعبأ بمن ولاه . وقهر جميع الأمراء والملوك الذين حوله ..

قالت : أيستقل بالأمر دون أبيه فيلبسه التاج ؟! إنك لا تعرف السبب ايها الرجل قال : بل أعرفه يا مولاتي وهو هذا

: اذن فأنت لا تعرف ان ترويه ،

قال لقد قال الوشاة لسابور ان هرمز يريد ان يسلبه الملك ،وانه اذا دعاه اليه لم يجب .

: وصدق سابور ذلك القول ؟

— : نعم يا مولاتي وأرسل يأمره بترك خراسان والمجيء الى المدائن .
— : وبعد ذلك
— وكانت الأخبار قد بلغت هرمز ، فخلا بنفسه فقطع يده والقى عليها ما يحفظها وجعلها في ثياب الديباج وبعث بها الى أبيه ..
فنظرت مستغربة وهي لا تصدّق ما تسمع .
فقال : لا تستغربي يا مولاتي فمن شروط تاج الفرس ان لا يلبسه ذو عاهة ولو كان ولي العهد ..
— : انها عادت لا بأس بها ثم ماذا ؟
قال : وكتب إلى أبيه بما بلغه وأنه إنما قطع يده ليزيل التهمة عنه
— : أي أنه لم يبقَ صالحاً للجلوس على العرش .
— : نعم يا مولاتي . وبكى سابور عندما رأى يد هرمز وهو أحب ولده اليه واحسنهم وجهاً وأشدهم بأساً .
— : ولكن ماذا فعل ؟
وجّه اليه أحد وزرائه يقول له : انه سيملكه ولو قطع جسده عضواً عضواً . وترك سابور عادة اجداده وجعل هرمز الاقطع ملكاً ، ان سابور يا مولاتي من أعظم الملوك وهرمز مثل أبيه
قالت : نتمنى ان تطول أيام الملك الجديد كما طالت أيام سلفه . انه مضى على سابور ثلاثون عاماً وهو ملك ، أليس كذلك ؟
— : نعم
— : وهل عرف هرمز اولئك المقربين الذين سعوا به ؟
قال : ان سابور كتمه اسماءهم ليظلّ الجو صافياً ..
قالت : والآن لماذا اقدمت وحبست انفاسها لتسمع الجواب .
فقال : لأنقل الى الملكة خبر موت الملك ،
قالت : بدون كتاب ؟
قال نعم فان مولانا هرمز لم يشأ أن يبعث اليك كتاباً مع رسول ولكنه أرسل نبيلاً من نبلاء القصر
— : إذن قدمت تدمر تحمل نعياً ليس غير ..
— : بل رقاً كتبت عليه المعاهدة بينك وبين الملك

: إن المعاهدة بيننا وبين أبيه ..

قال : أجل وقد أمرني بأن اسأل الملكة إذا كانت تريد ان تضع يدها بيده

: أي أنه يريد أن يجدد عهد الصلح ؟

قال : نعم وقد كتب هذا العهد ووقّعه لتوقعه الملكة إذا أرادت .

فارتاحت نفسها الى ما سمعت لكنها لم تظهر هذا الأرتياح ، ثم قالت :

أعطنا أياه !

فناولها الرقين ، القديم والجديد فاذا هذا صورة عن الآخر لم يغيّر إلاّ أسم الملك . وأمرت لنجينوس بأن يقرأه. ففعل وأنحنت رؤوس القوم يظهرون الرضى

ثم قالت : ومن هو رسول هرمز إلى قيصر ؟.

وقد سألته عن ذلك لتعلم أية صلة تربط الملكين .

فقال : لم يرسل مولانا الملك احداً إلى روما

قالت : لماذا ؟

قال : لأن كلوديوس قيصر كان أرفع من أن يخبّر سابور بجلوسه على العرش

قالت : اصبت فاذا كانت اجسام الناس جبلت من التراب كما يقولون فأجسام القياصرة مجبولة بماء الذهب ..! ان كلوديوس سليل ملائكة الجنة وأهل الجنة لا ينظرون إلى أهل الأرض ..!

وغيّرت حديثها فقالت إنّا أول من يعترف بهرمز الملك ودولة تدمر مسرورة بان تنظر اليه كحليفٍ شريف قوي كما كانت تنظر إلى أبيه ، سنوقع عهد الصلح من جديد .. ما اسمك أيها المرزبان ؟

: بيل

: إذن تمكث يا بيل في بلاطنا ثلاثة أيام ثم تعود الى المدائن .

: ليس عليّ الاّ الطاعة أيتها الملكة .

وستحمل لمولاك احترامنا وأعجابنا بما فعل في خراسان .. ان ذلك الحادث يدل على أدب نفسه وبرّه بأبيه الملك

قال : سأذكر لمولاي كل ما رأيت

فأطرقت زينب قليلاً وهي تفكّر .. ثم قالت : لا بدّ للملكة من أن تسألك سؤالاً ليس له علاقة بالأمر الذي جئت من أجله..

- : اسأليني يا مولاتي !

قالت : خبّرنا ما تعرف عن أحوال العرب التي تجاور ارضكم ،
قال : إنها لجأت إلى الطاعة في أيام سابور ..
قالت : لو لم يقتل الضيزن لما فعلت ..
قال : أجل فالضيزن كان سيد القوم وحاميهم
قالت : وهل أقبلت وفودهم على هرمز الملك
— : نعم يا مولاتي ان وفود العراق ملأت البلاط
قالت : والعرب هنالك كثيرة
قال : نعم لكنها ليست رعية للملكة ..
فابتسمت قائلة : لو كان القوم رعيةً لنا لما حاربهم مولاك قبل ان يسألنا .. ان لهم ملوكاً وامراء فليدافعوا عنهم ونحن ليس لنا شأن مع العراق البعيد ..
قالت هذا وأومأت إلى الناس جميعهم بالانصراف .. وكان ذلك فجأةً لخاطر جديد خطر لها .. فخرج القوم والمرزبان معهم
فقالت : أمكث يا بيل فالملكة تريد ان تحدثك ..
ففهم رجال البلاط ان الموضوع موضوع الحرب .. ولكن .. ما هي علاقة الفرس بمصر . وأية صلة لهرمز بذلك القطر الذي لم يفكر فيه ؟؟
إن هذا لم يستطيعوا ان يفهموه ، ولم يرَ أحدهم ان يسأل الملكة سؤالاً لانها لو لم ترد كتمانهم ما في صدرها من اسرار لما أمرتهم جميعهم بالخروج من قاعة الجلوس
فعاد المرزبان الى الجلوس وترك الحجّاب باب القاعة بأمر زينب لان السرّ الذي ستبوح به ، لا يجوز على ما يظهر ، ان يطّلع عليه الحراس

أجل أيها الفارسي إن مولاك صاحب لنا وسيوثّق الزمان هذه الصحبة بيننا وبينه .. ولكن نريد أن نذكر لك أمراً تنقله اليه .
فمدّ عنقه ينظر الى شفتيها ترسلان الألفاظ بهدوء .. فسمعها تقول :
سنزيد على شروط المعاهدة شرطاً آخر ...
قال : ما هو ؟
قالت : على الملك ان يمدّ الملكة بجنوده إذا استعانت به . وعلينا أن نفعل ذلك إذا استعان بنا ..

قال : قد لا يستعين أحدكما بالآخر الا ّ إذا حارب الرومان
قالت : وهذا الذي نعنيه .
: ولكن تدمر حليفة روما ..
قالت : لو لم نشأ أن نظهر لك كل شيء لما امرناك بالبقاء . ان تلك المحالفة سمحوها الأيام ..
قال : لقد ذكرت الآن يا مولاتي ..   — : ماذا ؟
: ذكرت تلك الحرب التي اضطرمت نارها بينك وبين حلفائك الرومان قبل موت سابور .
— : تلك التي قتل فيها هراقليانس ؟
— : نعم ، وأظن أن صحبة الامتين انتهى أمرها من ذلك اليوم .
قالت : الذنب في تلك الواقعة ذنب الملكة .. أتعرف لماذا أشهرنا على حلفائنا السيف ؟
قال : سمعنا أن غاليانس أراد القضاء على ملكة تدمر فوجه اليها جيشاً
قالت : بل وجه ذلك الجيش ليقضي اولا ً على سابور ثم ينتقل بعد ذلك إلى تدمر ليأخذ رأسنا .. أفلا يعترف بهذا ملك الفرس ؟
قال : إن سابور كان شديد الأعجاب بالملكة .
قالت : لنترك سابور الآن فقد مات . والآن فأسمع : إن زينب تريد أن تقلل نفوذ القيصر في الشرق . أيرضى مولاك أن يوافقنا في هذا ؟
فأجابها قائلا ً : نعم أيتها الملكة ،
قالها ولم يتردد ولم يتلعثم كأنه هرمز نفسه أو كأنه ينطق باسمه ! !
فقالت : أعد ما تقول أيها الرجل .
قال : أقول أن مولاي الملك يوافق الملكة في القضاء على نفوذ الرومان
— : وكيف تعلم ذلك ؟
قال : لقد فوّض الي ّ الملك أن أعدل شروط المعاهدة إذا ارادت الملكة هذا التعديل
فلمعت عيناها ببارق غريب وقالت : أحذر الكذب أيها الفارسي ..
فأخرج من كمه رقاً كتب عليه أمر الملك ..
— : إذن فأنت تمثل مولاك في كل شيء ..!

— : نعم يا مولاتي كأنك تخاطبين الجالس على عرش سابور ..

كان الفرس يخافون زينب . ففوّض ملكهم إلى رسوله ان يوافق الملكة في كل ما تسأل . وكانت هي بدورها ، تخشى ان يتغيّر الملك الفارسي فيفاجئ بلادها الخالية من الجنود .. وليس أسهل من توقيع العهود بين ملكين يخشى الواحد منهما الآخر ..

فقالت : إذن فاكتب ما نمليه ووقعه باسم مولاك ..

ففعل ..

ثم أمرته بأن يكتب نسخة ثانية ..

ففعل أيضاً ، وهي تنظر اليه .

وكانت المعاهدة بالفارسية ، فقال : اما إذا شاءت الملكة ان تكتبها بلغة اخرى فلتفعل .

قالت : ليس للغة شأن .. إن أمر المعاهدة قد انتهى الآن فلنتحدث بوضوح.. لقد قلنا أننا سنقضي على نفوذ الرومان وسنبدأ بمصر

فأستغرب قائلاً : مصر ؟!

— : أجل فهي أرض الخيرات والنعم ..

ولو لم يكن داهية في السياسة لقال لها : إنكِ لا تفتحين مصر حتى تفتح الأرض فاها وتبتلع هذا العرش .. ولكنه فارسي ؛ ومن رجال الرأي في بلاط هرمز ، ولم ينسَ قط ان زينب زوجة عدو الفرس القوي أذينة الظافر الذي ضرب المدائن غير مرة وكاد يقبض على سابور .

أجل . إن الملكة حليفة مولاه ، ولكن لتمت هذه الحليفة تحت أقدام القيصر . بل ليمت القيصر تحت أقدام زينب ، إن في موت أحدهما امتداد نفوذ مولاه ، وإذا هلكت الأمتان . الرومان والعرب ، خلا الجوّ لهرمز واستولى على العالم .

إذن لتزحف زينب إلى أبعد من مصر . ولتنشب الحرب بينها وبين الرومان حتى يفنى الشعبان وينقرضا إلى الأبد ..

فقال : أرى أن الرومان سيستسلمون في مصر إلى الملكة ؛

وكأنها عرفت ما يجول في صدره فأجابته قائلة : لا تتملق الملكة أيها المرزبان . اننا خبّرناك بما صحّت عزيمتنا عليه لتخبر هرمز ، حتى إذا حارب الرومان أحدنا عمد الآخر الى سيفه يذود به عن صاحبه ، وأما ان تستولي الملكة على مصر

فهذا ما لا تعرفه أنت .

قال : إن التي استطاعت أن تقهر الجيش القادم من روما وتقتل قائده ، تستطيع على الأقل ، أن تقهر حامية مصر

قالت : إنكم قوم تبرّون في القول أليس كذلك ؟

قال : وهل رأت الملكة منا غير هذا ؟

- : لا ولكن يجب ان يكون مولاك على حذر ؛ قل له أن جنود تدمر ينضمون الى جنود الفرس عندما تدعوهم الحاجة إلى هذا الأنضمام ؛ ونحن ما تعوّدنا أن نخون ..

قال : وجنود مولانا الملك يحاربون بين صفوف الملكة ، جيوش روما ..

- : لقد اتفقنا ونحن واثقون بنبالة الملوك ..

قال : إن المعاهدة التي في يد الملكة تدعوها إلى الوثو ق ..

فهزّت رأسها قائلة : عندما يخون المرء شرفه وينقض عهده تبطل المعاهدات..

ورفعت تلك النسخة التي كتبها المرزبان

وقامت فخرجت من القاعة وهي تظن أن العالم كله سيخضع لها خضوع العبد الذليل لا رأي له

ومن حقها أن تستسلم إلى الأحلام والمنى ..! ان هرمز امسى في يدها تستعين به عندما تشاء . ودولة الرومان . وان تكن سيدة الأرض ، لا تستطيع ان تقف في وجه دولتين قويتين هما تدمر وفارس دولتا الشرق ..

* * *

بعد ان تنظر زينب في حاجات الناس وشؤون الدولة تنصرف الى قاعة الملك، لتسند رأسه الصغير إلى صدرها .. وهناك تصبح أمّاً ..

أجل ، إن وهبلات المريض المتمرغ في احضان الدلال . لا يبتسم برجاء إلا لأمه .. وتلك الأم البارة تنسى العرش والتاج ، والفتح والملك والجلال والعزّ ، عندما تحتضن مريضها الحبيب . وترى على شفتيه ابتسامة الحياة

وكانت تناديه بأعذب الاسماء . وتخرج عن رصانتها ، أمام الوصائف والجواري والخدم . لتضحك ولدها الملك الذي لم يضع التاج على رأسه ..

والمرض يمشي بخطىً واسعة إلى الأمام . وجسم الملك يذوب ويتراجع الى الوراء إن الداء استعصى ولولا تلك الابتسامة التي تبدو وتختفي لحسبت وهبلات

جثة مكفّنة باغطية الحرير ..

ولعلّ تلك الدموع التي تذرفها الملكة وتحجبها بكفّها عن عينيّ وهبلات ، أبلغ ما تقع عليه العين ، في تلك القاعة الصامتة التي لا تسمع فيها غير همس الأنفاس ..

* * *

كلما اشتدّ الحرّ لجأ حطان وخادم الملكة إلى ظلال النخيل يستندان الى الناقتين

وطريق مصر في تلك الصحراء ممهّد معروف ، وقد عني به الرومان . كما عني به قبلهم الفراعنة والملوك في الزمن القديم . وكان حطان يقول لرفيقه :

لقد مرّت بهذه الصحراء جيوش الفاتحين المصريين تحمل رايات النصر ..

فيقول الآخر : وستشهد الصحراء اليوم جيوش تدمر في الرواح والمجيء تخفق فوقها تلك الرايات

فيبتسم اليهودي ثم ترتسم الكآبة على جبينه ويطل اليأس من عينيه .. تلك هي حالة حطان في أيام سفرهما الشاق . يستولي عليه الصمت ثم يغوص في بحرٍ من الذهول لا يستفيق منه إلا إذا دعاه رفيقه إلى الإستراحة أو إلى الطعام

وخادم الملكة لا يعرف ماضي حطان بل لا يعرف شيئاً من اسراره . وقد عزا ذهوله إلى عوامل نفسية خاصة ليس من الرأي ان يسأله عنها .

لكن الكآبة دائمة واليأس مستمر .. فقال له في صباح يوم وهما يتناولان الطعام : يا سيدي حطان . لي كلمة أقولها لك إذا أردت .

قال : إنك رفيق لي وخادم الملكة فقل ما تشاء ..

قال : اسألك عن هذا الأسى الذي أراه .

قال : خير لك أن تكتفي بما ترى ..

قال : استحلفك برأس الملكة أن تقول لي .

ــ : لي في تدمر اهلٌ يصبح النور في نظري ظلاماً إذا غابوا عن عيني ..

ــ : إنها غيبة شهرين وستعود ..

ــ : لا تذكر العودة الآن لأنك لا تعلم متى نعود .. اما الشهران فحقبة من الدهر ..!

قال : ألك بنون ؟

فابتسم قائلاً : نعم ولا ..!!

قال : يخيّل اليّ انك تريد ان تهزأ بي ..

قال : لو جاز لي أن اهزأ باحد لهزأت بنفسي .
قال : لو جاز لي أن اهزأ بأحد لهزأت بنفسي .
- : وما هو معنى جوابك ؟
- : معناه اني لم اتزوج ليكون لي ذرية .. وإن لي في تدمر اصحاباً هم أعزّ علي من الولد على أبيه .. قال : ومن هم قومك ؟
- : الملكة وأنجالها الأمراء ..
فتحير الرجل في أمره . واستيقظت في صدره عاطفة فضول غريب . فقال :
واولئك الأصحاب ؟؟
- : الملكة والأمراء على رأسهم ..
- : يظهر أن الملكة وانجالها هم كل ما في هذا الوجود ! !
- : بل كانوا الأمل الذي أعيش به ، والغاية التي أحيا لأجلها ..
فهمّ يقول : كانوا الأمل الذي اعيش به .. ثم قال : واليوم ؟؟
فاضطرب حطان قائلاً : أما اليوم فلست من ابناء الحياة لتسألني عن شيء ..
ثم اركب ناقتك فالشمس ملأت السهل ..
ونهض وقد تجهّم جبينه وارتجفت شفتاه ؛
فقال الخادم : قد يكون لي رأي إذا بحت لي بما في الصدر ..
قال : ليس للناس رأي في الأموات وحطان مائت في نظر نفسه ! !.
فكاد الرجل يجن من دهشته ، إن الملكة لا تثق بأحد وثوقها بحطان . وقد رأى الناس في البلاط يعجبون به ويحترمون رأيه .. بل رآه في مجلس الملكة ، في مقدمة المقرّبين .. فكيف ييأس من الحياة رجل مثل هذا له المنزلة الاولى في مولد زينب ؟ ان دماغه الصغير لا يستطيع ان يحلّ عقدة هذه الأسرار ..
وحطان لم يترك له سبيلاً الى القول ..

* * *

فاض النيل فغطى مياهه السهول الواسعة والأرض الخصبة الممتدة على جانبيه .
وجماعات الفلاحين منتشرة في ذلك القطر هذا يعنى بأموره الخاصة والآخر ينتظر الجفاف وعلائم الاستغراب تعلو الوجوه .. أجل ، ان المصريين لا يستغربون الفيضان ؛ فقد عودهم النيل من قديم الزمان ان يفيض في كل عام ، ولكن استغرابهم ناتج عن حدوث الحادث الكبير في مصر !

وصاحبنا حطان ورفيقه يريان الناس يتهامسون وهما لا يعلمان شيئاً حتى
وصلا إلى بيت في احدى المدن تنزل فيه الغرباء ، سبقهما اليه الكثيرون من أهل
الضواحي وقرى البرّ . وبين هؤلاء جنديان من أهل مصر .

فحيا حطان الجنديين اولاً ثم سأل عن مكان يبيت فيه مع رفيقه فارشدوه اليه.
فآوى إلى ذلك المكان الذي يشبه الزريبة وأشار إلى خادم الملكة فاناخ الناقتين
وعلفهما ودار حطان دورة حول المنزل ثم عاد اليه فجلس بين الجماعة .

وهو يريد أن يبلغ غرضه من السؤال عن أحوال مصر . وكان قد رأى ناساً
كثيرين فلم يشأ ان يسألهم عن شيء لئلا يفضح نفسه .

ويظهر أن القضاء كان عوناً له على باوغ الغاية .. فإن الجنديين أمرا بالخمر
فأحضرت في وعاء من النحاس تتبعه أقداح من الخشب . وكانا كريمين . والمال
معهما اكثر مما يظن القوم

فقالا للناس : من يشرب ؟

فتردد القوم اولاً ثم قبل بعضهم الدعوة وجعلوا يشربونها صرفاً .أما حطان
والرجل الآخر ففي الناحية الأخرى من ذلك المكان .. فقال أحد الجنديين وقد
أخذت فيه الخمر : ان هذين الرجلين يشربونها مشعشعة فاسقوهما .. وأوما الى
رسولي الملكة .

فأجابه الآخر قائلاً : بل هما أرفع من أن يجالسا الجنود ..

فمشى حطان الى الناحية الثانية وهو يقول : ان الفقير الغريب لا يجالس السادة
فصفق الاول بيديه قائلاً : نحن نحب الفقراء ونعطيهم والمال كثير ..

وتلفت إلى جانبيه ثم قال : من اين انت قادم ؟

قال : نحن من فلسطين يا مولاي

قال : لقد عرفت تلك البلاد من عشرة أعوام . ومن اية مدينة ؟

— : من غزة .

فرفع كأسه قائلاً اشرب اذن ايها الفلسطيني فالإله « مرناس » معك

« كانت عبادة الاله مرناس سائدة في غزة في ذلك العهد وله فيها الهيكل
العظيم يحج اليه الوثنيون من جميع الأقطار »

فتناول حطان كأسه وجرعها جرعة واحدة وهو يقول لمن حوله وكان
خادم الملكة ينظر اليه فلا يجد أثراً لتلك الكآبة القاتلة التي حار في أمرها

فقال الجندي : أهلاً بالفقراء فمصر اليوم ترتع في سعة .. اي عرض لكما في مصر ؟ قال : جدبت ارضنا فقدمنا هذه الديار ..

قال : أتريد أن تصبح جندياً ؟

قال : أما أنا فقد اتعبني الفقر والهم وأما رفيقي فليس لأهله معين سواه .

ـ : وماذا تفعلان اذن ؟

قال : نكري هاتين الناقتين فنعيش ..

فالتفت إلى زميله وضحك قائلاً : ماذا رأيت ؟

قال : أشرب الآن وسنرى غداً ما يكون ..

فقال : ألم يقل لنا قائد العشرة امس انه سينقل المؤونة للجيش ؟

قال : بلى

قال : لقد انتهى الأمر الآن وسأدله على هذين الفقيرين ..

وعندئذٍ مدّ حطان اصبعه فقال : أفي مصر حرب يا مولاي ؟

قال : بل ثورة اشتعلت نارها بضعة أيام ثم اطفأها الملك ! ! ..

قال : متى قدم القيصر هذه البلاد ؟

قال : ان القيصر في روما على ما يقولون ..

قال : تريد أن تقول ان جنود القيصر اخمدوا النار ..

قال : إنك أيها الفلسطيني .. اي شيء يدعوك إلى ذكر القيصر الآن ؟

قال : سمعتك تذكر الملك ونحن في فلسطين لا نعرف ملكاً الا قيصر ..

ـ : لقد كان ذلك من قبل أما اليوم فقد تغيرت الحال

ـ : لقد فهمت الآن .. وجرع جرعتين وهو يضحك ضحك المجانين

فقال : ماذا فهمت ؟

ـ : إن الوالي الذي يسود مصر يقال له الملك ..

فارتفعت أصوات القوم وهم يقولون احسنت ايها الفلسطيني فأنت من الأنبياء .. ثم قال : ولماذا يدعى ملكاً ..؟

فابتسم محدثه قائلاً : لانه يحب هذا الاسم ..

قال : إن والي فينيقيا عندنا يسمونه نائب القيصر

قال : ألا تعرف بلداً في الشام يدعى تدمر كان حاكمه عاملاً للرومان ثم اتخذ اسم الملك ..؟

قال : ما اسم هذا الرجل ؟ — : اذينة

قال : ما سمعت قط أحداً يلفظ أمامي هذا الأسم الغريب

قال : وخلفت الرجل زوجته فدعيت زينب الملكة .. أفلا تعلم كيف أمسى اذينة العربي صاحب عرش ؟

قال : لعل الوحي ينزل عليّ بعد الكأس الثالثة فأعلم كل شيءٌ ..

قال : لو شربت كل ما في مصر من خمر اليونان لما فهمت شيئاً .. اسمع ما اقصه عليك من حكايات الملوك ..

وتلفت ثانيةً فلم يرَ حوله غير السكارى ، فقال : ألا ترى اني جندي ؟

قال : نعم

قال : ومن هم الذين يشربون الخمر معي الآن ؟

قال : لا أعرف أحداً منهم

قال : هم من أهل هذا البلد وجميعنا مصريون ..

— : نعم

— : فلو قيل لي ان في الناحية الأخرى اميراً من امراء الرومان يحرس قصره الجند ويخضع له الشعب ، وكان حولي خمسون رجلاً مثلكم اسقيهم الخمر ثم خطر لي أن أسلب الروماني قصره ولقبه افلا استطيع أن افعل ؟

قال : من يعلم ؟

قال : أنا أعلم أيها الأبله ، أسلح الرجال الذين يسكرون ثم اتقدمهم إلى القصر فاقتل حراسه وصاحبه وأصبح أنا الجندي أميراً تنحني أمامي رؤوس القوم في ساعة واحدة قال : وبعد ذلك ؟

قال : لا أعلم ماذا يحدث بعد ذلك فانا أتكلم عن الحاضر .. اشرب الآن واعلم أن بروباتيس الوالي صار ملكاً في يوم واحد .. وعلى الصورة التي ذكرت

— : يظهر أن جنوده كثيرون !

فهمس في اذنه قائلاً : إذا كثر الجنود او قلّوا فهذا لا يمنعه من أن يجلس على العرش .. ان القوة كلها في يده ولم يخرج عن طاعته غير قائدين اثنين لم يلبثا حتى قتلا تحت قدميه .. قال : والشعب ؟

— : إن الشعب لا يهمه الأمر ، بروباتيس والقيصر رومانيان فليحارب أحدهما الآخر وليتنازعا السلطان فليس للشعب في ذلك رأي

ثم قال : لقد عرف الملك الجديد كيف يستميل الجيش .. المال يملأ الجيوب !
والخمر اليونانية في كل مكان .. وليس في مصر كلها رجل طامع بما يطمع به
روبانيس وإذا أقبل القيصر وجنوده بعد أيام ؟
- : تشهر السيوف من جديد وينزل الملك عن عرشه ليمشي أمام جيشه الى
القتال .. - : واعتقد أن النصر يتم للقيصر ..
- : إذا كان جواداً وبذل ماله لجنود مصر
قال : أيحتاج القيصر الى المال ليستميل الجيش الروماني الذي هو سيده وقائده ؟
قال : إن الجيش هنا من أهل البلاد وليس بينهم روماني غير القواد ..
وكانت الخمر قد عقدت لسانه ، فتمتم يقول قبضة واحدة من الذهب
اشتري بها للقيصر الف جندي .. والقيصر يستطيع ان يهب خمسين قبضة وفي
هذه الخمسين يشتري جيوش مصر .. اشرب يا ابن فلسطين فقد وجدنا لك
عملاً وخير لي أن يكون لي جملٌ اكريه من أن اكون قائد جيش..
فأجابه رفيقه الآخر : اترك مصر واذهب الى غزة فأنت تخون الملك ! ! !
فقال وصوته يرتجف من السكر : ان الذي وضع التاج على رأسه هو الخائن
فردد السكارى كلامه قائلين : هو الخائن .. وزاد أحدهم فقال : وتاجه
مخضب بالدم

وجاء دور العربدة والجدال ، ثم انتهى الأمر إلى البراز المضحك وهم
يترنحون من السكر .. فلم يبق على حطان إلا أن يغادر الساحة وينتقل في ذلك
الليل الى موضع آخر يبيت فيه الى الصباح .. وهكذا فعل دون أن يشعر به القوم
وقد استطاع ان ينتزع بعض أسرار مصر من صدر الجندي السكران ..

٣١

مرّ شهر كامل على وجود الرسولين في ذلك الأقليم الواسع الذي يحيي أرضه
ماء النيل .. وقد اطلعا على جميع أحوال البلاد . وعلى منزلة الملك الجديد ..
كان شأن المصريين في ذلك الزمان . شأن شعب ذل بعد عزه . وغلب على
أمره بعد عظمته ومجده ، فاستسلم الى الهوان ..

يجيءُ القيصر فيهتف له ، ويجيءُ بروباتيس فيهتف له . فهو في الحالين عبد للقوي ، يلثم جميع الأيدي التي تمتد اليه .. أي ان ذلك الجندي الذي اطلقت لسانه الخمر كان صادقاً في كل ما رواه لحطان

إذن فالرجوع إلى تدمر أمر لا بدّ منه . وعلى خادم الملكة ان يرجع وحده ورجوع حطان معه لا معنى له .. ذلك ما خطر ببال حطان . فقال لرفيقه :

ترجع غداً وتروي للملكة كل ما رأيت .   — : وحدي ؟

— : نعم وحدك فأنا باقٍ هنا ريثما يقدم الجيش ..

— : ولكن قد تغضب الملكة يا حطان لأنها لم تأمرك بالبقاء ..

قال : ان صدر الملكة لا ينطبق على غير الحلم ، اذهب وافعل ما اقول لك

قال : أرى أن لك غرضاً بالبقاء ..

— : ولولا هذا الغرض لكنت اسبق منك إلى الرجوع ..

— : أنسيت تدمر وأنت القائل انك لا تبعد عنها حتى تملأ الكآبة نفسك ؟!!

— : إني لا أبقى في مصر إلا لأجل تدمر التي احببت

قال : ومع ذلك فأنا لا أرجع ..وكانت عزيمته الثابتة ظاهرة في لهجته ..

فقال : ماذا تقول ؟

قال : اقسم أني لا أعود الا إذا بحت لي بما يدعوك إلى البقاء في مصر

فرأى اليهودي ان يقنعه بالحسنى ، فقال : اني إذا عدت إلى تدمر اكرهتني الملكة على الرجوع إلى هذا القطر مع الجيش ..

قال : وما الذي يمنعك من هذا ؟

قال : إن الجيش لا يصل إلى مصر إلا بعد شهرين على الأقل ..

قال : نعم

— : وفي هذين الشهرين يحصي حطان انفاس المصريين ، ويلمس بيده قوة الملك الجديد ورأيه ، وأسرار رجال البلاط

فهمّ بالجواب فأسكته قائلاً : حتى إذا قدم الجيش عرف بفضل حطان أين يضع سيفه .. اذكر هذا للملكة ولتكن واثقة بالظفر ..

وظاهر هذا القول مقنع كما رأيت ، فقال : واين تكون انت عند وصول الجيش

قال : لا أعرف لي موضعاً الجأ اليه ولكن .. ولكن سأكون في مصر أول رجل يصافح زبدا القائد عند وصوله ..

قال : ستسألني الملكة عن رأيي في عدد الرجال الذين تبعثهم ..
- : ليس لك رأي في هذا وهي لا تسألك .. ثم أطرق يفكر ..
فسكت الرجل حتى رفع حطان رأسه فقال : سأعهد اليك في قضاء أمر ..
قال : سأقضيه إذا قدرت ..
قال : في تدمر قائد للحراس يدعى معناً .. أتعرفه ؟
- : عرفته قبل أن أصبح خادماً في البلاط ..
- : وكيف ذلك ؟
قال : رأيته في ساحة الحرب يوم فصل رأس هراقليانوس عن جسده وحمله على رأس السنان ثم رأيته بعد ذلك وحدثته غير مرة في قصر الملكة
- : ولمعن زوجة هي كهيلة بنت زبدا
- : أما هذه فلا أعرفها
قال : وقصر معن بن حمدان على ضفة الغدير .. فبعد ان ترى الملكة في البلاط وتقص عليها ما تعلم ، تذهب إلى ذلك القصر وتنقل إلى صاحبيه تحية حطان الذي احبهما ..
قال : أفلا يقود قائد الحرس فرقته إلى مصر ؟
- : ان الملكة وحدها هي التي تعلم هذا .. لقد سمعتها تقول أنها ستبعث زبدا على رأس الجيش ويبقى القواد الآخرون في تدمر ..
- : وماذا أحمل غير التحية ؟
- : قل لهما أني أذوب شوقاً إلى قضاء ساعة واحدة من ساعات الهناء في قصرهما الصغير .. ثم قال : إذا كان لهذا الهناء وجود .. وليذكرا حطان ..
ومشى إلى جرابه فأخرج رقاً صغيراً ألصق طرفيه بالغراء وقال : واعطِ أحدهما هذا الكتاب على أن لا يقرأ ما فيه الا بعد فتح مصر .
ولقد كتب على ظاهره « يفتح بعد رجوع زبدا من مصر ظافراً »
فتناوله الرجل قائلاً : وإذا لم يكتب لزبدا الظفر ؟
: بل كتب له وسيسقط التاج عن رأس بروباتيس .. ولي وصية اخرى أيها الرفيق .. - : ما هي ؟
- : إن مولانا الملك يتألم على فراش مرضه .. فلا تنس أن تلثم يده الضعيفة المرتجفة ، باسم عبده حطان الذي يدعو له بالشفاء ..

ولكي يخفي الدموع التي تلألأت في عينيه ، استلقى على فراشه وهو يقول: مسكين وهبلات .. انه لم يطق حمل التاج على رأسه الصغير ..
وأغمض عينيه ليسترسل في التفكير ..

قبل ان يصل خادم الملكة الى تدمر . كانت اخبار الفتنة في مصر قد انتشرت في الأقاليم . فلم يبق الا أن تعدّ زينب العدة وتصبر ريثما يعود حطان

وماذا يقول الرومان هذه المرة ؟ أيقولون أن الملكة تطمع بمصر وهي انما تزحف اليها لتسترجع نفوذ القيصر وتقضي على الخارجين عليه ؟

بل ماذا يقول مجلس الشيوخ الروماني لهذا القيصر عندما يرى مصر المستقلة الثائرة ترجع الى حضن أمها روما بفضل زينب وسيوف رجالها التدمريين ؟

إن استرجاع النفوذ الروماني في ذلك الأقليم الكبير . سيمحو ذلك الذنب العظيم الذي اقترفته الملكة على حدود الفرس .. وسيضطر القيصر الى الاعتراف من جديد بان العلم الروماني لا يرتفعَ في فضاء الشرق ان لم تسنده زينب ،. بيدها الحديدية القادرة . لقد أرادت زينب ، كما قرأت ، ان تخلق لمصر سبباً وهذه كف القدر تحمل اليها ذلك السبب بدون ما تعب ، فالحظ يخدمها ، والزمان معها ، فلتصعد إلى العلاء ما طاب لها الصعود

وقد قام تيماجين يتملقها من جديد ، ويصور لها أرض فرعون كما يصورون الجنة ، وهي لا تحتاج إلى الملق والاغراء ، فنفسها تغريها الاطماع التي لا تعرف مثلها صدور الملوك الفاتحين

فكتبت إلى نائب القيصر تظهر له رغبتها في الزحف إلى مصر ، ودعت رجالها الى حمل السيف لا تنتظر رضى ذلك النائب ، ولو قدم حطان لأمرت الجنود بالمسير .

وزبدا وحده واركان حربه مع صغار القواد ، يمشون أمام الجيش ، أما زباي وابن حمدان وسيار وغيرهم فيبقون في تدمر ، فقد لا يصفو الأفق الذي اسودت فيه السحب ، وتلبدت الغيوم .. ثم انصرفت بعد ان تهيأ الجيش ، إلى العناية بالملك ، لا تخرج من قاعته الا لأمر ، ولا تأذن للوصائف في تعهده ، إلا إذا تركته لتنظر في شؤون الملك كما مرّ ، حتى وصل الرسول إلى البلاط وقصّ عليها ما رآه

فسألته سؤالاً واحداً عن حطان قائلة : ولماذا لم يعد ؟

ـ : لأنه علم أنه سيرافق الجيش إلى مصر فآثر البقاء فيها على المجيء ..

قالت : لقد أصاب فيما فعل .. هل رأيتما الوالي الذي امسى ملكاً ؟

ـ : لا يا مولاتي لأن حطان لم يشأ أن نراه

ـ : إذن ليس هنالك فتنة كما يقولون !

ـ : إن السلام يسود القطر كله واولئك القواد الذين خرجوا عن طاعة بروباتيس ابتلعتهم الأرض ..

ـ : والشعب هادئ كما ذكرت ؟

ـ : نعم وزعماء هذا الشعب هم الذين خضعوا للوالي بعد جلوسه على العرش ، قبل ان يخضع له ابناء قومه الرومان

قالت : إنه شعب بسيط مستسلم يسوقه الفاتحون بالسوط ..

ثم التفتت إلى زبدا قائلة : أرأيت أيها القائد انك ستصبح سيد مصر .

فأجابها قائلاً : إنما أسود بسيف الملكة وأظل عبداً لها إلى الأبد ..

وجعل الرجل يروي لها حكايات الجنود الطامعين بالمال

فقالت له : لا تستعين زينب بالمال حتّى تعجز عن اخضاع الناس بقوة السيف .. هل لك بعد ما تقول ؟

قال : اسأل مولاتي أن تأذن لي في الدخول على مولاي الملك

قالت : ويلك وأي غرض لك بهذا ؟

ـ : لأطبع على يده قبلة الاحترام ..

ـ : أحفظ هذا الأحترام في صدرك حتّى يشفى لأنه مريض لا تأذن لأحد في الدخول عليه

قال : لقد طلب اليّ حطان ان استأذن الملكة في ذلك

قالت : اتفعل ذلك باسمه ؟ ـ : نعم !

وقد أوصاني بأن اجثوا أمام سريره وأدعو له بالشفاء

ـ : ماكنا لنمنع حطان شيئاً .. خذه يا غلام إلى قاعة الملك .

فلما دخل ، رأى وهبلات في فراشه ، بجبينه الأصفر ، وعينيه الغائرتين ، والجواري حوله يقمن على خدمته . فخيل اليه ان في الفراش تمثالاً من الرخام الأبيض لا حياة فيه ..

ومدّ الملك يده اليه بعناء وهو لا ينظر إلى أحد .. فأدناها من شفتيه وهو يحسب أنه يقبل قطعة من العظام ، ثم قال : ان عبد الملك حطان اليهودي يدعو لجلالته بالشفاء ..

فتمتم وهبلات يقول : أأنت حطان ؟

— : لا يا مولاي إن حطان في مصر .

قال : وماذا يفعل فيها ؟

قال : ذهب اليها بأمر مولاتنا الملكة

— : لقد ذكرنا الان ، ان والدتنا تريد أن تكون مصر اقليماً تابعاً تدمر .. وأنت من تكون ؟

— : إني خادم في البلاط يا مولاي ورفيق حطان

قال أحسنت أيها الخادم .. وليجاز الله المخلصين .. إن الملك مريض وسيموت .. أما الملكة فحية وتدمر لا تموت ..

قال هذا وأطبق جفنيه وشفتاه تضطربان .. فبكى الرجل ، وأومأت اليه الوصائف بالانصراف . فخرج والدموع في عينيه ..

* * *

إن خادم الملكة بالباب يريد الدخول

فقال معن لحاجبه : لقد أذنا له .

ثم قال لكهيلة : رأيت هذا الرجل في البلاط منذ ساعة ولم يقل لي شيئاً

قالت : إن للملكة خدماً كثيرين فمن هو هذا ؟

قال : هو الرجل الذي قدم من كيليكيا وقد خبرتك بأمره

فصاحت بفرح : رفيق حطان ؟.. — : نعم

قالت : أيعود حطان يا معن ولا أعلم ؟!

قال : أنه في مصر ولم يرد أن يعود .

فتجهم وجهها قائلة : أتهزأ بي ؟

— : سيثبت لك خادم الملكة اني صادق !

— : وما هو سبب بقائه بعيداً عن تدمر ؟

قال : ينتظر الجيش الزاحف غداً ثم يعود حاملاً اكليل النصر ..

وأقبل عندئذ خادم الملكة والرق في يده

فقالت كهيلة : كتاب من حطان ؟
قال : نعم ولكنه لا يقرأ الان
فناولته من يده وخفق فؤادها عندما وقع نظرها على العبارة المكتوبة على ظاهره . وقد عرفت خط اليهودي ثم قالت لزوجها :
لقد عاد حطان إلى الألغاز وعاد الخوف إلى هذا القلب اقرأ ما كتب الرجل
فقرأ بدوره وساد السكوت .. ثم قال لخادم الملكة : أتعرف معنى هذا ؟
قال : لا أعرف شيئاً لأن الرجل تكتنفه الأسرار
- : وكيف هو في مصر ؟
قال : إذا أراد قضاء أمر في سبيل الملكة سحر محدثيه وانتزع من صدورهم ما يكتمون . ولكنه عندما يخلو بنفسه يستسلم الى الكآبة ويستولي عليه الذهول ان حطان كطلسم الساحر لا يستطيع المرء أن يقرأ سطراً واحداً من تلك السطور الغريبة التي تكتبها الكآبة على محياه
قال : وبماذا أوصاك
- : أوصاني بأن احيي الزوجين العزيزين عليه وأنقل اليهما شوقه إلى قضاء ساعة بينهما في هذا القصر
فتساقطت دموع كهيلة وهي لا تحاول اخفاءها
ثم قال الرجل : وألح كثيراً بأن تحترم إرادته فلا يفتح هذا الكتاب الا في الموعد الذي جعله له
فقالت كهيلة لمعن : لقد خسرنا حطان إلى الأبد ..
فأجابها قائلاً : لقد بدأت بالاستسلام الى الأوهام .. أي شيطان أوحى اليك بما تقولين ؟ قالت : ذلك هو معنى السطر المكتوب على الرق
قال : ان في الكتاب سراً لا يريد حطان أن تردده الشفاه الا بعد ان يرجع الجيش ..
فهزت رأسها قائلة : أترك ما في الكتاب من اسرار وأنظر إلى ظاهره
قال : لقد اخذت روح النبوة عن حطان يا كهيلة .. ماذا رأيت في هذا السطر المكتوب ؟ - : رأيت أن حطان لن يعود
فقهقه ضاحكاً وهو يقول : لقد دب اليأس إلى صدر كهيلة فرأت في السماء الصافية سحباً سوداء

قالت : لا تلجأ إلى المزاح .. أفلا يقول حطان أن نفتح كتابه بعد رجوع زبدا من مصر ؟ — : بلى

— : أي بعد أن تنتهي الحرب وتفتح الملكة ذلك الأقليم

— : نعم

— : فاذا تمّ الفتح وعاد ابي ظافراً فأي معنى لبقاء حطان بين المصريين ؟..

— : ومن قال أنه سيبقى ؟

قالت : ان حطان نفسه يقول هذا . فلو أراد الرجوع مع الجيش لما بعث الينا كتابه . اذ لا حاجة لنا إلى كتاب يسبقه صاحبه .. الا ترى الان ان الصواب فيما أقول ؟

فعاد معن إلى نفسه فإذا هو عاجز عن أن يرد البرهان الصريح

فقال : إذن فللرجل غاية لا نعرفها ! !

— : أما أنا فقد عرفتها وحطان يفكر في عدم الرجوع وهو سيموت

فأرتجف جسم الحمداني

أما خادم الملكة فقال : وأنا اخشى أن يكون الموت غرض حطان . ان كآبته المستمرة كآبة رجل سيترك هذه الحياة

فقال معن : لقد خطر لي أن أفضّ ختم الكتاب ، ما رأيك يا كهيلة ؟

قالت : إن الزوجين اللذين ينتميان إلى آل حمدان وآل السميدع لا يخونان شرفهما .. — إذن نطلع الملكة على الأمر

فقال الرسول : لقد طلب اليّ أن اسألكما الكتمان

فقالت كهيلة : وفي هذا أيضاً خيانة للشرف ، ولكن رأيت غير ذلك

— : ماذا ؟

— : من يزحف إلى مصر من القواد ؟

قال : جميع كبار القواد يبقون في تدمر إلا زبدا

قالت : وما هي غاية الملكة ؟

— : انها تخاف أن يفاجئها العدو ..

قالت : لقد قام في ذهني أن حطان سيقتل نفسه .. ويقضي علينا الوفاء بأن نرسل الى مصر رجلاً يسهر على حياته .

قال : من يكون هذا الرجل ؟ — : أنت ..

فابتسم الزوج لنبالة ذلك الخلق . ثم قال : ولكن الملكة لا تأذن لي ..
-- : بل تأذن إذا سألتها باستعطاف . اني لا أطيق أيها الحبيب أن تترك تدمر ساعة واحدة ، ولكن ما حيلتي إذا كانت المروءة في نظري أعظم وأعلى من العاطفة ، فأرجع الان الى البلاط لأن الجيش يزحف عند الصباح

فلم يتردد ذلك النبيل في أمره ، بل قام يحاول الانصراف وهو يقول : إن العاطفة لا تفصل بيننا وبين الرجل الذي احاطنا بالمعروف والفضل ، سأستحلف الملكة بتربة أذينة وهيروديس ..

— : إحذر يا معن أن تذكر لها كلمة عن الكتاب

قال : اذا فعلت فأنا نذل ولست ابن حمدان .. ثم قال :

ولكن زينب لا تلين فقد أمرتنا بالبقاء وانتهى الأمر

قالت : إذا لم تفعل وصيت ابي بحطان .

— : ايستطيع القائد العام الذي يريد اخضاع عدوه أن يكون حارساً للرجل ؟

قالت : سأطلب اليه أن يعين لحراسته رجلاً من نبلاء العرب

قال : إذا كان هذا فقد زال الخطر الذي نخشاه

ومشى يريد البلاط وهو يعلم أن الملكة في قاعة وهبلات

فقام خادم زينب يريد أن يتبعه . فقالت له : أبقَ هنا ريثما يرجع معن

وجعلت تسأله وهو يقص عليها ما رواه للملكة ولا تستطيع اخفاء الدموع

* * *

كان وهبلات نائماً عندما دخل قائد الحرس . وكانت الملكة بين وصائفها ، تنظر إلى تينك العينين المغمضتين وهي تكاد تذوب حنواً واشفاقاً

فقالت لقائد حرسها همساً : أي غرض لك من المجيء في هذا الليل ؟

قال : اسأل مولاني اولاً عن جلالة الملك ..

قالت : لقد تعب اليوم وهو نائم الان كما ترى .. ثم ماذا ؟

— : ثم اسألها أن تأذن لي في الزحف مع الحراس إلى مصر ..

فأجابته وهي هادئة : إن في سؤالك سراً نريد أن نعرفه قبل ان تسمع الجواب فاذكر هذا السر

— : وأي سر لقائد الحرس اذا هو استعطف ملكته لتأذن له في حمل السيف ؟

— : أيقوم في ذهنك أن الملكة لا تعرف أن تضع الشيء في موضعه ؟

— : مولاتي

— : ومتى كانت زوجة أذينة لا تعرف الأيدي التي يجب أن تجرد السيوف في ساحات الحرب ؟؟

قال : أتغضبين ايتها الملكة من لا شيء

قالت : من أوحى اليك في الساعة الأخيرة فكرة السفر وأنت ترى منذ شهر أن الرجال الذين أمرناهم بالزحف إلى مصر قد تهيأوا له ؟

قال : كرهت يا مولاتي ان يحارب رفاقي جيوش المصريين ويبذلون دماءهم في سبيل التاج ، وأنا أجر ذيول السعة والرغد في قصور تدمر لا تستثمر الملكة سيفي ولا تجرده من غمده ..

— : ولماذا لم تسألنا بالامس يا ابن حمدان ما تسألنا إياه الان ؟

— : لقد هممت بذلك يا مولاتي ثم ترددت أما الليلة فلم اطق الصبر وأنا اخشى أن يمشي الجيش قبل بزوغ الفجر

— : نحن بحاجة اليك فلا نأذن لك

— : لا تضيعي املي أيتها الملكة

— : إذهب فنحن نخشى أن يستفيق وهبلات

— : أتأذنين لي ؟

— : لا . وإذا راجعتنا فقد استخففت بنا .. أتكره البقاء إلى جانب كهيلة وأنت العاشق المفتون ؟

— : ان الحب لا يمنع ابن حمدان من أن يؤثر تدمر على كل ما في الوجود ..

— : إذن فنحن نأمرك باسم تدمر التي تحب ، بأن تبقى

فهم بأن يبوح لها بسر حطان وينطرح على قدميها مستعطفاً فأبى عليه الوفاء أن يفعل . فقال : أتخيبين رجائي يا مولاتي ؟

قالت : لا معنى لهذا الرجاء فارجع إلى قصرك ..

وعندئذٍ فتح الملك عينيه ونادى أمه .. فوضعت يدها على جبينه وانحنت تبسم له وهي تقول : نم يا مليكي الصغير فعين أملك ترعاك ..

ونظرت إلى الحمداني تأمره بالخروج ..

فلم يتردد الفتى في ذلك . احتراماً لتلك الدموع التي تلألأت في عيني الملكة وعاد إلى قصره وهو يفكر في الملك ، في ذلك الجسم الهاوي الذي يمشي

بطئ واسعة إلى القبر .. وكاد ينسى حطان ..

* * *

بخيل الي أن الملكة لم ترض ..

فاجابها قائلاً : يجب أن لا يلج المرء في طلب ما لا ترضاه .. لقد أمرتني بالبقاء ولم تبال بالاستعطاف ، ولعل وجودها بالقرب من الملك يمنعها من الاصغاء إلى الرجاء ..

فقال خادم الملكة : لم يبق إلا أن يطلع زبدا على كل شيء

فقالت كهيلة : أما أن يطلع على كل شيء فلا .. ولكن نسأله أن يحفظ حياته دون أن نبوح له بسر الكتاب لان حطان لا يريد ، وهو لم يثق بنا لنخونه .. قوموا نذهب اليه .

وبعد قليل كان الثلاثة في قصر زبدا وقد استغرب القائد العام وجود خادم الملكة مع أبنته وصهره ابن حمدان . وظهرت على وجهه دلائل الدهشة فقال :

لا أظن أنكم جئتم لقضاء واجب التوديع ..

فقالت كهيلة : نقضي هذا الواجب عند الصباح .. أما الآن فقد قدمنا لما هو أعظم منه

فجلس زبدا وهو ينظر إلى القوم ..

فقالت : يا أبي .. ألست زبدا بن السميدع الذي يحمي تدمر بقوة سيفه ؟

قال : ماذا جرى لتوجهي الي مثل هذا السؤال ؟

قالت : إن الذي يحمي الدولة والشعب يستطيع أن يصون حياة رجل ..

: أذكري ما قدمت لأجله ..

: إن حياة حطان في خطر .. — : حطان ؟!! .

— : نعم ، حطان الوفي ، الذي لولا وفاؤه لصبغت الدماء قدمي العرش

— : ولكنه في مصر يا كهيلة ..

قالت : أجل والخطر الذي عنيته هو هناك ..

: يظهر أن له عدواً من المصريين .. — : لا يا أبي ..

: إذن فعدوه من ابناء الرومان

— : ليس له عدو في مصر لأن القوم لا يعرفونه ..

— : وأين هو الخطر الذي تذكرين ؟

ـ : إن ذلك الخطر يكمن له في صدره ..

ـ : أعمدي إلى الجلاء يا كهيلة !

قالت : إن حطان عدو نفسه يا مولاي ..

فجعل يقول : عدو نفسه .. حطان عدو نفسه .. إذن فهو يريد أن ينتحر !

ـ : نعم وأنا اخشى أن يفعل بعد أن يتّم لك النصر

فالتفت إلى خادم الملكة يسأله بعينيه ..

فقال الرجل : نعم يا مولاي والذي يرى حطان في مصر يعلم انه لم يبقَ له أمل بالحياة ..

قال : أعلمك حطان قراءة الأفكار أيها الرجل ؟

فقالت كهيلة : لا تهزأ يا أبي فلو لم يكن حطان يائساً لعاد إلى تدمر .

فابتسم قائلاً : لقد اصبحتم جميعكم من الأنبياء .. ان بقاءه في مصر معناه أنه ينتظر الجيش

قالت : هذا ما يراه الناس .. أما أنا ..

ـ : أما أنت فماذا ترين ؟

قالت : أنه لم يشأ الرجوع خوفاً من أن يرى الذين أحبهم فيستولي عليه الضعف ويعدل عن الإنتحار ..

قال : وأنا أخشى أن يستولي عليك الوهم فتري حطان يجرد خنجره ويطعن به قلبه .. قالت : لقد بدأت أن أرى ما تقول ..

فضحك ضحك الساخر قائلاً : أحسنت فهذا هو الجنون .. أتريدين شيئاًبعد

فقال معن : هب أن كهيلة استسلمت إلى الأوهام يا مولاي ..

ـ : نعم

ـ : وأن حطان لا يفكر في الموت كما نظن ، أفتخسر الحرب إذا فعلت ؟

ـ : أفعل ماذا ؟

ـ : تجعل رجلاً من رجال البادية حارساً لحطان دون أن يعلم

ـ : ويتبعه ذلك الرجل كما يتبعه ظله فيمنع الموت من أن يصل اليه .. أليس كذلك ؟ ـ : نعم !

ـ : فعاد إلى الضحك وهو يقول : إن الذي يريد أن يغادر هذا العالم لا يقف في وجهه شيءٌ

قال : حسب القائد العام أنه يرعى أمور رجاله ..
قال : إذا كان هذا فقد وعدت
فقالت كهيلة : لقد جعلت حياة اليهودي في يدك يا مولاي
قال : ليست حياة الناس في يد زبدا كما تعلمين ولكن سأحرص على حياته كما أحرص على حياة الملكة
ـ : ولي رجاء آخر يا أبي .. قال : أذكريه ..
قالت : قل لحطان أن الملك في فراش مرضه . يحتاج إلى عنايته
فأجابها بهدوء قائلاً : أي أنك تسألينه الرجوع إلى تدمر
ـ : أجل قال : إنه راجع على كل حال
قالت : ليرجع قبل أن تنتهي الحرب ..
فقال هازئاً : سنأمره بأسم كهيلة بأن يفعل .. ثم قال لخادم الملكة :
ألم تحفظ شيئاً من أقوال حطان ؟
قال : حفظت معناها يا مولاي
ـ : ماذا كان يقول ؟
ـ : كانت شفتاه تردد ان اسم تدمر كأنه باقٍ في مصر إلى الأبد ..
قال : أهذا كل ما رأيت أيها الرجل ؟
قال : وإذا ذكر الملكة وكهيلة ومعناً تفجرت من عينيه الدموع وتمتم الفاظاً لا أفهمها
قال : لم أرَ في كل ما ذكرت ، دليلاً واحداً من دلائل اليأس .. إن الخوف الذي تظهره كهيلة يثبت للناس شذوذ النساء في العاطفة
قال : لقد سمعت ما يثبت يأسه أيها القائد
فنظر اليه ولم يجب . فقال : عندما رأيته مصراً على البقاء في مصر ترددت كثيراً في المجيء إلى تدمر فاقنعني أن وجوده مع الجيش أمر لا بدّ منه . ولكن .. ولكن حطان باح بسره بكلمة قالها وهو يحدث نفسه في ظلام الليل
قال : وما هي تلك الكلمة ؟
ـ : سمعته يقول : لقد كتب لي آن أموت بعيداً عن البلد الذي احببت
وذلك كلام غير صحيح لأن حطان لم يقله ، غير أن الرجل أراد أن يقنع القائد فلجأ الى الكذب

فقال زبدا : ما رأيت في حياة حطان ما يدعوه إلى الانتحار .. اني لا أصدق ما سمعت ..

فأجابته كهيلة قائلة : من يعلم فحياته كلها غرائب والغاز

فبان الاضطراب على جبين زبدا وقال : إذا كان هذا فسأجعل له حارسين يقبضان على يد الموت فلا تمتد اليه

قالت : ولا تنسَ يا مولاي أنه الداهية الذي يعرف كل شيء

قال : إذا تصدى لحارسيه قيدت يديه ورجليه حتى تنتهي الحرب ونعود إلى البلاط .. ولكن الملكة لا تعلم شيئاً من هذا ..

قالت : إذا بحنا للملكة بما في الصدور هزأت بنا ولم تبال .. إنها أرفع من أن تصغي إلى أصوات القلوب

فقال معن : لقد سألتها أن تأذن لي في السفر إلى مصر فلم تقبل

— : وهل ذكرت لها السبب ؟

— : لا . لأني خفت كما قالت كهيلة . أن تهزأ بي

فما تقولون ؟

فأطرق القائد ملياً ثم قال : وأنا أخشى ان يفضي الأمر بي إلى الاستهزاء

فقالت كهيلة : احفظ حياة حطان وافعل ما تشاء ..

قال : لو قام في ذهني أن حطان سيقتل نفسه لترددت في قبول ما تقترحين ولكني واثق بان القلوب الضعيفة تخلق مثل هذه الأوهام التي تذكرونها لي . ثم ابتسم قائلاً :ارجعي يا ابنتي إلى القصر فالليل مضى نصفه وأنا بحاجة الى الراحة

وفتح ذراعيه فضمها إلى صدره والدموع تجول في عينيه . وطبع على جبين صهره النبيل قبلة العطف والحب وهو يقول : اسهر على حياة الملك والى اللقاء أيها الحبيبان

فبكت كهيلة قائلة : مع حطان

فقال وهو يغتصب الضحك : أجل .. مع حطان ..

* * *

كان لزباي في الاسكندرية . صديق وفيّ هو أحد الفتيان السوريين الذين غادروا مدينة « سلوقية » في أيام اذينة الاول ، واسمه فيرموس

عرفه وهو في ربيع الحياة قبل أن يهجر بلده . ووثّق الزمان عرى الصحبة

بين الاثنين. وصاحبنا فيرموس شديد البأس رابط الجأش وذو قوة عجيبة جعلته وهو الفتى اليافع – سيد قومه السوريين

فلما أقام في الأسكندرية ، عرض له ما دعاه إلى اظهار قوته . فأطلق عليه أهل المدينة اسم سيكلوب ، وهو ذلك المخلوق الجبار الهائل ذوالعين الواحدة المعروف في حكايات الوثنيين .

وبسم لفيرموس الحظ ، وافتر له ثغر الحياة فتاجر وأثرى . ووفر له المال الى حد أنه كان يقول لمن حوله : لو طلب الي أن انفق مالي على جيش الرومان لما احتاج ذلك الجيش الى مال القيصر !!

وبعد صوته ، وملأت شهرته بلاد مصر . فلجأ اليه ذوو الحاجات في ذلك القطر ، وكثر حوله الأتباع والأنصار .كما يكثرون في كل زمان حول أصحاب الذهب وملوك المال . فاحتكر كل شيء حتى القمح يبعث منه كل سنة إلى روما ما تحتاج اليه . وهو يعرف زينب وزينب تعرفه . يرجع عهد ذلك التعارف إلى الزمن الماضي ،أيام كانت الملكة في زهرة العمر تطلب العلم في الأسكندرية . في تلك المدينة الراقية الزاهية بالفنون وصنوف الأدب

وكان فيرموس يحب الفتاة التدمرية كما يحبها أبوها زباي . ويحيطها بعنايته وهي فتاة فتشعر أن أباها لو وجد في الإسكندرية ، في ذلك الحين ، لما كان اكثر عطفاً عليها من التاجر السلوقي الجبار

ومرّ الزمان والولاء يتسع وينمو ، فلما غادرت زينب الإسكندرية إلى تدمر . حملت في صدرها للرجل جميلاً واخلاصاً . واعترفت بذلك الجميل بعد أن جلست على العرش . وقد شاءت الأقدار أن تفكر من جديد في هذا الصاحب القديم المشغوف بجمع المال . لم يخطر ببالها أن فيرموس سيكون عوناً لجيشها الذي بعثته الى مصر بل لم يخطر ببالها ان تستعين بماله ليتم لها النصر ، ولكنها فكرت في أن تجعله سيد مصر كلها بعد الفتح

أجل ، ولم تكن فكرتها جزاء للمعروف فحسب ، بل كانت أيضاً رأياً سياسياً فيه كل الدهاء . إن فيرموس واسع النفوذ في أرض فرعون وهي بحاجة إلى ذي نفوذ تعهد اليه في إدارة البلاد التي اخضعتها بالسيف . وعلى صاحب النفوذ أن يكون مخلصاً . وليس في ذلك القطر من هو أشد اخلاصاً لها منه .

ولكنها نسيت أن تذكر أسمه لزبدا قبل زحفه مع الجيش . ولعلها ندمت

على إطلاقها يد القائد . في تولية الرجل الذي يختار

* * *

٣٢

عصب بروباتيس رأسه بتاج مصر وخلا له الجو ..لم يرتفع للمصريين صوت ولم يقم في ضباط الروم من ينهى نائب القيصر عن التظاهر بالعصيان .

وجعل الملك الجديد بلاطه كبلاط مولاه . الجيش الجرار من الحجاب يحرس أبوابه . وطائفة من الضباط تحرس الجالس على العرش . والجواري الحسان والغلمان يملأون القصر . ويجرون ذيول النعمة والعز . وقد طاب للمتمرد الملك ووثق بالزمان .. إن القيصر يحارب الجرمانيين ويخضع الخوارج . وقد لا يستطيع أن يبعث الجيش المحارب إلى مصر . وهب أنه فعل ، فالخمسون الفاً من الرجال وهم في بلادهم يغلبون المئة الف وهم غرباء . لاسيما وأهل مصر جميعهم يحبونه ويهتفون له ، وقد جعل من رجال المشورة بعض شيوخهم والزعماء

على أن هؤلاء كانوا أصناماً .. يلبسون كما يلبس شيوخ الرومان ، ولكن لا رأي لهم في ذلك البلاط الذي يقيمون فيه . الملك وحده هو المسيطر على كل شيءْ .. ومن بعده ابناء قومه الذين شاركوه في الخروج عن الطاعة والبسوه التاج

* *

كان الملك في قصره وضباطه بين يديه ، ووفود الأقاليم تروح وتجيءْ ، هذا يظهر خضوعه لمليك البلاد ، والآخر يسأله قضاء حاجة له . وهو باسم الثغر مطمئن البال . وكان ذلك في صباح يوم صفا جوّه واشتدّ حرّه

فقيل له أن في الباب رجلاً من تدمر ! !

فقال مستغرباً : مدينة زينب ؟! !

فأجابه الحاجب قائلاً : نعم وهو يستأذن على الملك

فتمتم قائلاً : دعه يدخل .. وجعل يفكر في أمر هذا الرسول

زينب الجبارة لا تطمع بمصر ، وليس لها فيها غاية من غايات الفاتحين ! فأي غرض لهذا التدمري الذي يطلب الأذن في الدخول ؟

ودخل الرجل فإذا هو حطان .. حطان بعينه . لا زيادة ولا نقصان ..
حيا الملك بلسانه الفصيح ولهجته الساحرة وأرخى عينيه ينظر إلى الأرض
نظر المضطرب الخائف
فسأله أحدهم بأمر الملك : أأنت عربي ؟ —: نعم
- : ومن تدمر ؟
: نعم . قالها وهو مطرق لا يرفع رأسه
فقال الملك : لسنا بحاجة إلى ترجمان أرفع رأسك أيها التدمري
فنظر اليه حطان ، ولمع في عينيه ذلك الشعاع السحري ..
فقال : من أرسلك الينا
فابتسم قائلاً : وهل ذكروا للملك اني رسول ؟
قال : ومن أنت إذن ؟
— : عربي من تدمر قدم مصر ليرى جلالة الملك
— : ولكن العربي لا يترك بلاده ليرى ملك مصر الا لشأن . فما هي حاجتك؟
قال : اقص على الملك حكاية جديدة ثم انصرف ..
فهم بروباتيس بأن يأمر بجلده لذلك الاستخفاف الذي ظهر منه ، ولكنه
اظهر الجلد إذ قال : إن اصحابك ملوك العرب يصغون إلى الحكايات .. اذكر
ما حاجتك
قال : إنها حكاية لا تعني غير الملك . ولو لم اكن واثقاً بانك تؤثر سماعها
على كل شيء لما مثلت بين يديك
فدهش الملك ونظر إلى جانبيه يسأل رجاله الرأي
فقال حطان : لا تستغرب ما سمعت يا مولاي ..
قال : أين جرت حوادث حكايتك ؟
- : ستجري في ربوع مصر !!
: إذن فأنت تحدثنا بأمر لا وجود له !!
- : سيخرج إلى الوجود بعد أيام ..
فأمر له بالجلوس . فجلس وهو يتنهد
ثم قال الملك : ابدأ بحكايتك أيها العربي
قال : اخشى أن يكون الحديث من الأسرار فلا أبوح به أمام رجال لا اعرف

أحداً منهم

ـــ : أما نحن فنعرفهم وهم رجال الملك . قل ولا تخف

فحدق حطان الى بروباتيس تحديقاً غريباً وهو يقول : ألم تبنِ هذا العرش منذ بضعة أشهر يا مولاي ؟ قال : بلى

قال : وانحنت أمامه رؤوس المصريين أليس كذلك ؟ ـــ : بلى !

ـــ : وهل فكرت يا مولاي في ذلك الجالس على عرش الرومان ؟

ـــ : لا تسألنا عن هذا فهذا من شأن الملك وحده ..

قال : ومن شأن العربي الذي يخاطبك الان .. لقد عرفت يا مولاي ان كلوديوس قيصر يطوف في الأقاليم لأخضاع الثائرين فبنيت العرش وأعددت السيف لكل من يتصدى لك في أمرك ..

ـــ : ثم ماذا ؟

ـــ : ثم بذلت المال لرؤوس المصريين وتربعت في عرشك وأنت واثق بأنك تستطيع أن تقذف بجيوش القيصر إلى البحر إذا خطر بباله ان يبعثها اليك ويستعيد سلطانه على هذا القطر الذي خرج عليه ..

فاستوى الملك جالساً وقال : من ذكر لك كل هذا أيها الرجل ؟

قال : لو عرفني الملك قبل الآن لما استغرب اطلاعي على جميع أسرار الملوك والأمراء . اني أعرف ما لا يعرفه الناس يا مولاي

ـــ : إذن فأنت نبي انبته الشرق كما انبت سواه ! !

ـــ : أجل وسأثبت لك أني ذلك النبي الذي يقرأ ما في النفوس

ـــ : وإذا كذبت ؟

قال : أما الكذب فلا يجد سبيلاً إلى هذا اللسان !

قال : احذر فالموت عندنا جزاء الذين يكذبون !

فأشرق جبينه لذكر الموت وقال : دع الموت أيها الملك فأنا لا أخافه وقد يكون الدواء الشافي لما بي

ووضع يده على صدره ، كأنه يريد أن يسكت ذلك القلب الذي يرقص فيه

ثم قال : وقد وزّع الملك فرق جيشه في ربوع مصر ، وجعل العمال من رجاله المخلصين ، وقرب اليه زعماء القوم يستشيرهم في أمور الملك .. وقام بعد ذلك في ذهنه أن القيصر اضعف من أن يمد يده الى التاج .

قال : والويل لهذا القيصر إذا حدثته النفس بأن يفعل ..

قال : ولكن نسيت يا مولاي أن في الشرق ملوكاً يطمعون بمصر ، ويكرهون أن يستولي عليها قائد من قواد الرومان ..

فارتجفت يد بروباتيس القابضة على الصولجان وقال لا نعرف في الشرق فاتحاً غير سابور وزينب .

وكان الاثنان يجهلان موت سابور.

فقال حطان : إن واحداً من الاثنين يفكر اليوم في الاستيلاء على العرش الذي بهت ...

قال : ويلك من يكون هذا ؟!!

فأجابه بهدوء وتعب قائلاً : زينب يا مولاي ! زينب أرملة أذينة التي تزعم أنها بنت السماء ..

فدبت قشعريرة الخوف في جسم الملك ، وجعل يقلب الصولجان بين يديه وهو لا يعلم ماذا يقول .. أما حطان فكأنه لم يرَ مظاهر خوفه فقال :

وأعدت زينب للأمر عدّته لا تعبأ بمصاعب الحرب وأهوال الفتح ؛

فجهد الملك في اخفاء اضطرابه قائلاً : ألم تقل أنك من تدمر ؟

قال : بلى يا مولاي

— : إذن نسألك عن وطنك قبل أن نسمع لك

وكان حطان بدوره مضطرباً ، يبين ذلك الاضطراب في عينيه ، فقال : سل ما تشاء أيها الملك .

— : أتحب البلد الذي نشأت فيه أيها التدمري ؟

— : بل أعبده يا مولاي وألثم الرمال التي تقذفها غدرانه ، والصخور التي جعلتها الطبيعة حوله .. — : ولكنك تخونه الآن ..

— : ولكني أكره الجالسة على عرشه ولا أستطيع التصور أنها ذات سيادة وربة تاج .. قال : ذلك بغض قاتل لا دواء له

قال : بغض تغلغل في اعماق نفسي لا تنزعه منها يد الموت .

قال : الا تقص علينا سبب هذا البغض ؟

— : بلى . إنه سبب غريب في نوعه أيها الملك وقد لا يصدقه الناس ..

فابتسم وهو يهزّ رأسه . لأن جواب حطان بعث الشك إلى صدره ثم قال :

أذكره فلعلنا نصدقه

قال : كنت احب زينب حباً هو أسمى أنواع الحب يا مولاي ، بل كنت أرى الحياة في عينيها الساحرتين ، والسعادة كلها على جبينها الوضاح وفي حديثها العذب .. وكان لي في كل ذلك عذر أيها الملك ، فزينب هي الجمال والعذوبة والسحر ، بل هي الحكمة والسياسة والدهاء بل هي في كل ناحية من نواحي حياتها . فتنة للنفوس ..

وكنت يا مولاي عبداً لزوجها أذينة الملك قبل أن أصير عبداً لها . وأهل تدمر يشهدون أن حياتي لم تكن ملكاً لي بل كانت للاثنين أبذلها في سبيل العرش ولا أبالي .. ولكن . ولكن أذينة ، اذينة العظيم الجبار كان ضعيفاً ، يقوم هذا الضعف في إعجابه بنفسه . واستخفافه بكل ما حوله . فقتل في عيد مولده وقام الناس يخضعون لقاتله ويهتفون له إلا أنا وبعض أهل حمص البررة الذين استرجعوا العرش للأرملة المتربعة فيه الآن ..

— : وبعد ذلك ؟

— : آه يا مولاي أن الملكة عندما استوت على العرش هزأت بالعبد الأمين الذي رفعها اليه . وأمعنت في الاستهزاء حتى اسمعتني أمام وزرائها ورجال البلاط ما لا أطيق سماعه .. ثم أرسلتني إلى مصر مع رفيق لي ندرس أحوال الملك الذي استقل بالأمر ..

— : وهل فعلت ما أمرتك به ؟

— : نعم لان الرسول الذي جعلته رفيقاً لي كان عيناً لها علي

— : وأين هو ذلك الرفيق ؟

— : في طريقه إلى تدمر ينقل إلى الملكة ما رآه ..

— : ولماذا لم ترجع معه ؟

— : لأني هجرت تدمر وآخترت البقاء في مصر إلى الأبد ..

قال : أهذه هي حكايتك ؟ — : نعم .

قال : وللملك أيضاً حكاية يقصها عليك فاسمع : انك رسول زينب وقد صدقناك .. ولكنك لم تستطع — وأنت في الخارج — أن تدرس شؤون مصر . فمثلت بين يدي الملك لتسمع حديثه . ولكي تقرأ في البلاط ما لم تستطع قراءته بين الشعب المصري من أسرار .. انه دهاء لا بأس به أيها العربي ولكنه كان

خطراً عليك .. ونظر إلى حجابه قائلاً : أقبضوا على هذا الكاذب !
فامتدت الأيدي إلى الرجل الغريب المستسلم الذي ينطق بالحق ..
ثم قال الملك : وأجعلوه في السجن ريثما ننظر في أمره في ساعة فراغ ..
فقال حطان وهو مقيد : لقد اخطأت في عملك أيها الملك
فاحتمل إهانته قائلاً : نعم ولا نصيب إلا إذا اطلقناك .. إذهبوا به
قال : لي كلمة أخرى قبل أن يفصل السجن بيني وبينك
قال : ما هي ؟
قال : أترسلني إلى السجن وأنت لا تعلم ماذا أعدت زينب لفتح مصر ؟
— : أتعود إلى الأكاذيب ولا تعبأ بغضب الملك ؟
— : لقد تعودت يا مولاي أن امضي في أمري إلى النهاية دون إن أبالي بالغضب أم بالرضى .. قلت أني رسول زينب وقد اعترفت بذلك .. ولكني لا أريد أن تنتصر الملكة التي أرسلتني اليك ..
— : من يضمن لنا أنك صادق فيما تقول ؟
قال : سترى بعينك بعد أيام جيوش تدمر تملأ هذه الأرض
— : إذن لا بد من الفتح ! !
— : أتهزأ بقولي كما هزأت زينب ؟ إن الهزء لا يليق بالملوك وأخشى عندما تلمع السيوف في مصر أن يستولي عليك الندم ..
— : أتنتصر مولاتك زينب لقيصر وهو الذي وعد شيوخ روما بالقضاء عليها وتحطيم العرش التدمري ؟
قال : ليس في الزحف إلى مصر انتصار لروما وإنما هو طمع بالفتح كما ذكرت — : من يرأس جيش زينب ؟
قال : يخيل الي أنك صدقت ما قلت لك
: ليس في الأمر شيءٌ من هذا ولكني اعبث بك
— : إذن فخير لي أن احتفظ بسري أيها الملك فلا تسألني بعد عن شيءٌ
— : أنسيت السجن ؟
فابتسم قائلاً : أن السجن في نظري يشبه تلك القصور الجبارة القائمة على ضفة النيل ، ولكن إذا أردت أن تخدم هذا العربي الذي لا تصدقه فاضرب عنقه ليستريح من شقائه

– : معنى ذلك أنك لا تخاف الموت !
– : بل أطلبه في كل يوم وهو يهرب مني كما يهرب اللص
– : والآن ؟
– : أما الآن فأمامك واحد من أمرين ، إما أن ترسلني إلى حيث تشاء وإما أن تسمع لي ..

فرأى بروباتيس أن يعمد الى الحيلة فقال : فكّوه .

قال : على رجاء ان أبقى في قصرك حتّى تثبت لك الحكاية التي سمعت .
– : أي أنك تجعل نفسك رهناً لدى الملك كما تفعل العرب ؟
– : نعم فلا يبقى للملك سبيل إلى الظنون .
– : رضينا بما ذكرت وأنت منذ الآن ضيف الملك ..

قال : ولكني أخرج إلى المدينة بين حارسين كلما طاب لي الخروج
– : لك أن تفعل
– : وعندما تخفق في هذا الفضاء أعلام تدمر أترك ضيافة الملك لأنضم إلى الجيش

قال : إنك تفضح نفسك في هذا السؤال
– : لماذا يا مولاي ؟
– : لإنك تعترف – من حيث لا تعلم – بأنك جندي من جنود الملكة
– : بل أعترف بأني عدو هذه المرأة ما بقيت .. إني إذا لم انضم إلى الجيش الزاحف إلى مصر ، قام في ذهن قائده أني خائن .
– : وأنت لا تجرؤ على الظهور بمظهر العدو خوفاً من زينب
– : لا أدري يا مولاي لماذا لا تريد أن تفهم ما أقول . أليس وجودي في بلاطك الآن دليلاً على الرغبة في القضاء على جيش الملكة

قال : بلى

قال : أولست رسول زينب ؟

فسكت الملك ولم يجب .

فقال : أجل إني رسولها ولا يستطيع الملك ان يقضي على ذلك الجيش إلا إذا وثق قائده بهذا الرسول .

وهو قول لا يقدر الملك على رده كما رأيت .

فصحت عزيمته على الرضى والاستسلام إلى النهاية ، فقال :

إن الملك يفوض اليك أن تفعل ما تشاء .

ففكوّه وهو يقول : سل عبدك العربي عما تريد الآن ..

فقال : أتقود الملكة جيشها إلى مصر ؟

: بل يقوده زبدا رئيس أركان الحرب ، هكذا سمعتها تقول لرجاك المجلس يوم تركت تدمر .

— : وعدد الجيش ؟

— : لا أظن أن عدده يجاوز السبعين الفاً .

فتجهم وجه الملك وقال : أتستطيع الملكة أن تسلح سبعين الف رجل ؟

قال : إنها تستهوي طوائف الجن فتجعلها جنوداً ..

وعندئذ لم يستطع الملك أن يكتم اضطرابه فقال : وأية رغبة للملكة في هذه الأرض ؟

قال : ذكرت لك يا مولاي أن زينب بنت السماء وأنها لا تطيق أن ترى في الشرق والغرب رأساً عليه تاج .

— : ومتى يصل زبدا ؟

— : هذا ما لا أعرفه يا مولاي ، إن الجيش لا يترك تدمر إلا بعد أن يرجع الرسول وتراه زينب .

— : إذن نراه بعد شهرين على الأكثر .

— : وقد تظهر طلائعه قبل ذلك .

فأطرق بروباتيس يفكر في أمره وقد ارتسم الذعر على وجوه الرجال الجالسين حوله .. ثم قال : لم تقل لنا أيها الرجل ماذا تفعل بعد انضمامك الى ابناء قومك ..

— : هب أنك أرسلت إلى جيش الشرق رجلاً من هؤلاء المخلصين فماذا يفعل ؟

قال : يخدم مليكه بكل ما يستطيع .

— : وسأقوم أنا بخدمة الملك إذا استطعت . اني ما اقدمت على الخيانة إلا لأكون صادقاً في وفائي لك .

فالتفت إلى رجال بلاطه قائلاً لهم : لقد سمعتم كل ما قاله هذا العربي فما رأيكم

فقال أحد الضباط : أما أنا فقد صدقته يا مولاي

قال : والحرب ؟

— : وأما الحرب فلا يسعنا إلا أن ندخل في غمارها ..

— : أنظروا في أمرها الآن قبل أن يدهمنا زبدا ..

— : إن الرأي للملك .

فقال لحجابه : امنعوا الناس من الدخول ولا تأذنوا لأحد

ثم قال بعد ساعة : إذن فلا بد من الحرب
قالوا : نعم فمصر لا تكون لتدمر ولو هلكنا
قال : إن الجيش في مصر خمسون الفاً وفي هذا العدد ما يضمن لنا الظفر بالعدو
قال هذا ليختبر بسالتهم
فأجابه ضابط آخر قائلاً : لا سيما ونحن ندافع عن الوطن
قال : سنجمع الفرق في هذين اليومين ثم نعرضها ونبذل لها المال لتخوض المجال وهي غنية بكل شيء .. وسلاح بروباتيس المال وهو كثير في بلاده كما مرّ
فقال حطان : إن لي في الحرب رأياً يا مولاي .
قال : أكنت جندياً في بلدك ؟
— : نعم ومن ضباط الحرس الذي يقوده ابن حمدان ..
— : يخيل الينا أننا سمعنا هذا الأسم قبل الان ، أليس هو القائد الذي قتل هراقليانس ؟
— نعم وهو أصدق القواد ضرباً وطعناً في الميادين .
— : إنك يا صاحبنا نابغة في الوصف .. أذكر لنا الآن رأيك في الحرب .
— : ليأذن لي الملك في السؤال عن جيشه ..
— : أذنا لك ..
— : أتريد يا مولاي أن يتوغل جيش عدوك في بلادك أم تفاجئه بالسيف قبل دخوله ؟
— : هذا سؤال غريب يبدو لنا أن لك به غرضاً ..
قال : أجل وغرضي خدمة الملك .
— : خير لنا أن يدخل العدو وينتشر في القرى ثم يضيع بعد ذلك عندما نسعر النار ..
— : بل خير لك أن تبني له سداً من صدور رجالك فتمنعه من أن يخطو خطوةً واحدة الى الداخل .
— : وما هي الحكمة في ذلك ؟
— : إذا انتشر التدمريون في قرى مصر طالت أيام الحرب وصعب على

الملك إخراجهم ولو ساعدته السماء .

قال : لقد فكرنا في توزيع القوى لنفاجئ العدو في كل بلد يدخل اليه .

: إن في توزيع القوة ضعفاً أيها الملك وقد يستهين عدوك بهذا الضعف

فقال شيخ من الشيوخ : لقد أصاب العربي يا مولاي وعلى الملك أن يطرد سموف زينب وهي على أبواب مصر .

قال : أتوافقون الرجل في رأيه أيها الناس ؟

فقالوا جميعهم : نعم

قال : إذن نجعل جيشنا كله في بقعة واحدة . فاما أن يتراجع الفاتحون وإما أن يظفروا فنتراجع نحن ..

ولو حدق أحدهم في تلك الساعة الى حطان لرأى بريق الرجاء يلمع في عينيه .. ولكن كانت فكرة الحرب تملأ نفوسهم فلم يروه .

ثم قال حطان للملك : لقد انتهينا الآن يا مولاي وأنا ضيفك وأسيرك ..

قال : نعم وسنعلم كل شيء بعد قليل فلا تحاول الفرار لانك لا تستطيعه

فابتسم ولم يجب ، وعلى رغم ذلك الرجاء الذي ظهر في عينيه ، كانت ابتسامته ابتسامة قنوط

* * *

إن لحطان أعمالاً تحيرّ العقول ، وقد يظن القارئ أن دور اخلاصه لزينب قد انقضى ، وأنه لا يطيق ، كما قال ، أن يرى أعلامها خافقة فوق ربوع مصر إن ظاهر القضية يثبت ظنه ؛ ولكن حطان أرفع من أن يكون نذلاً ويخون الملكة التي أحبها حبه الصادق الغريب . كان واثقاً بان أيدي الرومان ستمتد إلى تدمر . وبأن الملكة ستقف يوماً موقف الدفاع ، كما تقف اليوم الشعوب التي تغزوها ، بل كان واثقاً بان ذلك اليوم قريب جداً ، وزينب نفسها تستعجله ، في مظاهر عدائها التي ليس لها حد . لقد نهاها عن إرسال الجيش إلى مصر فلم تصغ اليه ، فبقي عليه ان يتعجل في أرجاع هذا الجيش إلى تدمر ، خوفاً من يغتنم الرومان الفرصة السانحة فيدهموا عاصمة الشرق بالخيل والرجال ..

وقد تعود رجال الحكم في تدمر أن يهزأوا به . فآثر أن يبلغ غايته عن طريق بروباتيس عدو الملكة ، أي ان يحمله على جعل جيشه كله في موضع واحد ليضرب به زبدا الضربة القاضية ويفتح مصر ثم يعود ..

فهو يكره أن يكمن الجيش المصري في أكواخ القرى وفي الأودية فتتسع حلقة الحرب وتمتد وتنقضي الأيام والشهور وزبدا ينتقل من هذا البلد إلى البلد الآخر يطارد القوى الشاهرة عليه السيف .

أجل ، لم يخطر بباله قط أن النصر سيتم لصفوف الملك .. إن الجيش الذي يقوده بروباتيس ، وإن يكن مجرباً في الميادين ، كان مشغوفاً بالمال لا يعبأ بشرف مليكه الغريب عنه . وأن هجوماً واحداً تقوده عزيمة زبدا وارادته . يبدّد تلك الصفوف النازلة إلى الساحة بقوة الذهب لا بقوة العقيدة والايمان .

وعندئذٍ ينال حطان بغيته . ويرضى – بعد فشله في خنق اطماع الملكة بارجاع جيشها إلى جانب العرش ليحميه .

تلك كانت أمنيته الأخيرة بعد ذلك الفشل ، وليس عليه من بأس ، إذا هو آثر البقاء على شاطئ النيل بعد أن يرى بعينيه سقوط مصر ، واستسلامها إلى زينب .. ابنة الله .. ! !

وقد رأيت أنه لم يكذب بروباتيس القول .. قال له أن زينب تطمع بتاجه وهذا هو الواقع . وقال له أن جيشها الزاحف اليه يبلغ السبعين الفاً وهو كذلك .. ولو لم يكن صريحاً في كل شيء لما بلغ الغاية .. وماذا يخشى من وراء صراحته وملك مصر لا يستطيع أن يزيد جندياً واحداً على صفوف جيشه ؟! !

إن أمراً واحداً كان يخشاه وتضطرب له نفسه ، هو أن العروش التي تحطمها الملكة ليس في تحطيمها دعامة لعرشها . بل هو الهوة التي تفتح فاها لابتلاعه مع الرأس المتوّج فوقه ..

وفي هذا وحده ما يدفع حطان الأمين إلى اليأس الذي لا دواء له ..

* *

خرج زبدا من تدمر مع الجيش ، والملكة وراء الصفوف تنظر إلى السيوف الحاملة سلطانها وهيبتها إلى الاقطار ، وإلى أعلامها الظافرة ، تترك تدمر لترتفع فوق بلاد الناس .. ولم يكن في الجيش الزاحف إلى مصر من القواد غير زبدا ، ودليل الجيش الخبير تيماجين .. أما أركان الحرب وصغار القواد فجميعهم محاربون . وقد بقي في تدمر ، زباي ومعن وسيار ، على رأس ثلاث فرق من ابناء البادية تحمي تدمر بل تحمي المشرق .. ! !

ولم ترجع زينب وجماعة المشيعين إلى البلاط إلا بعد ساعتين . وبعد أن

نفخت في صدور رجالها روح البسالة والتضحية والأقدام . ويظهر أنها لم تفكر في حطان ، بدليل أنها لم تذكر أسمه لزبدا ولم تقل عنه كلمة

كأن الملوك لا يفكرون في العبيد المخلصين الذي حولهم الا عندما يحتاجون إلى حياتهم .. على أن ثلاثة من عظماء تدمر ، كانت أفكارهم في ذلك الحين ، متجهة إلى ذلك اليهودي وقلوبهم تخفق خوفاً هم القائد الأكبر الذي سمع حكاية بأسه من فم خادم الملكة ، وصهره معن بن حمدان وكهيلة .

وكان زبدا يستعجل الجيش في المسير ، وهو يفعل كما كان يفعل سيده أذينة . يستريح في النهار ويمشي في الليل . ومن حقه أن يلجأ إلى هذا التدبير ، فالرمال التي تدوسها أقدام الجنود جمر ملتهب ، واشعة الشمس ألسنة نار .

وهو القائد الذي يعلم أن تلك الجماعات التي يسوقونها إلى ساحات الحرب هي من البشر ومن لحم ودم . ولم يكن يعرف مصر ، أجل أنه سافر اليها وهو طفل . ولكن الأطفال لا يذكرون ماضيهم الا كما تذكر المخيلةالمريضةاحلامها.

على أن الفاتحين يستسهلون كل صعب ، فاذا جهلوا البلد الذي يزحفون اليه عمدوا إلى السيف تفيض عليهم من شفرته أنوار المعرفة .. ومع ذلك ، ففي جيش زبدا أفراد كثيرون يعرفون مصر بالذراع . كما يقولون !

وتيماجين وحده أحد ضباط الملك الجديد ، كانت مصر وطناً له كما قرأت فلا يفوت الفاتح شيء ..

* *

أقبلت طلائع الجيش التدمري على مصر ، بعد سفر شهر لم يزعج الجيش فيه غير شدة الحر . وكانت جنود بروباتيس بالانتظار . وقد عادت طلائعه التي أرسلها إلى البر تحمل اليه خبر وصول عدوه .

وقد أرسلها برأي حطان ، فلما استوثق من قدوم زبدا ، ثبت له صدق الرجل ، وجعله حراً في الرواح والمجيء دون أن تمشي وراءه الرقباء ..

وأعد للفاتحين العدة ، وقد زالت بفضل حطان تلك المخاوف التي ملأت قلبه وأستعد للنزال .

ولم يكن زبدا يريد أن يشهر سيفه قبل أن يرى صاحبه اليهودي ويسمع أقواله ؛ فلما نقل اليه بعض رجال الطليعة أن المصريين يجاورون جيشه ، أصدر أمره بحزم وسرعة إلى الصفوف فلجأت الى المواقف التي عينها لها تيماجين . وقام

في ذهنه أن يداً خفية تلعب من وراء الستار ، ولولا تلك اليد لما عرف ملك مصر أن أهل تدمر زاحفون اليه ، ولما وقف في ذلك الموضع موقف الدفاع .

واستولى عليه القلق إلى حد أنه هم بارسال جنديين يفتشان في معسكر العدو عن حطان . غير أن تيماجين منعه من ذلك وسأله الصبر إلى الليل ريثما يخيم الجيش ، ويظهر أن بروباتيس لم يشأ أن يكون البادئ بالقتال بدليل أن رجاله كانت أصناماً لا تخطو خطوة واحدة إلى الأمام . وقد كان يستطيع أن يظفر بزبدا ، لو فاجأ صفوفه المنهوكة القوى قبل أن تستريح .

و ذلك سبب آخر يدعو زبدا إلى الوثوق . بان تلك اليد الخفية هي سيدة الموقف وإلا فملك مصر لا يعرف أن يغتنم الفرص . وهو أضعف من أن يقود جيشه إلى مواقف النصر . على أن زبدا لا يضيع الزمان . فقد نظم شؤون جيشه في ذلك اليوم ، وطاف مع تيماجين حول الفرق ليرى بعينيه كل شيء . كما هي عادته في ساحات الحرب ، حتى أقبل الظلام . وقام الحراس يطوقون الجيش كله . خوفاً من أن يدهمه العدو المستيقظ الذي لا ينام .. فلجأ القائد العربي إلى خيمته ينظر في أمر الرجلين اللذين سيبعثهما الى الجانب الآخر ..

لكنه دهش كثيراً عندما رأى حطان بباب الخيمة ينظر بذهول إلى الأفق فقفز عن ظهر جواده ومدّ اليه يديه الاثنتين قائلاً : حطان ؟

فصحا الرجل من غفلته وصافحه وهو يتراجع إلى الداخل والدموع تجول في عينيه . فنسي زبدا الحرب .. وذكر في تلك الساعة وصية كهيلة وقولها أن حطان سيقتل نفسه .

فقال : نسيت زبدا يا حطان فلم أرك إلا الان ؟

فمسح دموعه قائلاً : ليس للأسير ذنب إذا نسي أصحابه إلى حين ..

قال : أكنت أسيراً ؟

— : نعم ولكني أسير حرّ .

فابتسم القائد وهو يقول : انك في مصر وفي تدمر محجب بالاسرار .

— : بل أنا في كل مكان ذلك الرجل الصريح في باطنه وظاهره .. نعم كنت أسيراً وقد استسلمت بارادتي واختياري إلى عدو الملكة .

— : لماذا ؟

— : لأني أريد أن أجود بحياتي في سبيل تدمر .

: أذكر لي كل ما فعلت .
فجعل يقص عليه ما جرى له في بلاط بروباتيس .
وزبدا يتجهم وجهه وتختفي ابتسامته ، ثم قال له :
أبوح لملك مصر بأسرار الجيش ؟
قال : فالكتمان يقضي على هذا الجيش ويهدم البناء الشامخ الذي بنيتموه .
: لم أفهم ..
: أكنت تريد أن تفاجئ مصر بالجيش والملك غافل ؟
قال : نعم وكنت أطرده من عاصمته في يوم وليل وينتهي الأمر .
قال : بل تطرده منها إلى بلد آخر يلتف حوله فيه الجيش فيشهر عليك الحرب من جديد . — : وإذا فعل ؟
— : إذا فعل قضيت السنة والسنتين طائفاً في البلاد والسيف في يدك لا تخمد ناراً حتى تستعر نار .
قال : ذلك هو شأن الفاتحين يا حطان
قال : أما أنا فقد أردت أن أجمع جيش مصر في بقعة واحدة ليحصد السيف صفوفه فيستسلم اليك المصريون وتعود إلى تدمر بعد غيبة شهرين على الأكثر .
قال : أنه نظر غريب في سياسة الحرب ..
: أجل ولكن هذه الغرابة تصون عرش الشرق .. إلا إذا أردت أن تقضي زمانك كله في هذه البلاد ..
— : إنك لم تعمد بعدُ إلى الجلاء ..
: ليس في حديثي غموض يا زبدا . ولكن قادة الجيش في تدمر يوافقون الملكة في الاستخفاف بكل شيء فتبدو لهم نصائح المخلصين غريبةً يكتنفها الغموض
وكاد صوته يختنق في صدره وهو يقول : إذا أردتم أن تسودوا الشرق فاخنقوا أطماعكم وارضوا بما قسمت لكل الآلهة من عظمة وسلطان .. أضرب غداً عدوك إذا قدرت ، ضربةً لا يقوم له بعدها عرش وأرجع إلى تدمر لتضرب اعداءها الذين يتهيأون للقضاء على الملكة ..
قال : تلك هي لهجتك القديمة البالية لم تتغير ، أتعني بقولك جماعة الرومان؟
— : نعم فقيصرهم لا يغمض له جفن حتى يرى الملكة الجبارة جاثية على قدميه
قال : لا يصل القيصر إلى العرش إلا على جثث التدمريين ..

— : وهذا الذي أخشاه ..

فابتسم القائد قائلاً : لنعد إلى مصر فتدمر بعيدة الآن .. كيف رأيت صاحبك الملك ؟

فقال في نفسه : لهفي على تدمر فليس فيها من يسمع لي ..

ثم قال : إن صاحبي الملك يشبه كثيراً صاحبتنا الملكة .. هو طامع بتاج ولكنه لا يستطيع أن يبقيه على رأسه .

فقطب زبدا حاجبيه وقال : إن في قولك هذا إهانة لزينب ولمن حولها من القواد

قال : ولكني صادق .. بل لي كلمة أخرى هي الأخيرة أقولها ولو ضربت عنقي وسيعترف لي بها الزمان .

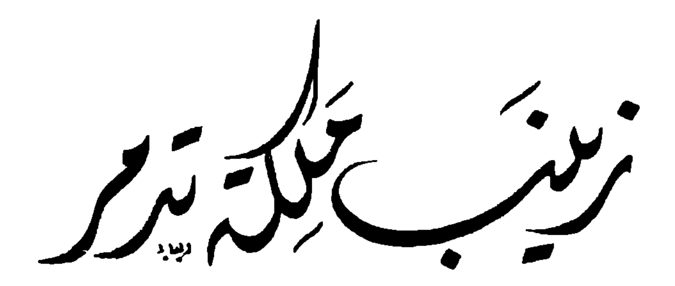
قال : كن من شئت ولا تزد على هذا كلمة

— : هات !

فتمتم يقول : التاج .. إن التاج فوق رأس زينب .. لا .. يثبت ..

روايات تاريخ العرب والإسلام

أميل حبشي الأشقر



الجزء الثاني

القسم الرابع

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

ثم نهض قائلاً : لقد نسيت ان اصف لك جيش الملك .. هو خمسون الفاً من أهل مصر يقودهم فتيان الرومان .. سلاحهم الحراب والسيوف وليس فيهم رماة .. أما مالهم فكثير وهم يحبونه اكثر مما يحبون الملك ..

قال هذا ومشى بخطى هادئه يريد الخروج .

فقال زبدا : أتنصرف ؟

— : نعم فخير لك أن تستريح .　　　　— : وإلى أين ؟

— : ألم أقل لك اني أسير حرب ؟

— : ولكنك نجوت من الأسر الان !

— : لقد وعدت الملك بالرجوع وسأفي بما وعدت .

قال : إن وجودك في معسكر العدو خطر على حياتك .

فاصفرت شفتاه قائلاً : لم يبق لحطان حياة ليحفظها من الخطر .

فخفق قلب زبدا وذكر الوصية . فقال : ولكني أمنعك من الانصراف .

— : بل أرجو الاّ تفعل ، فلي في جيش مصر أغراض ..

— : لقد انتهت مهمتك الان وعليك أن تحمل السيف لتحارب في سبيل قومك .

قال : أيحتاج جيش زبدا قاهر الفرس والرومان الى سيف لا يجرد من غمده ؟ ان يدي لا تطيق حمل السيف ..

— : إن لم نكن بحاجة الى سيفك فنحن بحاجة إلى رأيك نستعين به على العدو .

— : لست من أهل الخبرة بأحوال مصر ..

— : إن الليل أضيق من أن نقضيه بالجدال . لقد أمرتك بالبقاء فلا تتردد .

فمرّت سحابة سوداء أمام عيني حطان ، أيعصي أمر زبدا وهو يمثل الملكة أم يبقى في المعسكر وليس له رغبة في البقاء ..

وتردد قليلاً ثم قال : إني الان رسول الملكة ولست من جنودك ..

— : لقد جعلك أذينة الملك جندياً بين حراسه قبل أن تجعلك الملكة رسولاً ..

قال : اسألك يا زبدا أن تأذن لي .

— : وأنا اسألك أن تبقى معي في هذه الخيمة ، وتجعل فرسك غداً إلى جانب فرسي ..

— : ولكني لست أهلاً للبقاء في جيش زينب ..

— : لماذا ؟

— : لأني خائن وقد أمسيت من رجال بروباتيس الروماني ..
— : نصفح نحن وتصفح الملكة عن خيانتك ..
— : وأنا جندي متمرد لا أطيع القائد العام .
— : وهذا القائد يترك عقوبتك ويعفو عنك .
— : إن نظام الجيش يقضي عليك بأن ترميني بالنبال ..
— : أما أنا فلا أريد أن احترم هذا النظام .. قلت لك أجلس !
— : أتجالس الخائن المتمرد ولا تبالي ؟
— : أجل لأني الحاكم المطلق في مصر .
قال : انصرف الليلة وأعود غداً عند المساء .

فوثق زبدا عندئذٍ بان الرجل يحاول الخروج لينتحر ، والا فلا معنى لهذا الاصرار الغريب الذي رآه . فقال : يخيل الي أنك تذهب الليلة على أمل أن لا تعود .. أتقسم برأس الملكة أنك ترجع غداً ؟

— : إن لم أرجع بعثت اليك من يحمل أخباري ..

فازداد وثوقاً بقول كهيلة وقال له : إنك تكرهني على اجراء ما لا أحب يا حطان ..

— : لا تغضب يا مولاي فانا لم أفعل ما يستوجب غضبك :

وكان يريد أن يحمله على الرضى ليترك الجيش .

فقال : ألست القائل أنك متمرد وخائن ؟ — : بلى !
— : اذن فقد عدلت عن العفو عنك .
قال : إذا كان هذا فانا مستعد للموت .
— : ولكنك تموت بعيداً عن تدمر .
— : نعم فلا يلذ لي الموت إلا في مصر .

فتظاهر زبدا بالتفكير ثم قال : غير أن وهبلات الملك بحاجة اليك وقد اوصتني كهيلة بأن أقول لك هذا .

فحوّل وجهه ليذرف الدموع وهو يقول : المخلصون لوهبلات في تدمر كثيرون وحطان لا يصلح لشيء ، ولكن زبدا مضى في حديثه ولم يعبأ بما رآه فقال : وقد رأيت أن تعود معي فيراك الملك قبل أن تموت .

— : ثم أقف على ضفة الغدير أمام قصر ابن حمدان وكهيلة وتخترق صدري

سهام الجنود ..

– : أحسنت ففكر في الموت منذ الان وها أنا اقبض عليك باسم الملكة ؛

فاستند حطان إلى باب الخيمة كي لا يقع .

أما القائد فوقف بينه وبين ذلك الباب وصاح بحاجبه قائلاً : إني بحاجة إلى جنديين عربيين .. وكان حطان ينظر اليه وقد عاوده الذهول .

* * *

وبعد ساعة أقبل على خيمة زبدا اثنان من رجال الصحراء ، أحدهما كهل والآخر في ربيع العمر ، يقال لهما مالك وسمير .

فقال لهما القائد : أتعرفان هذا الرجل ؟

فأجابه مالك قائلاً : ومن في الجيش لا يعرف حطان ؟

قال : إن حياته في خطر فاحرصا عليه .

فنظر الواحد منهما إلى الآخر وهو لا يصدق ما سمع .

فقال حطان : لقد خاف القائد أن أعود إلى جيش مصر فجعلني أسيراً .

فقال زبدا : إن الروماني صاحب مصر يطلبه ليقتله وأنا أخشى أن يخطفه من يدي عندما تتلاحم الصفوف .

فقال مالك وقد ارتسمت على جبينه دلائل الريبة : أيقدر ملك مصر على الوصول إلى حطان يا مولاي ؟

قال : أعلم إذن أنه هو نفسه يريد الاستسلام اليه .

فحار البدويان في الأمر ولم يجسرا على ان يزيدا كلمة .

ثم قال زبدا : وحياة حطان أغلى من الذهب وأثمن من الفتح فاذا مدّ الموت اليه يده فلا تطمعا بالحياة ..

وهمس في إذن مالك قائلاً : ليكن حراً في كل شيء الا في حياته فهي للملكة ..

فعرف البدوي عندئذ في أن اليهودي يؤثر الموت على الوجود ولكن لم يعلم السبب .. وترك زبدا خيمته للثلاثة وانتقل الى خيمة أخرى يصرف فيها ذلك الليل .

* * *

قبل أن يطلع الصباح كان الجيشان قد استعدا ، ومن عادة الفاتحين انهم لا يعرضون المجال إلا إذا رفض الخصم الاعتراف بسلطانهم والاستسلام الى مشيئتهم القدوسة . وهذا معناه أنهم لا يشهرون الحرب إلا إذا أصبحوا على

أبواب البلد الذي يريدون فتحه . وعلى هذا القياس ، كتب زبدا الى صاحب مصر يسأله الخضوع له أو يطلق على اقليمه أسود تدمر .

فأجابه بروباتيس مستخفاً بكتابه ومحتكماً الى السيف ..

فلمعت حراب الجيشين في الفضاء وكان الهجوم .. وماذا تكتب الأقلام عن الميادين التي تخفق فوقها أجنحة الموت ؟ وكيف يصف الكاتب تلك الساحات الحمراء الفاتحة افواهها لابتلاع الأجسام ؟

جندي يقع .. وجندي يقوم .. رأس طائر وجثة مخضبة .. هذا يصيح صياح الظفر والآخر يستغيث .. والقواد الأشداء المجربون .. ينظرون إلى الدم البريء المهراق وهم يبتسمون للحصاد ..

وقد رأى زبدا وتيماجين ، بعد أول جولة جالتها الخيل ، ان مصر اضعف من أن تثبت في الساحة ، فجردا سيفهما يطوفان حول ذلك البحر البشري الهائج .. ويغوصان في اللجة ثم تقذفهما الأمواج المضطربة إلى الشاطئ وقد صبغت ثيابهما وايديهما بالدماء .. مشهد ، أقل ما يقال فيه أن الألوف تموت في ساعة .. وليس بينها واحد يموت حتف أنفه ..

وكان بروباتيس كالنمر الغضوب يوثب فرسه بين الصفوف ويغري الجند بالقتل ، ولكن السيف في يد الجندي المنهوك لا يقطع .. والهمم الخامدة إذا استنهضتها استفزها الخوف . فحاول أن يسوق جيشه إلى الملجأ الأمين يستعيد فيه قواه فلم يقدر ، اي أنه آثر الفرار على الموت تحت حوافر الخيل . غير أن التدمريين كانوا يحجبون الأفق ، فلم يعرف الجيش الغارق بالدماء أين يضع قدمه للوصول الى مرفأ النجاة ..

أجل، إن مصر لم تكن أهلاً للوقوف في وجه تدمر ، وبروباتيس الملك، وان يكن صاحب تاج ، لم يكن من رجال زبدا في الميادين ولا يستطيع أن يجاري الأسد العربي في دهائه الحربي ، وقوته الجبارة .

فهمّ بالاستسلام قبل أن تغرب شمس ذلك اليوم ، ولكن ضباطه الذين كتب لهم البقاء ، أرادوه على الهرب ليحفظ حياته ، وضمنوا له أعداد وسائل الفرار للبقية الباقية من الجيش. ولكنه رفض أن ينجو بنفسه ويترك رجاله في أتون النار ؛

وتلك مروءة املاها على بروباتيس شرف القيادة وعزة الملك ..

حتى احتجبت الشمس وراء الأفق ، وكتبت يد القدر سطور الظفر بحروفها

الوهاجة ، على صفحة الفضاء .. فانتشرت صفوف المصريين في ذلك السهل الكبير . وقد ساعدها الظلام في الاختفاء وخلت الساحة لجيش الملكة .

على أن الناظر — في تلك الساعة — إلى زبدا الظافر ، لم يكن يرى بريق النصر في عينيه ، بل لا يخطر بباله أنه هو الفاتح التدمري العظيم الذي دانت له أرض فرعون . إن الشمس سودت بقع الدماء التي تغطي وجهه .. وجثث ابناء العرب المالئة السهل ملأت نفسه كآبة ووحشة ، ولعله كان يجهد في رد عاصفة قوية من التفكير في أطماع الناس وأهوال الحروب ..

وكان الضباط ينتظرون أمره بدفن الجثث وهو ذاهل حتى أقبل عليه تيماجين يسأله ذلك .

فقال وهو مضطرب : الظافرون يدفنون قتلاهم في وضح النهار .. أتركوا هذا الان واصبروا إلى الصباح . وأومأ إلى أركان الحرب يأمرهم بأن يرجع الجيش إلى الخيام . واستند الى فرسه ينظر إلى ابناء قومه النائمين بهدوء ، والى السيوف المتكسرة والحراب المغروسة في الصدور .. حتى مرّ أمامه آخر رجل من رجال تدمر ، فمشى عندئذ إلى خيمته وشفتاه ترددان اسم حطان ..

وما لبث حتى نادى مالكاً وسميراً فاقبلا وحطان بينهما . فقال له : كيف رأيت حربنا اليوم ؟

— : قال : ما رأيت غير الغبار يحجب الجيشين عن عيني ..

— : وكيف ذلك ؟

قال : لأني لم أخرج من السجن الذي جعلتني فيه .

— : وكيف رأيت غبار المعركة ؟

— : وقفت بباب الخيمة ارى رسل الموت تمشي بخطىً واسعة الى جيش مصر.

قال : ولم ينسَ هذا الموت أن يبعث رسله إلى صفوف العرب .. ان القتلى كثيرون يا حطان .

قال : تلك هي نتيجة الحرب في كل حين .

قال : وقد خيل الي ّ أن هذين الحارسين غفلا عنك فأمسيت جثة ..

— : ولكني حي كما ترى وحطان لا يطيب له الطواف في الجيش وهو أسير .

فأشار زبدا على الرجلين بالانصراف ثم قال : لا تذكر الأسر فقد يكون لي فيه غرض اكتمك أياه ، ولكن قل لي أي دهاء أوحى اليك بما فعلت ؟

ــ : بماذا ؟

ــ : بجعل المصريين جميعهم في هذا السهل ينتظرون قدوم العرب.

ــ : أما الدهاء فلم يبق عندي شيء منه .. وأما أنك راضٍ بما فعلت فهذا دليل على أني أحسنت العمل ..

ــ : نعم فقد فني نصف جيش الملك وبقي النصف الآخر تتبعه غداً اذ لا يستطيع الليلة أن يغادر هذه البقعة الواسعة التي اختارها الملك للقتال .. وأريد أن استشيرك فيما أصنع.

فتمتم قائلاً : أيكون للأموات رأي ؟

ثم تمثلت له الملكة فقال : سأخدم تدمر إلى النهاية فماذا تشاء ؟

قال : إنك تعلم من أحوال مصر ما لا أعلمه .. ألم تقل لي أن أهلها يؤثرون الذهب على الملك ؟

ــ : نعم.

ــ : إذن فما هو رأيك في رجلٍ قضى معظم حياته في مصر ، نجعله نائباً للملكة وتحميه فرقة من الجنود ؟

ــ : من هو ؟

ــ : تيماجين اليوناني الأصل.

فأطرق قليلاً ثم قال : ليس تيماجين عربياً وأنا أخشاه.

ــ : أما جنوده فمن العرب وجميعهم مخلصون لزينب.

قال : سيطمع اليوناني بالجلوس على العرش كما فعل بروباتيس .. ولو لم يحلم بالتاج لما أغرى الملكة بفتح هذا الأقليم ، نعم . إن الجنود الذين تجعلهم حراساً هم جنودك ، ولكنه لا يلبث حتى يمد يده الى المصريين ويستعين بهم على لبس التاج ثم يوافقونه في القضاء على الحامية.

ــ : أتظن ؟

ــ : أجل وليس من الرأي أن تجعل للملكة نائباً.

ــ : ولكني أريد الرجوع إلى تدمر.

ــ : وإذا رجعت ؟

ــ : أأترك مصر وليس فيها من يمثل الملكة ؟

ــ : أجعل قائد الحامية عاملاً لتدمر الان ريثما تنظر الملكة في الأمر.

ــ : اذن نترك للحراسة خمسة آلاف من الرجال.

قال : إذا رأيت أن تخمد نار الفتن فأجعلهم عشرين الفاً.

فاستكثر زبدا هذا العدد. فقال : وماذا يبقى لتدمر ؟

قال : في البادية رجال يملأون الشرق وهم جنود زينب عندما تشاء .
وكان غرضه أن تستولي الحامية الكثيرة على البلاد خوفاً من أن يجمع بروباتيس لواه ويسترجع عرشه . وعندئذٍ تضطر الملكة إلى إرسال زبدا مرةً أخرى لاطفاء النار . وفي ذلك ما فيه من خطر على عرش الشرق الذي يهدده القيصر .
فقال زبدا : ولكن العشرين الفاً قوة كبيرة وقد تغضب الملكة إذا تركناها في مصر .
قال : لتغضب يوماً خير من أن تغضب إلى الأبد .. ومع ذلك فالقوة التي استكثرت لا تستطيع ان تبسط نفوذها فوق هذا القطر وبروباتيس حي إلا إذا استسلم اليها الزعماء وأصحاب المال .
— : هؤلاء يستسلمون إلى الظافر ولو كان خيالاً .
قال : يظهر أن العيش يطيب لك في هذا البلد .   — : لماذا ؟
— : لأنك لا تبلغ تدمر حتى تسقط الحامية ويجلس الملك في عرشه فتكرهك زينب على الرجوع
قال : ليس للقائد وطن يا حطان والعيش طيب في كل بلد أرفع فوقه أعلام الملكة .
— : ولكنك تضيع هيبة الملكة في هذا .. ترفع رايات تدمر فوق مصر ثم يأتي بروباتيس فيمزقها بسيفه ويدوسها بقدميه ..
— : ثم يجيء زبدا فيكسر ذلك السيف على رأسه وينتهي الأمر .
فتنهد قائلاً : لا تنسَ تدمر أيها القائد ..
قال : ان زبدا يحمي تدمر وهو بعيد ! . لقد أصبت في قولك ان اليوناني بروماجين لا يلبث حتى يرفع علم العصيان ، ولكنك اخطأت في الرأي الآخر اذ لا سبيل اليه وعلى الجيش جميعه أن يرجع معي إلا خمسة آلاف
قال : كما انك اخطأت في الاستشارة وقد قلت لك أن حطان لا رأي له .. دعني انصرف إلى السجن
قال : سندخل غداً أو بعد غدٍ عاصمة الملك دخول الفاتحين
— : أجل فمصر تخضع لك اليوم ..
— : ونتبع آثار بروباتيس قبل أن نفعل
قال : أما هذا فلا تصل اليه لان أرض مصر تستطيع أن تخفيه
قال : أفلا تعرف المصريين الذين جعلهم الملك رجال مشورته ؟

ـ : أعرفهم

ـ : سأجعلهم من جديد رجال المشورة والرأي

قال : لو جعلتهم آلهة لأنزلهم بروباتيس من سمائهم

قال : ولهم أن يحكموا مصر بالاشتراك مع القائد العربي الذي سنوليه باسم الملكة

قال : ستفعل كل هذا وكأنك لم تفعل شيئاً

ـ : وستعلم أنت بعد قليل أنك كنت واهماً

فزفر زفرةً طويلة ثم قال : كما تشأ أيها القائد ومن يعش يرَ

ونهض ينادي حارسيه ليرجع بينهما إلى خيمته ..

* * *

لم يبقِ بروباتيس في اليوم الثاني ، آثاراً تدل عليه . كأن الأرض ابتلعته كما قال حطان . حتى أنهم في كل ما فتشوا ، لم يعثروا على رجل واحد من رجال واقعة امس . فثبت لزبدا وأركان حربه ، ان فلول المصريين صرفت ذلك الليل في أعداد وسائل التحجب والاختفاء . وكيف يطلبها الجيش العربي وتلك السهول ليس لها آخر كما يقولون والشمس تصرع الجنود وتحرق أجسادهم .

فصحت عزيمة زبدا على دخول العاصمة والنظر في شؤون البلد المصري قبل رجوعه إلى تدمر . وهكذا فعل ، فاستقبله المصريون كما استقبلوا سواه من الفاتحين . وأقام في بلاط الملك ثلاثين يوماً يضبط شؤون مصر، وينظر في حاجات الناس ، ويلمس بيده دهاء القائد العربي الذي ولاه

ولم يرضَ ، إلا أن يجعل الحامية خمسة آلاف رجل كما قال . وماذا يفعل هذا العدد ، في اقليم كبير واسع فيه الثائرون والخوارج ، ويختبئ في أحد أكواخه أمير روماني خلعه زبدا عن عرشه ؟..

إنها خطيئة زبدا وحده الذي لم يشأ أن يزيد على الحامية رجلاً واحداً على رغم رجاء حطان . فهزأ المصريون بما رأوه ، وقام في أذهانهم أن بروباتيس سيسترجع تاجه ، يوم خروج الجيش الفاتح من مصر

ولكنهم هزأوا في سرهم ولم يظهروا لزبدا شيئاً مما يضمرون

ومعنى ذلك ، أن اخلاصهم للأمير الروماني ، كان أشد وأقوى ،من اخلاصهم للفاتح التدمري ، الذي جاءهم في آخر الزمان .. إن هذا لا يعرفونه

ولا يعرفون الملكة التي أرسلته ، وأما الآخر فقد خبروه وعرفوه وأمطرهم نعماً
وأنت ترى ، أن إصرار زبدا غريب في نوعه ، وأغرب منه أن حطان كان ينظر إلى ذلك التدبير وهو مستسلم صامت لا يقول كلمة . كأنه غريب لا يعرف تدمر من قبل . وكان يخرج إلى المدينة في كل مساء ، وعيناه تحدقان إلى العلاء .. الى السماء الصافية الزرقاء . لا يلتفت إلى ما حوله من مظاهر البشر ، إن روحه كانت تناجي الآلهة وترتفع إلى ما فوق .. وإذا خاطبه حارساه تظاهر بأنه لم يسمع ، وعندما يلجّان في السؤال تبرق عيناه ببارق الغضب فيعمدان الى السكوت
وهذا كله دليل على الجنون الهادئ الذي لا تهيج معه الأعصاب ..
فنقلا ما رأياه الى القائد العام . لكن زبدا لا يعبأ بما يقولان ، عند اعتقاده أن الرجل يجب أن يبقى حياً ولو جنّ . ليستطيع أن يقول لكهيلة عندما يضمها إلى صدره : هذا هو حطان الذي اوصيتني به ..

* * *

٣٣

في اليوم الحادي والثلاثين ، أعد الجيش معدات الرحيل .. إلى تدمر المعبودة التي ابعدتهم مصر عنها بضعة شهور . وقلوب الجنود الفاتحين ترقص من الفرح . كما ترقص أعلامهم الظافرة في الفضاء .. ولم يسمع الجيش، في تلك الأيام التي انقضت خبراً واحداً عن بروباتيس ، كأن الرجل لم يوجد قط في بلاد مصر
فجمع زبدا حامية مصر وأوصاها بالحذر . وقال لقائدها على مرأى ومسمع من زعماء المصريين : أرفع الرأس الذي ينحني أمامك ، واخفض الرأس الذي ترفعه الكبرياء إنك أنت في مصر مندوب الملكة..وهو خطاب بليغ جداً كمارأيت
غير أن الهزء في كل معناه ، كان يملأ الصدور ، ولو تفرّس زبدا في من حوله لرآه مطلاً من العيون . وقد جعل بلاط الملك ، مقراً لقائد الحامية الذي لم تذكر التواريخ اسمه. ولم يبق الا أن يضع زبدا يده بيد حطان ويمشي معه جنباً إلى جنب ، ينشدان أناشيد الظفر وهما راجعان
وسيعتذر له عما ظهر منه ، وقد يبوح بالسر الذي دعاه إلى ذلك العمل

الغريب الشاذ .. ولكن حطان لا يريد الرجوع ، ولا يستطيع زبدا أن يكرهه على ذلك ولو كان الهاً .. إن زبدا عندما فكر في ذلك الاعتذار ، كان اليهودي يهزأ به وبالملكة وبتدمر ، بل يهزأ بالعالم كله الذي هجره مختاراً ولم يبالِ بما فيه ، وتركه ميداناً فسيحاً لأصحاب الأطماع طلاّب الشهرة والمجد ..

إن حطان ، في تلك الساعة ، كان قد مات .. وقد القى موته الذعر والرعب في قلبي الحارسين اللذين ينام أحدهما ويسهر الآخر .. حتّى أنهما وقفا صامتين أمام جثته لا يجسران على الخروج من الغرفة التي أطبق فيها عينيه ..

ولولا حاجب زبدا ، لظل خبر موته مكتوماً أكثر من يوم ..

* * *

لم يكن يلجأ إلى غرفته إلا بعد غروب الشمس . فاذا آوى اليها استلقى على فراشه وعيناه حائرتان . وتمتمت شفتاه الفاظاً لا يفهمها مالك وسمير .

ولم يكن مع حطان سلاح ليقتل نفسه ، وهب أن سلاحه داخل ثوبه فهو لا يقدر على ذلك لان حارسيه يتبعانه كظله ، ويتناوبان على حراسته في ساعات الليل وكان الجيش قد تهيأ للسفر كما مرّ . فلم يظهر على وجه الرجل دليل واحد من دلائل الفرح التي ظهرت على وجوه التدمريين . حتّى خيل الى الذين رأوه أنه كان في ذلك المساء غيره بالأمس ، وان وجهه يزداد تجهماً وعبوساً

وليس في الجيش من لا يحترم حطان ، فاذا رآه أحدهم حنى له رأسه وحياه. أما هو فلا يسمع ولا يرى .. وقد لجأ إلى فراشه في تلك الليلة ، يطبق يده على قطعة خشب صغيرة هي بقية سهم مكسور . فلم يسأله حارساه عما في يده لئلا يثور ثائره ويغضب هما بحاجة دائمة إلى رضاه . بل إنصرفا إلى ذكر البادية والصحراء ، والبهجة التي سيبعثها النصر إلى قلب الملكة ، حتّى انقضى الهزيع الاول من الليل ، فنام مالك . وقام سمير الى النافذة يفتح رئتيه للنسيم البارد الرطب

فعمد الأسير النائم الى راهشيه فقطعهما بسهمه المكسور أي انه فصد نفسه في ذراعيه — دون ان يتململ او يضطرب .. وسال دمه على ثيابه وفراشه حتّى صار فراشه وجسمه كتلة واحدة حمراء .. الا وجهه الذي لا يغطيه شيء فقد أصفر إلى أن امسى اصفراره رائعاً تهلع له النفوس .. وسمير مستسلم إلى أحلامه ، لم يرَ روح حطان الجبارة تخرج من فمه ! ! ولم يقع نظره على الدم يسفح خارج الغطاء على الجانبين : وعندما أرسل حطان الهاوي نفسه الأخير : اهتز من تحت الغطاء

كما يهتز النائم تزعجه الأحلام . فقال حارسه في نفسه : هنيئاً لك يا حطان .. ولكل من يستطيع في هذا الليل الحار ، أن يطبق جفنيه

أجل ، لقد حسب أن هنالك حلماً ، وأن ذلك الحلم يتناول بلاط زينب وعزّ حطان فيه .. حتّى أصبح اليهودي جثة خرساء ، تتراقص حولها أشباح الفناء

ودبّ النعاس إلى جفني البدوي فلم يقاوم ، وساد الغرفة جلال الموت والسكوت الرهيب ..

*

وفي الصباح .. نعم في ذلك الصباح رأيا المشهد الغريب ، بكل ما يكتنفه من وحشة وروعة .. ولبثا مطرقين ذاهلين ينظران إلى الدماء الجامدة تحت الأقدام

ثم حاولا أن يرفعا الغطاء عن النائم فاذا هو لاصق بثوبه ..

فبكيا حزناً على صديق الملكة وامينها ، وخوفاً من زبدا القائد الذي ضمنا له حياة الميت .. وإذا بحاجب زبدا بالباب ، جاء يدعو حطان ..

فارتعش الاثنان ومدّا ايديهما الى الفراش يشيران إلى الرجل . فرأى الحاجب بدوره سبب ذلك الذعر .. ولم يلبث حتّى ذرف دموعه وهو ساكت ..

وبعد ساعة كان يقص على مولاه ما رآه ..

فوثب زبدا إلى الخارج وهو يقول : الويل للبدويين .. ثم يردد هذه الكلمة دون أن يقف ، وقد تبعه فريق من الضباط وأركان الحرب بينهم طائفة من أهل مصر .. وكان المصريون يقولون في نفوسهم : من هو هذا العربي الذي إهتزّ لموته الجيش ؟!!

حتّى أقبلوا جميعهم على تلك القاعة التّي يرقد فيها اليهودي .

وهناك .. بالقرب من جثة حطان ، وقف زبدا ويده على جبينه ، وقد استند إلى صدر تيماجين .. وجعل ينادي حطان النائم باعذب الألفاظ ويداه ترتجفان . والدمع يتساقط على صدره ، وجسمه القوي الثابت الذي يقتحم به السيوف المتلاحمة في ساحات الوغى يكاد يهوي إلى الأرض أمام ذلك التمثال الأصفر المكفن بالدم ..

وارتفعت أصوات الضباط بالبكاء ، كأن الفقيد الذي يبكونه سيد الجيش كله لايعيش الشرق بعد موته ..

ألا تذكر أيها القارئ يوم قتل أذينة وهيروديس في حمص ؟ إن خبر القتل لم

يكن أشد وقعاً في نفوس القواد وامراء الجند من رؤية ذلك الفراش الأحمر الذي غرق فيه جسم حطان .. وكانت ساعة طويلة هي الدموع والزفرات ..

ثم تلفت زبدا يفتش عن مالك وسمير حتى وقع نظره عليهما وهما يبكيان فقال بصوت هادئ : لقد مات أخيراً وكنتما قاتليه ؟.

فجثيا على قدمي قائدهما لا يجسران على الكلام

فقال لمن حوله : سننظر في هذا بعد قليل .. أرفعوا الغطاء عن الجثة

فرفعوه كأنهم يسلخون جلد شاة ..

ثم أمر بالجثة فغسلوها ورأوا العرقين المقطوعين ، وقام أحدهم فناول زبدا السهم المكسور الذي جمد عليه الدم ، وخشبة صفراء كوجه الميت ، وجدها تحت الوسادة . وقد كتب عليها بحروف صغيرة :

— ادفنوني في مصر — :

ولم يجدوا شيئاً غير هذا فالكلمات الثلاث التي قرأت كانت وصيته ! !

وهي كما رأيت صورة واضحة لايثاره البقاء في مصر وهو عظم بالٍ ، على الرجوع إلى البلد الذي نشأ فيه .

ولم يكن في تدمر وفي الجيش من يعلم ان للفقيد وصية غير هذه ، إلا ثلاثة اشخاص يعرفهم القارئ .. ولعلّ الحزن الذي تغلل في نفس زبدا ، أنساه أن يحمل جثة حطان ، على ناقة عربية ، لتدفن في تدمر

فاستسلم أولاً إلى عاطفته كرجلٍ عادي لم يتعود أن يرى الدماء تسيل حوله ، ثم أمر بأن يبقى الجيش ثلاثة أيام ريثما يدفن اليهودي ، ويحجبه التراب عن عيون محبيه . وبحفلة لم تشهد مثلها مصر ، نقلت الجثة إلى القبر يشيعها الجند وقواده وعظماء مصر والزعماء . وكانت العيون الباكية أبلغ رثاء تمليه اللوعة والاحترام والحب . أجل ، مات حطان .. ضحية أخلاصٍ فيه الشذوذ والغرابة ، ولكنه في حكمته ودهائه وحبه لم تمتد اليه يد الموت

* * *

عفا زبدا عن مالك وسمير ، الحارسين البريئين .. وأي ذنب أقدما عليه في ذلك الحادث الفجائي الذي حير العقول ؟ إن الساحر لا يستطيع أن يعرف ذلك الشكل الرائع الذي أراد حطان أن ينهي حياته به ..

سهم مكسور لا يعلم كيف وصلت اليه يده ، كان سلاحاً قاطعاً استراح

بواسطته من آلام نفسه .

وقد رأى القائد بعد البحث الذي أجراه أن مالكاً وسميراً غير مجرمين فاكتفى مما جرى بالذكرى المؤلمة تحملها نفسه الكبيرة ونفوس التدمريين ما بقيت تدمر ، وما ذكر الاخلاص والوفاء . ولكنه لم يستطع ، أن يتبين السبب القاضي بالملك اليأس ، ولم يخطر بباله أن استخفاف الملكة برأيه يقوده إلى تلك النهاية المحزنة وايثار الموت غريباً ، على الحياة تكتنفها الكرامة والعز ..

على أن الحزن لا يفعل في نفوس رجال الحرب ما يفعله في نفوس النساء ! إن أذينة سيد المشرق وولي عهده هيروديس قتلا ، وقد لأم الزمان ذلك الجرح الذي أوجده حادث القتل . ومهما يكن حطان ، فالملك وولده أعظم وأعز منه على قلوب القواد وأفراد الجنود

فنادى زبدا بالرحيل بعد ثلاثة أيام . وعلى ظهر الناقة التي ركبها سقط فيه خشبة الوصية وقطعة السهم .. وما برح كئيباً وان تكن لوعته قد خفّت حتى قارب غزة ، فأرسل إلى تدمر من يحمل إلى الملكة اخبار الظفر ، وأوصى رسوله بأن لا يذكر حطان إلا إذا سألت زينب عنه . .

* * *

إن رسول زبدا رسول خير فأدخلوه

فلما مثل الرجل بين يديها رأت على جبينه ما حدثتها نفسها به ، فقالت وهي والهة بما تقول : أين تركت الجيش أيها الفتى ؟

ــ : في سهول غزة يا مولاتي

ــ : وهل قتل منه العدد الكثير ؟

فتلعثم في جوابه . فانتهرته قائلة : أذكر كل شيء

ــ : نعم فقدكانت الحرب ساحة ترسل ألسنة نار .

قالت : وجيش الخارجي ؟

ــ : ذهب نصفه تحت حوافر الخيل

قالت : وفي واقعة واحدة كتب لكم النصر أليس كذلك ؟

ــ : نعم يا مولاتي من الصباح إلى الغروب

فقال ابن حمدان وكان حاضراً مع زباي وسيار والعلماء : أتعرفين أيتها الملكة أن الحرب انتهت في يوم ؟

قالت : لا خير في ملك يجهل قوة جيشه .. ولكن لم تذكر لنا بروباتيس ايها الرسول !

قال : مثل جميع قواد الرومان يا مولاتي ترتفع أصواتهم في أول جولة ثم يخفضها صليل السيوف بعد حين ..

— : لا نسألك عن حربه فنحن أعرف منك بحروب الرومان .. قل لنا ماذا جرى له أقتل أم هو حي ؟

— : لا أعلم إذا كان قد مات بعد فراره ولكن المعركة لم تقتله إذ لم يصل اليه السيف

فهزّت رأسها قائلة : إن بقاءه حياً سيتعب الملكة وفيه العار كله .. كيف رضي زبدا بهذا ؟

قال : ليس لي أن أعرف ذلك يا مولاتي

قالت : كان علينا ان نقود الجيش لنرشد زبدا الى الموقف الذي يشرّف تدمرَ أنرسله إلى مصر فاتحاً فيعود الينا دون أن يقتل الخارجي المتمرد على قيصر ؟..

فسكت الرجل .. ثم قالت — وتيماجين ؟. لقد اسمعنا تيماجين وعوداً كثيرة فكانت كاذبة

— : إنه يجري مع فرسان تدمر في الميدان ..

فتمتمت تقول : ولكن هذا وحده لا يكفي .. وكانت الألفاظ تخرج من فمها مضطربة مبتورة ، وبدلاً من أن يراها القوم تبتسم فرحاً رأوها تتميز غيظاً ..

إنها ساعة من ساعات الغضب الذي لا تعرف أسبابه . أجل ، وإذا كان زبدا لا يحمل على رأس رمحه رأس بروباتيس فليس في ذلك شيء من العار كما قالت لأن الغاية من مصر الفتح وقد تمّ سواء أقتل الملك أو بقي . وليس قتله هيناً كما تظن زينب ، أتراه يمد عنقه لزبدا ويسأله أن يضربه بسيفه لينقله إلى تدمر ؟!!

ولكن .. ولكن زينب لا يعجبها شيء .. إن المخلوقة السماوية العجيبة ما خلقت لترضى بما حولها من أعمال البشر ..

ثم قالت بعد ساعة — يظهر أن تيماجين لم يتعود وهو في مصر أن يفي بوعوده لقد قال أنه سيقتل الملك ولم يفعل فكأنه أراد ان يهزأ بنا كما تعوّد

فهمّ الرجل بالكلام فاسكتته قائلةً : وزبدا . ان الفتح الذي تمّ على يد زبدا كالافعى قطع ذنبها وأما رأسها فحي .. ألم تحاربوا خمسين ألفاً أيها الرجل ؟

– : بلى يا مولاتي فلما احتجبت الشمس وراءالأفق كانت الجثث تملأ الميدان وكان الملك مع البقية الباقية من جيشه قد اختفى وراء حجب الظلام .

– : وفي اليوم الثاني ؟

– : طلبناه في ذلك السهل فلم نجده ولم نرَ أثراً لجنوده

– : ومن يحكم مصر اليوم ؟

فذكر لها الرجل اسم القائد الذي ولاّه زبدا قائلاً : وقد خضع له كل من في مصر من زعماء ..

قالت : والحامية الباقية في مصر ؟

– : أما الحامية يا مولاتي فخمسة آلاف رجل هم أزاهير الجيش

فظهرت على شفتي الملكة ابتسامة غريبة وقالت : وتلك خطيئة أخرى لا تغفر لقائد قضى حياته كلها في ساحة الحرب ..

غداً ستجر حاميتنا ذيول الهزيمة والعار وسيرجع زبدا إلى مصر حاملاً للملك الموت على شفرة السيف

فقال زباي : أتظنين أن بروباتيس يستعيد عرشه ؟

– : بل نثق بهذا الوثوق كله . وفي ثلاثين الفاً يحملون وراءه سيوفهم يستطيع أن يقذف بالحامية إلى القبر ويشتري من جديد خمسين الفاً يدافعون عنه فيمسي جيشه اكثر عدداً من الجيش الذي نرسله فاتحاً .. ان زبدا يعرف كيف ينتصر في الساحات الحمراء ، ولكنه لا يعرف أن يصون ملكاً نعهد اليه في صيانته ، أتعلم في أي شيء نفكر الآن ؟ قال – لا

قالت : نهمّ بأن نعيد هذا الرسول الى زبدا قائلين له : ابقَ في غزة ريثما تصل اليك الحامية الهاربة من مصر .. ! !

قال : هبي أن بروباتيس هاجم الحامية ، أفيطردها في مثل هذه السرعة من بلاده ؟

قالت : في يوم واحد ليس غير يخرج التدمريون من مصر وهم يتلفتون وراءهم ويتعثرون بالفشل ..

قال : لعلّ له عذراً فيما صنع ..

قالت : قد تكون له طائفة من الأعذار ولكنها اعذار واهية لا تقبل الملكة منها واحداً .. انصرف أيها الرسول فليتك لم تنقل الينا أخبار هذا الفتح المشوه

الذي خسرنا به شرفنا وضيعنا هيبتنا ..

فقال العلماء والقواد في انفسهم : خير لزبدا أن يرجع من عزة إلى مصر فيقضي على الملك ثم يعود ..

أجل ، لقد خافوا كثيراً ان تستهين الملكة بما فعل القائد الأكبر . وجهاً لوجه ، فيغضب لكرامته ، وينتهي الأمر باعتزاله قيادة الجيش ، في حين الحاجة إلى الجو الصافي والحياة الهادئة

وزبدا ، من الناس الذين لا يطيقون ان يسمعوا الاهانة ويصبروا على ما سمعوه ، وان تكن الملكة في نظره الهاً . وقد فاتهم ان الملكة لا تقدم على اغضاب قائدها الحامي العرش . وأنها تعرف – اذا وجهت اليه سؤالاً يحمله على الغضب كيف تسترضيه ، بما عندها من قوة الحجة وقوة الدهاء . وفي كل ما حدثت به الرسول لم تذكر حطان .. ولم تسأل عنه بكلمة واحدة تثبت لمن حولها أنها تذكر أصحابها المخلصين لها ، لا تنسى منهم أحداً ::

كأنها لم تعرفه من قبل ، وكأنه لم يوجد . ولم يشأ أصحابه أن يسألوا عنه لئلا يكون في السؤال شيء من التذكير للملكة بما لا تحب ..

فلما صرفت جلساءها فتش معن بن حمدان عن الرسول فلم يره

فقص على كهيلة ما سمعه من اخبار الفتح ، وترك تلك الناحية التي تتعلق بغضب الملكة .

* * *

كان موكب زبدا في دخوله إلى تدمر ، صورة لمواكب أذينة الملك في أيام عظمته وعزه .. وقد صافحه القواد ورجال البلاط خارج السور . بينهم غادة فتانة المحاسن هي وحيدته كهيلة .

ولم يبصر الناس حطان .. والمجال اضيق من أن يسألوا القائد الظافر عنه قبل أن يستريح . فهمست كهيلة في اذن معن تقول له وهي ترتجف : لقد صدق حديث قلبي فحطان قد مات .. فمرت سحابة سوداء امام عينيه لكنه تجلد قائلاً : قد يكون على ناقته وراء الصفوف

قالت : بل هو في مصر وقد واراه التراب . أنظر على جبين أبي هذه الخطوط السوداء إنها سطور الأسى ..

قال : لا تستسلمي إلى العاطفة فسنعلم كل شيء . وسأنقل اليك حديث ابيك.

قبل ان تريه في القصر ؟؟

قالت : ولكن ركبتيّ ترتجفان وسأقع على الأرض ..

قال : الوهم يفعل أكثر من هذا فاستندي إلى ذراع الجارية وارجعي وسايريني بعد ساعة

وكان الموكب قد قارب البلاط . فانصرفت كهيلة وتغلغل القوم في الأروقة والدهاليز التي تسع الجيش كله .. ! !

فمشى زبدا بخطى ثابتة الى القاعة التي ينام فيها الملك . دون ان ينظر الى قاعة العرش . وهناك بين نساء البلاط ووصائفه . تناول يد المريض وطبع عليها قبلات احترامه وهو يقول : لقد فتحت لك مصر يا مولاي ..

فأجابه وهبلات بابتسامة الرضى ولم يقل كلمة

وكان شوق زبدا إلى مليكه اعمى بصره فلم يرَ ما حوله .. ان الملكة كانت بين جواريها تنظر اليه وهو جاثٍ على ركبتيه

فلما قام لينصرف ، نادته بهدوء قائلة : زبدا ..

فأجفل وحوّل وجهه فرأى يد الملكة ممدودة اليه . فأخذها بين يديه وحاول أن يسجد .. فانهضته قائلة : قم ايها الغازي الفاتح الرافع تدمر فوق العروش

قال : مولاتي الملكة ؟.. اني لم ابصر في هذه القاعة غير مولاي الملك

قالت : ذلك لانك لا تريد ان ترى احداً قبل ان تراه وهذا هو الوفاء والاخلاص .. كيف انت يا زبدا ؟

— : كما ترين يا مولاتي وقد حملت اليك مفاتيح مصر

قالت : ان مجد تدمر بين يديك فاتبعنا الى قاعة العرش ليهتف الناس لحامل اعلام الظفر ..

ولو سمعها قوادها في ذلك الحين ، تخاطب زبدا بتلك اللهجة الناعمة التي يسودها الاحترام لعرفوا انها اليوم غيرها بالأمس : وان الحكمة التي هي ضالتها أملت عليها ذلك الهدوء واللين ، وذلك الثناء المقرون بالأعجاب ،وسارت أمامه بجلالها الذي عرفه القارئ .. فلما صار الاثنان في تلك القاعة العجيبة ، علا الهتاف لهما وأصوات الدعاء للملك

فاستوت في مجلسها وهي تقول : ان الملكة ، من هذا العرش الجالسة فوقه ، ترسل شكرها واعجابها بقائد تدمر الأكبر ، المجاهد في سبيل وطنه ، والحامي

تاجنا ، والظافر دائماً باعداء هذا الوطن .   فعاد القوم إلى الهتاف

ثم قالت : لقد عرفتم كيف ضرب خصوم الملكة وفتح مصر ، فزبدا هو الدولة .. بل هو الشرق ! وليس للملكة رأي الا رأيه النافذ في كل قطر تخفق فوقه اعلام تدمر .. نعم . انه لم يقتل الخارجي الذي توّج نفسه ، ولم يجعل الحامية الكثيرة في مصر لتصونها من الفتنة . وهذا معناه ، اجل هذا معناه انه واثق بقوته . وانه يستطيع عندما يشاء ، ان يستولي الى الابد على ذلك الاقليم . ويقتل القائد الروماني اذا عمد بعد الى العصيان ..

وانت ترى أنها ذكرت خطأ زبدا بالقالب الخلاب الساحر ، دون ان توجه اليه كلمة لوم تهيج لها نفسه

ولعل زبدا احس بذلك التعريض فقال : أما بروباتيس يا مولاتي فقد فرّ الى حيث لا نعلم ، وأما الحامية فقد كرهت ان اجعلها عشرين الفاً خوفاً من ان تحتاج تدمر الى الجنود في هذا الزمان الذي تعبس فيه وجوه الرومان ..

قالت : لقد احسنت في كل ما فعلت ونحن لا نسألك فيه هذا ، يكفي ان يعلم القيصر ان زينب فتحت مصر باسمه وقهرت نائبه الخارج عليه

وفي ذلك المجلس الحافل بالنبلاء والعظماء لم تذكر حطان .. اذن فقد نسيته نسياناً تاماً لا شك فيه

وقد ارادت ان تغير الحديث فقالت : ماذا أبقت تلك البلاد الحارة في نفسك من الذكريات ؟

قال : احمل منها ، على رغم النصر الذي تمّ لي ، ذكرى مؤلمة لا تفارقني حتى اموت   فاستغربت قائلة : ما هي هذه ؟

قال : ذكرى جثة غاصت في دمها اينها الملكة ..

قالت : ومتى كان القواد يتألمون لمرأى الأجساد النائمة في الدماء ؟! اتأسف يا زبدا على رجل قتلته الحرب

قال : لو خسرت نصف الجيش يا مولاتي لما وجدت الكآبة سبيلاً الى نفسي .. آه يا مولاتي . ان الرجل الذي قتل نفسه وسفح دمه على جانبي فراشه في ذلك الليل الحار هو اعز الناس على الملكة وكان اعزهم على اذينة .. هو حطان ..

فوضعت يديها على وجهها كأنها خجلت من ذلك النسيان الشائن الذي استولى على ذهنها المضطرب .. ثم تمتمت تقول : ذلك اليهودي .. حطان الوفي المخلص

يموت ؟!

— : نعم وقد ضرب راهشيه بسهم فنزف دمه وهو مغمض عينيه يبتسم للموت الفاتح له ذراعيه .. فاهتز زباي ومعن وسيار ، اولئك الثلاثة الذين رافقوا حطان في حياته ، وخفقت قلوب النبلاء ورجال العلم وعقد الحزن السنتهم فجعلوا ينظرون الى زبدا والدمع يجول في العيون ..اما الملكة فكانت ساكتة وقد امتقع لونها واصفرّت شفتاها وكأنها في حلم .. وكأن العرش هوى بها الى الحضيض .. ولعلها شعرت في تلك الساعة ، ان تدمر خسرت شيئاً من عظمتها وسلطانها في موت حطان ..

ثم قالت وهي تتنهد : ان لهذا الموت الفجائي سبباً فهل عرفته ؟

قال : كنت اخشى وانا في مصر ان يمدّ الموت يده الى الرجل ..

— : لماذا ؟

— : لاني رأيت اليأس بادياً على جبينه وفي مقلتيه ، فجعلت له حارسين ولكنه مات وهما ينظران اليه

فقالت : اذكر يا زبدا .. اذكر ما تعرفه من اسباب موته

فحكى لها كل شيء الى ان قال : واول من لفت نظري الى يأسه كهيلة ومعن

فنظرت زينب الى معن فقال : لقد دلنا رجوع خادم الملكة وحده من مصر على يأس حطان . ولم يرد ان يذكر لها الكتاب

قالت : أيموت ولا يترك وصية ؟

فأجابها زبدا قائلاً : كانت وصيته ثلاث كلمات لا تزيد ، هي هذه : ادفنوني في مصر .. وناول الملكة السهم المكسور والخشبة الصفراء

فامتدت اعناق القوم ليتبينوا الأثرين اللذين تركهما صديق العرش ..

وجعلت زينب تتفرس فيهما ولولا حرمة الملك لذرفت فوقهما دمعتين

عندما وصل زبدا الى عاصمة الشرق مدت البهجة والبشر رواقهما فوق الربوع . ولكن ما لبث الحزن حتى استولى على كل قلب ، بعدما ذاع في المدينة خبر موت العرّاف العربي . وقد حار معن بن حمدان في موقفه .. أيطلع زوجته على الحقيقة الرائعة ام يكتمها اياها ..؟ ان موت الرجل لا يستطاع كتمانه فان لم تعرف كهيلة اليوم عرفت غداً ولا بدّ من الاطلاع على ذلك الكتاب الذي كتبه

حطان بيده ، لان زبدا رجع من مصر ظافرا كما كتب على ظاهره

فلما دخل القصر فاجأته كهيلة بقولها : اين حطان يا معن ؟

وكانت جالسة على مقعد في الرواق تنتظر رجوعه

فتردد قليلاً في الجواب ثم قال : لقد بقي حطان هناك ..

فزفرت زفرة طويلة وهي تقول : وسيبقى الى الابد كما يبقى ذكره في الصدور .. لقد مات المحسن الى تدمر .. فردد كلامها قائلاً : أجل لقد مات

واسترسل الاثنان في البكاء حتى كاد ينضب الدمع . فقال معن : لهفي على حطان فقد مضى ولن يعود .. اعطني الرق المكتوب يا كهيلة . فمسحت دموعها ونهضت فأحضرت ذلك الرق واستندت الى صدر زوجها لتقرأ ما فيه ، وهذا ما جاء فيه : « سأموت كي لا أرى التاج يسقط عن رأس زينب »

اذن فالتاج سيتدحرج عن ذلك الرأس الذي يفيض حكمة ونوراً .. وحطان لا يطيق ان يرى الملكة بدون تاج .. ان حياته كانت لتدمر كما مر ، فاذا ذلت هذه بعد ذلك العز فعلى تلك الحياة ان تضمحل .

ذلك ما كانت تقوله كهيلة لزوجها وصوتها يتردد في صدرها كصوت المختنق

فقال : لهفي على تلك الحكمة الفياضة تحجبها ارض مصر

فقالت : بل لهفي على تدمر التي ستموت ..!

قال : لا تذكري الموت فتدمر باقية

— : انها ستسقط بسقوط العرش

قال : أتظنين ان في هذا السطر الذي كتبه حطان تتدحرج التيجان عن الرؤوس

قالت : ان اقواله وحي الآلهة فالويل للملكة

فلم يشأ معن ان يسترسل في ظنونه فقال : ذلك كلام املاه الغضب في ساعة يأس

— : بل هو كلام خرج من فم النبي الذي يعرف كل شيء

— : ولكن لم يقم عليه دليل ..

قالت : لانك تنظر الى القضية بعين الجندي الواثق بمضاء سيفه ، اما انا فانظر اليها بغير هذه العين .. قال : ماذا ترين ؟

— : ارى ان الملكة التي تقذف اعلامها الى كل فضاء ستخسر يوماً هذه الأعلام فلا تجد بينها واحداً تستظل بظله

قال : أما انا فأرى سماء الشرق مجالاً واسعاً تخفق فيه ألوية المجد لا يسقط

منها لواء ..
— : لقد نسيت النسر الروماني الباسط جناحيه فوق السهل والجبل والبر والبحر
قال : لقد ارسلت الملكة سهماً مسموماً الى جناحه الذي يغطي الشرق ..
قالت : ولكنه يطير بالجناح الآخر فيقضي على كل ذي سلطان .. ان الرومان يا معن هم العالم ..
— : والملكة سيدة هذا العالم لا يجسر ملك من ملوكه على الوقوف في وجه جندها الظافر .. هادنها الفرس فاستراحوا وسلمت فارس ، وناجزها غاليانوس الحرب فأمست جنوده في يوم واحد موطئاً للنعال .. وانت ترين ان مصر في عزها وآسيا في امجادها ، من الشواطئ الى اقاصي السهول والصحارى ، خضعتا لزينب خضوعاً ابدياً لا ينزعهما من يدها هرمز . ولا يستطيع ان يسلبها نفوذها فيهما الملك الجالس على عرش الرومان

قالت : ومع ذلك فقد خسرت حطان ..!!
—: اجل خسرت رجلاً مخلصاً للعرش .. وفي الشرق الكثيرون من المخلصين
قال هذا رفقاً بذلك الأحساس المضطرب .
فأجابته قائلة : ما عنيت الأخلاص يا معن بل القوة الكامنة في دماغ ذلك اليهودي المسكين ، ان الملكة في خسارتها حطانٍ خسرت كل شيء ..
— : اذن فتدمر كانت تستمد حياتها من الرجل؟!
— : نعم ولو استرشدت الملكة برأيه لكان القيصر عبداً لها ..
قال : لقد أراد أن يجعلها اسيرة البلاط تجر اذيال الخز والارجوان في الرواق الأعظم وفي قاعة العرش ..
— : اي ان ترضى بما قسم لها الزمان .
— : ولكنها ما خلقت لترضى ولو طلب حطان السماء لبلغها على اجنحة الريح قبل ان يبلغ هذه الغاية
قالت : واخيراً ؟..
— : واخيراً يرتفع العرش فوق جميع عروش الأرض وتحني الملوك رؤوسها على قدميه مستسلمين الى القوة التي لا تغلب فتبتسم عندئذٍ لتلك الرؤوس الكبيرة وترتاح لذلك العز الذي لم يبلغه قبلها ملك
ثم قال : ان موت حطان سيقودنا الى البحث في سياسة الملكة واطماعها التي

ليس لها حد .. فلنبكِ اليهودي الأمين الذي كان لنا أباً ولتفعل الملكة ما تشاء فليس في تدمر قوة تستطيع ان تغير حرفاً واحداً من منهاج حياتها الغريب

قالت : لولا هذه الكلمات التي كتبها الرجل قبل موته لما خطرت لي سياسة الملكة ببال ، اجل لنبكِ قتيل مصر ولتبكهِ الحكمة والرأي اذا كان للحكمة والرأي وجود بعده .. ثم جعلت ترثيه قائلة :

يا شهيد الأخلاص وقتيل الوفاء ، لقد اكفهر لموتك وجه السماء في تدمر وتلبد الأفق بالسحب السوداء ، كنت نوراً للبلاط ودعامة للعرش فيا خيبة الأمل بالنور الخامد والقوة التي غيبها تراب مصر .. وويح تدمر عندما تدعوك فلا تسمع وتسأل عنك فلا تراك .. وكانت الدموع تنحدر على وجنتيها وقد رفعت يديها الى العلاء كأنها تخاطب روحه السابحة في الفضاء

فخاف معن ، معن الباكي المضطرب ان تستسلم الى عاطفتها فيصرعها الحزن فقال : ياكهيلة ، انقرأ الكتاب والملكة لا تعرف عنه شيئاً ؟

فلم تقل كلمة فقال : أليس لك رأي في هذا ؟

قالت : وأي نفع لنا وللملكة من كتاب هو نذير شؤم

— : ولكن يجب ان تقرأ ما كتبه الرجل

قالت : أتريد ان تلعن الملكة حطان في قبره ؟!!

قال : لماذا ؟

قالت : سيجرح هذا السطر كبرياءها فتغضب ثم تلعن اليهودي الذي أراد لها الحياة والعز قال : بل تحملها كلماته على التفكير

قالت : ان الرأي الذي لم ترد ان تسمعه وهو حي لا تسمعه بعد موته .

قال : من يعلم فقد تنظر مع قوادها في الأمر وتنصرف عن الفتح

قالت : لقد سدل الزمان حجاباً بينها وبين حطان الان ولعلها لا تذكره إلا اذا مدّ القدر اليها يده القاهرة

قال : لقد امست الملكة في نظر وصيفتها حجراً اصم لا تجول في صدرها عاطفة

قالت : بل كانت في نظري ولما تزل ، مخلوقة عجيبة لا ينبت مثلها الشرق ولكن .. ولكنها ارتفعت يا معن الى فوق فهي لا تسمع غير همس السماء ..

— : هبي انها فوق الآلهة فيجب ان تقرأ ما قرأناه

قالت : سترى انها لا تعبأ بكل هذا

قال : يكفي ان تعلم ويعلم القواد ورجال البلاط ان رجلاً مثل حطان لا يقتل نفسه الا اذا اكرهته الحادثات

قالت : نستشير ابي بالأمر قبل ان نفعل

قال : ليكن ما تشائين فقومي نذهب .

فاستندت الى ذراعه وهي تكفكف الدمع الغزير تذرفه عيناها الملتهبتان :

* *

كان زبدا يهم بالذهاب الى كهيلة ليضمها الى صدره . وهو لا يبالي بالتعب المذيب يشعر به قائد الجيش بعد رجوعه من ساحة الحرب . فلما وقع نظره على عينيها الباكيتين ظهرت الدموع في عينيه وفتح لها ذراعيه وهو يقول :

ابكي يا ابنتي ما طاب لك البكاء فقبر حطان يحتاج الى دموع المحبين

فقالت وهي ترتجف بين يديه : أتفتح مصر يا مولاي وتعجز عن حفظ حياته

قال : لم يقم في ذهني قط انه يجعل السهم المكسور سلاحاً يطعن به ذراعيه .. اجلسي ياكهيلة فقلب ابيك تملأه الأحزان

فمنعها البكاء من أن تجيب

ثم قال : مسكين حطان ان سبب موته سيظل سراً

قالت : لقد باح لنا بهذا السر

فحدق اليها يسألها بعينيه

فقالت : هذا خط الرجل فاقرأ اعترافه .. وناولته الرق .

فقرأ زبدا وجسمه ينتفض

قالت : ماذا رأيت ؟ قال : الشذوذ في كل قوته ..

قالت : والاخلاص في كل معناه

قال اجل ولكنه اخلاص افسده الضعف . ان الرجل الثابت في عقيدته وايمانه لا يجد اليأس سبيلاً الى صدره

قالت لقد رأى ان الملكة ارفع من ان تصغي الى نصائحه فاثر الموت على الحياة

قال ومن اوحى اليه بان زينب ستخسر التاج

ذلك جباناً ومتكبراً في وقت واحد

فالتفتت الى زوجها قائلة : لقد نسي رجال البلاط هذا اليهودي الغريب الذي اجلس وهبلات على العرش ..!

قال : كان حطان اعز رجال البلاط على هذا القلب فلا انساه

– : ولكنك لا تعترف بوفائه ..

قال : وكان كبيراً باخلاقه ووفائه لكل تدمري ، ولكن موته . آه ان موته ياكهيلة ضيع ذلك الوفاء

قالت : لقد مات فداء عن العرش يا مولاي

فسقطت دمعة كبيرة على خد القائد قائلاً : لم يكن في موته شيء من هذا . ان الخوف استولى عليه فهرب من الحياة

قالت : خير للرجل الذي تستخف به الملكة ان يموت

قال : ان الأخطار على زعمه تكتنف تدمر والملكة تمشي بخطى واسعة الى الفشل ، أليس كذلك ؟ – : نعم

– : اذن كان عليه ان يصارع الموت وينام على قدمي العرش دفاعاً عن الجالسة عليه . ان الذي يموت فداء عن وطنه يموت في ساحات الحرب وهو يحمل لواء ذلك الوطن ..

قالت : لم يكن حطان من رجال السيف

قال : كان من رجال الدهاء والرأي وهذا يكفي

والصواب فيما قاله القائد كما ترى

ثم قال : من نقل اليك ياكهيلة هذا الرق

فقال معن : خادم الملكة يا مولاي

فعرف زبدا عندئذ ان السطر الذي كتب على ظاهره هو الذي بعث الخوف الى صدر كهيلة . فأوصته بحطان قبل ان يزحف الى مصر . فقال : أرأيت يا معن ان زبدا لم يكن اهلاً للاطلاع على هذا الكتاب قبل سفره ؟!!

قال : كانت ارادة الفقيد الكتمان ففعلنا . أما الان فحطان قد مات وانا احمل كتابه الى الملكة فماذا ترى ؟

فأطرق ملياً ثم قال : يجب ان تقرأ الملكة ما كتبته يد الرجل ولو استخفت بما كتب – : ولكن كهيلة لا تريد ذلك

فقال : ما خلقنا لنكتم الملكة امراً . اذهب الان .. وبعد سكوت قصير استطرد قائلاً : بل نذهب جميعاً ولو ازعجنا الملك

ونهض الثلاثة الى البلاط وقد نام كل من فيه . الا الملكة ووصائفها اللواتي يرقدن حول سرير وهبلات

* * *

كانت الحمى تنهش جسم الملك الصغير في تلك الليلة وهو مغمض عينيه لا يفتحهما الا ليبتسم لأمه ، كما هي عادته . وكان على رغم صغر سنه ، قوي الأرادة صبوراً على الشدة ، يحتمل اوجاعه بقوة غريبة لا تجدها الا عند الملوك الذين يحترمون انفسهم ويعلمون انهم فوق الشدائد والآلام

فلما وصل الثلاثة الى القاعة ، اومأت اليهم الملكة بالدخول الى قاعة اخرى ، هي قاعة جلوس الملك الخاصة مع رجال بلاطه .. وأقبلت عليهم تسألهم عن المجيء في ذلك الليل ،

فقال زبدا : بيدي كتاب من حطان ارسله من مصر قبل موته ..

فتمتمت قائلة : مسكين لقد جنّ قبل ان يغمض الموت عينيه ...

ثم قالت : اين عثرت على كتابه ؟

— : دفعه خادم الملكة الى كهيلة يوم رجع من مصر

فأخذت الرق وقرأت ما فيه .. لكنها لم تضطرب لتلك النبوءة الراعبة ولم تطرف لها عين !! كأنها كانت تقرأ قصة جرت حوادثها منذ الف سنة ! وهذا اغرب واعجب ما ورد عن عظمة الملوك .. وبكل رصانة وهدوء وضعت ذلك الرق على وسادة كانت الى جانبها وقالت لمعن : يا ابن حمدان أتكتمنا أمراً مثل هذا ؟

قال : أتريدين يا مولاتي ان يكون قائد الحرس الملوكي نذلاً ليس له عهد ؟

— : اذن كنت اشد اخلاصاً لحطان منك للملكة ...

قال : ان الذي لا يصون شرفه لا يصلح للقيادة .. لقد وثق حطان بنا عندما قال « لا يفتح هذا الرق الا بعد رجوع زبدا من مصر » فكنت مع زوجتي عند الله بنا وحفظت قوله حتى ينتهي الأجل الذي ذكره ، على امل ان احمله اليك بعد رجوع القائد العام وقد فعلت

قالت : ولم تقرأه من قبل ؟

فاصفر وجهه قائلاً : ان مولاتي الملكة تهين الجندي الأمين الذي يجود

بحياته في سبيل تدمر
فابتسمت وهي تقول : انك خير من دافع عن شرفه يا ابن حمدان .
ونظرت الى زبدا قائلة : متى يسقط التاج عن هذا الرأس يا حامي العرش ؟
قالت ذلك وفي لهجتها نغمة استهزاء
فقال : يوم تسقط رؤوسنا عن الأجساد
— : ولكن حطان يثبت ذلك وهو لا يكذب
قال : حسبه انه كان صادقاً في خدمة الملكة
فقهقهت ضاحكة وهي التي لا تضحك الا بانفراج الشفتين ثم قالت :
ولكنه نسي الملكة في ساعات جنونه ..
فقالت كهيلة : مولاتي ..!!
فقاطعتها قائلة : ومن ينتصر لحطان فهو مجنون مثله .. أيموت لان التاج سيسقط عن رأس زينب !! اذن فهو الرجل الجبان الضعيف القلب الذي لا يستحق ان يكون لنا خادماً
قالت : الا تذكرين يا مولاتي اخلاصه لأذينة الملك وموقفه الشريف في حمص
قالت : لا نذكر الماضي . بكل ما كان فيه من قوة حتى نذكر الحاضر بما فيه من ضعف .. لقد أراد ان نسترسل في الخمول ونستسلم الى قيصر ، فلما رأى اننا لا نعيش عيش الاذلاء دبّ اليأس في قلبه وتعجل في قتل نفسه . كأنه كان يقول للملكة اما ان ترضي بما اريد واما ان اموت . نعم ، ومن مصلحة الملكة ان يموت رجالها جميعاً اذا كانوا جبناء ..
قالت : على انه كان نبيل القصد يا مولاتي .
فأجابتها قائلة : وكانت لنا حياة لا نريد ان نضيعها بالجمود والاستسلام . ان نظرات الرومان احد من السهام ، والفرس لا يمدون ايديهم للصلح الا عن خوف . والامتان تنظران الى تدمر بعيون الحسد والبغض ، اجل . ونحن نعلم كل هذا ولكن نأبى ان نكون رعية لاحداهما بل نريد كما اراد زوجنا من قبل ان نجعل الاثنتين رعيةً لتدمر ..   — : ولكن ..
— : ولكن ماذا ؟ أتقولين ان روما اوسع نفوذاً واكثر مالاً ؟ واي فضل لزينب إذا هي خضعت لصاحب النفوذ والمال ورضيت بهذه الصحراء القاحلة الجرداء لا يلتف حول عرشها الا فريق من العرب ولا تبسط جناحيها الا على

الصخور السوداء والرمال التي تحرقها الشمس

وكانت تتكلم والكبرياء تلمع في عينيها الكبيرتين

فقال معن في نفسه : صدقت كهيلة فقد غضبت الملكة لكبريائها المقدسة .

أما كهيلة فلم تجرؤ على الكلام ..

ثم تنهدت الملكة وهي تقول : فتحنا آسية ومصر على رغم الرومان ، وسنفتح بيطينية وهم لا يجسرون على الدفاع ثم نلجأ الى بلاطنا لا لنستريح ، بل لنعد عدة الاستيلاء على روما ، روما نفسها التي تخيف الجبناء وتهلع لذكرها القلوب الصغيرة التي ماتت فيها عواطف النبالة والاباء

فصرخت كهيلة وهي لا تعلم ما تقول .. وبعد ذلك يا مولاتي ؟

قالت : وبعد ذلك يسدل الستار على واحد من امرين . اسمعي يا كهيلة وليسمع قوادنا وجميع من حولنا من قواد وانصار .. اما ان تنتهي حياتنا ونحن لابسون تاج القيصر وناشرون ظلنا فوق كرة الأرض .. واما ان تنتهي هذه الحياة ونحن في طريقنا الى العرش الاعلى الذي دانت له الأمم والملوك ! !

فنسي زبدا موقفه وجرّد سيفه قائلاً : إلى روما ايتها الملكة فقد خلقت لتخلفي يوليوس قيصر ..

فأجابته بهدوء قائلة : اغمد سيفك يا زبدا فوصيفتنا كهيلة اضعف من ان ترى السيوف   قالت : ان الملكة تعلم اني لا اخاف

قالت : ولكن سطراً واحداً كتبه ذلك اليهودي الذي احببناه ، كان كافياً لجعل بنت زبدا ضعيفة القلب

قالت : اخاف امراً واحداً يا مولاتي

قالت : وانا اذكره الان ، اتخافين ان يمد القدر يده الى تاجنا فينزعه منا الى الأبد

فأرخت كهيلة نظرها الى الأرض ولم تجب

فقالت الملكة : اعترفي يا كهيلة بالعاطفة التي تجول في صدرك الان .

فرفعت رأسها وهي تقول بصوت مرتجف :

نعم . اخاف ، اخاف ان يسلبك الرومان هذا الملك العظيم الذي تلبسين تاجه

فابتسمت قائلة : لقد سمعنا هذا الانذار من حطان .. الا تعلمين ان كل حي سيموت ؟   قالت : بلى .

– : اذن نؤثر ان نموت ونحن صاعدون في سلم المجد على ان ننتظر هذا

الموت وراء جدر القصور ونحن غارقون في اللذات ، وخير لزينب ان يسلبها الرومان التاج وهي على القمة ، من ان يبتسموا لها ابتسامة الاستخفاف وهي على الحضيض .. وارتفع صوتها وهي تقول : ولتعلم تدمر ، بل ليعلم العالم كله ان الملكة التي اكتنفتها مظاهر العز منذ ابصرت هذا الوجود الى اليوم ان هذه الملكة لا تذل لفاتح ولا تستسلم الى ملك . وزينب الحرة التي هي سيدة نفسها لا تخضع لقوة ولا تعترف بسلطان . فمن اراد ان يحمل روحه بيده كما نحملها نحن فليمش وراءنا الى النهاية ، ومن ينظر الى الزمن الآتي نظر المضطرب الخائف فليترك الساحة وليفر ذليلاً من الحياة كما فرّ اليهودي الذي تدعونه مخلصاً وندعوه جباناً ومجنوناً .. واسترسلت في الزهو والكبرياء فقالت : نحن الان في اول الطريق الكثير الاخطار ، فمن استصعبه فليرجع كما قلنا لئلا يظن بعد ذلك ان الملكة تكره قومها على اقتحام الأهوال .. الى أن قالت : اما الملكة فلا ترجع حتى تفوز او تموت ، وعندئذ يكتب التاريخ بحروف كبيرة ظاهرة : لم تبصر الأرض ملكة مثل زينب ، ولم تقم على سطحها من ذرية آدم وحواء نفس جبارة مثل نفسها

فليقل حطان وليتنبأ ما طاب له التنبوء والقول ، فعرش القيصر لا بد من الوصول اليه ، والشعب الروماني المسيطر على الشرق والغرب ، لا يطمئن لنا بال حتى نراه جاثياً على قدمي المرأة التي وجدت لتسود العالم من اقصاه الى اقصاه ..

وكانت في تلك الساعة ، كاللبوءة التي جرحت تخرج الكلمات من فمها برصانة وعز ، ولكنها مصبوغة بصباغ المرارة والاستهزاء .. اجل . ان زينب كانت تهزأ بكل رأي لا يدفعها الى الأمام ، وتسخر بالنصائح التي تدعوها الى الرضى بالمجد الذي تكتنفها جميع اسبابه . إن أيامها على عرش تدمر ، كانت سعياً مستمراً لبلوغ غايتها من الرومان فكل رجل مهما يكن شأنه ، لا يبارك هذا السعي هو خامل . وزينب ، زينب المجددة المصلحة ، زينب العظيمة الطامعة ، لا تريد ان تسمع آراء الخاملين . وحطان .. ان حطان اشد خمولاً من سواه ، رآها صاعدة فسألها ان تنزل ..!! وعندما تمشي خطوتين الى الأمام ينصح لها بالرجوع الى الوراء وهي لا تعبأ به ولا تبالي بخموله !!.. حتى دفن نفسه في تراب مصر وقد وهى عزمه وضعفت همته .. فمثل حطان يجب ان يموت ، واذا مات فالملكة ارفع من ان تذرف عليه الدموع .. ومعنى ذلك كله ، ان تدمر تحتاج الى رجال السيف اكثر منها الى رجال الرأي ، فزينب توزع آراءها الصادقة على العالم ولكنها

لا تستطيع ان تسود العالم الا بقوة السيوف .. وكان على حطان ، لو كان وفياً وشجاعاً ، ان يتقدم الملكة في ذلك الطريق الوعر ، ويستعين بحكمته ودهائه على تمهيد سبل المجد، امام النفس الكبيرة الطامحة التي لا تعرف الراحة، بدلاً من ان يدعوها الى الخضوع لقيصر . على ما فيه من هوان وذل ..

ذلك هو الخطاب البليغ الذي القته الملكة على زبدا ورفيقيه ببيانها الخلاب ولحنها الساحرة حتى خيل الى كهيلة بعد سكوت الملكة ، ان حطان كان في موته جانياً على تدمر ، المرتفعة بحق الى احضان الآلهة . أما زبدا وابن حمدان ، فكانا جندين ينصتان الى خطاب قائدهما الأكبر وهما بأشد ما في صدريهما من مروءة واحساس يتوقان الى خوض المجال تحت قيادته ليجعلا تدمر كعبة العالمين ..

وكان الجو قد صحا . فتناولت زينب الرق لتعيد قراءته ، ثم مدت يدها تقول لكهيلة : خذي نبوءة اليهودي فاحفظيها حتى يسقط التاج

ولعلها أرادت ان تتبين تأثير قولها في القائدين . فقالت لزبدا : هب ان نبوءة حطان غير كاذبة أفيليق بالملكة ان تحني رأسها للرومان ؟

قال : لقد قلت لكهيلة منذ ساعة ما قالته الملكة الآن

ـ : وأنت يا ابن حمدان

قال : أما أنا فليس لي رأي غير هذا السيف

قالت : ومع ذلك فسنذكر حطان كلما فتحنا بلداً من بلدان الرومان

ونهضت قائلة : انصرفوا الان فالاهتمام بوهبلات اولى من الاهتمام بالنبوءات

* * *

٣٤

لو لم يجرح حطان كبرياء الملكة في ذلك السطر الملعون الذي كتبته يده لما صمدت الى ذلك الرثاء الغريب الذي رددته اكثر من مرة بقولها : حطان مجنون

أجل . ان لهجته التي قرأت لم تكن جديدة فقد سمعتها زينب كثيراً من قبل فهزأت بقائلها ولم تعتبه ، واكتفت بذلك الاستهزاء تظهره له بوضوح وجلاء كلما ذكر لها ضعفها أمام قوة القيصر : وليس على حطان من بأس اذا هو كتم الناس

جنونه ولم « يبح » به لغير الملكة ، ولكن يكتب هذا الجنون على الرقوق ويطرحه بين ايدي النساء والقواد ليقرأوه وتكثر ظنونهم ..! ان هذا لا يحتمله طبعها الهادئ وعظمتها المقدسة .. ولعل لها عذراً في ذلك الموقف بصفتها الملكة الغازية التي تريد ان تسيطر على الشرق ثم تمد رواق سلطانها فوق بلاد الغرب .. نعم ان الملكة التي يخضع لها الجند خضوعاً غريباً تاماً لا جدال فيه ولا شرط وتجعل الرجال اجسادها سلماً تصعد فيه الى السماء .. ويضطرب لصوتها عرش القياصرة وعرش الفرس ، ان هذه الملكة لا تطيق ان يزعزع حطان بسطر واحد ثقة شعبها بقوتها التي لا تغلب .. ويهدم بنبوءته التي هي نتيجة الضعف .. ذلك البناء العالي الذي تبنيه بسيفها القاطع على رغم الزمان .. ان زبدا قائد الجيش الأكبر رجل يقل وجود مثله بين رجال المشرق وابن حمدان فى الحرب الذي لا تلوي له الحادثات عوداً ولا يعرف قلبه الخوف . وللاثنين عقيدة ثابتة وايمان لا يتزعزع ، ولكن ، لكل مخلوق ساعة ضعف فقد تكون نبوءة اليهودي المكتوبة سبباً لقتل تلك العقيدة وذلك الايمان في صدري القائدين ، فيستسلمان الى الخيال وتؤثر فيهما كهانة حطان ، ثم ينتقل ذلك التأثير الى قلوب القواد ورجال الحرب ، وتردد الأفواه هذا السطر الخيالي بما فيه من دواعي الترويع ، فيغمر زينب تيار قوي من ضعف الذين حولها وخمولهم ، كما تغمر العاصفة الهوجاء ضائعاً في الصحراء . وعند ذلك..عند ذلك تهوي الالهة منسمائها . ويهوي العرش وصاحب العرش الى الدرك الأسفل ، فتتم النبوءة كما أرادها حطان ، دون ان يكون للرومان يد في الأمر . اذن من حق الملكة ان تعتب اليهودي المجنون .. وتثبت جنونه بأشد ما وهب لها الله من فصاحة وسحر ، لتمنع الوهم من ان يستولي على القلوب . وليس غريباً أن يخسر الرجل منزلته في صدر زينب بعد تلك القنبلة الهائلة التي ارسلها داخل الرق الصغير الى تدمر .. بل ليس غريباً ان تبغض ذلك الدماغ الذي املى ذلك السطر .. وان تلعن صاحبه في قبره ، بعد احترامها إياه واحترام رأيه وهو حي . فحطان الان في حفرته الهادئة التي انحدر اليها مختاراً ، يحمل لعنة الملكة الجبارة الى الأبد ، كما يحمل لقباً غريباً فيه مذلته وهوانه .. مجنون ..! وذلك هو جزاء اخلاصه ووفائه لأرملة اذينة التي لفظت شفتاه اسمها في ساعة موته . واطبق جفنيه على صورتها الخالدة في ذهنه !.. وعلى جميع رجال البلاط الان ان يتظاهروا بنسيان حطان ولو لم ينسوه لان الملكة لا تريد ان يذكر

اسمه في القصر ، بل لا تريد ان يعترف احدهم بان رجلاً يهودياً من رعية زينب يدعى حطان كان موجوداً

ومع ذلك . فهو خالد في صدور اصحابه وان لم تذكر اسمه الأفواه

* * *

لقد قلت لك يا معن ان الملكة ستغضب فلم تبالِ

قال : أما غضبها فسحابة صيف لا يلبث حتى يزول ثم قال : وحطان ؟

ـــ : لقد توارى حطان الان وراء الحجب فلا يرتفع له ذكر

ـــ : وما هو رأيكِ فيما سمعت من الملكة ؟

ـــ : رأيت انه لم يقم بواجب اخلاصه ..

ـــ : ألم يكن حطان نبياً في نظركِ ؟

فقالت : دخلت على الملكة وانا واثقة بان الرجل ينطق من فم الآلهة

ـــ : وبعد ذلك

ـــ : ثم انصرفت وانا واثقة بأنه سيد المجانين ..

ـــ : وليس في ذلك وجه للغرابة فلو لم يكن حطان كما تظنين لما اقدم على الموت مدفوعاً بفكرةٍ بالية هي ابلغ مظهر من مظاهر الجنون

وكأن كهيلة عادتً الى نفسها بعد تلك الشهادة القاسية ، فقالت :

ولكنه كان نبيلاً وكبيراً في خلقه

فابتسم قائلاً : كان كذلك قبل ان يفسد الغرور عقله ..

هكذا امسى حطان في نظر الزوجين الحبيب الى قلبيهما ..!

وهذا معناه ان الملكة تستطيع ان تجعل الأبيض اسود ساعة تشاء وكما تشاء ، وان عواطف الناس واخلاصهم وعقائدهم تنهار جميعها عندما تهب الرياح الهوج!

والموت .. ان الموت حادث عادي يزول تأثيره بعد ساعة . ثم تزول على مر الزمان ذكريات النفوس لا يبقى غير اثرها البالي .. نعم ، ولو قرأ رجال البلاط جميعهم نبوءة اليهودي كما قرأها زبدا وصهره وابنته ، وسمعوا الملكة ، كما سمعها هؤلاء تبحث في شذوذ حطان وغرابة أمره ، لآمنوا وصدقوا انه جنّ قبل نزوله إلى القبر . ولما بقي له في صدورهم ذلك الأحترام الذي اوجده في حياته بحكمته وبعد نظره . فلننسَ حطان كما نسيه زبدا ورفيقاه .. ولنلعنه كما لعنته الملكة .. ولكن إلى حين ..

رجلان من ابناء الصحراء وصلا الى تدمر :. وهما من رجال الجيش التدمري الذي يحمي مصر .. فاجتمع الناس حولهما وهما لا يقولان كلمة حتى اذنت لهما الملكة في المثول بين يديها . وقلبها يخفق ، ووجه زبدا يتجهم ويكفهر ..

ولو سئلت الملكة في تلك الساعة ، ان تقص على الناس ما يحمله ذانك البدويان من اخبار لفعلت ذلك قبل ان تراهما ، وقبل ان تأذن لهما في الدخول ان ضميرها كان يهمس في اذنها قائلاً : سقطت مصر ..

ولو استطعت الدخول الى نفس زبدا وقرأت ما في اعماق تلك النفس ، لبدت لك اللوعة والندم مكتوبين بسطور واضحة حروفها سوداء، ولرأيت مشهداً هو اغرب مشاهد النفس البشرية المضطربة ، الكثيرة الصور .. لقد ذكر حطان المجنون .. وذكر قوله الذي يرن في قلبه .. ان بروباتيس سيسترجع مصر وهو ، منذ لعنت الملكة نبيها لم يخطر له ذلك النبي ببال

ليتكلم احدكما قالت الملكة هذا وهي تنظر الى زبدا نظرة عتب ولوم تضيع تحت ابتسامة مغتصبة صفراء . بل تضيع تحت البريق الساحر ترسله عيناها السوداوان . فتكلم احدهما وهو جاثٍ على ركبتيه :

يا مولاتي .. لقد طرد .. التدمريونٌ .. من مصر

فانتهرته قائلة : قل ان الخارجي استرجع عرشه وان القلة غلبتها الكثرة على أمرها فتمم قائلاً : يا مولاتي .. هذا ما أردت أن اقول

ودبّ الذعر الى قلبه .. فقالت : ولكن لا تكن ذليلاً فتعترف بان الروماني طردكم من مصر قبل ان تذكر لنا استبسال الجيش في موقف الدفاع .. قل كيف استرجع الرجل عرشه واين هي الحامية اليوم ؟

قال : دهمنا بأكثر من ثلاثين الفاً من المصريين واعمل فينا السيف

— : وراية تدمر ؟

— : واستولى على الراية بعد ان سقط التدمريون حولها جثثاً تغطي الساحة

فرفعت رأسها قليلاً الى العلاء كأنها تفكر ثم قالت : ثلاثون الفاً يهاجمون خمسة آلاف .. وكيف استطعتم الفرار أيها الرجل ؟

قال : اما الذين فرّوا يا مولاتي فلا يجاوزون الألف ..

كأنه يقول لها ان الباقين جميعهم طواهم الثرى

فتنهدت بتعب ونظرت ثانية الى زبدا تلك النظرة القاسية وعيناها تقولان له :

اذكر مافعلت ففهم القائد معنى نظرتها فقال : سأعيد مصر إلى الطاعة ايتها الملكة.
فهزت رأسها قائلة : أجل وبعد ان يهلك نصف الجيش
ثم استدركت خطأها فقالت : أكتب لك يا زبدا أن لا تستريح ؟..
قال : لا راحة لي الا بالقضاء على خصوم الملكة
ثم قال للرجل : أقتل قائدكم أيها البدوي ؟
— : نعم يا مولاي مع جميع اركان حربه وصغار الضباط
— : ولماذا لم يرجع الذين نجوا من الموت ؟
— : انتشروا في الصحراء وهم يعلمون ان جيش الملكة سيزحف إلى مصر من جديد وأن الفتح لا بد منه
فبرقت عينا زبدا ووضع يده على سيفه وهو يقول : مري يا مولاتي بان يتهيأ الجيش فأجابته بهدوء قائلة : سنفعل
قال : بل ارجو ان يصدر الأمر الآن — : لماذا ؟
— : لنفاجئ بروباتيس قبل ان يزيد عدد جيشه ويستعد للقتال
فقالت وهي تبتسم : إذا زحف جيشك غداً فلا يصل الى مصر حتى يرى كل شيء قد تم . أتظن بروباتيس جاهلاً إلى حد ان يعطيك مصر كلما طاب لك اخذها
قال : انه لا يعطي برضاه يا مولاتي ولكن زبدا يأخذ على رغمه ..
قالت : ذلك ناموس الحرب ونحن نعرفه ..
— : اذن نزحف بعد بضعة أيام فالجيش لم يترك المدينة
قالت : وكيف كان تيماجين في حربه ؟..
فلم يعلم زبدا اي خاطر لها فسألته هذا السؤال . فقال :
لقد ابلى البلاء الحسن ايتها الملكة
قالت : اتدري لماذا سألناك عنه ؟ قال : لا
قالت : لاننا نفكر في ارسال قائد آخر يكون عوناً لك مع القائد اليوناني
فغضب زبدا لكرامته وبان الغضب في عينيه ..ان جواب الملكة كان طعنة موجهة إلى صدره ، ايكون عاجزاً عن فتح مصر في المرة الثانية كما فتحها في المرة الاولى حتى ترسل الملكة قائداً آخر يساعده على امره ؟. ان هذا لا يرضاه ولو غضبت زينب .. فقال : اختاري من تشائين يا مولاتي من القواد
فتبينت الغضب في عينيه ولكنها تجاهلت قائلة :

خير لنا ان نبقي والدنا زباي في تدمر ونبعث ابن حمدان ..

قال : بل تبعثين الاثنين اذا اردتِ .

قالت : الملكة بحاجة الى احدهما

قال : ليحمي تدمر من غارات الرومان ؟ — نعم

— : اظن ان زبدا يكفي لهذا — : انت ؟

— : اجل ايتها الملكة

— : أتكون في مصر وتحمي تدمر ؟

فأجابها قائلاً : اني باقٍ هنا لا ابرح البلاط .. !

قالت وهي تتجاهل ايضاً : يا زبدا اعمد الى الجلاء

فرفع رأسه بكبر وهو يقول : أما أن ارجع وحدي فاسترجع مصر وأما أن يذهب زباي وابن حمدان وأبقى أنا

— : وما معنى هذا ؟

— : معناه اني كنت جاهلاً في فتحي مصر ولأجل ان تردني الملكة الى الصواب أرادت ان ترسل قائداً آخر يكون عوناً لي في الفتح الثاني الذي ترغب فيه

قالت : وهل اخطأت الملكة في اعدادها اسباب الراحة للقائد الأكبر

قال : لك يا مولاتي ان تفعلي ما تشائين . ولكني — وانا وحدي فاتح مصر — اريد أن اكون وحدي في اخضاعها لكِ مرة اخرى خوفاً من ان يقول الناس ان زبدا ثبت عجزه

— : واذا اصرت الملكة على ارسال ابن حمدان ؟

— : القي بسيفي على قدميها واترك الميدان الى الأبد ..

— : ولكن للملكة رأي في ذلك

قال : فلتذكره الملكة اذا شاءت

— : ألم تنازل بسبعين الفاً من الرجال خمسين الفاً من المصريين ، في فتحك الاول ؟ قال : بلى

قالت : أما اليوم فستنازل سبعين او ثمانين الفاً

— : أتظنين ؟

— : بل اثق بما اقول .. ان زينب لا تستسلم الى الظنون بل تضع اصبعها في موضع الجرح ..

ـ : ولكن بروباتيس لا يستطيع يا مولاتي ان يزيد رجلاً واحداً على الجيش الذي يقوده

قالت : ذلك وهم خير لك الا تسترسل فيه . اعلم يا زبدا انه يسوق المصريين بالسوط اليوم ليكونوا جنوداً . والمال الذي بذله في المرة الأولى سيبذل ضعفيه للزعماء والعامة حتى يقهر القائد العربي الذي هاجمه في عقر بيته وسلبه ذلك البيت .. فاذا قاد ابن حمدان فريقاً من جيشك الزاحف لاسترجاع مصر : فمعنى ذلك انك أعددت لهذا الاسترجاع من القوى ما اعده عدوك للدفاع

قال : افلا تريد الملكة اخضاع المصريين ؟

قالت : لا يتم لك الأمر اذا بقي بروباتيس

قال : قتلتني الآلهة ان ابقيت عليه

ـ : اذن تؤثر الذهاب وحدك مع دليلك تيماجين ؟

قال : هذا ما ارجوه من الملكة ـ : وانت ضامن ؟

قال : نعم واذا قتلت في مصر ففي تدمر رجال يصلحون للقيادة

قالت : ان الذي يضمن الأمر لا يخشى الموت وزبدا لا يقتل في مصر والمصريون احياء .. ولكن لنا شرط

قال : وعلي الطاعة فما هو ؟

قالت : للملكة صديق في الاسكندرية يدعى فيرموس

ـ : نعم .

ـ : وهو اغنى ابناء ذلك القطر واعزهم جانباً واحبهم الى الناس

ـ : نعم .

ـ : فاذا دانت لك مصر فاستدعه اليك ووليه امرها باسم الملكة فليس احد غيره يستطيع ان يسود المصريين قال : سأفعل

ـ : وله ان يختار من يشاء من العمال والولاة لانه وحده سيسأل عن عملهم

قال : افلا يكون هؤلاء من افراد الجيش ؟

قالت : ليجعلهم من الجن فاحذر ان تعرض له

ـ : وماذا غير ذلك ؟

قالت : واجعل الحامية عشرين الفاً بينهم طائفة من الأرمن

قال : أما هذا فكثير أيتها الملكة

قالت : هكذا يفعل الغازي الذي يريد ان يستولي الى الابد . ثم اضف الى هذا العدد ثلاثين الفاً من المصريين انفسهم فيصبح الجيش خمسين ألفاً وتسلم مصر
— : لقد رأيت غير هذا يا مولاتي — : قل
— ليس من الحكمة ان يحمل السلاح في مصر جيش اكثر عدداً من الحامية ،
قالت : كانك تريد القول انهم يعمدون بعد ذلك الى العصيان
قال : نعم .
فابتسمت قائلة : عندما يموت بروباتيس تموت الروح المتمردة في صدورهم افلا تذكر ان الذهب الذي ينثره الرجل هو وحده الذي يدعو القوم الى حمل السيف
— : ولكني لا اضمن هذا ..
— : ان الملكة ضامنة فلا تخف
ثم التفتت الى تيماجين قائلة : اي بلد احب اليك ايها اليوناني . مصر او تدمر
قال : مصر وطني الثاني ، وتدمر هي المحسنة الي
قالت : جواب حسن ، ان الملكة ستوليك أمراً في مصر ، اسمعت يا زبدا اجعله قائداً للجيش المصري . ثم قالت : ولكن القيادة تبعث الطمع الى الصدور .
فارتجف تيماجين واصفر وجهه .. ثم استطاع بعد لحظة ان يتمتم قائلاً
وبماذا اطمع يا مولاتي بعد هذا الرضى العالي الذي تشرفينني به ؟!
فقالت وهي لا تبتسم : ليس بعد القيادة غير خطوة واحدة الى العرش .. فاحذر ان تثب هذه الوثبة الخطرة .. قال : مولاتي ..
قالت : لقد حذرناك وكفى ، أما قائد الحامية ففيرموس يختاره من رجالنا وتكونان انتما الاثنين منفذين لارادته ..
فسجد قائلاً : حسبي ان مولاتي الملكة تضعني في الموضع الذي لا استحقه
فاسكتته قائلة : ان الملكة لا تتملق احداً أيها الضابط ، ولو لم تكن اهلاً لرضانا لما جعلناك قائداً . وقبل أن تأمر بالانصراف ، ارادت ان تمازح زبدا — وهي ابعد الناس عن المزاح — فقالت له : أما ان تسترجع مصر وحدك وإ ما ان تلقي السيف .. أليس كذلك ؟.
فضحك قائلاً : أتعيدين علي قولي يا مولاتي؟
قالت : نعم فقد اعجبنا هذا القول ونحن نردده ..
— : اما أنا فقد اعجبني تصور الملكة اني عاجز
— : كان ذلك اسلوباً من اساليب الامتحان

ــ : وكان قولي عثرة من عثرات اللسان ..
فضحكت بدورها وهي تقول : لقد اتفقنا الان فافعل ما يبدو لك
قال : سأرحل بعد أيام
قالت : على أمل ان نستقبلك وانت ظافر
قال : ستكون الآلهة عوناً لي يا مولاتي
قالت : ولكن لا تنسَ حرفاً مما قلناه
واطرقت قليلاً ، ثم قامت فخرجت وتفرق القوم

* * *

لا يستطيع زبدا ان يبلغ مصر مع جيشه الا بعد ان يمشي شهراً يكابد فيه صنوف المشقات والتعب . ولكن القلم يستطيع في لحظة ان ينتقل من تدمر الى مصر ، وينقل اليها الجيش الجرار بذخيرته وعدته وكل ما فيه .. فزبدا اذن ــ على هذا القياس ــ بلغ مصر ، ورأى فيها ما لم يره في فتحه الاول من وسائل الدفاع . الحصون والقلاع يملأها الجند ، والجيش اليوم اكثر منه بالامس ، وعلى كل ساحة من الساحات طابع الحرب ، فلم يبال . بل كان كالتيار الجارف يهدم الابراج ويستولي على القرى ، والموت والتدمير يمشيان وراء جيشه لا يبقيان على شي

اما بروباتيس ، فقد عرف هذه المرة ان يختار الموضع الذي ينتظر عدوه فيه ، وكان واثقاً بان الغرور والاستخفاف سيدفعان الجيش التدمري الى ذلك الوادي الذي جعلته الطبيعة حصناً لجنوده . وقد اصاب في ثقته ، فان زبدا كان يضرب ولا يقف ، وتيماجين مع الطليعة يقود الجيش ، حتى قاربوا الوصول الى معسكر عدوهم ، فاشار تيماجين بالوقوف لانه عرف اية هوة يقذف اليها بجيش الشرق

وأقبل على زبدا ليسأله رأيه . فقال القائد : ماذا جرى ؟
قال : نحن نزحف الان على غير هدى يا مولاي وسنصل الى الوادي ..
قال : ولكني لا ارى اودية في هذا السهل
قال : سترى جبلين من الرمل نمر بينهما
ــ : ورجال مصر ؟
ــ : يقومون وراءهما حتى نتوسط الوادي فيمطرونا سيلاً من الرماح والنبال
قال : أتعرف هذين الجبلين يا تيماجين ؟
ــ : نعم يا مولاي　　　　ــ : صفهما لي كأني أراهما

فأخذ الرجل يصفهما ويصورهما له على الرمال حتى شعر زبدا كأنهما أمامه فجعل يتفرس في الصورة ثم قال : ومع ذلك فسنواصل الزحف

— : نزحف الى الموت يا مولاي ..

— : وما هو رأيك ؟

قال : ارى ان نبقى هنا وننظر في الأمر

قال : لا تمر ليلة حتى يفاجئنا المصريون من الجانبين

قال : ذلك خير من ان نعلق بالشرك ..

قال : سنجعل الجيش جناحين يصعد كل واحد منهما في جبل

— : وهذا اشد خطراً من السير في المضيق .

— : ان جيش تدمر لا يداني معسكر عدوه ثم يقف خائفاً ، سنواصل الزحف كما قلت ولو قتلنا

— : استحلفك برأس الملك ان لا تفعل ..

فقال : إلى الأمام يا تيماجين فزبدا لا يرجع .

فحاول اليوناني اقناعه للمرة الأخيرة قائلاً : ولكن زبدا الذي لا يرجع الان . نعم يا مولاي ان زبدا الذي لا يرجع الان يضطر غداً الى الفرار ..

قال : الفاتحون لا يقفون في مواقف الدفاع ، فامشِ أمام الجيش فالفرار خير من الانتظار ..

فلم يرَ اليوناني بداً من السير .. هكذا أمر القائد العام فليكن ما أراد وتقدم الصفوف على جواده فتبعته هادئة صامتة الى ذلك الوادي الرملي الكامن فيه الموت..

وكانت طلائع بروباتيس ترى كل شيء ولا يراها تيماجين . فأحصت على الجيش التدمري حركاته ، وعادت تنقل الى الملك اخباره فاصطف المصريون على طول الجبلين ، من الوراء، والقيت الأيدي على السيوف ، وجعل كل صف طوائف خيله في سفح الجبل استعداداً للهرب . اذا خان بروباتيس الحظ ..

أجل ، كان ملك مصر وراء حصونه خائفاً من زبدا ، فهو لم ينسَ قط فشله الاول ، وفراره الى البر الفسيح يستعيد فيه قواه ويجمع الرجال من جديد

على ان عاطفتين قويتين كانتا تحجبان خوفه ، عاطفة الدفاع عن عرشه الذهبي الذي لم يهنأ في الجلوس عليه . وعاطفة الأنتقام من الغازي العربي الذي قتل نصف جيشه . وقد نفخ في صدور رجاله بقوة المال ، روحاً جديدة . واباح

لكل واحد منهم ، الاحتفاظ بالحصة التي يغنمها من عدوه

وتلك عادة للعرب في حروبها أراد بروباتيس ان يجعلها دستوراً لجيشه . ليحارب العربي بسلاحه الذي يحارب به خصومه . وكان الجند ستين ألفاً كما قالت زينب ، بعضه يحمل السيف من الخوف وبعضه يسلح المال يده . والبعض الآخر وهو القليل يقتحم الساحة عن عاطفة وعقيدة ، كما مرّ في الفصول الماضية من الحرب الاولى

* * *

وصل الجيش ، فرأى زبدا الرابيتين اللتين اشار اليهما تيماجين ، وهما مستطيلتان ، ترتفعان في اطرافهما ، وتنخفضان في الوسط ، وعلى القمتين اللتين كحجر رملهما ، يلمع سلاح بعض الجنود . ووراء احدى الرابيتين من الشمال ، سهل واسع هو صحراء لا آخر لها ، تؤدي الى بابل المصرية « الموضع الذي بنى فيه عمرو بن العاص مدينة الفسطاط »

فوقف زبدا يدرس موقفه ، ويستعيد ذلك القول الذي سمعه من تيماجين ولم يكن قائد تدمر متردداً في اموره ، أما الان وقد رأى الموت فاتحاً شدقيه لجيشه ، فلم يسعه الا أن يفكر في الخطر الذي ينتظره ، اذا هو اقدم على الهوة الفاغرة فاها لابتلاع الرجال . وقد ندم على ما فعل ، ندماً لم يشعر بمثله في ميادين الحرب ، غير انه لم يظهر ندمه ، ولم يبدُ الخوف على وجهه ، لئلا يضطرب الجيش ويدب الذعر في صفوفه ، واصعب شيء على زبدا الرجوع إلى الوراء والعدو ينظر اليه بعد أن أمر جنوده بالزحف إلى الأمام ولم يصغ إلى نصيحة اليوناني الخبير بأرض مصر . ولكنه لا يتردد الى الأبد ، لان التردد يطمع بروباتيس، ويفتل الجيش الغازي الذي تخفق فوقه دائماً رايات الفخار

فقال لتيماجين : سأجعل الجيش جناحين كما قلت

قال : بل نبقي في هذا الموضع حتى يمل بروباتيس ويترك موقفه

— : وما هو الغرض من ذلك ؟

قال : ليس لجيشنا حياة اذا لم يبدأ الرجل بالهجوم

— : وإذا لم يفعل ؟

مشينا إلى السهل وضربنا خيامنا فيه كأننا نحاصر الجبل فنخرجه عن حده

فأعمت الكبرياء عيني زبدا فلم يبصر ، انه كان يرى الصواب فيما ذكره

تيماجين ، ولكنه لم يشأ الاستسلام الى ذلك الرأي

فقسم الجيش ثلاثة اقسام ، احدهما عن اليمين والآخر عن الشمال وأمر الثالث وهو قليل العدد بان يسلك المضيق . وتحركت الصفوف .. حتى رأيت الرايتين تمشيان وخيل اليك ان الوادي يرتفع الى العلاء .. حتى توسط الجيش الجبلين وانحدرت الأرض . وفي تلك الساعة ، أجل في تلك الساعة برزت صفوف المصريين بالرماح تطعن الصدور المختنقة من الاعياء ، وتزحم بالسيوف رجال تدمر القائمة فوق المنحدر .. فهوت الأجسام إلى اسفل .. وصعدت رجال المضيق في الرمال من الجانبين لتشترك في الدفاع عن الشرق الضائع .. ولكن صعودها كان وبالاً فهي لم تلبث حتى تدحرجت الى العمق بين قتيل وجريح .. وزبدا وتيماجين .. ان الاثنين ثبتا في المجال ولكن الى حين .. وكيف يستطيعان الدفاع والرجال تسقط حولهما وقد اصبحا على الشفير حيث مزالق الأقدار

على أن زبدا لم يفقد رباطة الجأش ، فهو لم يلمس الخطر حتى اشار بالنزول الى الوادي الذي تغطيه الأجساد ، والرجوع إلى الوراء حيث يجد الجيش منفذاً الى الصحراء . وفي ساعة الهرب تروج سوق الموت .. فان المصريين سكروا بخمرة النصر ، وصيرهم الظفر اسوداً تطارد طائفة من الظباء ، فنحرت الرجال كما تنحر النوق ، وارتفعت اصوات الاستغاثة وانين الجرحى يملأ قلب زبدا كآبة وحزناً ، فثار ثائره . واقتحم ذلك الأتون الملتهب يحمي بسيفه وسيوف اركان الحرب الذين لم يتركوه ، تلك الصفوف المذعورة التي تطلب الحياة

وقد خضب الدم لحيته وصدره ويديه . وعلق الغبار على وجهه فبان بشكل راعب يخيف من يراه . وبينا هو يضرب اليائس الذي لا يجد له مفراً من الموت ، دوت في الوادي أصوات الأبواق تنفخ فيها رجال مصر ، تلك الأصوات التي تأمر الجنود بالكف عن القتال .. فأخذت صفوف المصريين تتراجع صاعدة في الجبل بسرعة تشبه سرعتها في النزول ..

فتنفس زبدا الصعداء .. ولكن تيماجين الذي خبر بروباتيس ، عرف عندئذ ان الرجل لم يرجع صفوفه الا لغرض له ، وقام في ذهنه ان ذلك الغرض انما هو كمين يجمع فيه جيشه ليفاجئ التدمريين عندما يولون الأدبار

أجل ، لقد وثق بروباتيس بان زبدا سيفر مع جنوده سالكاً طريق «السويس» ففكر في القضاء على الفارين قضاء كاملاً ليقضي في الوقت نفسه على فكرة

الفتح التي نشأت في صدر زينب ، ولم يتردد فيما فكر اذ أمر رجاله بالانسحاب وأومأ الى كثيبٍ من الرمال يقوم على جانب الطريق قائلاً لهم :

هناك .. وراء هذا الكثيب يكمن ابطال مصر .. يكمنون الليلة ، وامامه في تلك الساحة السوداء يجب ان يموت آخر رجل من رجال العرب .

فتسابقوا إلى ذلك الموضع الذي أشار اليه . وعيون التدمريين في الوادي لا تخترق الجبل لتبصر ما وراءه .. على ان عيناً واحدة كانت ترى كل شيء .. هي عين تيماجين الواقف على القمة ، وقد استطاع ان يقرأ نفس عدوه ملك مصر ، ويتبين الفكرة الهائلة التي لمعت في ذهنه ، ليقذف بجنود الملكة الى اشداق الموت

* *

أقبل الليل وزبدا لا يهدأ له بال حتى يغادر جيشه ذلك الوادي الرهيب ، الذي تناثرت فيه وعلى جانبيه اشلاء الأموات . ولم يفكر قط في البقاء ساعة واحدة لتستريح الجنود ، ان تلك الساعة قد يجعلها بروباتيس ، بهجوم يقوم به ، ساعة نزاع تزهق بعدها الأرواح . وهو لا يريد ان يدفن رجاله في الوادي المظلم ، بل في السهل الطليق الحر الذي صفت سماؤه وطاب هواؤه ..

فصاح برجاله قائلاً : اتركوا وادي الموت وارجعوا الان

والجيش مثله لا يطيق البقاء في المضيق ، بعد ذلك الفشل الذي أصابه

فتزاحمت فرقه في الرجوع ، ولما لم يبق جندي واحد بين الجبلين ، كان الليل قد انقضى كله وتنفس الصبح ، ولم يترك الجيش سلاحه ولم ينم .. ان العدو على ما يرى زبدا ، ينظم صفوفه ليقوم بهجوم جديد . فلما اصبحوا في السهل ، خيل الى القائد اليائس ان مصر افلتت من يده ، وانه لا ينجو من ارض مصر — اذا كتبت له النجاة ، الا بربع الجيش ..

فملأت نفسه فكرة جديدة هي فكرة الفرار والعودة الى تدمر .. نعم ، زبدا نفسه رب السيف والغازي الظافر فكر في الهرب .. وخير له وهو لم يفتح مصر ، ان يرجع إلى وطنه ليكون بجانب العرش

هكذا يقول المؤرخون وليس في قولهم ما يدعو إلى الريب .. فواقعة الجبل ضعضعت الجيش العربي .. وضيعت أمل القائد الباسل الذي كانت حياته سلسلة مفاخر وامجاد .. ولأجل هذه الغاية دعا تيماجين .

فدخل الضابط اليوناني وهو يكاد يرى ما في ضمير قائده .

وكان زبدا ، بالدم المتجمد على وجهه وثيابه على الحالة التي قرأت فقال :
الا ترى يا تيماجين أن مصر قد نجت ؟
فقال : من يعلم يا مولاي فنار الحرب لم تخمد بعد ..
ـ : أجل وسيكون الحظ عبداً لبروباتيس حتى تخمد هذه النار
ـ : لا تستطيع يا مولاي ان تعرف الغيب
ـ : لقد تزعزعت ثقة الجيش ..
ـ : ولكن ثقة القائد لا تتزعزع ..
قال : وانا بيدي نزعت هذه الثقة من صدور القوم
قال : أنادم أنت يا مولاي ؟
ـ : نعم وكان عليّ أن اسمع لك
قال : أما الماضي فلا سبيل إلى رده .. ثم قال : على اي شيء عولت الآن ؟
فتجهم وجهه وهو يقول : عولت على شيء ما عولت حياتي على مثله !!
ال : على الفرار ؟..
ـ : على الفرار اذا قدرت لاني لا أعلم ماذا اعد لنا صاحب مصر
ـ : ولكن الجيش في فراره لا يسلم ، واهل مصر وراءه
ـ : أوثر ان يموت البعض ولا يفنى الكل ..
ـ : مولاي اني لا أجسر على أن ابوح بما في الصدر
ـ : دعوتك لتبوح بكل شيء ، قل ما تشاء
ـ : ان موقف القائد موقف رجل ضيع كل امله
ـ : اصبت ولم يبق للجيش رجاء بغير الهرب
ـ : الا تذكر يا مولاي صوت البوق الذي سمعته امس
ـ : بلى
ـ : اتعرف لماذا امر بروباتيس جيشه بالرجوع ؟
قال : ليعد للتدمريين هوة اخرى اوسع من هوة امس يقذف بهم اليها دفعة واحدة ..
ـ : وماذا تفعل ؟
ـ : نرسل في اثره بضعة رجال يحملون الينا اخباره قبل ان نمشي ..
ـ : ان تيماجين يقص عليك هذه الأخبار
ـ : انت ؟
ـ : نعم يا مولاي فأرجو الا ترسل احداً ..

ــ : ومتى تذهب ؟
ــ : اروي لك كل شيء دون ان انقل قدماً ..
ــ : ومن اين لك ان تعلم غرضه وانت بيننا ؟
ــ : قرأت وأنا على قمة الجبل افكار بروباتيس ــ : هات
ــ : على الطريق الذي سنسلكه كثيب يشبه هذا الجبل
قال : عرفته في المرة الاولى
قال : نعم ووراء هذا الكثيب يجمع بروباتيس رجاله
قال : ليدهم التدمريين فلا يبقي منهم احداً .
ــ : أجل فهو لا يفكر الا في هذا .

فوضع زبدا يده على جبينه وقد افاق من ذهوله ، بل من يأسه ، وقال : اذن نمشي اليه في وضح النهار فاما ان نموت واما ان نفتح لنا طريقاً

ــ : اي ان الفرار أمر لا بد منه
ــ : ليس أمامنا سواه
ــ : إذا كان هذا فانا اسألك قضاء حاجة
ــ : اذكر حاجتك
قال : امامنا مراحل ثلاث يجب ان نجتازها في ظلام الليل
قال : وبعد ذلك ؟
ــ : ثم نسير في ارض صخورها سوداء فنمكث فيها حتى تغرب شمس اليوم الثاني ــ : ثم ماذا ؟

فاذا اقبل الليل مشينا بهدوء وسكون إلى جبل مهدت صخوره يد الانسان حتى نبلغ القمة .. وعندئذٍ ، اتعرف يا مولاي عندئذٍ ماذا نرى امام السفح الثاني من الجبل ؟ قال : لا

ــ : نرى جنود المصريين وكثيبهم فننقضّ عليهم من فوق كما تنقض العقبان ونجعلهم موطئاً لحوافر الخيل

فاشرق وجه القائد قائلاً : طريق جديد لا أعرفه
قال : والكثيرون من رجال بروباتيس لا يعرفونه
ــ : إذن يصبح الجيش المصري أمامنا ونحن وراءه ..
قال : نعم ونحصره بين الكثيب والجبل فنقضي عليه

ــ : ولكن اخشى ان يفسد عليك العدو هذا التدبير

ــ : ليس في جيشه من يخطر هذا الأمر بباله ، ومع ذلك فنحن فارون يا مولاي والفار لا يضمن النصر ..

ــ : لقد فوضت اليك ان تفعل ما تراه ..

ــ : بقي امر آخر يا مولاي ــ : ما هو ؟

ــ : هو أن نأمر الجيش بان يطيع تيماجين كما يطيع زبدا ..

ــ : سنفعل هذا حتى ان زبدا سيكون من جنودك ..

ــ : عفوك يا مولاي فانا أعلم انك سيد الأبطال ولكنك لا تعرف ارض مصر

قال : نحن باقون هنا ريثما تحتجب الشمس وراء الجبل أليس كذلك ؟

قال : نعم فالليل يحفظ الأسرار ..

فأشرق وجه زبدا قائلاً : لقد اصبحت الان واثقاً بالفوز

وجعل يطوف حول معسكره الى الظهر ، ثم أمر الجيش بان يستريح قليلاً بالنوم ريثما يصدر الأمر بالرحيل

* * *

الجيش الان وراء الجبل الذي يحجب الكتيب عن العيون ، وقد ضرب المصريون خيامهم بين السفح وذلك الكثيب ينتظرون مرور العرب . غير ان الجيش العربي لم يمر فبدأ بروباتيس يظن الظنون ، وقد استولت على ذهنه فكرة خفق لها قلبه ، هي ان زبدا الذي خسر شرفه في الوادي ، توغل في بلاد مصر ليستعيد ذلك الشرف ، ولو لم يكن ذلك ، لرآه يجتاز السهل ماراً بذلك الكثيب في طريقه الى البلاد التي جاء منها . إلا إذا كان يعنى بأمر الجرحى ويدفن قتلاه فذلك شيء آخر .. وستظهر طلائع جيشه . ولم يظن قط ان عدوه يسلك طريقاً آخر للوصول اليه ، فجمع اركان حربه وشاورهم في الأمر ثم ارسل خمسين جندياً على افراسهم يتبينون آثار ذلك العدو . وغربت شمس اليوم الثالث وهو ينتظر .. ومدّ الظلام رواقه فوق ذلك السهل .. ثم أطل القمر خلف الجبل وغمر معسكره بنوره .. وعند ذلك رأى عدوه الذي ينتظره ، ولكن بصورة رائعة ملأت قلبه خوفاً وذعراً .

رأى صفوفه تسقط من الأعالي كأفراخ النسور ، وللأسنة المشرعة بريق يخطف بصره ..

فصاح برجاله : عدوكم أيها الأبطال ..

غير ان ذلك العدو كان قد بسط جناحيه ودار حول الكثيب من جهاته الأربع فسدّ منافذه .. وحصدت سيوفه رجال مصر فهوت الرؤوس بين الأرجل واصبحت الأجساد غطاء للرمال .. والملك .. الملك الذي بسم له الحظ في الوادي ، خانه الحظ نفسه في السهل ، وضاع صوته وسيفه بين انين رجاله وضربات التدمريين

وكان الاثنان ، زبدا وتيماجين يفتشان عن ذلك الملك ليسألاه ان يعطيهما رأسه .. وكتب لهما ان يتلاقيا بالقرب منه فتنحى تيماجين احتراماً لقائده وارسل ذلك القائد ضربة واحدة فصلت ذلك الرأس عن الجسد .

وعلى الأثر ، نفخ تيماجين في بوقه ثم صاح قائلاً : اتركوا سلاحكم أيها المصريون فصاحبكم قد قتل .. فتناقلت الأفواه تلك الكلمة القاسية ثم فعلت كما يفعل السحر فرفع المصريون ايديهم مستسلمين

أجل ، ولم يترددوا في الاستسلام ، لان كلمات بروباتيس التي كانت ترن في آذانهم لم يبق لها أثر ، وصوته القوي المغري كان قد اختفى ، فعرفوا أنه قد مات .. وان مصر اصبحت لملكة المشرق .. وساد السكوت الأحياء والأموات في ذلك الميدان .. ان زبدا سيتكلم وساحة الحرب اضحت منبراً للخطابة

يا ابناء مصر ، لقد قتل ملككم المتمرد على مولاه بعد ان دافع عن عرشه دفاع النبلاء ، فاذا كان فيكم من لم يرض براية العرب ترفع فوق اسوار مصر فليعمد إلى سلاحه وليعلم أن سيفنا لا يغمد حتى يهتف هذا القطر كله بحياة زينب

فارتفعت أصوات الدعاء للملكة تدمر . ان مصر انتهى امرها الآن ، ومال بروباتيس دفن معه فلتسلم رؤوسهم ، ثم قال :

سنرجع غداً إلى مصر فننظر في أمر الشعب الذي جعلتنا الأقدار سادة له ونختار للولاية رجلاً منكم نثق باخلاصه لعرش المشرق الذي نحن عبيده

أما انتم يا جنود مصر ، فسنبقي منكم ثلاثين الفاً بقيادة تيماجين الذي يرجع اليه الفضل بقتل الخارجي وخمود نار الحرب .. افلا تعرفون الضابط اليوناني الذي نشأ في بلادكم ولم يشأ ان يخون مع الملك القتيل مولاه القيصر

فقال بعضهم : نعرف تيماجين .. يعيش تيماجين

ثم أراد أن يخاطب ضباط الرومان ، فقال تيماجين : دعهم الان يا مولاي فسأدلك عليهم غداً

فخاطب جيشه قائلاً : ليأخذ كل واحد منكم رجلاً من ابناء مصر يحتفظ به الليلة وسنسأله عنه غداً عند الصباح

فقال قائل : إذن فالمصريون اسرى يا مولاي

قال : ليلة واحدة ليس غير ثم يصبحون مثلكم احراراً

فعمّ أمر القائد الجيش في ساعة واحدة ، واخذ التدمريون سلاح المصريين وضباطهم الرومان ورقدوا على الرمال يرطب اجسامهم المحترّقة ندى الليل .

وفي الصباح ، دعا زبدا رفيقه اليوناني وقال له : أريد أن ارى ضباط الرومان قبل الرجوع إلى مصر

قال : ارجو ان يذكر لي مولاي ماذا يريد ان يصنع بهم

قال : اجردهم من السلاح واطردهم من الجيش

قال : ويبقون في مصر ؟

قال : نعم فليستثمروا الأرض او فليرجعوا الى بلادهم

قال : خير لك يا مولاي ان يرافقوا الجيش الى تدمر

ــ : يخيل اليّ أنك تخافهم

ــ : نعم يا مولاي فهم رجال ثورة وعصيان ولا يلبثون حتى ينفخوا في صدور القوم روح ثورتهم

ــ : ولكن الرومان كثيرون بين شعوب مصر

ــ : اولئك رجال سلام وهدوء لم يتعودوا خوض الميادين ..

ــ : احسنت وسنعرف كيف نبعدهم عن هذا القطر

وأمر بهم فاحضروا وهم بضعة عشر رجلاً

فقال : انتم اركان حرب الملك ؟

فقال احدهم : نعم أيها القائد

ــ : ألم يقتل أحد منكم في الليل الماضي ؟

ــ : قتل سبعة رجال

قال : سنرى جثثهم عندما تنقل الى الحفر

ثم قال : أتعرفون تدمر أيها الضباط

فقالوا جميعهم : لا

ــ : إذن تذهبون اليها مع الجيش لتراكم الملكة

— : ولكن لنا في مصر أهل

— : وهؤلاء ايضاً يذهبون معكم ..

— : وماذا نصنع في تدمر أيها القائد ؟

فابتسم قائلاً : تجعلكم الملكة مستشارين لها وندماء .. أتسألونني عما تصنعون وانم خصوم قيصر الخارجون عن الطاعة ؟

— : ولكن لسنا خصوم زينب

— : ان القيصر وزينب حليفان فمن شهر السيف في وجه الاول فهو عدو الملكة لا تلبث حتى تنزع من يده ذلك السيف

— : اتدعو الجندي الذي يطيع قائده خائناً ..

— : لا . ولكن الروماني الذي يؤثر بروباتيس على قيصر هو خائن

— : كان بروباتيس قائدنا ونحن مكرهون على الانقياد له . فاجعلنا الان من جنود الملكة في مصر فتعلم عندئذ اننا الاوفياء المخلصون

قال : بل نجد غير ما تقولون ، اننا لا نبلغ تدمر حتى تخرجوا على الحامية وتحاولوا استرجاع ما خسرتموه

فنظروا الى صاحبهم تيماجين قائلين : هذا قائدنا الجديد يضمن جنوده

فقال الرجل : ما كنت قط جاهلاً لأضمن نفراً من الضباط وضعوا ايديهم بيد الخائن ، واستباحوا دم البريء الذي لم يوافقهم في ما فعلوه

قالوا : من هو هذا البريء ؟

— : أنا ، ألم تقتلوا بأمر ملككم اولئك المخلصين لقيصر ثم طلبتم تيماجين لتقتلوه فلم تجدوه ؟!!

فأطرقوا واحمرّت وجوههم من الخجل ..

قال : واقسم بجميع الآلهة اني لو لم الجأ الى تدمر ، الى ملكتها العظيمة التي تحمي اللاجئين اليها لكنت اليوم عظماً بالياً بفضل هذا الأخلاص الذي تذكرون

ثم قال لزبدا : ان هؤلاء يا مولاي سبب الفتنة وهم لا يطيقون ان يروا رأساً مرتفعاً غير رؤوسهم الناظرة إلى العلاء .. انهم رومانيون يا مولاي . والروماني في هذا الجيل سيد الناس جميعاً كما تعلم ، فاذا انزلته عن كرسيه كان ارفع من أن يخضع لعبيده ..

فقال زبدا في نفسه : لو اطلقنا يد هذا اليوناني في مصر لقفز الى العرش بعدشهر

ثم قال لهم : انتم اسرى حرب فلا تحاولوا الفرار

قالوا : لا تسمع لتيماجين أيها القائد ..

قال : اتجهلون انه صاحب النصر ؟

قالوا : لو استطاع ان يفني جيشك كله لفعل

قال : لقد حاولتم انتم ان تفنوا هذا الجيش ..

قالوا : سيخونك يا زبدا كما خان مولاه من قبل ..

قال : ليفعل ما يشاء فهو سيد مصر ..

قالوا : وسيلبس تاج الملك مستعيناً بالجيش الذي وليته امره

فاختلجت عينا زبدا ثم قال : انه ملك ولكن بدون تاج ..

وكان تيماجين يبتسم ابتسامة الفوز . فرأى الضباط انهم لا يستطيعون ان يصرفوا القائد عن عزمه . فحولوا وجوههم وبدأوا يذرفون الدموع ..

فلم يشأ زبدا ان ينظر الى تلك الكآبة التي ارتسمت على وجوههم ، بل اشار عليهم بالانصراف قائلاً لتيماجين : ادفن بروباتيس كما يدفن الملوك واجعل هؤلاء اسراك ريثما ننصرف من مصر

* * *

كان فيرموس صديق زينب ، الذي ورد ذكره في الفصول الماضية ، سيد الاسكندرية بل سيد القطر كله في جاهه العريض وفي ماله . وليس بين المصريين من لم يسمع ذلك الأسم ولم يتحدث بغنى صاحبه .

وفيرموس ، مخلص كل الأخلاص لزينب ، ويبغض الرومان لأنها تبغضهم . ويتمنى ان تظفر بهم على طول الخط ، ليخلو لها الجو ، وكان رجاله ينقلون اليه اخبار الجيشين المتحاربين جيش مصر وجيش تدمر ، فلما قيل له ان بروباتيس قتل بعد فوزه . امتلأ قلبه فرحاً ، واعد عدته ليذهب إلى مصر فيصافح التدمري الظافر الذي اخضع ملك فرعون . ولكنه لم يهم بالذهاب حتى استأذن عليه رجل من تدمر يرافقه آخر من مصر يحملان رسالة

فأذن لهما وهو لا يعلم ما يريدان

فقال للتدمري : اقادم انت من تدمر ؟

– : لا يا سيدي بل من مصر وقد اوفدني زبدا اليك احمل رسالته

قال : هات

فأعطاه أياها فقرأ :

من زبدا قائد جيوش تدمر الى فيرموس صديق زينب الملكة

« باسم الملكة التي فتحت لها مصر اسألك المجيئ الي لأعهد اليك في قضاء ما امرتني به »

فقال في نفسه : انه يحتاج إلى المال وسأعطيه

ثم قال لحامل الكتاب : أرأيت مولاك زبدا يقتل بروباتيس ؟

قال : ومن يستطيع ان يرى زبدا في الميدان ، انه كالاسد لا تقع عليه عينك في طرف الساحة حتى تسمع زئيره في الطرف الآخر ..

قال : يقولون انه لم يضربه غير ضربة واحدة

قال : وزبدا لا يحتاج الى ضربتين للقضاء على عدوه

قال : يصفونه لي وانا لا أعرفه من زمن طويل

— : ستعرفه يا سيدي بعد يومين افلا تريد الذهاب اليه

— : هممت بالذهاب قبل وصول رسالته لاني احب أن ارى قائد الملكة الذي ملأت شهرته الأقطار .. وكيف تركتم زباي ؟ انه يفاخر بابنته ملوك العالم أليس كذلك ؟

— : أجل فلم يقم في العالم مثل زينب

— : اني كثير الشوق اليها ولا أعلم متى استطيع السفر إلى تدمر لألمس بيدي عظمتها التي لا تبلى ..

قال : ستلمس بيديك هذه العظمة عندما ترى زبدا يحفه الجيش

فلم يشأ ان يسألهما عن حاجة الجيش إلى المال خوفاً من ان يسيئ الى الفاتح من حيث لا يريد

فقال : امكثا الليلة هنا وستعودان معي غداً ..

ثم خرج فقال لغلمانه : تهيأوا للذهاب معي الى مصر واعدوا الهدايا لقاهر بروباتيس .. وفي اليوم الثاني غادر الاسكندرية يحمل هداياه ، وهو يكاد يطير شوقاً الى زبدا

* * *

عندما قيل لزبدا ان فيرموس ينتظر الاذن في الدخول ، ترك مجلسه الحافل بأركان جيشه ونبلاء المصريين ، ومشى الى قاعة تقوم بالقرب منه ، هي القاعة

التي جعلها الملك القتيل مجلسه الخاص ، وأمر حاجبه بادخاله اليه ،
إن الحديث الذي سيدور بين الرجلين لا يجوز ان يسمعه زعماء البلد المغلوب على أمره ، ووقف الفاتح في وسط القاعة ينتظر دخوله . فلما اقبل فتح قائد زينب ذراعيه لصديق زينب وهو يقول له والابتسامة على شفتيه :
لو لم اسألك المجيء الى مصر لما رأيتك .
فأجابه قائلاً : كنت اعد عدة المجيء عندما وصل رسولك ..
وجلس الاثنان وكلاهما يحدّق الى الآخر .. رأى فيرموس طهارة الوجدان وخشونة الجندي باديتين على وجه زبدا . ورأى هذا آثار القوة والنعمة على وجه تاجر الفراء وعلى يديه .. والواحد منهما شديد الأعجاب بصاحبه ، وذلك الأخلاص الذي ينطبق عليه الصدران مطل من العيون ..
ثم بدأ زبدا بالكلام قائلاً : أتذكر تلك الفتاة السمراء التي ارسلها زباي من تدمر إلى الاسكندرية تقتبس فيها الأدب ؟ قال : زينب؟!
— : نعم فهل خيل اليك انها تنتقل من المدرسة الى العرش ثم تصير سيدة مصر ويخضع لها الشرق ؟
فأشرق وجه الرجل وقال : كنت اقرأ في عينيها عظمة ساحرة تنطق بانها ستسود البلد الذي خرجت منه فلما قيل لي انها عصبت رأسها بالتاج ذكرت ذلك الجلال الذي سادت بقوته بنات هذا القطر على مقاعد العلم ..
ثم قال : اتراها تذكر فيرموس الذي كان لها اباً
قال : انها في عرشها كما كانت في المدرسة لا تنسى شيئاً ، ولو لم تفكر فيك وجيشها يزحف لأخضاع مصر ، لما كنت في هذه القاعة مع قائد جيشها الذي يخاطبك الان ، أتعلم لماذا طلبت اليك المجيء ؟
قال : عندي بعض الخبر .. قالها وهو ضاحك
فاستغرب زبدا جوابه وقال : ولكن الذي بعثت اليك فيه لا يعرفه غير زبدا وضابط يوناني يدعى تيماجين هو دليل الجيش .
قال : ورجل آخر يدعى فيرموس ..
— : اقسم انك لا تعرف شيئاً ..
— : وانا اقسم ان القلب يحدثني بما تريد ان تقوله لي — : ماذا ؟
— : لقد بذلت في سبيل الفتح جميع المال الذي حملته من تدمر

ـ : احسنت
ـ : فلما هلك بروباتيس واستوليت على القطر مددت يدك الى بيت المال فلم تجد درهماً ..
فابتسم زبدا قائلاً : انك اذن لنبي ..
قال : وقد كرهت ان تضرب الجزية على الشعب الذي استسلم اليك على اثر ظفرك به .. ـ : نعم ..
ـ : وما حيلة الفاتح الراغب في اعداد وسائل الرفاه للبلد الذي فتحه اذا هو طلب المال فلم يجده ؟
ـ : لا حيلة له الا بأن يقرع ابواب الاغنياء ..
ـ : أجل ، ولأجل هذا الغرض دعوت فيرموس صديق الملكة ، وفيرموس هذا مستعد لان يضع ماله كله بين يديك ..
فضحك القائد ضحكة ملأت القاعة .
ولكنه اعجب بتلك العاطفة الصادقة التي اظهرها له ملك الذهب الاسكندري
فقال فيرموس : كيف رأيت الان ؟
قال : لقد نظرت الى الفتح من ناحية واحدة هي ناحية المال ، أما أنا فقد نظرت اليه من ناحية اخرى
ـ : اذن اخطأت فيما رأيت ؟
ـ : نعم ولكنك اظهرت للملكة بهذا الخطأ ، كل ما في صدرك من حب واخلاص فقطب الرجل حاجبيه
أما زبدا فاستطرد قائلاً : اتظن يا فيرموس ان زينب لا تستطيع ان تبسط نفوذها فوق اقاليم الرومان إلا إذا سلبت اصحابها المال الذي جمعوه
قال : واذا نفد مال الجيش ؟
ـ : ان الفاتحين لا ينفد مالهم ..
ـ : حسبت اني استطيع ان اخدم الملكة ، ولماذا دعوتني إذن .
ـ : لأقص عليك حكاية الفتح كما جرت وكما ارادت الملكة أن تكون
ـ : واي شأن لي بهذا ؟
ـ : قد يكون لك شأن فاسمع
لقد فتحنا مصر قبل اليوم ثم خرجت من ايدينا الى ملكها الذي قتل بالامس

ـ : ذلك لانه اشترى الجيش بالمال بعد رجوعك إلى تدمر

ـ : ليس المال وحده هو الذي‌اعاد اليه التاج بل الذنب في ذلك ذنب زبدا ..

ـ : انت ؟

ـ : نعم أنا .. وليت أمر الحامية قائداً من قواد العرب وكانت هذه الحامية خمسة آلاف رجل ليس غير ..

ـ : لقد عرفت ذلك في حينه

ـ : فلما هاجم بروباتيس العاصمة لم يقدر العدد القليل على الوقوف في وجه الجيش الجرار فهوى العلم التدمري وتفرق شمل التدمريين

ـ : ولقائد الحامية عذره في هزيمته ..

ـ : له بعض العذر لا كله ، لقد كان يستطيع ان يفتح قلوب المصريين كما فتحنا بلادهم ويحملهم على حب الملكة والاخلاص لها ، بل كان يستطيع ان يسبق بروباتيس نفسه الى شراء الجيش ليجعله من حزبه ولكنه لم يفعل حتى تربع الروماني من جديد في عرشه ، وخسرت تدمر بعض المال وبعض الرجال

فلم يفهم فيرموس ما هي الغاية من ذكر الماضي الذي طوته الأيام فقال

ـ : أهذه هي الحكاية ؟

قال : لا انها حكاية عهد مضى ونحن انما نقص عليك حكاية العهد الدي نحن فيه .. ومضى في حديثه قائلاً : وكانت مصر .. نعم كانت مصر في نظر زينب جزءاً من ملكها الواسع لا قبل لها بغض الطرف عنه ولو سفحت اوديتها دماً ، فبعثت جيشها مرة ثانية بقيادة زبدا فما لبث حتى دخل ظافراً وهو الان في بلاط الملك . ولكن .. ولكن هذا الفتح يجب ان يدوم واذا قتل بروباتيس فقد يقوم في البلاد بروباتيس آخر يطرد جيشنا بروؤس الحراب ..

فعلى زبدا القابض بيديه على ارض فرعون ، ان يبني فتحه على دعائم ثابتة لا تتزعزع ، ويحفظ هيبة الملكة العظيمة في هذا الفضاء الواسع ما بقي المصريون

فرفع فيرموس رأسه وهو يقول : لقد فهمت الآن

ـ : ماذا ؟

ـ : انك دعوتني لتشاورني في الأمر

ـ : إذا كان هذا غرضي فماذا تقول ؟

ـ : اقول ان نفوذ الملكة لا يحفظ الا بأمرٍ واحد

ـ : ما هو ؟

— : قل لي ما هو عدد جيشك قبل ان اذكره لك

— : ستون الفاً خسرت منهم اكثر من الف

— : اجعل نصفهم في مصر يستقم لك الملك

— : الا تريد ان تجعل لهذا النصف رأساً ؟ — : بلى

— : ان الجيش الكثير الذي لا يرأسه القائد الداهية لا يصلح لشيء . فمن تختار للقيادة ؟

— : انك اعلم برجال الجيش ، فلا رأي لي في ذلك

— : وذلك الرجل الآخر الذي يمثل الملكة ؟

فساد الصمت ..

قال زبدا : أليس لقواد الجيش حاكم او ملك يأتمرون أمره

قال : ذلك لا بدّ منه

قال : دلني على هذا الرجل

قال : في بلاط تدمر رجال كثيرون

— : ولكن الملكة تريد أن يكون الوالي من ابناء هذا الاقليم

قال : لا اعرف احداً في مصر .. ولم يخطر ببال الرجل ان زبدا يعنيه.

فقال : ولكنك تعرف الاسكندرية ومن فيها من الرجال

— : على نائب الملكة ان يكون عظيماً في كل شيء وليس في الاسكندرية من يصلح للنيابة ..

— : أتقضي حياتك فيها ولا تعرف احداً ؟

— : ان السفينة المضطربة في عباب الماء تحتاج الى ربان قوي يهزأ بالأمواج .. ومصر ثائرة يا زبدا فأي مصري يجرؤ على اللعب بالنار ؟

قال : أما انا فقد وجدت هذا المصري ، وهو أنت

فاهتز في كرسيه كما يهتز السكران

أتخضع له مصر كلها وترفعه الأقدار الى هذا الكرسي العالي ولا يضطرب ! وهل يملك نفسه .. ذلك الرصين الكبير في مجده وعزه ، عندما يفاجئه احدهم بقوله : لقد أصبحت ملكاً ..

ان فيرموس كان ملكاً في نفوذه وماله ، ولكن الجنود لا يحيطون بفرسه عندما يخرج من قصره ، والحراس لا يحفونه بحرابهم كما يحفون الملوك ..

ثم تمتم قائلاً : أتهزأ بي أيها القائد ؟..
قال : ما دعوتك لاهزأ بك بل لأجعلك سيد مصر
قال : دعوتني باسم الملكة
— : وباسم الملكة ارفعك الى العرش فهي التي امرتني بذلك ومصر بحاجة اليك
فهدأ روعه ، واشرق جبينه بنور القوة والوثوق بنفسه ، فقال :
أما وقد جعلتني الملكة نائبها فسأكون عند ظنها بي واصون لها هذا الأقليم لا يسمع فيه غير الدعاء لزينب والهتاف لولدها الملك
واطرق ملياً ثم قال : حدثني الان بما تريد فعله في مصر
قال : سنترك لك حامية تعد عشرين الفاً نختار قائدها من اركان الحرب
— : والجيش المصري ؟
— : يبقى منه ثلاثون الفاً تحت السلاح وينصرف الآخرون الى استثمار الأرض
— : وقائد هؤلاء ؟
— : تيماجين اليوناني الذي ذكرت لك اسمه ، وهو وحده من ضباط بروباتيس الذي لم يشأ ان يوافقه امره
— : اذن يجب ان نخشى جانب هذا الرجل
قال : انه شديد الأخلاص للملكة
— : ولكن القائد حوله ثلاثون الفاً من الجنود يفعل العجائب
فذكر زبدا كلام الملكة وابتسم قائلاً :
لقد صدقت زينب في اختيارها اياك للولاية ، اتخاف هذا اليوناني ؟
— : جعلت اهل الاسكندرية عبيداً لي وأنا مثلهم . افأعجز عن اخضاع الطامعين وانا نصف ملك ؟ ان اليوناني عندما يخرج عن الطاعة اجعله في صندوق من خشب وارسله الى تدمر مقيد اليدين والرجلين ..
— : اذا أردت ان ازيد عدد الحامية فعلت
— : لتكن عشرة آلاف وانا ضامن
ولمعت عيناه ببارق غريب
فنهض زبدا ويده بيده ودلائل الفرح على جبينه وقال : قم ندخل على القوم فقد انتهى الأمر بيننا الان وسننظر في شأن الرجل التدمري الذي نجعله قائداً للحامية
ودخل الاثنان وهما يضحكان .

* * *

عندما توسط زبدا وفيرموس القاعة قال زبدا بصوت عال يسمعه القوم :
احنوا رؤوسكم أيها المصريون فقد أقبل نائب الملكة
وكان فيرموس ينظر الى الناس بعظمة وأدب ، وقد مدّ يديه الاثنتين يصافح الضباط والزعماء ..

وعاد زبدا الى الكلام قائلاً : الا تعرفون ملك الذهب في الاسكندرية أيها القوم
فقالوا جميعهم : فيرموس الجبار ؟
ـ : نعم فيرموس الذي اختارته الملكة خلفاً للخارجي القتيل فهل لكم ما تقولون؟
قالوا : هذا هو ملكنا ..
ـ : الدولة التي تخفق فوقها راية تدمر لا يرأسها غير ملك واحد هو وهبلات
ـ : يعيش وهبلات ..
ـ : أما الذين يرأسون الأقاليم فهم ولاة وليسوا ملوكاً
قالوا : سمعنا وأطعنا

ـ : ولكنه ملك بدون تاج يلتف حوله جيش جرار يملأ مصر ، عشرون الفاً منا قائدهم عربي وثلاثون الفاً منكم قائدهم هذا .. وأشار إلى تيماجين ..
فقام تيماجين فصافح زبدا واثنى وشكر ثم صافح سيده الجديد وهو لا يصدق انه يسود الجيش المصري
فأمره فيرموس بالجلوس .. وقد ابتدأ أن يكون صاحب الأمر ..
ثم قال لزبدا : الا ترى ان نجمع زعماء الشعب المصري ليروا نائب الملكة ؟
فقال : الرجال الجالسون في هذه القاعة هم الزعماء

فالتفت اليهم قائلاً : لقد جلست في كرسي بروباتيس وانا أعلم ان اخواني المصريين شعب هادئ لا يعبأ بما حوله من السياسات ولا ينظر الا إلى وسائل راحته وخيره والويل لمن تحدثه النفس بأن يمد يده الى اجنبي ..
فقال أحدهم وهو اجرأ القوم : أنحن خصوم القيصر يا مولانا ؟
قال : ليس لنا ان نفكر في خصومة او ولاء الا إذا شاءت الملكة

فقال زبدا : لو أردنا ان ننازع القيصر نفوذه لما اقدمنا على اخضاع المتمردين عليه وردهم الى الطاعة ، ان زينب حليفة القيصر وهي لا تخونه الا إذا استخف بسلطانها وعبث بالعهود التي وضعها اذينة
قال : ولكن بروباتيس قال لنا غير ذلك

— : ماذا قال لكم ؟

— : ان الملكة جاهرت الرومان بالعداوة فبعث القيصر جيشاً يقوده هراقليانوس ليخضعها لارادته ..

قال : وماذا جرى لذلك القائد ؟

— : قتله في ساحة الحرب فتى من فتيان تدمر

— : إذن فاعلموا ان القيصر نفسه عندما يريد ان يذل زينب بالسيف ، يكسر سيفه على مرأى ومسمع من قواده ، ويضمحل جيشه صفاً وراء صف تحت ضربات التدمريين ، ان الملكة لم تكن البادئة بالعداء كما قيل لكم ولكن غاليانوس جاوز حده بالاستخفاف فسقط جنده بين قتيل وجريح وراح الاحياء من هذا الجند يحملون لقيصرهم الهوان والعار

وقام فيرموس يفسر قول زبدا فقال : اي أن الشعب الذي يضع يده بيد زينب تلزمه الطاعة والاخلاص ليس غير ، وعندما ينصرف عن اخلاصه وطاعته تنصرف الملكة عن الرحمة واللين ويكون جزاء الخونة ضرب الرقاب

واعلموا يا زعماء مصر ، اني — وانا ولي امركم — اقربكم الى الطاعة وابعدكم عن العصيان ، فاذا استسلمتم الى الهدوء فانا ابو الشعب البار بابنائه ، والا فالحمل يصبح ذئباً يتخطف الأرواح الثائرة دون ان يصغي الى شفاعة او رجاء

ولعله أراد أن ينظر في جميع الشؤون وزبدا حاضر ، لينقل ما يراه الى الملكة من حكمة ودهاء فقال : يا سيدي الفاتح ، ماذا رأيت في بيت المال ؟

— : رأيت الهواء يصفر في جانبيه ..

— : أجل فالملوك الطامعون يبذلون مال الأمة ليرفعوا انفسهم الى كراسي المجد

قال : ولكنه يمتلىء بعد قليل من مال الخراج ..

فدبّ الذعر في قلوب المصريين .. ولماذا لا يضطربون وقد نفد مال الشعب في سبيل عرش بروباتيس الذي حطمته الأقدار .

فقال الوالي : نعم سنملأه ولكن من مالنا لا من مال الناس ..!!

فاتجهت اليه العيون .. أما هو فلم يبال فقال : وحصة تدمر من مال مصر ؟

فأجابه زبدا قائلاً : ان مصر أصبحت لنا فمالها لها ونحن لا نحتاج اليه

قال : ومع ذلك سنبعث اليها ما يفضل في بيت المال ..

فلم يخف ذلك المصري إذ قال : إذا رأى مولانا الوالي ان يقسط الخراج

فالشعب لا يملك درهماً ..

فانتهره قائلاً : اتستخف بنا أيها الرجل ؟ ان مصر ارضنا وانتم ابناؤنا فلا نقسط الخراج بل نمحوه ؟!!

فاستعظم زبدا هذا الوعد فقال : ليس بعد هذا الوعد غير الخراب ..

فقال : لا يا سيدي ان صديق زينب الذي وثقت به لا ينفد ماله ، قلنا ونعيد ما قلناه ، ننفق على الدولة عامين كاملين من مالنا ، ونبعث الى تدمر بما خسرته في الفتح دون ان نكلف رعيتنا ان تدفع درهماً واحداً !! وليس ذلك بكثير أيها القائد فالمال الذي جمعناه جمعناه من ابناء مصر ويقضي علينا العدل بان نعيده بالرضى الى الأرض التي خرج منها لتزهو ويطيب فيها العيش .

قال : وتصبح بعد ذلك من افقر الناس ..

- : ولكني ابقي غنياً بكبر نفسي وشرفي ، وباخلاصي لتلك الفتاة السمراء التي كنت ادعوها ولدي ..!

قال : انك خير الولاة يا فيرموس فهنيئاً لمصر ..

قال : هذا كله استعين على فعله باخلاص المصريين كما ذكرت ، ولكن طرفة عين واحدة ضد الملكة تجعل فيرموس الوالي كالنمر الثائر يعذّب الناس ويسلبهم مالهم ثم يقتلهم دون ان يرتفع لهم صوت

فقال الزعماء : لم تجد مصر ، في كل ما رأت من العمال والولاة واحداً مثل فيرموس .. فاجسادنا وارواحنا لك فافعل ما تشاء ..

فوقف قائلاً : اقسم بآلهة مصر ان حياتي هي لزينب ..وأومأ اليهم بأن يقسموا مثله

ففعلوا ووجوههم تتلألأ بنور الأخلاص

ثم قال : بقي قواد الجيش فليقسموا

فوقف تيماجين فقال : اقسم بالسماء والأرض اني لا أجرد السيف الا في طاعة الملكة

واستدعى زبدا ضابطاً من اركان حربه فجعله قائد الحامية واوصاه بان يطيع الوالي ولا يضيع ثقته به .

* * *

لم يبق في مصر بلد واحد لم يخضع للتدمريين ، وقد رأى زبدا بعينه ، دهاء فيرموس وعظمة نفسه واخلاصه للعرش المشرق فوثق بان مصر لا تفلت من يد الملكة الا إذا هاجمتها فيها طوائف الجن . وكانت غيبته قد طالت ، فبعث رسله

ينقلون بشرى الظفر إلى زينب ، ثم جمع الجيش كله واستعرض صفوفه مع الوالي ، ولم ينسَ ، أجل لم ينسَ ان يذرف دمعة صادقة قذف بها شعوره على قبر حطان.

وعاد مع الفريق الباقي من الجيش إلى تدمر في أواخر عام ٢٦٩ فلم يبلغها إلا في الشهر الثاني من سنة ٢٧٠ . أي بعد ان قضى اكثر من شهرين على الطريق لا يمشي إلا عندما تغرب الشمس

* * *

٣٥

خيل إلى الناس جميعهم أن زينب ستستريح بعد ذلك . ومن الطبيعي أن يقوم في اذهانهم هذا الاعتقاد ، وهم يرون ذلك الملك الواسع الضخم تبسط زينب في فضائه نفوذ تدمر وتحميه بهيبتها الساحرة التي هي أشد مضاء من السيف

تنتهي حدود هذا الملك عند ضفة النيل من الجنوب ، وفي اقصى آسية الصغرى من الشمال . وعلى شاطئ البحر المتوسط من الغرب ، وامام النهرين الكبيرين – دجلة والفرات ، من الشرق . ووراء تلك الحدود ، في الممالك والامارات التي لا يخفق فوقها العلم التدمري يسود الرعب والذعر ، ويستولي الخوف على أصحاب تلك العروش لا يجرؤ واحد منهم على ان يتصدى للغازية الجبارة ، ولا يخطر بباله ان ينكر عليها حق التوسع والفتح . خير للملوك المشرق وامرائه ، أن يعيشوا في جو هادئ وتحت سماء صافية وان يحنوا رؤوسهم للبوءة العربية الخارجة من قلب الصحراء من ان يرفعوا تلك الرؤوس فيحصدها السيف القاطع الحامل آلة التدمير والفناء ..

أجل ، خيل إلى الناس ان تلك اللبوءة الهائجة ملأت جوفها الجائع ، وان ذلك السيف ارتوى من الدماء ، فسينشر السلام ظله فوق اقطار الشرق ، وتهمد ثورة الحروب التي جرف تيارها ازاهير الشباب العربي . اي بلد يجاور ملك زينب ولم تفتحه ، واي فضاء قريب تحت سماء الشرق لا يحمل نفوذ العرب ؟

ولكن .. ولكن الطبيعة جائرة كما يقولون ، فقد خلقت لزينب جوفاً ملتهباً لا يشبع ، ونفساً ظمآنة الى المجد لا ترتوي ، فكلما سدل الستار على افق ارسلت

نظرها الى افق ، وكلما وضعت يدها على عرش ثارت نفسها على عرش آخر . حتى تصبح العروش جميعها ركاماً محطماً تحت قدميها الحديديتين

إذن فليس لها راحة وليس لها هدوء ، وذلك السلام الذي تخيله الناس كان وهماً كاذباً لا سبيل اليه ، أنسيت أن زينب استهواها جمال الطبيعة في بيطينية فمدت يدها الى ذلك الأقليم من قبل فأرجعتها عنه الأقدار . أم نسيت ان عرش الشرق في نظرها لا يصلح لان تجلس فوقه بل هنالك عرش اضخم واقوى هو عرش قيصر ؟! لقد طاب لها الفتح وتذوقت لذة الظفر ، فلتسر الى النهاية ان الآلهة معها والزمان يبسم لها فمن الجهل بل من الخمول ان ترجع الى الوراء

على أنها لجأت إلى الصبر .. ليس عن رغبة في حفظ قوى الجيش الذي اتعبته الحرب بل عن رغبة في الحصول على اخبار الرومان بعد اخضاعها مصر

فهي لا تعلم ماذا يفعل القيصر بعد استيلائها على ذلك القطر ، واي شيء يعده لها بعد وصول الخبر إلى روما .. أيوغر الاستخفاف صدره فيبعث الجيش الجرار إلى تدمر ليقضي على الملكة الكثيرة الغرور ، أم يعمد الى سياسة اللين فيعترف لها بالسيادة على المصريين . إن الملكة كانت تفكر في امرين لا ثالث لهما ، إما أن يقسو القيصر فيزحف بالجنود الى الشرق ، وهذا دليل الجفاء الأبدي الذي تموت معه كل صحبة ، واما ان يبعث الى نائبه في فينيقيا قائلاً :

ان الملكة التي قتلت بروباتيس الخارج عن طاعتنا هي التي يجب ان تكون لها مصر .. وفي هذا دليل الضعف الذي يحمل زينب على الامعان في الطمع ، والاسترسال في الاستهزاء .. فتمضي في شأنها كأن القيصر غير موجود ! !

والعيون التي جعلتها على القيصر وعلى جنود القيصر في الشرق ، اي ان اولئك الرجال المخلصين المنتشرين في الأقاليم يحصون انفاس الرومان ، وهم الذين يحملون اليها الاخبار ، بعد زمن قصير يستريح في خلاله جيشها الغازي

وليس من حاجة الى القول ، أنها تؤثر رضى الرومان ونومهم على فتح مصر لتغزو بيطينية بقلب كبير وضمير مطمئن ، على ان يثور ثائرهم فتغزوها وسيوفهم تلمع في الفضاء ، ورماحهم مشرعة لترسل الى صدور رجالها العرب

وقد مضت شهور ، لم تسمع فيها شيئاً ، عن حروب القيصر في الأقاليم الثائرة على عرشه ابسم له الحظ ام خانه ، الا ما كانت تسمعه من نائبه الكذاب

أي ان ذلك النائب كان فخوراً بسيده الى حد انه نشر في جميع الأقطار اخبار ظفره العجيب في ساحات القتال .. على شواطئ الدانوب ، وبين صفوف البربر ، وفي كل ميدان تدوسه حوافر جواده .. ! حتى قام في اذهان الناس ، ان كلوديوس قيصر سيستريح بعد سنة من جميع الخوارج الطامعين بالسلطان . وحتى رسخ في نفوس القوم ان هذا القيصر العظيم سيمد رواق السلام فوق اقاليم روما . فيتنفس الناس بعد ذلك الاختناق ويلجأ الجندي الى بلده بعد ذلك الهجر الطويل الذي ليس له آخر

أجل . كان الجندي الروماني يترك بلده ليحمل السيف وهو في زهرة العمر ، ولا يعود اليه الا والشعرات البيض تتلألأ في رأسه !وهذا معناه ، ان ذلك الزمان كان زمان العجائب في كل شيء .. نعم في كل شيء .

* * *

مرت شهور . وزينب لا تعلم ايعترف لها القيصر بحق الفتح ام يرسل جنوده لاسترجاع مصر الى احضان الرومان

وكلما سألت والي فينيقيا عن اخبار مولاه أجابها قائلاً : ان مجلس الشيوخ في روما لا يعبأ بغير بشائر الظفر يبعثها الي من حين إلى حين .

فرأت ان تكف عن ذلك السؤال وانصرفت الى الطواف في الاقاليم تلمس بيدها حاجات الناس ، وتسمع بأذنها شكوى الضعيف المستسلم الى القوي ، وصراخ المظلوم الخاضع لعنت المستبدين ..

في دمشق .. ثم في فلسطين .. ثم في صور وصيدا وبيروت وجبيل .. ثم في بلاد العلويين وفي حمص .. لا تجدها على شاطئ البحر حتى تراها في رؤوس الجبال .. على عجلتها المذهبة او على ظهر الجواد .. مع ولدها تيم الله وقائد حرسها معن بن حمدان ، وطائفة كبيرة من عبيدها والحجاب

نعم . ان الملكة الحسناء المتمرغة في جميع صنوف الدلال والعز تستطيع عندما تشاء ان تنام على الأرض .. في ظلال الصخور وفوق رمال الوادي .. في خيمة صغيرة او تحت شجرة ، وان تقوم كما قرأت على حراسة رجالها في الليالي السوداء ..

لقد كانت انثى في عطفها على انجالها الأمراء ليس غير .. واما في البسالة والصبر والجرأة والأقدام ، فكانت رجلاً بل أعظم واشد واكثر احتمالاً من جميع الرجال

انتهى طوافها في حمص ، وفي حمص فاجأتها الذكرى المؤلمة ، ذكرى

الفقيدين الكبيرين اذينة وهيروديس . الراقدين في ظاهر المدينة . وقد جلست ساعتين طويلتين في تلك القاعة التي يغطي جدرها السواد . حيث قتل الاثنان . ومرّ بذهنها مشهد القتل الرهيب كما جرى وكأنها تراه ! حتّى خيل اليها أن الشفرتين اللتين غاصتا في القلبين تبرقان في فضاء القاعة . وأنها ترى الجثتين الغارقتين في الدماء. ووراءهما ذلك اللسان الناري ترسله عينا الفتى الثائر معني بن خيران

وكانت وحدها والأبواب مغلقة .. فجعلت تخاطب الضحيتين همساً .. وشفتاها ترتجفان .. ووجهها اصفر .. ثم ارسلت الدموع من عينيها تمزجها بدم اذينة وهيروديس .. وفي تلك الساعة ايضاً كانت امرأة .. وعندما افاقت من ذهولها . قالت مذعورة.. فخرجت من القاعة الى الرواق تنحني لها روؤس القوم وفاجأت معناً بقولها : نزور قبر الملك وولده ثم نترك حمص ..

وأومأت الى تيم‌الله بان يتبعها كأنها لا تريد البقاء في ذلك القصر ساعةً واحدة . ان احشاءها كانت تلتهب ، ونفسها الكبيرة تصارع الألم والكآبة والاضطراب ..

غير ان الأمير الصغير تيم‌الله لم يتبع أمه . بل اندفع إلى داخل القاعة وهو يبكي وينادي أباه ..

فعضت الملكة على شفتها وأمرت به فأحضر فقالت له والناس يسمعون :

من علمك البكاء يا تيم‌الله ؟..

فشهق الأمير قائلاً : هذا .. ووضع يده على قلبه ..

فابتسمت بمرارة وهي تقول : ولكنه قلب ملك ..

فقال والدموع في عينيه : ان تيم‌الله ابن اذينة يبكي أباه الآن . وسيعرف عندما يصبح ملكاً ، كيف يمسح دموعه ..

فمشت دون ان تجيب .. وهي تذكر وهبلات المريض الذي سيصرعه الداء وتقول في نفسها : سيجعلك القدر القاسي ملكاً يا بني ..

وتقدمت الموكب بحزن هو العظمة والجلال . وعجلتها المذهبة وافراس رجالها تتبع ذلك الموكب من بعيد .. حتى وصلت الى الكثيب ، الى ذلك القبر الذي يعانق فيه الوالد ولده .. فوقفت قليلاً .. ثم لما رأت ان ركبتيها ترتجفان ، جثت على الرمل وحنت رأسها لعظمة الموت .. وأطرق القوم وساد السكون ..

وبعد لحظة ، رفعت الملكة رأسها ووضعت يدها على جبين تيم‌الله وتمتمت قائلةً : صدقت يا بني .. انك لست ملكاً .. فابكِ الان ما طاب لك البكاء !

فاستسلم الفتى الى عاطفته .. وارسلت الصدور الزفرات .. اما ابن حمدان فكان صامتاً ، لكن ذلك الصمت كان ابلغ من الدموع ..

وأما زينب ، فلم يسمع الناس ذلك الحديث السري الذي افضت به شفتاها المضطربتان .. بل رأوها تخاطب التراب همساً .. ! وتنصت الى همس آخر يبعث به اليها زوجها الراقد في جوف الأرض .. حتى بلت دموع الباكين ذلك الرمل الملتهب ، فنهضت المرأة الضعيفة لتصبح – من جديد – رجلاً ، وتخلع عنها ثوب العاطفة البشرية لتلبس درع القسوة والحرب .. نهضت .. وهي تحمل حفنة من التراب تضعها في وعاء من الذهب عن يمين العرش التدمري ..

ونظرت إلى القبر نظرتها الأخيرة ، ثم ركبت فرسها تريد تدمر وهي تفكر في .. قيصر .. أجل . انها عندما جثت على ركبتيها تخاطب زوجها البالي ، كانت تهمس في أذنه قائلة : سأرفع بنيك يا اذينة الى عرش الرومان ..

* * *

لم تشأ ان تدخل عاصمتها دخول ملكة تكتنفها مظاهر العز ، بل أرادت ان يكتنفها في دخولها الصمت والهدوء . ويحجبها الليل عن العيون . غير أنها لم تصل الى البلاط ، حتى تناقلت الغلمان والجواري خبر وصولها الفجائي فبادر العلماء والقواد والشيوخ إلى قاعة الجلوس ليسجدوا لحفيدة الالهة ويلثموا يديها المقدستين

وكانت في تلك الساعة مستندة الى سرير ولدها وهبلات . تنظر اليه بعينين طافحتين بالدمع ، وقلب تسوده عاطفة الشوق والحنو .. اجل ، وكان عليها أن تنظر في أمر المريض الذي يذيبه الداء قبل ان تنظر في أمر الملك الجالسة على عرشه

وهي ترى الموت يمشي إلى وهبلات كما تمشي السلحفاة . ثم لا بد له من أن يصل فيمد يده اليه كما مدها الى أذينة وهيروديس وينتزعه من يديها كما انتزعهما من أيدي الحراس والانصار

وكأنها نسيت نفسها وهي تتفرس في وجه فتاها النائم ، فدخل ابن حمدان وهمس قائلاً : ان رجال الدولة ينتظرون مولاتنا الملكة .

فأجابته قائلة : كل من ملّ الانتظار فلينصرف

فقال : لم يملوا يا مولاتي ولكنهم يريدون ان يعرفوا اذا كانت الملكة تأذن لهم في البقاء .. فلم تزد على قولها : ليبقوا

فعرف ابن حمدان ان فؤادها يتفطر لوعة واشفاقاً . فخرج وهو يدعو لوهبلات

وبعد قليل استيقظ الملك ، فجعل يحدق بذهول الى امه . على عادته كلما فتح عينيه . ثم مدّ يده يلمس جبينها وخديها وعنقها واطبق جفنيه كأنه في حلم وقد استلذ ذلك الحلم . فرفعت زينب عينيها الى العلاء كأنها تسأل السماء ان تحرس وهبلات ثم غادرت غرفة المريض الى القاعة التي ينتظرها فيها القوم ودخلت وهي تبتسم لأولئك الأنصار المخلصين

قبل ان تترك الملكة تدمر ، جعلت أباها زباي نائباً لها . في كل شأن من شؤون الملك . وأمرت رجال البلاط بان يكونوا اعواناً له في الرأي

فلما جلست بين القوم خاطبتهم قائلة : نعرف عن احوال الدولة اكثر مما تعرفون ولكن نسألكم عن تدمر ..

فأجابها زباي قائلاً : ان تدمر تجرّ اذيال النعمة بفضل الملكة

قالت : وماذا تعرفون عن الرومان ؟

قال : أما القيصر الجديد فلم نعلم عنه شيئاً

فقالت دون ان تظهر على وجهها دلائل الاستغراب : القيصر الجديد ؟

— : نعم ولم يذكر لنا اسمه من قبل ..

فالتفتت إلى زبدا قائلة : ما هذا الذي اسمعه أيها القائد ؟

قال : مات كلوديوس يا مولاتي وخلفه قيصر آخر

— : نرى الموت يتخطف القياصرة واحداً بعد واحد .. من هو هذا القيصر ؟

— : يدعوه والي فينيقيا اوريليان ..

فجعلت ترددّ هذه اللفظة وهي تفكر .. ثم قالت :

أليس في تدمر من يعلم ماضي هذا الرجل ؟

وكان لنجينوس سيدالعلماءفيالقوم.فقال: إذا أرادتالملكة ذكرت لهاما اعرفهعنه

قالت : أرأيت وجهه يا لنجينوس ؟

— : لا يا مولاتي ولكنهم كانوا يذكرونه لي في اثينا كما يذكرونعظماءالقواد

قالت : من أي بلد هو ؟

— : مسقط رأسه قرية صغيرة من قرى بلاد يانونية ..

— : اتعرف أن تنسبه ؟

فقالت لرجالها : ان الفتى الضعيف الخامل الذي يخرج من احدى القرى ليجلس على عرش القياصرة هو اكرم الناس اصلاً واشرفهم نسباً ، ولكن كيف استطاع ان يلبس التاج الروماني الذي تحدق اليه عيون الأشراف والقواد. قل يا لنجينوس

قال : نشأ جندياً مثل جميع الجنود .. — : نعم .

— : وكانت حياته قبل ان يحمل السيف حياة رجل لا يستلذ العيش الا في الجبال يصيد السباع .. وروما .. نعم يا مولاتي ان روما لا تعبأ الا بالرجال الأشداء ترفعهم إلى عرشها دون ان تنظر الى الأنساب

— : أصبت فمعظم القياصرة لا يعرف الناس لهم نسباً .. وبعد ذلك ؟

— : أصبح الجندي قائد مئة ثم قائد الف ، ثم قفز الى القيادة الكبرى مستخفاً بالاخطار التي عرضت له ، ومن رتبة القيادة وثب كما يثب النمر الى العرش ..

ثم قال : وهو اصلب الرومانيين عوداً وانفذهم قولاً ، واصدق القواد رأياً وابعدهم نظراً . ولكنه قاسٍ لا يعرف الرحمة ولا يلين لضعيف

قالت : انك تصف الرجل كأنك تقيم في بلاطه

— : لقد أبلى في حرب الخوارج بلاء طيباً فتناقلت الأفواه اخبار ظفره ووصفه الناس كما اصفه للملكة الآن .

وقد أصاب لنجينوس في ذلك الوصف فان اورليان كان جندياً جافاً وحشي الخلق لم يقم قبله على عرش الرومان ملك اصعب مراساً واشرس طباعاً منه

والناس في روما المقربون اليه من رجال البلاط واركان الملك والنبلاء لمنفردون بأمورهم الذين يؤثرون العزلة على الأقامة في البلاط . وافراد الجيش الذين قضوا حياتهم كلها في ساحات الحرب ، جميع هؤلاء الناس كانوا يعرفون خشونة القيصر الخامل الأصل فلا يعرضون له في شيء الا إذا سألهم . وهم راضون بالطاعة العمياء يظهرونها له في كل ما يندبهم اليه من شؤون الملك .

وقد تجد بينهم من يكره الرجل ويتمنى ان يموت ، ولكن الويل لمن يتصدى لاورليان او يفكر في خصومته .. ان الموت ضرباً بالسوط جزاء له .

وكان الدم المهراق ، في السلم وفي الحرب ، احب شيء الى القيصر حتى انه لم يكن يأنف قط من ذبح عدوه بيده ومن ان يكرع في دمه . وهو الوثني المتعصب السفاح الذي ينحر النصارى المساكين لاصنامه ويجثو كل يوم أمام آلهته ويداه مخضوبتان بدماء الابرياء .. حطموا مسيحهم .. واهدموا معابدهم .. واذبحوا

نساءهم واطفالهم وبقرهم واغنامهم ولا تبقوا على بهيمة واحدة من بهائم الأنذال المسيحيين .. ذلك هو أول امر خرج من فم القيصر المبارك بعد جلوسه على العرش .. فحصد السيف اولئك الضعفاء في الأقاليم الخاضعة لقيصر ، ولجأ الذين استطاعوا الفرار الى البلاد الخافقة فوقها اعلام زينب

وكان اوريليان يقول لأهل مشورته : لا أرفع شأن الملك حتى ارفع شأن ديني واضع السيف في رقاب المسيحيين الهازئين بالاصنام ..

وهكذا فعل ، أجل هكذا فعل لا تثنيه عاطفة ولا يمنعه وجدان

٣٦

ليثب إلى العرش في كل يوم واحد من اولئك الرومانيين الطامعين بالسلطان . إن هذا لا نعبأ به وليس من شأن الملكة ان تنظر إلى الأشخاص

لنا بعرش الرومان غرض لا يغيره الزمان هو ان نحطم هذا العرش ونسحق رأس الجالس فوقه سواء أكان كلوديوس او اوريليان او رجلاً آخر . ولم يبق امامنا غير خطوة واحدة وينتهي الأمر .. اعطونا كتاب نائب القيصر لنتبين غرض الرومان من خلال السطور .. أين هو الكتاب يا زبدا ؟

فقام ابوها فناولها اياه وهو يقول : لقد اعترف اوريليان بما لم يعترف به كلوديوس

فلمع الفرح في عينيها الصافيتين وقالت له : ماذا ؟..

قال : ان القيصر الجديد يهب للملكة مصر ..!

— : أيحسن الينا الرجل من مالنا ؟ لقد اشترينا مصر بدماء الرجال

— : أليست غاية الملكة ان يقر لها الرومان بحق الولاية ؟

— : بلى ، ولكن الهبة غير الأقرار .. ثم اعادت اليه الكتاب دون أن تقرأه

— : الا تريد الملكة ان تقرأ ؟

— : نحن أعظم من ان نقرأ عبارات الاحسان .. خبرنا ما جاء فيه

فلم يشأ والد الملكة ان يثير غضبها بكلام لا تطيق ان تسمعه ، فقال : ينقل اليك نائب القيصر بشرى جلوس مولاه على العرش

— : انها بشرى تقوم وتقعد لها تدمر .. حدثنا بما يذكره عن مصر .

— : ويعترف بلسان مولاه ان زينب سيدة أرض فرعون لها مالها وجندها وخراجها وكل ما فيها

فازداد وجهها اشراقاً .. ثم قال : وهناك شيء آخر اعظم من هذا ..

قالت : هات .

قال : وأمر القيصر بان تضرب النقود في الاسكندرية باسم ملكنا وهبلات ولولا عزة الملك . بل لولا تلك النفس الكبيرة التي لا تستهويها الأمجاد لرأيت دموع الفرح في تينك العينين الكبيرتين .. ولكن زينب تستطيع ان تخفي عاطفتها وراء مظاهر الهدوء والكبرياء . فأجابته قائلة : باسم وهبلات وحده ؟

فتردد في الجواب اولاً ثم قال : لا ادري اذا كانت هذه النقود تحمل ايضاً اسم زينب

فابتسمت وهي تقول : ان اسم وهبلات معناه اسم امه ولكن .. ثم اطرقت تفكر

قال : ولكن ماذا ايتها الملكة ؟

فرفعت رأسها قائلة : ان للنقود وجهين .. — : نعم .

قالت : وجه عليه صورة وهبلات واسمه واما الوجه الآخر فعليه صورة أوريليان . أليس كذلك ؟

— : لا . ان القول صريح في هذا ، على احد الوجهين صورة الملك . واما اسمه فعلى الوجه الآخر وليس للقيصر لا اسم ولا صورة ..

— : ذلك اغرب ما سمعنا ايها الناس ..

فنظر القوم بعضهم الى البعض الآخر وهم لا يعلمون ماذا عنت الملكة بذلك القول .. أما هي فكانت تبتسم ابتسامة الواثق بنفسه

ثم قالت : اترضون بان يهزأ بكم هذا القيصر الجديد ويستخف بتدمر ؟

فقال زبدا : بماذا يا مولاتي ؟

قالت : بضربه النقود التي ذكرتم ..

قال : لم نجد في ذلك هزءاً ..

قالت : أما نحن فقد رأينا الهزء بكل قوته .. ومع ذلك فلا نجد ما يمنعنا من الأعتراف بأن اوريليان ادهى القياصرة الذين تقدموه ، ألم يقل في كتابه ان الولاية في مصر هي لزينب ؟ — : نعم .

— : وان خراجها يرسل إلى تدمر وليس لروما منه درهم ؟ — : نعم .

- : إذن فزينب ، بحكم الفتح وحكم هذا الأقرار الذي اصدره القيصر منفردة بأمر ذلك البلد الذي فتحه قائد تدمر ، لا ينفذ في مصر امر إلا أمرها وليس لصاحب التاج الروماني ان يعبث بالحق كلما طاب له العبث والاستخفاف

فهم بالجواب فأومأت اليه بالسكوت قائلة :

ان المالك لا يستطيع القيصر ان ينازعه ملكه الا بحد السيف ، وقد عرفتم أن زينب لا تخضع الا للقوة .. فمصر لنا .. ونحن نعرف ان نضرب فيها نقوداً باسم من نشاء ، كما ان من حقنا ان نمنع ضرب هذه النقود ساعة نشاء !

اسمعوا ماذا صنع القيصر .. قال : خذوا مصر أيها التدمريون فهي لكم لكنه في الوقت نفسه يأمر مصر بان تفعل ما يطيب له كأنها له ! وكأنه يقول :

أما المال فهو لكم وأما السيادة والسلطان فهما لقيصر .. ثم رفعت صوتهاقائلة :

وانتم تظنون أن اوريليان يريد ان يصافح الملكة ويقرها على العمل الذي قامت به قبل ان يصير ملكاً ! انك يا اوريليان اضعف من ان تعبث بتدمر وزينب على العرش . وعادت إلى هدوئها فقالت لزبدا : اننا نوجه اليك هذا الكلام يا فاتح مصر . اترضى بان يستثمر القيصر سيفك ويستعيد بدهائه ونعومته تلك السيادة التي كانت للقياصرة قبله . في بلدٍ سقت رماله الحارة دماء اخوانك العرب ؟

فلم يجب ..

فقالت : أنترك القيصر الان يضر ب نقوده .. ثم نتركه غداً يرسل جنوده .. ثم ننام بعد ذلك على سياسة اللين التي افتتح بها عهد ملكه ؛؟

-:لا يا مولاتي.لا.ان الدم الغالي الذيبذلناه لانتخلىعنه لرجال الرومان

ودبت نخوة العرب في الصدور فقال القواد : لا نرضى بان تكون للقيصر يد في مصر . وقال الشيوخ : ستكون النقود التي يضربونها هواناً لنا وذلاً .

ثم قال العلماء : لتكتب الملكة الى والي مصر تمنعه من ذلك

أما هي فأجابتهم قائلة : بل نكتب اليه نأمره بان يفعل .. إن اوريليان لم يشأ الا أن يكون من المحسنين ، ولكن من هو يا زبدا عاملنا في الاسكندرية

قال : العمال جميعهم في ذلك الأقليم من رجال فيرموس

قالت : وهل يكتب القيصر الى رجل ليس من عماله ؟

- : قد يكتب الى الوالي نفسه

- : سنرى إذا كان هذا الوالي يطيع روما .. لقد عدلنا الان عن الكتابة اليه

وسنصبر ريثما ترد علينا اخباره

— : واذا بعث يُسأل الملكة عن هذا ؟

— : إذا ضربت نقود وهبلات ولم يسألنا عزلناه..واذا فعل فوضنا اليه الأمر

— : وعندئذٍ يعلم القيصر ان أمره لم يكن شيئاً ..

قالت : وهذا الذي تريده الملكة ..

ثم قالت : أنسيت ان هنالك امراً آخر يحمل لنا العار ؟

— : ما هو ؟

— : كان عليكم انتم رجال الرأي والحرب ان تعرفوه

فقال لنجينوس : ان ما تراه الملكة لا نستطيع نحن أن نراه

— : ألم ينظر احدكم الى نقود تدمر ؟

قالوا : ومن في تدمر لا يعرف هذه النقود .

قالت : وماذا رأيتم ؟

فقال ابن حمدان : أما أنا فقد رأيت عليها صورة القيصر ..

— : ومعنى هذا ؟ — : معناه ان لتدمر صنفين من النقود .

فبرقت عيناها وهي تقول : احسنت يا ابن حمدان فامضِ في قولك ..

قال : ان تدمر دولة مستقلة في ظل الملكة . — : نعم .

— : وهي دولة الشرق الكبرى كما دعاها اذينة الملك

— : صدقت

— : ولهذه الدولة . من الفرات الى بحر الرومان ومن اطراف آسية الى نيل مصر نظام واحد وراية واحدة كما ان لدولة الرومان راية ونظاماً

فاستوت الملكة في مجلسها تصغي الى قائد الحرس

أما هو فاستطرد قائلاً : ولكل ملك نقود تحمل اسمه أما نقود تدمر فتحمل اسمين في جانبهما صورتان احداهما صورة القيصر والاخرى صورة وهبلات

ومصر اقليم من اقاليم الشرق خاضع للملكة غير ان نقوده لا تحمل غير صورة وهبلات وحده .. — : إذن ؟..

— إذن فللدولة الواحدة التي تسودها شريعة واحدة نوعان من النقود تتداولهما الأيدي وهذا لا يكون ..

قالت : انك صادق الرأي بعيد النظر يا معن ..

قال : اني افكر في هذا يا مولاتي ولا اطيق ان يفضح القيصر تدمر .

— : وماذا ترى الآن ؟

— : أمامنا واحد من امرين ايتها الملكة أما ان تجعلي نقود مصر صورة عن نقود تدمر واما ان تمحي صورة القيصر عن هذه

— : واذا لم نفعل ؟

— : يقول الناس علينا ما طاب لهم التقول والكذب

قالت : سيقولون ان القيصر اذن لزينب في ضرب النقود باسم ولدها الملك وابقى نقود تدمر كما هي .. ان الملك الذي يتصرف في نقودنا لا يلبث حتى يتصرف في رقابنا .. وهذا لا نرضاه .. سنمحو اسم القيصر يا ابن حمدان .. ولكن . الويل لفيرموس إذا لم يكتب الينا

فقال زبدا : أما فيرموس فلا بدّ من أن يجيئنا رسوله لانه يبغض الرومان واما صورة القيصر فانك تحسنين الى اوريليان في محوها لانها صورة كلوديوس

قالت : ان كلوديوس في القبر والملكة لا تعرض لسكان القبور .. سننتظر ريثما تظهر صورة القيصر الجديد ..

قال : تلك هي الحرب يا مولاتي .

فضحكت قائلة : ان زمن السلم قد انقضى الان وسنخطو الخطوة الاخرى التي تنتهي بنا الى روما ولكن ، سنلبس للدهاء عدته كما يفعل صاحبنا ونصبر حتى ترد علينا رسائل السفراء والعمال

ونهضت والغضب في وجهها وهي تقول : إذا استطاع اوريليان ان يجعل نفسه سيد روما ، فستستطيع زينب ان تجعل نفسها سيدة العالم

وبعد خروجها طلقت وجهها دلائل الغضب .. ان الأمبراطور اوريليان الذي لم يزل لزينب عنه انه نصف إله كان في نظرها من اضعف الناس . ولم لو يكن ضعيفاً لما بادر إلى الاعتراف لها بالسيادة في مصر بعد حمله الصولجان ..

كان عليه — على الأقل — ان يتردد في الأمر بصفته الملك الاكبر كي لاتستخف به . ولكنه فعل غير مختار ، لان الذعر استولى عليه كما استولى على القيصرين اللذين تقدماه ، وأوحت اليه نفسه المضطربة بأن يظهر رضاه عن ذلك الفتح الذي اقدمت عليه دون ان تستشير احداً . اذن فقد دنت الساعة التي تخرج فيها من وراء الحجاب .. وتدوس بقدميها جثث القياصرة وقواد الرومان الذين يحولون

بينها وبين العرش ! ! وقد فات زينب ان الخبث والدهاء هما اللذان اوحيا الى الأمبراطور بذلك الأعتراف . نعم لقد سمعتها تقول لرجالها ان اوريليان ادهى القياصرة الذين تقدموه ولكنها اظهرت غير ما تعتقد . ولم تكن تؤمن قط بان عنده شيئاً من الدهاء وهو الذي رضي بان تفلت مصر من يده

وثبة اخرى ايتها الملكة وينتهي الأمر .. اضربي بيثينية .. واملكي اسية الصغرى كلها .. من الجنوب والشمال والغرب والشرق .. واطلقي اسود تدمر بعد ذلك على اسوار روما فتهوي تحت ضرباتهم تلك الأسوار .. ويجثو على قدميك رب العرش الروماني ليناولك تاجه الذي حطم التيجان وهزأ بالاجيال .. !

وثبة اخرى .. فتخفق راية تدمر فوق اقاليم الرومان . ويسقط النسر الروماني من سمائه مستسلماً الى الأسد العربي فيرتفع الهتاف من جميع اقطار العالم .. تعيش زينب .. تعيش حفيدة كلوبتره .. ! وتمجد اسمك قبائل العرب . وطوائف اليهود .. وجموع الأرمن .. وشعوب اليونان .. وتنحني لذكرك المقدس .. رؤوس ملوك الفرس .. وبقايا الفراعنة واحفاد الفينيقيين

نعم يا مولاتنا الملكة .. اسفحي الدماء .. ومزقي الاشلاء .. واجعلي اجساد الأطفال والنساء سلماً تصعدين فيها الى السماء .. ان العالم كله اضيق من أن يتسع لاطماع تلك النفس الثائرة الوثابة في صدرك الملتهب .. يا ايتها الشعلة السماوية التي تنير الظلمات .. يا لؤلؤة الزمان وفتنة الأجيال .. يا زينب .. يا بنت المشتري .. نحي الكواكب عن عروشها .. والنجوم عن افلاكها . وارتقي وحدك في نعيمك الخالد بين يدي العلي الذي ارسلك الى العالم هدى ونوراً ..

يا مولاتنا الملكة . ازجري العاصفة الهوجاء فتهدأ .. والطبيعة الثائرة فتخضع .. ومري السيوف بان تحصد المخلوقات العاصية والرؤوس المتوجة ان للأرض كلها تاجاً واحداً لا يستقر هذا التاج الا على رأسك الحي الذي لا يموت ..

وأغمضت الملكة عينيها وغاصت في بحر من الأحلام ..

* *

انها أيام وانقضت ، والزمان كله ، يمر كما يمر السحاب .. وبينا الملكة تنتظر أخبار مصر اقبل رسول فيرموس على البلاط . صباح يوم جلست فيه زينب للناس .. ان فيرموس كما قال زبدا ، لا يحب الرومان . وهو لا يطيع إلا الملكة التي جعلته سيد البلاد . واي شأن له مع روما ؟ ان التدمريين هم الفاتحون . وهم المرجع الذي ترجع اليهم مصر ، في كل ما يعرض لها من أمور .

فلما انتهى اليه كتاب القيصر الذي خاطب فيه عامل الاسكندرية استشار تيماجين قائد جيشه فيما يصنع ، ثم طوى الكتاب وبعث به وبكتاب منه مع رجل من خاصته الى تدمر ، لتقول زينب كلمتها فيه ..

وأنت ترى ان فيرموس وعامل الاسكندرية لم يأتيا شيئاً جديداً في اهمالهما أمر القيصر . لأن ذلك القيصر ، بحكم النظام ، ليس له عليهما سلطان

وهما يعلمان ان تدمر وحدها اخضعت مصر . ولم يكن لجيش الرومان يد في هذا الاخضاع .. وكان الرسول مصرياً لا يعرف زينب .

فلما مثل بين يديها قالت له وهي تتجاهل الأمر : ماذا يريد مولاك ؟

قال : يسأل الملكة سؤالاً مكتوباً في رسالته

قالت : وكيف تركت مصر ؟

— : كل من في مصر يهتف للملكة

— : وجماعة الرومان الباقية فيها ؟

— : لم يرتفع لأحدهم بعد الفتح صوت لانهم ليسوا من رجال الحرب

— : وأي الاثنين احب اليكم انتم المصريين ؟ زينب ام قيصر ؟

فتردد لحظة ثم قال : ان حياة مصر في ظل الملكة راحة ورخاء

قالت : اصادق أنت أيها المصري ؟

— : نعم يا مولاتي وفيرموس خير الولاة ..

قالت : واذا جاءكم قائد روماني ونثر ذهبه على أقدام الزعماء والنبلاء فماذا تصنعون ؟ — : لا نبيع هناءنا بذهب الرومان

— : ولكنكم فعلتم ذلك من قبل ..

قال : كان بروباتيس حياً وكنا نخافه ..

وانتم من عشاقه ..فسكت المسكين وتلعثم لسانه ..

ثم رأت أن تفضح أمر رسالته لتظهر له ان الملكة تعرف كل شيء فقالت له :

الويل للمصريين اذا خانوا بعد اليوم .. ان النيل سيكون قبراً لهم ..! نعم سيكون النيل قبراً لهم ..!

ولم تنتظر جوابه فقالت : ما هي رسالة مولاك ؟ أيريد ان يسألنا رأينا في قضية النقود التي أمر بها اوريليان ؟ فحدّق اليها الرجل وقد تولاه الذعر ان رسالته لم يطلع عليها احد قبل دخوله فكيف استطاعت الملكة ان تقرأها وهو يكتم خبرها عن نفسه ؟!! لقد قيل له في مصر أن زينب ساحرة فلم يصدق وهذه هي الان تريه بالدليل الجلي كيف يكون السحر ..

قالت له ذلك وهي تبتسم ورجالها يبتسمون . ولما رأت انه لم يجب اعادت عليه السؤال فقال : نعم يا مولاتي هي قضية النقود التي ارسلني لأجلها مولاي

قالت : خبرنا اذن ما رأيت وما سمعت

ــ : بعث عامل الاسكندرية الى مولاي كتاباً ورد عليه من قيصر يأمره فيه بان تضرب النقود باسم الملك وهبلات

ــ : ان الملكة تعرف هذا .

ــ : فدعا اليه قائد جيشه ورجال رأيه واطلعهم على الكتاب ثم قال لهم : ليس لنا ان نضرب نقوداً باسم احد قبل ان تأمر الملكة . ان اوريليان لا يملك حق الأمر والنهي في مصر .. وهكذا اوفدني الى تدمر وانا احمل رسالته ورسالة القيصر التي ذكرت

فقالت لزبدا : خذ الرسالتين أيها القائد واحتفظ بهما

ثم قالت للرجل : اذن فمولاك لا يفعل شيئاً قبل ان نأمره بفعله

ــ : نعم

ــ : إذا كان هذا فسنأمره بضرب النقود .. أيقوم في ذهن فيرموس أن امبراطور الرومان يقدم على الأمر الذي ذكرت دون ان يستأذننا فيه ؟

ــ : مولاتي ..!

ــ : اتستغرب أيها المصري عندما يقال لك ان القيصر لا يحدث في مصر حدثاً إلا بأمرنا ؟

ــ : وكيف استغرب وانا ارى اقاليم الرومان تستسلم إلى الملكة وان القيصر

نفسه سيكره اخيراً على هذا الاستسلام

– : ان هذا القيصر في نظركم ايها المصريون قوة خفية قادرة منهاالحياةوالموت

– : لقد كان ذلك يا مولاتي ..

فقاطعته قائلة : قبل ان تتذوقوا لذة المال يمطركم أياه بروباتيس !!احسنت ان الماضي مضى فاحذروا ان تعيدوه ، وقل لتيرموس ان يضرب نقود الملك فتلك إرادتنا امليناها على القيصر ، وسترون بعد قليل صورة وهبلات وصورة أمه على نقود تدمر

وأمرت لنجينوس بأن يكتب هذا إلى عاملها في مصر . ثم قالت لوالدها زباي اعطِ هذا المصري بضع بدرٍ من المال يستعين به على قضاء الحاجات

وصرفت الرجل وهي تقول: لا تنسَ انك تحمل لمولاك رضى الملكة ووثوقها به وعادت إلى رجالها تحدثهم بشؤون الرومان

وظلت الأيام تمر والدنيا تدور .. تدور دون ان تهدأ او تستريح ، وسياسة اوريليان الخامل النسب ! تخرج من وراء الستار بوضوح وجلاء كأنه أراد – وهو امبراطور الرومان ، وسيد العالم – ان يلعب على المكشوف ..

انه ذو نفس كبيرة تشبه نفس زينب . وذو ارادة هي الحديد او اصلب منه ؛ وحول عرشه طوائف من الناس لا تعد في ايديها السيوف تحمي بها رب العرش . البحر ميدان لسفنه .. والبر مجال لجنوده .. بل هما عبدان من عبيده .. فلا يليق برجل هذا شأنه أن يخفي سياسته وراء حجاب من الخبث والرياء ..

وكل شيء يحدث في روما لا تلبث اخباره حتى تملأ بلاط زينب . تحملها اليه اجنحة السحب واكف النسيم . الجواسيس ..! انهم في روما وفي تدمر . في بلاط الأمبراطور وفي بلاط الملكة ،وفي كل بلدٍ بين العاصمتين تنزل منهم الفرق والجماعات .. هؤلاء يحصون انفاس زينب رئيسهم والي فينيقيا . والاخرون كما عرفت – يحصون انفاس القيصر ولا رئيس لهم . وكلا الاثنين ، اوريليان وزينب يعرف ان الكلمة التي تلفظ بها شفتاه وراء الجدران ، تتناقلها أفواه العامة في العاصمتين بعد قليل .. ان الجاسوسية ليست اختراعاً حديثاً .. انما كانت رفيق الانسان عند خروجه من العدم وسترافقه حتى يرجع اليه .

وكانت زينب ، على اثر جلوس اوريليان على العرش قد اوفدت «خادم الملكة

الذي اعجبت بذكائه ، الى بلاد الرومان ، يتبين أمر الأمبراطور ويتفحص عن احواله . وقد انقضى العام الأول ، عام ٢٧٠ والقيصر يولي العمال من انصاره ويعزل اتباع كلوديوس ، في الأدارة وفي الجيش ، في البر والبحر . لأنه لا يستطيع ان يعيد دولته الى القمة ، الا اذا وثق بالأيدي التي ستحمل معه السيف

ومثل اوريليان لا يتعجل في أموره ، فاقاليمه في الغرب تسودها الثورة والاضطراب . والشرق كله بقوة زينب يخرج عن الطاعة ويدوس اعلام الرومان

وكان يعلم ، وهو فتى الحرب ، انه عندما يخوض المجال يصعب عليه الخروج منه الا بواحد من امرين . اما بالنصر الذي يستعيد به عزّ دولته . واما بالفشل يموت بعده نفوذ روما إلى الأبد . واوريليان يرى ، ما كان يراه كلوديوس . وما رآه غاليانوس فيما يعني زينب .. يرى الملكة الجبارة تستخف بالقياصرة وتمد يدها الى تاجهم وتمشي بخطى واسعة الى العرش الأكبر لا تعبأ بشيء ..

ذلك في الشرق .. أما في الغرب فثورة اخرى لا تخمد نارها ولا تهدأ سعرّها قائد روماني يدعى تريتيقوس . تغلي الأطماع في صدره . وتستهوي نفسه العظمة والأمجاد .. ولكنه اضعف من زينب .. أجل . وليس من العدل ان نقول . ان رجلاً كانت له في ذلك الزمان قوة تلك المرأة وطموحها وشغفها باسباب الرفعة والعلاء . غير انه استطاع ان ينفرد بأمره ويجعل له دولة واسعة الحدود كثيرة الأقاليم ، تخفق في فضائها راياته الخاصة التي ليس عليها أثر من آثار النسر الروماني ، علم الرومان الظافر . وكان في اول عهده ، يعترف برئاسة القيصر اعترافاً وهمياً هو الدهاء .. ثم غالى في الانفراد فأنكر تلك الرئاسة وعدّ مولاه شريكاً له في السلطان وفي ادارة شؤون الملك .

إذن فعلى اوريليان ان يستريح من الاثنين .. من هذا الخارجي ومن زينب .. لانه لا يطيق ان يرى له شركاء في الحكم . وهنالك قوى اخرى يجب ان تسحق كما قرأت ، هي قوى القبائل الغازية النازلة على ضفة الدانوب . والأمر الذي فكر فيه كلوديوس فكر فيه اوريليان .. لا زيادة ولا نقصان . يضرب خصومه على الدانوب اولاً . ثم يجمع جموعه ويبرز للشرق فيقضي على الغول الفاتح شدقيه ليبتلع العالم .. ويهدم ذلك الصرح العالي الذي شيدته زينب . فتنام روما بعد ذلك ملء جفنيها ويستقيم لها الأمر .

وثبة اخرى يا مولاتنا الملكة ، يخضع لك هذا الأمبراطور المتمرد العاني الذي

يجدف على السماء ...!!!

* *

انطوى العام الاول والاثنان ، اوريليان وزينب ، يتحفزان للوثوب.. نمر شرس قاس نباه من الفولاذ .. لبؤة ثائرة هائجة مخالبها من الحديد ..

ووراء الاثنين اسود وانمار يتمشى معها الموت . ويا ويل الشرق عندما تتلاطم صفوفها وتتناكر كتائبها في الميادين .. ان الفناء سينشر ظله ويمد رواقه . وستلبس ربوع الشرق الزاهية ، بعد تلك البهجة وذلك الصفاء ، حلة بالية سوداء ..

* *

٣٨

هذا خادم الملكة يحمل لمولاته جميع الأخبار . فما وراءك يا ابن كيليكية ؟

ان زينب لا تريد ان تسمع أقوال الجواسيس .. « الحبة تصبح قبة » والواحد يمسي الفآ وليس من الرآي ان تصغي الملكة الداهية الى كل ما يقال . اذكر أنت كل ما رأيت دون ان تنسى شيئاً او تزيد كلمة ، قل فنحن سامعون ..

وكانت الملكة في قاعة الجلوس وليس فيها غير لنجينوس وكبار القواد .

فقال : ان بالباب رجلاً يقص على مولاتي الملكة اخبار اوريليان

فقطبت حاجبيها قائلة : لقد جنّ الرجل فهو لا يعرف ماذا يقول ..

قال : أنا اليوم يا مولاتي اعقل مني بالامس ..

قالت : ومن هو الرجل الذي ذكرت ؟

— : فتى من فتيان الرومان النبلاء ..

— : أنبيل من نبلائهم يقص علينا اخبار مولاه ؟

— : نعم ويصف لك اوريليان كما هو

— : إذن فهو عين علينا للقيصر ..

— : بل هو عدو القيصر ايتها الملكة

قالت : خبرنا خبره اولاً ثم ننظر في شأنه

— : كان أبوه مستشاراً في البلاط وله الرأي النافذ فيه

ــ : اي انه كان من رجال كلوديوس

ــ : بل كان من اتباع غاليانوس المخلصين له . وقد رأى كلوديوس ان يستثمر اخلاصه فابقاه في القصر ..

ــ : لقد عرفنا الباقي. فان اوريليان لم يتربع في العرش حتى امره بترك البلاط .

ــ : بل طرده طرداً انتهى بموته .. ــ : لماذا ؟

ــ : لأنه لم يكن على دعوته من قبل ــ : وكيف مات ؟

ــ : لم يمت حتف انفه بل ابصروا جثته في اليوم الثاني في نهر التيبر

قالت : كأن الأمبراطور لم يكتف بطرده بل قذف به الى الماء ؟

قال : يقولون إنه انتحر . ــ : وماذا فعل ولده ؟

ــ : ترك روما على أمل ان يضع يده بأيدي خصوم اوريليان وقد اقسم عندما دفن أباه انه لا يعود اليها والقيصر حي

ــ : واين رأيته ؟

ــ : بعد تركي خلقيدون ، فجعل يقص علي حكايته قبل ان يعرف من أنا

قالت : ومتى ترك روما ؟

ــ : منذ خمسة أشهر وهو أخبر الناس بالقيصر واكثرهم اطلاعاً على أسرار البلاط الذي نشأ فيه

قالت : احذر ان يكون الرجل من اتباع الأمبراطور .

قال : ارضى بان يكون جزائي القتل ان لم يكن عدواً له .. ان دموعه تثبت صدقه ولو لم اثق به لما رجعت

فابتسمت قائلة : ان وثوقك به لا يكفي أيها التعيس ..

ــ : واظن ان مولاتي الملكة سترى ما رأيت

فأمرت حاجبها بأن يأذن له في الدخول . فدخل .. غير متردد ولا خائف والنبالة على محياه . ودلائل الحزن على جبينه . ولم يسجد لحفيدة الآلهة ..بل سلم بمد يده اليمنى الى الأمام كما يفعلون في بلاط القيصر وانحنى حتى كادت جبهته تلامس الأرض .. فاستطاعت الملكة ، بنظرة واحدة ، أن ترى ما في نفسه. قبل ان يرفع رأسه .. ان فراستها كانت كالسحر تفعل العجائب ..

ثم قالت له : أقتل اوريليان أباك أيها الروماني

فظهر الدمع في عينيه وقال : لا أعلم الا اني رأيت جثته في الماء

قالت : وعلى ماذا عولت الان ؟

— : أتعرف الملكة حكاية ابي ؟ — : نعم .

قال : لقد عولت على قتل القيصر إذا استطعت

— : ان النبلاء لا يقتلون خصومهم غدر..خبرّنا الان لماذا هجرت روما ؟

— : الحر لا يطيق الأقامة في بلدٍ يقيم فيه قاتل أبيه الذي هو سيد ذلك البلد

— : كأنك راضٍ من الثأر بالفرار ! !

— : لا استطيع أنْ اثأر بأبي وأنا في روما . ان الحراس يحيطون بالقيصر وليس لي سبيل الى دخول البلاط

قالت : لم يبقَ امامك إذن الا أن تحالف اعداء الأمبراطور

قال : نعم ولأجل هذا الغرض قدمت تدمر ..! !

— : أما نحن فحلفاء الرومان أيها الفتى ..

— : لقدكنا نحن الرومان واثقين يا مولاتي بما تقولين ..

— : واليوم ؟

— : أما اليوم فنحن نعلم ان الملكة اعظم اعداء القيصر نفوذاً وابعدهم صوتاً واقربهم الى الظفر به ! !..

قالت : كنا اعداء غاليانوس لانه استخف بنا وخصوصاً لكلوديوس لأنه جاراه في الاستخفاف . اما اوريليان فلا نكون البادئين بعداوته لأنه نزل لنا عن مصر. ! واحسن الينا بضربه النقود باسم ولدنا وهبلات ..! قالتها الملكة وشفتاها ترتجفان.؛

فلم يعبأ الفتى بما سمع ، فقال : واذا رأت الملكة ان هذا الأمبراطور الكثير الاحسان .. يعد العدة للقضاء على تدمر فماذا تقول ؟

فبذلت زينب الجهدكله لتخفي اضطرابها ، وهي التي لا تبالي بالاخطار ولا تضطرب لشدة . أيعترف لها القيصر بمصر ، وينادي — هو نفسه — بوهبلات ملكاً ؟ ثم يعد عدته للقضاء عليها ؟ اذن فذلك الاعتراف الذي حسبته ضعفاً كان دهاء . وتلك النقود تحفر عليها صورة وهبلات كانت شركاً

ثم قالت : ما اسمك أيها الفتى ؟ — يوليوس .

قالت : لقد امرنا بقتلك الان ..

فحدق اليها الفتى يتبين صحة ذلك الانذار ثم قال : أأفر من بلاط قاتل لأدخل بلاط قاتل ؟! ان العرب يا مولاتي لا تقتل من يستجير بها

قالت : لم تكن قط مستجيراً ولكن جئت لتغري وتم بيننا وبين اوريليان
ـ : وما هو غرضي بهذا الاغراء أيتها الملكة ؟
ـ : أما غرضك فحرب تحتدم نارها بيننا وبين الرجل ..
ـ : أتقتلينني يا مولاتي قبل أن تصغي اليّ
ـ : لقد ثبت لنا أنك كاذب فلا خير في الاصغاء
ـ : اسألك بتاج تدمر أن تصبري ريثما يتّم هذا الكاذب حديثه
ـ : سمعناك تقول ان اوريليان يتهيأ للحرب فكيف تثبت هذا القول ؟
ـ : اذكر لمولاتي كل ما أعرفه عن ذلك الطاغية ولتفعل بعد ذلك ما تشاء
ـ : قل واستعد للموت
قال : ليت اوريليان يا مولاتي لم يعترف بمصر ـ : لماذا ؟
ـ : لأن ذلك الأعتراف جعل الملكة تثق بولائه واخلاصه
قالت : وستبقى هذه الثقة حتى يجفو القيصر
فابتسم قائلاً : لقد جفا ايتها الملكة وجنوده ستستعيد مصر
فلم تضطرب هذه المرة بل قالت بهدوء :
أما هذا فقد سمعناه ولكن لا نصدق حتى يزحف جيشه الى ذلك القطر
قال : اذا لم يكن هذا الجيش في مصر اليوم فسيصل اليها بعد أيام
فبرقت عينا زبدا واستولت الدهشة عليه وعلى القائدين زباي وابن حمدان
ان تلك الكلمة كانت كالقنبلة تنفجر عند الأقدام . واتجهت العيون الى زينب..
فقالت : أعد ما ذكرت أيها الروماني ..
فرفع صوته قائلاً : قلت ان جيش اوريليان ترك روما ليستعيد ارض فرعون ..
ـ : متى كان ذلك ؟
قال : غادرت عاصمة اوريليان عندما كان الجيش يهم بالسفر ..
ـ : في البحر ؟
ـ : نعم يا مولاتي وقد اثبتوا لي ان الأمبراطور يرافقهم الى الشاطئ الذي ترسو السفن عليه
ـ : إذن فاوريليان باقٍ في روما ..
ـ : بل يزحف بجيش آخر الى الدانوب ليرد قبائل « القوط »
فتمتمت تقول : يريد صاحبنا ان يفتتح عهد ملكه بالدماء

قال : ان الطاغية لا يطيب له العيش الا بين اشلاء الأموات
ــ : ومن هو قائد الجيش الزاحف إلى مصر ؟
ــ : جندي من اركان حربه ومن رفاقه في الميادين يدعى بروبيس
« ان بروبيس هذا بويع له بالملك بعد اوريليان وتاسيتوس »
قالت : وعدد الجيش ؟
ــ : سبعون الفاً تحمل سفنهم مؤونة سنتين
ــ : كأن اوريليان يخشى ان يخون الحظ هذا الجيش فيطول امر الحرب ويجوع
ــ : نعم وقد اوصى مجلس الشيوخ بارسال ما يحتاج اليه الجيشان
ــ : وهل يقضي العمر كله في ساحة الحرب
قال : سوف لا يرجع الى روما الا بعد ان يقضي على اعدائه وانت يا مولاتي أشد هؤلاء الأعداء خطراً على عرشه ..
قالت : سمعنا تهديد كلوديوس ووعيده قبل اليوم
ــ : أما اوريليان فاعظم مما تظنين ..
قالت : ان الحديث بينه وبين الشيوخ جرى في بلاطه أليس كذلك ؟
ــ : نعم
ــ : ألم تقل انك لا تستطيع الوصول الى ذلك البلاط ؟
ــ : بلى
ــ : وكيف تعيد قول الأمبراطور وانت لم تسمعه ؟
قال : اتظنين يا مولاتي ان كل ما يذكر في البلاط لا يجاوز قاعاته ؟ ان كل لفظة ينطق بها القيصر في قاعة عرشه تتناقلها روما في اليوم نفسه . نعم ، لم اسمع خطاب القيصر في مجلسه.ولكن لي في ذلك المجلس أصحاباً ينقلون الي ما يسمعون
قالت : أيها الروماني ، ان القول الذي تقوله تهتز له العروش ..
ــ : أعرف هذا أيتها الملكة وأنا واثق كما قلت
ــ : ستبقى في تدمر ريثما يثبت لنا هذا ..
قال : بل ارضى بان تجعليني في السجن حتى تلمسي بيدك جميع ما ذكرت
ولم تكن زينب بحاجة الى هذا الدليل . لقد وثقت بالفتى واعجبتها صراحته ؛ ولكن اسلوبها في المفاجآت لا يتغير
فقالت : إذا كان هذا فأنت حر ولك ان تغادر تدمر ساعة تشاء ..

ـ : اشكرك يا مولاتي . اني ما قدمت تدمر لأرحل عنها بعد ساعة .
ـ : إذن فأنت تؤثر البقاء ..
ـ : نعم ، إذا اذنت لي مولاتي الملكة !
ـ : لقد أذنا لك .. افقير أنت ؟
ـ : لا فالمال الذي احمله يكيفيني سنة .
قالت : أقم ما طابت لك الأقامة فانت ضيف علينا . ثم اومأت اليه والى «خادم الملكة» بالانصراف ونظرت الى سقف القاعة نظرة غضب كأنها تهدد السماء ..!!

* * *

أكتب لنا يا زبدا ان نفتح مصر ثلاث مرات ؟
قال : هكذا يريد اصحابنا الرومان الذين لم يسودوا هذه الأقطار الا باسياف التدمريين
قالت : أما الان فقد انتهى كل شيء بيننا وبين هؤلاء الأصحاب . وسيكون اوريليان سبباً لتحطيم أحد العرشين ، عرش الغرب او عرش الشرق .
وظهرت الكبرياء بكل قوتها على وجهها الأسمر وهي تقول : اسمعوا أيها القواد ، ان القيصر جعل جيشه قوتين ، قوة في مصر تطرد منها التدمريين . والقوة الاخرى تطرد البرابرة من الدانوب .. افلا ترون ان نفعل نحن كما فعل ؟
قال : تقسمين الجيش يا مولاتي ؟
ـ : نعم ، ونرسل بعضه إلى مصر بقيادة زبدا ليكون عوناً لفيرموس . والبعض الآخر .. اما البعض الآخر فنبعثه إلى بيتينية
قال : واذا كان الجيش الروماني قد احتل مصر ؟
قالت : واذا احتلها .. ايعجز زبدا عن استرجاعها وهو قد فتحها مرتين ؟
فرأى زبدا ان يسكت . ان اللبوءة الان في حالة هياج وغضب فخير لهان يعمد الى السكوت .
أما زباي فقال : ان عند الرومان يا زينب جيوشاً تملأ العالم ..
فأجابته قائلة : ولنا يا أبي قوة تسحق الرومان ..
قال : أيقوم في ذهن زينب أن اباها يعرف الخوف ؟
قالت : ان التدمريين لا يخافون ..
ـ : ومع ذلك فكلما ذكرت مصر يستولي علي الذعر

قالت : أبي ...

قال : نعم وليس الخوف ان يغلبنا الرومان على أمرنا فنرجع الى الوراء . بل الخوف ان يحالف المصريون جيش القيصر فتصبح الأمة جيشاً واحداً تضعف عنده قوى تدمر فيستسلم زبدا او يفر ..

قالت : المصريون لا يخونون وعندهم فيرموس !

قال : إذا امطرتهم روما ذهباً داسوه بالنعال ..

فالتفتت إلى زبدا قائلة : أتستسلم أيها القائد ؟

قال : أما الاستسلام فلا الجأ اليه ولو اكتنفتني ظلمة الموت

— : والفرار ؟

— : اذا رأيته القطر المصري اتوناً من نار رجعت ..

— : ما هو رأيك في المصريين ؟

— : رأيتهم في المرتين الماضيتين يميلون إلى الرومان ..

قالت : اتترك مصر ؟

فقال زباي : اختاري لكِ واحداً من امرين . اما ان ترضي بمصر واما بآسية الصغرى كلها ..

فغيرت لهجتها قائلة : تلك هي لغة قديمة سمعتها من قبل .. مصر وآسية ..! ان الاثنتين ستكونان لنا ..

— : اذن فافتحي احداهما اولاً ثم مري الجيش بالزحف الى الاخرى

قالت : نضرب الاثنتين في وقت واحد فلا تحملونا على التردد ..

— : عندما تجعلين التدمريين قسمين يتمشى الضعف في الصفوف

— : ما دام اوريليان بعيداً فلا بدّ من القسمة

قال : انظري فيما تصنعين يا ابنتي

— : ليس المجال مجال تردد وتفكير .. ان مصر قطعة من تدمر فلا نتركها للرومان . وبيتينية باب اسية فيجب ان تخرج من يدهم . وأما الضعف فلا يجد سبيلاً الينا لان ايماننا بالحق لا يتزعزع وليس من الحكمة ان نوحد القوى الا إذا برز لنا القيصر نفسه . ثم قالت :

ولا تخف يا أبي .. لا تخف يا قائد الفرسان ، فاذا قلّ جيشنا وكثر جيش القيصر فهيبة زينب وحدها تلقي الرعب في قلوب الأعداء ..

وكأنها لم ترد ان تسمع جواباً فقالت لزبدا : لقد أمرناك الان بالزحف الى مصر فأعد الجيش ولا تنتظر امراً آخر .

قال : ولكن يجب ان أعلم يا مولاتي متى تزحفين الى بيتينية ؟

قالت : اما نحن فسنبقى في تدمر وسنرسل اليها زباي وابن حمدان .

* * *

كان معن بن حمدان قد انصرف الى قصره في مساء ذلك اليوم . وجلس يقص على كهيلة ما فعله اوريليان .. واحب شيء الى الاثنين تلك الساعات التي يقضيانها مجتمعين ، يتحدثان بعظمة زينب .. ويذكران حبهما الاول . وعطف اذينة وهيروديس على ذلك الحب . ولا تمر ساعة من تلك الساعات . دون ان تذكر كهيلة حطان وتهمس في أذن زوجها — بعد موته — عاطفة خوفها من الزمان .

فلما خبرها بما سمع من الفتى الروماني ، استيقظت في صدرها تلك العاطفة ، ولم تكتمه الرعب والذعر اللذين استوليا عليها في ذلك الحين . فأخذ معن على عادته يهزأ بما يراه . ويثبت لها بفصاحة لسانه وبلاغة قوله ، السماء تبقى سماء . والارض تبقى ارضاً . ولو مات حطان .. ولكن حديثهما لم يطل . فان احد غلمان البلاط ، اقبل في تلك الساعة يدعو معناً الى المثول بين يدي زينب ..

فنهض على الأثر وهو يظن الظنون . وقبل ان يخرج مع الغلام من القصر قال لزوجته : ان الملكة لا يغمض لها جفن في هذا الليل . فستحدث عن القيصر . وقد لا أعود الا عندما يتنفس الصبح

كانت الملكة في احدى القاعات الخاصة . ويدها تعبث بشعر ولدها الصغير الأمير تيم‌الله .. وليس بالباب احد . كأن الحديث بينها وبين ابن حمدان ، سر من أسرار الملك لا تريد ان يشيع . فدخل معن . وأومأت الى الغلام بان يغلق الباب ويمنع الوصائف والجواري من الدخول ..

فنظر قائد الحرس فلم يجد في القاعة احداً من القواد . لم يرَ زبدا ولم يرَ زباي ؛ فقال في نفسه ؛ : انها مهمة اختارتني لها الملكة . وكنت اظن ان مجلسها يغص بالقواد والنبلاء ..

اجلس يا ابن حمدان .. فقبل الفتى يد الأمير الصغير وجلس بالقرب منه

فقالت : ان الفصل فصل شتاء أيها قائد — : نعم يا مولاتي ..

— : والشتاء في الصحراء خير من حر الشمس

— : والسفر يطيب لي يا مولاتي متى كان الجو صافياً .
فابتسمت قائلة : لقد عرفت اذن انك ستسافر ..
— : أجل فالمقدمة مقدمة سفر أيتها الملكة !
قالت : كنت ولم تزل كثير الذكاء يا معن فاصغ الى ما نقوله لك
ثم دار بين الاثنين حديث طويل لم يسمعه غير تيم الله ..
ولما خرج ابن حمدان من القصر كان الليل قد انقضى نصفه

* * *

في صباح اليوم الثاني خرج من تدمر ثلاثة رجال على افراسهم لا يبين من وجوههم غير العيون .. فلما وصلوا الى ظاهر البلد ، رأوا عبداً يقود ثلاثاً من النوق عليها رحالها ووراءه عبد آخر يقود اثنتين عليهما الأحمال .. فترجل الفرسان .. وتركوا جيادهم بين ايدي العبدين . ثم امتطوا ظهور النجائب دون ان يرتفع لهم صوت . كأنهم خرس .. ومشوا لا يلتفتون الى الوراء .. وعاد احد العبدين بالأفراس الى تدمر أما الآخر فسار يتبع الثلاثة مع ناقتيه ..

ولو رأى الناس هؤلاء الثلاثة ، يسودهم الصمت وهم محجبون . لخيل اليهم انهم من امراء العشائر الذين تعودوا التحجب عندما يكون لهم اغراض واسرار ..

مشوا فرسخين وهم ساكتون .. واحد في المقدمة والاثنان الآخران وراءه .. كأن الاول سيدهم وهما تابعاه . وكانوا قد ابتعدوا عن تدمر . فسفروا وبانت الوجوه .. ان الذي يمشي في المقدمة هو معن بن حمدان . اما اللذان يتبعانه فرجلان من كبار الحراس . والعبد يخدم الثلاثة في سفرهم الى بلاد الفرس

أجل . ان قائد الحرس مندوب الملكة الى هرمز بن سابور . في مهمة عظيمة الشأن ليس لها سواه . وعلى ابن حمدان ورفيقيه . والعبد معهم ان يكتموا الناس امر مهمتهم . لان زينب تريد ذلك . وليس في تدمر — غير هؤلاء — من اطلع على السر ، الا زبدا وزباي والأمير الصغير .. أما ما ينقله ابن حمدان الى الملك الفارسي فذلك سر من الأسرار ليس للحراس ان يعرفوه .

نعم ، سيستغرب التدمريون غياب قائد الحرس . ولكن كهيلة ستقول للمستغربين : أن زوجها يزور عشيرته في حمص ، فيضمحل الاستغراب وتبطل الظنون.

* * *

كان هرمز بن سابور من الجرأة والحزم والشدة على امر عظيم حتى لقبه شعبه

بالجريئ . وكان في خلقه وجسمه يشبه جده اردشير الذي عرف بجمال الوجه . وان يكن دونه في الرأي والتدبير . ولم يكن طويل العمر كما يذكر المؤرخون غير أنه احسن سيرته في قومه وعدل في الناس . لا يستبد القوي بالضعيف في أيام هرمز . ولا يجروئ الغني ولو كان نسيب الملك ، على الاستخفاف بالفقير ولو كان مجهول النسب . وسلك في جميع اعماله سبيل آبائه الملوك . واحسن تهذيب بهرام ولي عهده ، الذي جلس بعده على العرش . وكما كان سابور العظيم طماحاً الى المجد . هكذا كان هرمز . الا أن حياته القصيرة ضيقت عليه المجال

وملوك الفرس أهل سؤدد وعز . واصحاب نعمة وترف . تكتنفهم العظمة من كل ناحية . وتبسط الهيبة حولهم ظلها البعيد . وعند هرمز وزراء هم رجال السياسة والرأي . وذوو الدهاء والخبث . اذا اضطروا جعلوا رقابهم موطئاً لقدميك . وعندما يبلغون الغاية يقذفون بك — اذا استطاعوا — الى هوة الفناء ..

وامثال هؤلاء تجدهم في كل زمان .. يقولون لك اليوم كما كانوا يقولون بالامس : بع نفسك بفلس . واكذب ما طاب لك الكذب لتكون سياسياً . واذا كنت حراً وصريحاً وصادقاً فانت قصير النظر وغير سياسي ..تلك مثالة الضعفاء الذين ليس لهم وجدان .. هكذا كان وزراء هرمز ومرازبته . ولكنهم في شؤون دولتهم اصحاب رأي كما قرأت .

والان .. والان فاعلم ان ابن حمدان وحارسيه وصلوا الى المدائن . ولم تفعل فيهم ميادين الحرب كما فعلت الصحراء . لقد صارعوا العواصف الطائشة . والشتاء الغزير . والرياح الهوج حتى وصلوا الى مدينة هرمز . ولم يستأذن قائد الحرس على الملك ، لانهم لم ينفضوا عنهم غبار الصحراء الا في ظلام الليل .. وقضوا اليوم الثاني وهم يطوفون في المدينة . ينظرون الى اثار الملوك التي خلدت ذكر اصحابها من حصون وقلاع . وقصور وابراج وكلها تنطق بعظمة الرجال اجداد هرمز وهممهم الكبيرة ..

أما اليوم الثالث فقد جعله معن موعداً للمثول بين يدي الملك . وكان واثقاً بان هرمز لا يمنع رسول زينب من الدخول عليه ساعة يشاء ، بعد الاستئذان .

فاقبل على البلاط وهو بثياب قائد الحرس .. والبلاط كما وصفناه في حياة سابور . حافل بالوفود من جميع الأقطار . وبالنبلاء والخاصة من رجال الملك . وطوائف ا راس والحجاب تملأ الأروقة والقاعات

واذن لمعن فدخل . وعند هرمز وزراؤه واهل بيته . فأحاطه هؤلاء بنطاق من النظرات . وجعل هرمز يتفرس فيه وهو واقف بين يديه .

ثم قال لولي عهده بهرام : انظر الى قواد العرب فهم يلبسون لباس قواد الرومان

وابتسم لمعن قائلاً : ان الملكة التي اوفدتك الينا هي حليفتنا التي احترمها والدنا الملك واحترمناها نحن من بعده .. مرحباً بك أيها القائد.. وأومأ اليه بالجلوس

فانحنى ابن حمدان وتراجع الى كرسيه وهو ساكت . ولم يشأ أن يناوله الكتاب الذي يحمله قبل ان يسأله عن مهمته . أما سابور فقد دار في سؤاله دورة طويلة قال : انك قائد حراس الملكة كما ذكرت لحاجبنا أليس كذلك ؟

— : نعم يا مولاي

— : ولكن نراك بلباس الرومان

— : هكذا يلبس القواد في تدمر ايها الملك .

قال : لقد فتنتكم روما حتى آثرتم لباس جندها على اللباس العربي ! .

— : أما القلوب فلم تفتنها روما يا مولاي ..

قال : ذلك ما لا نعرفه نحن ولا نسألك عنه .. لقد قيل لنا ان مولاك الملك لا يغادر فراشه فهل هو مريض ؟ — : نعم يا مولاي

— : وكيف هو اليوم

— : انه على رغم صغر سنه يحتمل آلامه بصبر

قال : لقد اتعب رأسه التاج فلجأ الى الراحة ..

قال : ان ملكاً أمه مثل زينب لا تتعبه التيجان

— : أصبت فلزينب همة الملوك وعظمتهم .. اذكر حاجتك

— : احمل لمولاي كتاباً من الملكة

فأمر هرمز أحد مرازبته بان يناوله أياه ليقرأه هو نفسه .

فأخذه المرزبان واعطاه اياه وهو ساجد . فجعل يقرأ وينظر الى معن ثم قال : ليس في الكتاب شيئ من مهمتك ، ان الملكة تقول ان قائد حراسها نفسه يفضي الينا بهذه المهمة — : نعم يا مولاي

— : وتقول أيضاً انك عرفت والدنا سابور ..

— : نعم يا مولاي — : متى عرفته ؟

قال : اوفدني اذينة الملك احمل الى سابور العظيم رسالته وهداياه ..

قال : ذلك منذ بضع سنوات .. أفلم يمزق والدنا تلك الرسالة ويقذف بهداياها اذينة الى الفرات ؟

— : نعم وعرفته مرة ثانية وكنت اسيره ..

— : وكيف كان ذلك ؟

فأجابه وزير له وكان وزيراً لسابور قائلاً : في واقعة جرت ليلاً على الفرات ايضاً

فعرف ابن حمدان ان هرمز يتجاهل الأمر .. ان الملوك لا يذكرون الهزيمة والعار .. فقال : وعرفته يا مولاي كثيراً وكثيراً جداً في الميادين قبل ان ينظر الى تدمر نظرة الرضى ..

ولو لم يقل ابن حمدان عبارته الأخيرة لتميز هرمز غضباً . فقال :

لا نذكر شيئاً من هذا لأننا كنا في خراسان ..

قال : أجل وانا لا اذكر يا مولاي اني رأيتك من قبل

قال : أما الماضي فقد كنا فيه خصوماً . واما اليوم فنحن حلفاء الملكة كما قلنا ولها عندنا الارادة النافذة .. قصّ علينا الان ما قدمت لأجله .

قال : لا استطيع يا مولاي ان أبوح بسر الملكة أمام جميع الناس ..

قال : هؤلاء هم خاصتنا واهل بيتنا أيها العربي

— : لقد امرتني مولاتي الملكة بان اكتم الخاصة سرها ولا اذكره الا لجلالة الملك

فغض هرمز طرفه عن وقاحة الرجل واشار على بعضهم بالخروج من قاعة العرش . ولم يبق غير الوزراء وولي العهد . فقال : ابدأ الان

فرأى الحمداني ان لا يخرج الملك عن حده ، فبدأ قائلاً :

لقد عرف مولانا الملك ان زينب فتحت مصر .

— : أجل ولكن لم نعلم اسباب هذا الفتح

فقام في ذهن معن ان هرمز يريد أن يأخذ منه ولا يعطيه ، فقال :

أما أسبابه يا مولانا ففتنة اوقد نارها واليها الروماني

قال : كثيراً ما تذهب الفتن بالاوطان . وماذا جرى بعد ذلك ؟

— : ان الفتح الاول لم يطل امره يا مولاي فارسلت الملكة زبدا ثانية فقتل صاحبها واستولى على البلاد

قال : لقد زادت الملكة ارضاً واسعة على ملكها الضخم

— : نعم يا مولاي وقد رأينا جميعنا أن هذه الأرض تبقى لنا إلى الأبد .

قال : ونحن نرى ايضاً ما ترون اذ ليس في العالم قوة تستطيع ان تنزعها بعد من يد زينب .

– : اجل يا مولاي ولكن الحروب ستقوم حول مصر فتخضب ارضها بالدماء

– : وهل ثار المصريون ؟

– : لا يا مولاي ولكن ذلك الذي نخشى ان يثور هو وحده اعظم من جميع أهل مصر

قال : انك تعني القيصر في هذا القول

– : نعم ومن يسأل عن مصر غير القيصر .

– : لقد قيل لنا انه اعترف بالفتح ونزل عن حقه

قال : فعل ذلك يامولاي بعدان بايعوه بالملك أما اليوم فلم يشأ ان يستمر على قوله.

قال : لعله سأل الملكة ان تتخلى عن مصر .

قال : ان السيف سيتولى امر هذا السؤال

– : أعمد إلى الجلاء أيها القائد

– : لقد بلغ الملكة يامولاي ان اوريليان وجه الى مصر جيشاً جراراً يقوده احد رفاقه فأصغى القوم الى ذلك الحديث الجديد .. أنه ألذ واشهى ما سمعوه منه ..

فقال هرمز : أيستعيد مصر بالسيف ؟

قال : وهل يبعث جيشه اليها ليهتف لزينب ؟

فأطرق هرمز ملياً وقد اصفر وجهه ثم قال : وعلى اي شيء عولت الملكة ؟

– : تستشير مولانا الملك اولاً ثم تبرز للرومان الذين يريدون ان يخضعوا الشرق

فجعل هرمز يردد قوله .. تستشير مولانا الملك ؟.. واي شأن لمولاك الملك أيها القائد ؟ – : ألم تقل يا مولاي انك حليف الملكة ؟

– : وما نزال نقول ذلك

– : وبين الدولتين معاهدة يا مولاي .. – : صدقت ..

قال : والملكة تذكر ان في هذه المعاهدة شروطاً – : منها ..؟

– : منها ان على الملكة الدفاع عن حدود الفرس . وعلى مولانا الملك ان يدافع عن حدود تدمر

قال : هو ذاك غير انه لم يرد فيها ان الواحد منا يقف جانب الآخر اذا أراد هذا الآخر ان يكون فاتحاً ..

قال : نحن لا نذكر الفتح يا مولاي .

قال : لقد عرفنا غايتك الان . ان الملكة ستتصدى لاوريليان في مصر وهي تريد ان تستعين بنا على بلوغ الغاية

— : اما ان تستعين بجنود الملك على اخضاع القيصر في مصر فهذا لم يخطر لها ببال

— : اذن هي تريد ان تضرب القيصر من ناحية ونضربه نحن من الناحية الاخرى ليتم لها النصر

قال : بل هي تضربه من الناحيتين يا مولاي ..

— : وماذا تسألنا اذن ؟

قال : ستوجه زبدا إلى ارض فرعون ليطرد الرومان منها

— : انا لنعجب من حرب بين حليفين ...

— : لقد كان اوريليان البادئ بالجفاء والاستخفاف

— : حسناً ، وبعد ذلك ؟

— : وفي الوقت نفسه تزحف جنود اخرى من تدمر الى اقليم بيتينية الذي يعرفه مولانا الملك

— : اتطمع زينب بالاستيلاء على آسية كلها من هذه الجهة ؟

قال : نعم يا مولاي واذا استطاعت ان تسلب اوريليان اقاليم ملكه واحداً بعد واحد فستفعل

فاستعظم هرمز هذا الاقدام . ولكنه أراد ان يحرق شيئاً من بخوره لملكة المشرق

ان البخور يحرقه ملك الفرس يستخف زينب ويحملها على اهوس فتغوص في لجة الأخطار وفي بحر من نار . وفي اي شيئ يرغب هرمز ؟

انه يرغب في ان يتبارز الاثنان في ساحة الحرب فيصرع الواحد منهما الآخر ، وتضعف ، على كل حال تلك القوى التي تقف في وجهه وتمنعه من التوسع في السلطان

وليمت الاثنان في الميدان ، كما قرأت .. ان موتهما حياة له ولبلاده ..

فقال أتجرؤ على القول ان زينب تطلب امراً ولا تستطيعه ؟ انها تغزو الافلاك ولا تبالي ..

قال : ولكن الحرب خدعة يا مولاي . فقد يخوننا الحظ في احدى الساحات فيزحف القيصر الى شمالي آسية ثم يجاوز الشمال الى تدمر ولا يبقى عليه الا أن يهاجم المدائن ويقيم حول سورها سوراً آخر هو صدور الجنود

فوضح الأمر لهرمز فقال : واذا مددنا يدنا إلى الملكة ؟

— : إذا مدّ الملك يده اليها استسلم اوريليان الى الدولتين الحليفتين . واذا قدر على الفرار تراجع الى الوراء تاركاً الشرق لأصحابه ..

— : وعندئذٍ ؟

— : عندئذٍ تقتسمان آسية يا مولاي فتستولي على ما يطيب لك من الأقاليم ويمسي الشرق الأدنى كله بعد قليل، لملكين اثنين لا ثالث لهما ملك الفرس وملكة تدمر

وفي ذلك الكلام ما فيه من منطق واغراء .. فجعل هرمز يعبث بلحيته السوداء وينظر الى ما حوله وعلى وجهه دلائل التفكير .. اذا اتحدت الدولتان سقط القيصر واضمحل نفوذ الرومان .. وأي شيءٌ يمنع وجود هذا الاتحاد والملكة المتكبرة تسأله اياه وتبسط له الغاية منه ؟ ولماذا لا يضم هرمز الى ملكه . تلك الأقاليم التي فتحها سابور ثم اكره على تركها لاعدائه ؟ انها فرصة يكون ملك الفرس مغفلاً اذا هو لم يقبض عليها بكلتي يديه . وكأنه أراد ان يبسط في البحث قبل ان يجيب فقال :

كيف تريد الملكة ان يكون هذا الاتحاد ؟

قال : ليس لها ان تزيد كلمة واحدة على المعاهدة يا مولاي

قال : أجل ، ان المعاهدة تملي على الواحد منا أن يكون عوناً للآخر ولكن ليس فيها ذكر للقسمة التي ذكرت .

قال : نذكرها إذا شاء الملك ..

— : وليس في المعاهدة صراحة فيما يعني الدفاع

— : اما الصراحة فموجودة يا مولاي .ولكن الملكة ذهلت عند وضعها عن ان تعين المكان ..

— : هذا الذي عنيناه

قال : لقد فوّض اليّ ان ازيل الابهام وان اضع شروطاً جديدة اذا قضت بذلك ارادة الملك .

قال : ان زحف الملكة الى بيتينية لا بدّ منه

— : أجل .

— : وقد تفتح الاقاليم التي بعدها حتى تصل الى بيزانتيوم «القسطنطينية»

— : قد يكون ذلك يا مولاي .

— : انها بلاد بعيدة عنا وليس للملك رغبة في أن يكون له فيها شيءٌ من النفوذ ..

قال : أي ان الملك لا يبعث جنوده للدفاع عن الملكة في تلك الاقاليم

قال : احسنت ..

— : ولكنك تبعثهم إلى انطاكية أيها الملك .

فتظاهر بالتفكير ثم قال : انطاكية ؟

— : نعم ومنها الى تدمر حتى إذا هاجم القيصر هذه الربوع اشترك الجيشان في قتاله ..

قال : فنفي جيشه في يوم ونجره بسلاسل الحديد الى المدائن كما فعل والدنا بفالريان !

فخاف الوزير الأكبر ان يتمادى الملك في هوسه . فنهض فجأة عن مقعده ثم عاد الى الجلوس .. فعرف هرمز انه يعنيه . فابتسم ابتسامة استهزاء ..

أما معن فأجابه قائلاً : ويكون نصيب الملك في اسية . من انطاكية الى حدود ملكه . وفي فضاء هذه الاقاليم ترتفع اعلامه

فقام الوزير عندئذ وهمس في اذن الملك كلاماً ، فقال هرمز :

يجب ان ننظر في الأمر مع رجال البلاط

قال : لمولاي الملك ان يفعل ما يطيب له

قال : وتمكث أنت في بلاطنا حتى نرد الجواب غداً

— : بل انصرف إلى المدينة يا مولاي .

فعجب المرازبة لوقاحة العربي .. غير ان الملك كان رحب الصدر اذ قال :

لماذا ؟ — : لان معي اثنين من حراس الملكة يا مولاي

— : أين هما ؟ — : في منزل اعرابي نعرفه .

قال : لقد اسأت إلى الملك بما فعلت أيها العربي من حيث لا تريد . ان بلاطنا يتسع لقبائل العرب كلها ولا يستطيع الرسل الذين يفدون علينا الا النزول فيه . اذكر منزل الاعرابي لأحد حجابنا وارسله ليدعو رفيقيك .

وأومأ الى أحد المرازبة بان ينفذ امره . ثم قام فخرج من باب خاص وتبعه جلساؤه وهم مطرقون . فقال معن في نفسه :

لقد شهدت المجلسين . مجلس سابور ومجلس هرمز فما رأيت من الخاصة ادلالاً على الاول كما رأيت على هذا .. لقد ذهب الان ليعقد مجلسه الخاص وعلى رغم هذا الادلال سينتهي أمره بالقبول .

ثم قام فسار مع المرزبان وهو غير مطمئن الى ما رآه من جماعة الوزراء .

* * *

وقطب هرمز حاجبيه وقال لكبر الوزراء . أما الان فتستطيع ان تقول ما تشاء

قال : رأيت الملكة تنصب للفرس شركاً ..

قال : وكيف ذلك ؟

قال : انها تريد من وراء هذا الاتفاق ان تقضي على الاثنين ، هرمز واوريليان .. ألم تستعن بك على ملك الرومان ؟

— : بلى — : وماذا يحدث بعد ذلك ؟

قال : يحدث ان اوريليان اذا غزا الملكة يموت ويهلك جيشه فنستولي على هذه الاقاليم التي كاد والدنا يبذل حياته ليضمها الى ملكه

— : هب ان الأمر جرى كما تقول يا مولاي فهل تعطيك زينب نصف بلادها لتكون راضياً .. — : اندافع عنها وترفض العطاء ؟

فأجابه الداهية قائلاً : بعد ان يهلك اوريليان تصبح زينب امبراطورة الرومان

قال : نعم

— : وتصبح الجنود كلها عبيداً لها تقذف بهم الى اشداق الموت وهم راضون ::

فحدّق اليه هرمز ينتظر خروج الألفاظ من فمه

أما هو فكان يقول : ولا تستوي الملكة في العرش حتى تعمد الى الخلاص من العدو الآخر الذي لم تقدر على محوه من الوجود ..!!

قال : ومن تعني ؟

— : اعني جلالة مولانا الملك هرمز بن سابور ..

قال : انك كثير الظنون أيها الوزير

قال : لقد افترضت هلاك اوريليان وجلوس زينب على العرش في حين ان هذا الافتراض ابعد من النجم .

قال : اخطأت فروما لا تستطيع الوقوف في وجه الدولتين

قال : ستبارز روما دولة واحدة يا مولاي هي دولة تدمر

— : ونحن ؟

— : اما نحن فلا نحارب أحداً ..

فقال هرمز في نفسه : لقد اتفقنا في الرأي ..

ثم قال : ايجعلون آسية ميداناً للقتال ونحن ساكتون ؟

— : نعم يا مولاي نسكت ولا نخوض المجال ..

ـ : وهذه المعاهدة ؟!
فضحك الوزير قائلاً : تحفظها الملكة ذكرى الصداقة والولاء ..
قال : ان واحداً من الاثنين سيظفر بالآخر أليس كذلك ؟
ـ : نعم
قال : افلا ترى ان هذا الظافر سيمد يده الينا بعد ان ينتهي من عدوه ؟
قال : ليفعل يا مولاي فنحن لا نخاف الحرب
قال : أردنا ان نقول ان برازنا لا بدّ منه
قال : خير لنا ان نحارب عدونا عندما يكون هذا العدو ضعيفاً ومنهوك القوى . ان احد الملكين لا يظفر بالآخر قبل ان يخسر نصف جيشه ..
قال : لقد بسم لنا الزمان فحولنا وجهنا عنه
ـ : بل هو شرك لا نلبث حتّى نقع فيه كما قلت
قال : ان زينب تخاف اوريليان ايها الوزير ولولا هذا الخوف لما خطر ببالها ان تلجأ الى الفرس ليمدوا اليها يد المعونة ..
قال : اذن يجب ان يستغل الفرس خوف الملكة ، لتمت زينب او ليمت اوريليان .. كلا الاثنين عدو لك ومن مصلحتنا ان يموت احد الاثنين . افلا تعلم يا مولاي ان زينب عندما تخفق فوق جيشها اعلام النصر تهزأ بالفرس وبملك الفرس وتقول لهم : ان تلك المعاهدة التي وضعناها كانت حبراً على ورق ..
فرأى هرمز ان يستسلم . ولكن بعد ان يظهر لوزرائه انه فكر قبلهم في الأمر الذي أرادوه . ـ : أهذا هو رأيكم ؟
فأجابه كبير الوزراء قائلاً : إذا رأى مولانا الملك غير هذا فنحن عبيد له .
قال : لقد اصبتم وهذا ما فكرنا فيه .. اسمعوا أيها الوزراء . سنرضى بما تقترحه زينب من شروط الدفاع وشروط القسمة . ولكن .. عندما يفاجئها اوريليان بالجنود . تدعونا فلا نجيب وتستغيث بنا فلا نسمع .. فاذا كتب لها النصر وارادت الحرب حاربناها حتّى تفنى . وان ظفر بها القيصر واراد ما ارادت جعلنا بلاد الفرس كلها جنوداً ودافعنا عن الشرق
فقام احدهم فقال : لي كلمة يا مولاي ـ : ما هي ؟
قال : إذا تراجع الجيش الروماني إلى الوراء وقفنا إلى جانب الملكة ، واحترمنا العهد الذي كتبناه . واذا اجتاح القيصر رجالها ودوّخ اقاليمها زاحفاً الى الأمام .

ولهنا في بلادنا لا ننقل الى ارضها قدماً

لبرقت عينا الملك قائلاً : هذا هو الرأي .. سنكون حلفاء الملكة اذا حالفها النصر والحرب تعرف من المقدمات .. اذهبوا الان وسنصرف رسول زينب غداً بعد ان نحسن اليه .. وقام وهو يقول بصوت مضطرب :

ما نسينا قط كبرياء اذينة في حصار المدائن . ان تلك الكبرياء يجب ان تموت تحت الأقدام ..

* * *

أيها العربي . لقد شاورنا رجال البلاط في الأمر الذي قدمت لأجله وسنكتب الى الملكة .

فقال معن : أيريد مولاي ان يزيد شيئاً على المعاهدة ؟

قالها ابن حمدان ليعلم اذا كان الملك قد رضي بشروط زينب

فقال : اجل . فقد رضينا بما اقترحته الحليفة العظيمة وسنزيد ما يتعلق بانطاكية وبالقسمة ..

ثم امر امين اسراره باحضار المعاهدة وقال لابن حمدان : اعطنا النسخة التي تحمل فأعطاه أياها وكتب في النسختين ما ارادوا ان يكتبوه وانتهى الأمر

فقال قائد الحرس : ليزحف اوريليان الان الى آسية ..

فقال الملك : اذا جاءها فلا يرجع ..

قال : ان هذا الاتفاق بين مولاي الملك ومولاتي الملكة سيقلب عرش الرومان

قال : هكذا نرى . فقل للملكة ان السيوف في ايدي رجال الفرس لا تضرب في الحرب ضربة واحدة الا في طاعتها .. انهم جنودها كما هم جنود الملك ، وعبيدها كما هم عبيده ..!! ولو ارادت ان تبعث بهم الى روما .. الى بلاط القيصر لفعلوا واتوها برأسه ..

وكانت لهجته لهجة ملك ، قال : يجب ان يكون الشرق لنا نحن الاثنين كما تقول زينب .. لقد كان امراء تدمر ، في الزمن الماضي سبباً لنفوذ الرومان في بلاد العرب . فعلى هؤلاء الأمراء انفسهم ان يحطموا في الزمن الحاضر نفوذ الروماني . ويطردوه بالاشتراك مع الفرس من كل اقليم شرقي ..

لتمشي زينب إلى الأمام فهرمز يمشي وراءها بفيلته ورجاله ، وبجميع ما عنده من خيرات بلاده . حتى ترفعها الأيدي الى عرش اوريليان . وحتى يهوي النسر

الروماني الذي يسود الفناء والدمار تحت جناحيه .

فكاد ابن حمدان يصيح صياح الفرح .. ان خطاب الملك كان خطاب قائد ينفخ الجرأة في صدور الرجال .. الا أنه رأى الشفاه تنفرج عن ابتسامة غريبة هي ابتسامة السخرية والاستهزاء .. أجل ، كان المرازبة يبتسمون .. كما يبتسم الخبيث الشرير الذي لا يحب الا نفسه .. فاضطرب لما رآه .. ولكنه في بلاط ملك غريب لا يستطيع ان ينكر على خاصته ما يفعلون .

فلما سكت هرمز نهض قائلاً : استأذن مولاي الملك في الذهاب

قال : لا تذهب قبل ان تحمل احساننا ..

أعطوه عشرين بدرة من الذهب وطيلساناً وفرساً من افراس الملك واعطوا رفيقيه عشر بدر وفرسين .. فجثا ابن حمدان عندئذٍ على ركبتيه واثنى وشكر ..

فمدّ هرمز اليه يده قائلاً : ان ملك الفرس لا يصافح الا الملوك ..

فقبلها الفتى وخرج من الايوان تشيعه العيون الملتهبة والقلوب السوداء ..

* * *

كان الجواسيس قد اثبتوا لزينب ، ان اوريليان لم يبعث جنوده الى مصر أمرهم اولاً بالذهاب اليها ثم دعاهم الى الصبر ريثما يرسل اليهم امراً آخر من الدانوب .. فمنعت زبدا من السفر . واقامت تنتظر معناً وهي تفكر في تلك المحالفة التي اقترحتها من جديد على هرمز . ان وضعها يدها في يد الفارسي يضمن لها النصر في حروب الشرق . فلا يخطو اليها اوريليان خطوةً واحدة حتى تسحقه كما تسحق النملة تحت رجل الفيل . وكانت واثقة بان هرمز لا يجسر على الرفض . ان سابور في عظمته وعزه لم يستطع الا ان يطرح سيفه بعد حروب هزت اركان العرش الفارسي ..! ! أفيجسر ولده على امرٍ لم يجسر عليه ابوه قبله؟ انه اذا فعل كان كالباحث عن حتفه بيديه ..

تسترضي اوريليان وتحاصر المدائن حتى يأكل هرمز من لحوم رجاله .. ثم تنتقل من الاسترضاء الى الجفاء فتفعل مع الرومان كما فعلت مع الفرس وتخمد انفاس الملوك الذين لا يعمدون الى الطاعة العمياء ..ومعنى كل هذا ان الملكة ذات الدماغ الفولاذي لم تكن تعلم ماذا تصنع أتغير على الفرس قبل الرومان أم تدفع الخيل على هؤلاء ثم تجعل فارس ميداناً لاشبال العرب ؟!

ذلك امر لا تعرفه قبل ان يعود ابن حمدان .. وابن حمدان يمشي الليل

والنهار حتى يصل الى تدمر .. ان شوقه الى كهيلة لا ينقص .. واخلاصه لمولاته الملكة لا تغيره الحادثات .

وأقبل اخيراً ورأى الاثنتين .. رأى ملكته اولاً كما يملي الشرف والنبالة .. ثم ذهب الى قصره ليرى زوجته

* * *

هات المعاهدة يا معن !

فناولها أياها وهو يرى القلق مطلاً من عينيها الناريتين . كانت تريد أن تراها قبل أن تسأله . فلما وقع نظرها على توقيع هرمز ، لمعت تانك العينان وزاد ذلك الجبين العريض اشراقاً . ثم قالت : لا تنسَ شيئاً يا ابن حمدان

قال : سأصف لكِ الملك يا مولاتي ورجال الملك

قالت : أما الملك فنعم . واما رجاله فلا شأن لنا معهم

قال : يا مولاتي ان زمام ذلك الملك في ايدي اولئك الرجال ..

قالت : ماذا جرى لك ؟

قال : اعترف لك يا مولاتي . بان اللين في حديث هرمز كالشدة في حديث سابور . فهو طلق الوجه واليدين واديب اللسان لكنه خبيث القلب ..

فقالت ضاحكة : أعلمتك الأيام يا ابن حمدان ان تقرأ ما في القلوب ؟

قال : بل جعلتني الأيام يا مولاتي شيخاً في الثمانين ..

ــ : وماذا رأيت بعد ذلك ؟

ــ : ولو كان هرمز الهاً لجعله رجال بلاطه اخبث الملوك واشدهم بغضاً وحقداً .

قالت : انك اذن رأيت العجب يا قائد الحرس .

ــ : نعم واكاد لا أصدق اني احمل المعاهدة عليها توقيع الملك .

ــ : لمـاذا ؟

ــ : لان تلك الدلائل التي ارتسمت على وجوه القوم لا ترتسم عادة إلا على وجوه الخونة من الرجال .

قالت : حسبنا أن هرمز لم يجسر على الرفض .

ــ : ان في قبوله سراً أيتها الملكة .

ــ : وماذا يكون هذا السر ؟

ــ : قبل ان يرضى هرمز بما ذكرته له ، هامسه وزيره ، ثم امرني بالانتظار

ريثما ينظر في الأمر مع أصحابه .

— : وهل في ذلك عار يا معن ؟

— : لا يا مولاتي ان العار في تلك اللهجة التي خاطبني بها الملك بعد استشارة الوزراء .. كان يقول أن رجاله عبيد الملكة تحييهم وتميتهم عندما تشاء وان سيوفهم لا تضرب ضربة الا في طاعتها حتى خيل الي انى في ساحة الحرب اسمع خطاب زبدا القائد الاكبر ودبت الحماسة في الصدر فكدت أصيح

فرنت في اذنه عندئذ ضحكة زينب ..

فقال دون ان يبالي : وكان رجاله يبتسمون كما ذكرت ويتغامزون كأنهم لقنوه ذلك الكلام الذي اسمعني أياه .. وانا يا مولاتي من اولئك الناس الذين يحبون ويبغضون من نظرة واحدة ، فلما رأيتهم يفعلون هذا . أبغضتهم وأبغضت ملكهم وقام في ذهني أن هذه المعاهدة ليست الا خدعة ولو كانوا يضمرون الوفاء لكان مظهرهم غير المظهر الذي شهدت ..

قالت : وما هو رأيك الآن ؟

قال : اخشى ان يفاجئنا اوريليان فنسألهم المعونة فيحولوا وجههم ..

— : لا نجد حولنا غير الرجال الذين يعيشون بالوهم .. افلا تتعلم يا ابن حمدان أن هذه المعاهدة جعلت هرمز عبداً لنا ندفعه إلى الأمام ونجره إلى الوراء في حروبنا مع الرومان ؟

— : من يدري يا مولاتي فقد يضمر لك الشر الذي تضمرينه له ، اتريدين أن تعطيه نصف آسية إذا مشت صفوفه مع صفوف تدمر ؟

فهزت رأسها قائلة : سنعطيه اكثر من هذا .. ثم لمع الطمع في عينيها وهي تقول : سنطوف في بلاد الفرس فاتحين بعد ان نستريح من قيصر .. ايظن العلج الفارسي أن المدائن التي هي مدينة عرشه ، باقية له ؟!.. ان الشرق لا يسع زينب فكيف يسع هرمز ؟! وأما أنه يخوننا في الموقف الصعب فهذا ايضاً لا يقدم عليه ولا يفكر فيه .. هل عندك شيء آخر أيها القائد ؟

قال : ذلك رأيي يا مولاتي وأنا واثق به .

قالت : لو سمعت لك الملكة يا ابن حمدان لخسرت تاجها في يوم .. سترى بعد قليل أنك كنت مخطئاً فيما رأيت .

— : إنه هرمز ابن سابور يا مولاتي وهو لم ينسَ أباه .

— : ليكن ابن من شئت فهو مكره على الطاعة .
ثم أمرت حاجبها بان يدعو أباها وزبدا .
فمثلا بين يديها بعد ساعة فقالت : اقرأ هذه المعاهدة .
فجعلا يقرآن وهما ساكتان حتى انتهيا .
فسألتهما قائلة : ماذا رأيتما ؟
فقال زبدا : لقد فاز ابن حمدان في مهمته ..
قالت : واعترف هرمز بخضوعه لنا خضوعاً لا شك فيه .
قال : أما خضوعه على هذا الرق فلا يعني خضوعه في ساحة الحرب .. ان الفرس لا وفاء لهم أيتها الملكة .
— : أتظن أنه ينكث عهده ؟
— : وماذا يمنعه من ذلك يا مولاتي والمعاهدات اذا نقضت لا تنفذ إلا بالسيف؟
— : وأنت ايضاً كثير الظنون ..
فأجابها أبوها قائلاً : وأنا يازينب مثلهم لا أصدق ان الفرس يحفظون الولاء .. وهكذا كان قوادها خصوماً لها في الرأي ..
واستطرد زباي قائلاً : ألسنا حلفاء الرومان يا زينب ؟
قالت : بلى .
— : ألم نكن من قديم الزمان اتباعاً لهم نأتمر أمرهم ونخضع لمشيئة القيصر المقدسة في كل شيء ؟ — : بلى .
قال : فأي شيء دعا اذينة الملك الى نقض عهده ثم قامت أرملته بعد ذلك تجاهر بالعداوة وتنفخ في قومها روح العصيان ؟
قالت : كان التدمريون عبيداً فصيرهم أذينة أحراراً ..
قال : وأنت تريدين أن تجعلي الملك الفارسي — وهو البعيد الصوت الواسع السلطان — عبداً لكِ افلا ترين انه في الساعة الاخيرة يخلع عنه هذا النير ويقف بجنوده موقف العداء غاضباً لحريته ، ثائراً على الملكة التي قيدته بقيود الذل ؟
قالت : لو أراد هذا لما وقع هذه السطور ..
قال : ان الخوف في هذا التوقيع .. اردتِ ان تصيديه فارسل سهمه الى موضع القلب .. وبدلاً من ان يقذف بالمعاهدة الى الفرات كما فعل أبوه ، قبلها مختاراً ليظهر لكِ انه سقط في الشرك ..

قالت : أتكون لهرمز مثل هذه الجرأة ؟

– : وهل تحسبين ملك الفرس شيخاً من شيوخ الصحراء ؟ انه ابن سابور وسليل الملوك الفاتحين الذين مدوا رواق ملكهم فوق الشرقين .. وفي تلك الساعة.. أجل لا تستطيعين في تلك الساعة أن تعمدي إلى السيف لتحملي هرمز على الوفاء بالوعد .. ان السيف في ذلك الحين يكون الحكم بين الشرق والغرب .. بينك وبين اوريليان . الذي ستحتاجين إلى جميع الجنود لأجل الوقوف في وجهه ..

فمنعتها عزتها من الاعتراف بأن هرمز يجسر ان يخدعها كما يظنون ..

ولم ينصرف القواد من البلاط الا وقد استسلموا إلى ارادتها التي لا تغلب وسكتوا ولكن على غل ..

بيتينية وخلقيدون . مصر الضائعة

خرافات الوثنيين – الاضطرابات في الداخل وفي الخارج – النار في الاقاليم

٣٩

قالوا لخادم الملكة ان الملكة تدعوك . فأقبل عليها ينتظر الأمر العالي الذي تأمره بقضائه .

فقالت له : أحمل كتابنا الى فيرموس والي مصر وقل له ان يعد جنوده ويتهيأ للحرب فالقيصر لا يريد ان تخفق اعلامنا فوق ضفتي النيل .

وبعد قليل ، أجل بعد قليل يرى حوله جنود تدمر بقيادة زبدا ، يحمون البلاد من الروماني الطامع ، ويمنعونه من الاستيلاء على الأرض التي سقتها دماء قومنا التدمريين ..

وكتبت اليه تقول : ان القوى الزاحفة إلى مصر يقودها بروبيس أحد اركان حرب الامبراطور وهو قائد يشهد له الرومان ويعترفون بدهائه . ولكن القوى التي ذكرنا ، اضعف من أن تنال من مصر ما تشاء ولو كانت اكثر من الرمال .

فاحذر أن يفاجئوك او يخدعوك ، ولا تظن أن الملكة تنسى صديقها الأمين الذي أحاطها بلاخلاصه . سنوجه اليك زبدا مع ثلاثين الفاً وعندك ثمانون من

مصريين ومن عرب فانت تستطيع ان تجعلهم جميعاً مئة الف وفي مثل هذا العدد تخمد انفاس الرومان الذين يبذلون حياتهم ليحفظوا حياة الأمبراطور.

اننا واثقون بالنصر يا فيرموس ولو غطى الجيش الروماني ارض فرعون قوادنا اكثر دهاء واشد بأساً من قواده . وجندنا اصلب عوداً من جنده . وايماننا .. نعم يا فيرموس ان ايماننا اثبت واصدق من ايمانه . وليس للملكة ان تخشى في هذه الحرب الا الخيانة .. الخيانة ايها الوالي .. فالمصريون لا وفاء لهم . والخيانة اقرب اليهم منها الى جميع الشعوب التي تخضع لنا.. هذا الذي نخشاه .. وهذا وحده الذي يدفعنا الى هوة الفشل والرجوع عن مصر . فاستوثق من وجوه القوم وزعمائهم .. واذا رأيت مظهراً واحداً من مظاهر المروق والخروج عن الطاعة فاجعل هؤلاء الزعماء رهناً حتى يبدو لك اخلاصهم واذا اضطررت فاقتل واصلب على مسمع ومرأى من القوم . ولا تبرز لعدوك الا وأنت مطمئن ..

وختمت كتابها قائلة : أما اليوم الذي ترى فيه جيش الرومان في مصر فلا نعرفه قد يكون غداً او بعد بضعة اشهر فكن على حذر :

٤٠

كانت افقا ، التي يعرفها اللبنانيون ، في آلهتها واصنامها وآثارها محجاً للوثنيين النازلين في هذه الاقطار . من دمشق الى حمص . ومن مدينة صور الى طرابلس..

والوثنيون مثل غيرهم من الشعوب . لهم في عبادتهم خرافات كانت زينب تهزأ بها ولا تحفل باخبارها . يقصونها عليها من حين الى حين . وفي افقا ماء غزير جداً هو للاله « الزهرة » فكانوا يحملون الهدايا الى زهرتهم ويقذفون بها الى ذلك الماء . فان رسبت في الغور فقد رضيت الآلهة وكانت سنتهم سنة خير . وإن طفت ! اذا طفت فالزهرة غير راضية والشر لا بدّ منه .. وقد ذكر ، ان التدمريين الوثنيين حجوا افقاً في سنة ٢٧٠ وطرحوا هداياهم الى الماء كما هي عادتهم ورجعوا الى تدمر . غير أنهم رأوا ، بعد عودتهم الى افقا في السنة الثانية ان تلك الهدايا لم ترسب وان الزهرة لم ترضى ..!

فاستولى الذعر على القلوب . وراحوا يظهرون خوفهم للملكة وهي لا تبالي

واي شيء يخافه اهل تدمر ؟.. ايخافون الحرب والنصر يمشي حيث تمشي جنود زينب والملوك والقواد يخضعون لسيفها الذي لا يكسر ؟ ان خرافات دينهم صيرتهم جبناء .. كانوا يقولون لها : ان الزهرة لا تكذب أيتها الملكة . فتقول : وزينب لا تخاف فاختاروا احدى الاثنتين .. وقام في اذهانهم ان الصواعق ستنقض على تدمر .. وان الآلهة التي استخفت بها صاحبة العرش ستعمد الى الانتقام

ولم تستطع زينب ، على رغم الهيبة والسلطان ان تمنع القلوب الخائفة من الاضطراب . ان الوثني شديد الايمان باصنامه . وهذه الاصنام اعظم قوة من الملكة الهازئة بكل شيء .. وزاد خوفهم ان زينب عبأت الجيش . وملأت تدمر من الخيل والنوق والرجال تريد ان ترسلها الى بيتينية .. ليستقيم لها الأمر في آسيا كما تقدم ويتم لها الفتح .

بيتينية علة العالل . لا ترى الملكة بداً من الاستيلاء عليها لتحفظ الداخل واذا هي ظلت في يد الرومان ظلت آسية كلها في خطر .. وكما امسى اقليم مصر لتدمر هكذا يجب ان يمسي ذلك الاقليم . وينتهي الأمر بأن يستسلم اوريليان على رغمه ويعترف بالحق . أجل ، انهم نقلوا اليها الشيء الكثير عن دهائه وقوته . لكن هذه القوة وذلك الدهاء . يتلاشيان امام القضاء السماوي الذي هو قوة الله ..!

أليست زينب كوكباً هابطاً من السماء ؟

نعم . انها الكوكب المشتعل الذي يحرق كل حي يمد يده اليه .

* *

هذه جنود تدمر جعلناها قسمين .. الواحد بقيادة زباي يستولي بسيفه على ابواب الشرق . ويزحف الآخر بقيادة زبدا يحفظ هيبتنا في مصر

اسمع يا زباي : إذا فتحت بيتينية فلا تقف .. بل ادفع الخيل على كل ما يجاورها من بلاد واقاليم حتى تبلغ خلقيدون ، وتضرب عليها الحصار ..

احقن دماء المستسلمين الطائعين . واجعل اللاجئين الى السيف طعاماً للنسور ..

واذا تصدى لك الامبراطور العظيم ، أجل اذا تصدى لك اوريليان نفسه فاضرب رأسه المتوج ولا تبالي . ان المجد كله في قطع ذلك الرأس .. وليس لك ان تخشى الرومان ووراءك اسود العرب ..

قال : سأخضع ذلك القطر ايتها الملكة دون ان ارى لأوريليان وجهاً ..

قالت : من يعلم فقد يكون الخبيث في « بيزانتيوم » مع الجيش

قال : بل هو لا ينظر الى الشرق قبل ان يطرد البرابرة من بلاده ويسترجع نفوذ روما

قالت : اذا لم ترَ القيصر فستنازل قواده .

– : وهل ترين أيتها الملكة اني ذاهب الى الصيد ؟ أجل سأنازل قواد الرومان واسحقهم وارفع راية العرب فوق تلك الحصون التي جعلها الرومان مقراً لجيشهم الظافر .. ولكن ماذا تفعلين بعد الفتح ؟

– : ما يفعله جميع الفاتحين

– : أنجعل لتلك الاقاليم حامية من العرب ثم نعود ؟

– : نعم .
– : ذلك هو الخطأ ايتها الملكة .

– : اتريد ان يبقى الجيش كله في بيتينية ؟

– : اجل . فالفتح لا يكون ليومين بل الى الأبد .

– : وماذا تترك لتدمر يا زباي ؟

– : اترك لها جميع القبائل النازلة في اطراف الصحراء

– : ولكنها ليست خاضعة لتدمر كما انها لم تخضع قط لملك

– : ومع ذلك فهي اقرب الى الخضوع للملكة من جميع الناس

– : اي أن نبذل لهم مالنا فيجودوا علينا بالسيوف

قال : هو ذاك

– : يكفي ما ندفعه لرجال العشائر الذين يحاربون تحت رايتنا . ان الملكة لا تحترم الجندي الذي يحارب لأجل المال

قال : ألم يشترِ اذينة الملك طوائف الأرمن واليهود وبعض رجال الصحراء في حروبه مع سابور ؟
– : بلى .

– : وما الذي يمنع الملكة من ان تفعل ما فعله اذينة والمال في تدمر كثير ؟

فابتسمت قائلة : لا نريد ان يبذل المال كله لرجال الحرب

– : ابذلي كل شيء ليتم لك الأمر ثم افعلي بعد ذلك ما تشائين .. ثم قال : انظري أيتها الملكة ماذا جرى في مصر .. ألم يترك فيها زبدا حامية ضعيفة ما لبث بروباتيس حتى داسها بقدميه واستعاد تاجه ؟

– : ولكن رأسه كان ثمناً لما فعل ..

قال : ان في مصر اليوم ، من أهلها ومن التدمريين خمسين الف جندي

– : وارى القيصر ، على رغم ذلك ، يتحفز للوثوب وسيرسل الجيش ليقضي على تلك القوة الكبيرة التي تحمي ذلك الاقليم .

– : ولا تنسَ ان قوة اخرى ستزحف من تدمر لتقف في وجه هذا القيصر .

قال : إذا ظفرت به فألى حين .. انه يستطيع في كل فصل من فصول السنة ان يعد جيشاً يملأ مصر ..

– : وما هو رأيك اذن ؟

– : ان الجيش الذي تبعث به الملكة لأجل الفتح يجب ان تجعله كله حامية للاقليم الذي يفتح ..

– : وتصبح تدمر بدون جيش وبدون قواد ..

قال : في تدمر مئة قائد يقيم بعضهم في الاقاليم والبعض الآخر في العاصمة .واما الجيش فاذا اشترت الملكة عشائر البادية البعيدة كان لها منه العدد الذي ترغب فيه .

قالت : دعونا من الشراء فرؤساء العشائر في جيشنا كالملوك يقاسموننا الغنائم والخراج وسننظر في هذا الأمر بعد قليل ..

قالت هذا وهي هازئة . وفي مجلسها بضعة عشر زعيماً من زعماء العرب فنهض ابوها وهامسها قائلاً : هؤلاء قومك وحماة العرش يا زينب ..

قالت : لولا الذهب الذي نمطرهم أياه لجردوا سيوفهم في وجهنا ومشوا في الحرب تحت لواء الفرس او بين صفوف الرومان . .

– : لا تغضبيهم يا ابنتي فأنت بحاجة اليهم ..

– : لا يغضبون وعندنا مال :..

ثم قالت : ان الرومانيين الذين يحاربون في صفوفنا ، اشد اخلاصاً لنا من هؤلاء القوم . وتلك القبائل التائهة في الجزيرة والعراق ، انبل اخلاقاً واشرف نصداً من اصحابك عرب البادية .. اننا اذا ندبنا العرب الى القتال فانما نندب من ذكرنا ولا نعبأ بغضب العشائر الذي تخوفنا به

– : أليس لهذه العشائر أهل ؟

– : واذا كان لهم ؟

– : ان جميع الذكور القادرين على حمل السيف هم في الجيش التدمري فمن يطعم نساءهم واطفالهم اذا لم تجد الملكة عليهم بما يعيشون به ؟..

– : نعطيهم اجراً ولا نعفيهم من الخراج .

قال : تلك عادة لهم من قديم الزمان ..

– : أما زينب فهي اعظم من الاستسلام الى العادات ..

قال : اراك تنفرّين قومنا وتدفعينهم بيدك الى الخروج عن الطاعة ..

— : انهم لا يجرأون على ذلك ..

— : بل يفعلون يا زينب اذا اضطروا ..

فنظرت اليه قائلة : يظهر انك تريد ان تجعل ابنتك التي ستسود العالم آلةً في يد العشائر .

— : بل أريد أن أجعل العشائر كلها آلة في يدها لا يجرد سيف عربي من غمده الا اذا أمرت صاحبه .

— : لا نسأل زعيماً ان يجرد هذا السيف حتى يطالبنا بحصته من الغنائم ويمن علينا بعد ذلك .. ثم رفعت صوتها وهي تقول : في الجيش التدمري طوائف من الأرمن والفرس واليهود والرومان تتناول جميعها أجراً من بيت المال .

فعرف الزعماء انها تعنيهم في ذلك القول

ثم قالت : ورجال الصحراء اكثر عدداً من هؤلاء . فاذا ارادوا ان يفعلوا كما يفعل الغريب الذي لا يربطه بنا رابط الجنس فلينزلوا عن الحصة التي نعطيهم اياها وليكتفوا بجعالة الجندي.. ولكن لا فافراد البدو لا يتناولون شيئاً والمال كله يستأثر به هؤلاء الأمراء ..واشارت الى رؤساء العشائر باستخفاف ..

فنظر بعضهم الى البعض الآخر وهم ساكتون ..

واستطردت قائلةً : سنبدأ بهذا بعد رجوع الجيش من بيتينية ..

فمرّت سحب سوداء أمام العيون . زبدا وزباي . وابن حمدان وسيار : ورجال البلاط والشيوخ والعلماء . جميعهم اضطربوا لما سمعوه وخفقت قلوبهم ..

ان الملكة تريد ان تخلق حادثاً جديداً في الجيش .. اي نصر يتم لزينب إذا لم يكن فرسان الصحراء أمام الصفوف ؟.. واي عدوٍ يثبت في وجه جند تدمر ، وهؤلاء البدو في المقدمة ؟.. انهم اسود تلبس لباس الجنود .. وانمار جعلتها الطبيعة رسل الموت أتريد زينب ان تبعدهم عن الجيش فتبعد عنها الظفر ؟!

إنها إذا فعلت تخسر كل شيء .. وأية حكمة املت عليها ذلك الرأي ؟

ان عزها لا يمس . ومجدها لا يتزعزع اذا هي تنازلت عن شيء من الخراج لأبطال العربان . وان القيصر نفسه ، لو استطاع ، لاشترى اولئك الزعماء بذهب روما وحارب بهم سكان العالم . لكن الكبرياء اعمت زينب فهي لا تطيق ان ترى في الجيش الا الجندي الذي يمد عنقه للقطع دون ان يسألها ثمناً لرأسه ..

أجل . والمال تعطيهم منه ما يشاؤون ولكن دون ان يساوموا . . !
امنعوا الطامعين من الوصول الى العرش التدمري . وابذلوا الدماء في سبيل المرأة التي رفعت الشرق الى السماء . وكونوا جماداً تدفعه الارادة الحديدية الى حديث تشاء ! ! ! ان القدر الجائر الذي اراد ان يسحق الملكة تحت قدميه هو الذي كان يتكلم في ذلك الحين . .

*

كان الناظر الى وجوه اشراف العرب يرى وجوهاً سوداء وعيوناً حمراء .
ذلك جرح في قلوبهم الكبيرة ونفوسهم التي لا تطيق الذل . . شباب الصحراء الأبطال يموتون تحت حوافر الخيل ليحيوا تدمر ، وحياتهم في نظر صاحبة التاج لا تساوي بدرةً من المال . . وقد غلت صدورهم كما تغلي المراجل . . لكنهم استطاعوا ان يكتموا ما في الصدور . . وزينب لا تعبأ ولا تحفل . . كانت تفكر ! تلك البلاد التي سيستولي عليها الجيش وعيناها تنظران الى الفضاء . .
وبينا الناس ساكتون والصمت يسود القاعة قام كبير الامراء فقال :
أتريد مولاتنا الملكة ان تقوم القبائل بدفع جميع الخراج ؟
فاجابته قائلة : بل نريد ان تخوضوا الميادين بدون شرط
— : ونبدأ من الآن ؟ — : بل بعد الرجوع من آسية . .
قال لقد رأينا ان نفعل غير ذلك ايتها الملكة . —: ماذا ؟
— : سندفع الخراج كما يدفعه أهل تدمر .
فنظرت اليه باسمة تنتظر النهاية
ثم قال : وننزل عن جعالة الجندي لبيت المال
فقالت في نفسها : لقد خاف الأمراء . . اما قوادها فقد عرفوا ان هذا هو الدهاء
ومضى الرجل في حديثه قائلاً : واذا شاءت الملكة ان تحسن الينا رفضنا الأحسان
— : ولماذا تفعلون كل ذلك ؟
— : لنثبت للجيش الذي يحارب تحت لواء الملكة ان عرب الصحراء أشد اخلاصاً لها من جميع الناس
فقال زباي : ان المال الذي تدفعونه للجباة يرجع اليكم ضعفين
ونظر الى ابنته فقالت : ان الملكة لا تعد بشيء . .
فاحمر جبين والدها من الخجل .

أما البدوي فقال : وتربة اذينة ما اخذنا درهماً .
وكان صوته يرتجف من الغضب .. لكن زينب لم تر ولم تسمع فقد اعماها الزهو مرةً اخرى . وسدل القدر حجابه بينها وبين مغزى ذلك القول
وعندئذ نهض زباي وسألها الدخول الى أحدى القاعات .
فأومأت اليه بالانتظار قائلةً لسيد العشيرة : هل عندك شيء آخر أيها الأمير ؟
— : ليس عندنا الا المهج نفدي بها العرش
قالت : حسناً وسننظر في كل ما ذكرت
ومشت الى احدى القاعات يتبعها كبار القواد

لقد سلحت يد اوريليان يا زينب بسلاح امضى من الفولاذ .. قالها زباي وعيناه تختلجان ..
فتجاهلت قائلة : اي شأن لهذا الرجل بيننا الان ؟
قال : أتشكين في أن القيصر اعظم الملوك الذين تقدموه .
قالت : لا نصدر حكمنا قبل ان نلمس باليد .. كان غاليانوس عظيماً فلم تجل الخيل جولةً حتى تحطم .. وكان كلوديوس اعظم فلم تبلغ عظمته نعل زينب .. وقد يكون اوريليان سيد العظماء لكنه ليس اسعد حظاً من الاثنين ..
— : اذكري أن الحرب على الأبواب ..
— : ونحن الذين نسعر نارها ..
— : وان الرومان اليوم غيرهم بالأمس ..
قالت : ان القوة تعرف في الميادين .
فقال واليأس في عينيه : ستصبحين يا زينب بدون قوة ..
— : أبي؟!
— : نعم وستشهدين حرباً تجرين بعدها اذيال العار .
فكادت بنت المشتري تخرج عن حدها .. أيقوم على سطح الأرض من يقول ان زينب ستذل .. ان الذي يدفعها الى مواقف العار لم يخلق بعد ..
غير أنها ضحكت لتخفي غضبها ثم قالت : انها نبوءة كاذبة يا والدنا ..
—: بل هي نتيجة لهذه المقدمة الخطرة. الا تعلمين ان رجال الصحراء نصف الجيش.
فحنت رأسها ولم تجب

قال : لقد ضربتِ هذا النصف ضربة اصابت قلبه

فقالت هازئة : أليس لهذا الجرح دواء ؟

فظهر الدمع في عيني الشيخ وقال : لقد نسيت يا زينب ان هؤلاء الرجال الذين تهزئين بهم قادوا جنود اذينة وزوجته الى مواقف النصر .

ــ : نسينا كل شيء الا حرمتنا فلا نرضى ان ينتهكها أحد .. ان أذينة اذا قام من قبره وحدثته النفس بان يستخف بنا قابلناه بالسيف .

ــ : أما العرب فهي قومنا . واما رجال الصحراء فقد بالغوا في الدلال .

ــ : بل لم يسألوا الملكة غير حقهم ..

ــ : ولهم علينا حقوق ؟

ــ : نعم . نندبهم الى الحرب فيتركون أرضهم واشياءهم ويحملون السيف ثم تطلبين الخراج والارض بور ! أترين ان اذينة لم يكن يعرف هذا ؟

ــ : انك كثير الأعجاب بهم يا والدنا أما نحن فالاخلاص المشوّه الكاذب لا ننظر اليه قال : يتركون الجيش فيفوز اوريليان .

ــ : في الشرق رجال كثيرون يسألوننا ان نأذن لهم في خدمتنا والدفاع عن الملك

ــ : اولئك هم الطامعون بالمال ..

ــ : لقد كنا ولم نزل ننثر الذهب في الفضاء .. !

قال : تجودين به على الغريب وتبخلين على العربي ؟ !

ــ : اما هذا فقد وجبت عليه الطاعة وليس له ان يبيعنا سيفه بيعاً .. ماذا تقول يا زبدا ؟

قال : خير للملكة أن تعمل برأي زباي ..

ــ : وان تظهر الضعف لرؤساء العشائر ..

ــ : ان اذينة الملك لم يكن ضعيفاً .

ــ : كانت له غاية فمشى وراءها لا يسأل عن شيء .

ــ : انهم رجال بأس يا مولاتي فلا تبعديهم عن الجيش .

قالت : ورجال صلف حذرناهم فلانوا . ألم تر كبيرهم يظهر الطاعة والرضى بما قلناه ..

فابتسم قائلاً : تلك طاعة لا تجاوز الشفتين .. انهم سيعودون من بيتينية الى الصحراء على أمل ان يخذلوا الملكة بعد ذلك .

— : أيجسرون على هذا ؟..

— : بل يفعلون كل شيء ولا يبالون ..

— : اذن فلينصرفوا الى صحرائهم فلا خير فيهم

— : اما أنا فأوثر استرضاءهم ولو غضب الجيش كله

وقام ابن حمدان يردد هذا القول

غير ان القدر لم يرضَ . وزينب لم تقبل . انها لم تخلق لتسترضي أحداً . واذا لجأوا الى البادية واحتاجت الى الرجال جرتهم من خيامهم جراً وامرتهم بالدفاع عن التاج .. « كالكلب الذي لا يذهب الى الصيد الا بالسوط .. » وهكذا .. نعم هكذا بدأ الحظ ان يخون الملكة التي لم يرَ مثلها هذا الكون ..

* * *

وامرت زباي ثانية بان يفتح بيطينية ثم يترك فيها عشرة الاف من الرجال ويعود بمن يبقى معه من الجيش .. فحاول ان يقنعها بالعدول عن هذا الرأي ..

قال : نفتح ذلك الاقليم ولا نعود الى تدمر حتى يستعيده القيصر . ولكن لبقي الجيش كله فيه

قالت : افعل ما امرناك به. اما اوريليان اذا فعل ارسلنا اليه هرمز وابطال الفرس .

قال : لم يكن الفارسي صادقاً في عهده .

— : اذا ثبت كذبه تركنا آسية وزحفنا الى المدائن ندك اسوارها على رأسه

فتنازعت زباي عاطفتان .. عاطفة العصيان واعتزال القيادة ، وعاطفة الدفاع عن الملكة المهددة بالاخطار . أيعصي زينب وهي مهجته وكل امله في حياته وعليه ان يرفعها بيديه الى ذروة المجد ؟ أم يطيعها وفي هذه الطاعة تخسر كل شيء ؟

ومن يبقى حولها من الاوفياء المخلصين إذا حمل ابوها لواء التمرد وطرح السيف ؟ وكيف يثبت هذا الملك اذا لم يصنه زباي بسفك دمه وبذل حياته ؟..

ان موته في ساحة الحرب وهو يعد لابنته طريق المجد . خير من ان يسلم العرش من وراء العصيان .. ولعله كان في تلك الساعة والدأ ولم يكن قائداً ..

أما ابن حمدان فكان جندياً يرى الموت في تلك الحرب فيقتحمه وهو باسم الثغر

أجل. ان النار التي اضرمتها زينب ، لا يخمد لهيبها الا إذا ماتت او مات اوريليان ولكن . إذا مات هذا فبين صفوف الرومان الف رجل يصلحون للعرش ·
أما الشرق ! الشرق كله . فليس فيه رجل واحد يستحق ان يخلف بنت زباي

كانت زينب هي الدولة . بل هي آسية .. فاذا زلت بها القدم سدل على تدمر الى الأبد ستار الفناء . وجيش تدمر ! ان ذلك الجيش الذي يقود ابن حمدان احدى فرقه ، لا يستطيع على رغم قوته وصبره وظفره في الميادين . ان يثبت الى النهاية في وجه الرومان الذين تنبت ارضهم رجالاً وجنوداً كالبحر الزاخر تقذف امواجه الرمال إلى الشاطئ .. ذلك ما كان يفكر فيه الفتى الحمداني .

وأنت ترى . ان قواد الشرق الذين خاضوا غمرات الموت في حروب الرومان والفرس ولم يبالوا . اصبحوا اليوم كريشة في مهب الريح لا يعلمون — بفضل الملكة اين يضعون اقدامهم . وقد استولت عليهم فكرة الفشل على أثر ما رأوه من شذوذ الملكة في الرأي . وثقت بهرمز بن سابور وهم يرون انه خائن . ونفرت أبطال البادية وهم المخلصون الذين لا تجد لهم شبيهاً في الجيش . وهزأت بالقياصرة وداست بقدميها سلطانهم .. ودفعت عليهم الخيل وهم الغزاة الفاتحون الذين دوخوا الأرض .. ومن يعلم ماذا يخبئ الزمان .. فقد يملأ الجيش الروماني اقاليم الشرق فتدعو هرمز فلا تجده .. ثم تستعين بعشائر الصحراء فلا تسمع لها صوتاً فتسقط الملكة الجالسة في حضن العلي ويتغير وجه الكون ..

وكان معن يقول في نفسه : ويل تدمر إذا تمت نبوءة حطان ..

لم تغضب عرب الصحراء ولم تظهر على وجوه امرائها دلائل الجفاء . كان الجيش يستعد للزحف الى بيطينية واولئك الأمراء ينظرون في أمر العشائر ويعدون الرجال للقتال .. والابتسامات على الشفاه كأنهم في عيد .. وكلما رأوا زينب في الساحة اشرقت وجوههم وحنوا لها الرؤوس .. وعين الملكة لا تنام .. لقد قالوا لها أن العشائر ستترك الجيش في ظلام الليل فكان قولهم ظنوناً كاذبة .

كان البدوي اصدق الجنود في الاستعداد للحرب . واحرص الرجال على حفظ النظام . اذا امروه بان يقتل نفسه أقدم على الموت وهو يهتف لزينب .

والهدوء يسود صفوف البدو في ساعات النهار والليل . حتى ان زينب التي خوفوها بعصيانهم . لم تثق بطاعتهم من قبل ، وثوقها بها في ذلك الحين ..

اي ان مظاهرهم كانت مظاهر خضوع ووفاء . وأما ما يضمرونه فأمر لم يكن مقدوراً عليه في تلك الساعة . لأن الظاهر الناعم اللين يحجب الداخل المريب ..

* * *

النصر الاخير

بيتينية تستسلم — ثم تستعين باوريليان — الجيش التدمري امام بيزانتيوم — موت وهبلات — زبدا في مصر — نبوءة حطان

٤١

قبل ان يترك الجيش عاصمة الشرق زاحفاً الى بيتينية . ملأ الفضاء دعاء وهتافاً للملكة التي طافت بين صفوفه يرافقها تيم‌الله والقواد .

— اذكر يا زباي ما قالته لك الملكة ولا تنس ..

فحنا الشيخ رأسه قبل ان يهمز جواده وهو يقول : الى اللقاء اني ذاكر كل شيء.

وحيا بيده حفيده تيم‌الله وزبدا ولوى عنق فرسه ماشياً أمام الجيش الى مواقف المجد . فجعلت زينب تنظر إلى الأبطال الحاملين ارواحهم بايديهم ليمهدوا لها سبل الوصول الى القمة .. وهي تبتسم ابتسامة الرضى والتيه وتقول :

لا يلبث زباي حتى يعود ظافراً فتصبح منافذ آسية في يدنا نفتحها لمن نشاء ..

ان فكرة الظفر باقليم بيطينيةجعلتها تثق بالفوز النهائي على الرومان . وخضوع العالم لها خضوعاً لم تحلم بمثله القياصرة من قبل . وعلى هذا الأمل . عادت الى البلاط لتجلس ساعة على فراش وهبلات ، ذلك الملك المنكود الحظ الذي يفتح له الموت ذراعيه .. وعند المساء ، مساء ذلك اليوم الذي زحف فيه زباي . اقبل على تدمر رسول فيرموس المصري ، يحمل النبأ الرائع بوصول الجيش الروماني الى مصر يقوده بروبيس رفيق اوريليان في حروبه .

وسلم الى الملكة رسالة مولاه فاذا هي سطر قائل ان الرومانيين يبلغون الثمانين الفاً . وانه اي فيرموس أخذ للحرب اهبتها ريثما ترى الملكة رأيها في الأمر

فسألته قائلة : أتعرف تيماجين أيها الرجل ؟

— : إن مصر كلها تعرف قائد الجيش .

ـ : وهل رأيته قبل سفرك ؟

ـ : رأيته مع الوالي يستعرضان الجنود ويتهيآن للقتال .

ـ : وجيش الرومان ؟ ـ : في الاسكندرية ايتها الملكة

ـ : ان فيرموس لا يذكر لنا في رسالته شيئاً عن تيماجين .

فحار الرجل في أمره إذ لم يكن يعلم ما هي الغاية من سؤال الملكة عن قائد المصريين .. ومن أين له أن يدري أن زينب كانت تخاف أن يخونها ذلك اليوناني وينضم إلى الرومان .. فقال : لكِ يا مولاتي ان تسأليني عما تشائين .

ـ : وهل تعرف اسرار الجيش في مصر ؟

ـ : اني من رجال فيرموس واعرف من أمور الجيش المصري الشيء الكثير

قالت : الجيش عندكم فريقان . فريق عربي وفريق من أهل مصر . فهل يعيش الفريقان في جو هادئ وتحت سماء صافية ؟

ـ : نعم والسلام يبسط فوقهما رواقه ..

ـ : ومن هم قواد الفرق ؟

ـ : بعضهم من العرب والبعض الآخر من ابناء البلاد

ـ : أجل . وهؤلاء اكثر عدداً من الاولين ..

ـ : نعم يا مولاتي ..

فتجهم وجه الملكة وبان في عينيها الغضب . وكادت تصيح قائلة :

لقد خسرنا مصر .. غير أن ذلك المظهر لم يلبث حتى اختفى .

فأمرت الرسول بالخروج وقالت لزبدا : لقد ولى تيماجين قيادة الفرق رجال المصريين فهو خائن ؟

قال : ان خمسين الفاً من الرجال يحلفون باسمه ايتها الملكة . فلو كان خائناً لثار على فيرموس وارسل اليك رأسه .

ـ : لعله ينتظر قدوم اصحابه الرومان ..

قال : ما نسيت قط ان تيماجين وحده هو الذي دلنا على طريق النصر في تلك المعارك الدامية .

قالت : فعل ذلك ليقتل بروباتيس ويخلو له الجو .. ثم يظهر اخلاصه لقيصر ويسأله ان يوليه ..

ـ : لا اعتقد يا مولاتي ان القيصر يغفر للقائد الذي يخونه ويقتل نائبه في مصر

ثم يقود الجيش العربي الى ذلك القطر ليرفع فوقه اعلام الملكة الطامعة بتاجه ..
قالت : لقد ظننت به الظنون من قبل أيها القائد .
— : نعم يا مولاتي أما اليوم فأنا واثق به .
— : كما اضمن وفاء زبدا وزباي .
ع : احذر يا زبدا فسنسألك عن هذا القول بعد أيام .
— : لقد قلت ولست براجع ..
— : وما رأيك في القواد المصريين ؟
فسكت زبدا يفكر في أمر هؤلاء . وطال سكوته فقالت :
أتضمن الخونة الذين ليس لهم عهد ؟
فرفع رأسه قائلاً : اما المصريون فلست واثقاً بهم
— : ومع ذلك فقد جعلهم صاحبك اليوناني رؤساء في الجيش يخضع لهم اكثر من نصفه ..
— : لقد فوضنا اليه يا مولاتي ان يفعل ما يشاء . ولعله أراد ان يسترضي الاقليم المغلوب على أمره ببعض ابنائه يجعلهم من صغار القواد .
قالت : حق القيادة للفاتحين ..
— : نعم ولكنه لو لم يفعل لاشتعلت في مصر نار الثورة .
فابتسمت قائلة : لقد بدأنا نرى ايماننا متزعزعاً ..
قال : وكيف ذلك ؟
— : نرى قوادنا يخالفوننا في الرأي ..
— : أتريدين يا مولاتي ان ينسى هؤلاء القواد انفسهم فلا يبدوا رأياً ولا يقولوا للملكة ما يعرفون ؟
— : وهل اعدمتنا الآلهة الرأي حتى نخطىء في كل ما نفعل وتصيبوا في كل ما تقولون ؟!
قال : لم يخطُ أحد منا خطوة واحدة بدون اذن الملكة ولم يقم في ذهننا قط ان نأتي في ساحات الحرب أمراً الا برأيها . ان الارادة الأخيرة هي لك يا مولاتي وقوادك عبيد لك يبذلون حياتهم في سبيل الملكة التي يمجدها العالم .. ولكن لنا قلوب يا مولاتي لا تعرف غير الاخلاص وهذا الاخلاص وحده هو الذي يملي علينا الكلام عندما تستشيرنا الملكة في شؤون الملك ..

— : كذلك الملكة لا تضع حجراً فوق حجر في هذه الدولة الا إذا شاورتك أتعرف ماذا نريد الآن ؟

فأدرك القائد أنها غيرت الحديث . فقال : فيما يعني مصر ؟

— : أجل .

فقال : تريدين ان انحي المصريين عن القيادة واضعها على الأثر بين ايدي اخواننا العرب .

— : أحسنت فافعل ذلك عند وصولك إلى مصر وقبل ان تنازل الرومانيين

وما كان زبدا الذي خبر الدهر ، ليقدم على هذا الأمر الذي يوغر صدور أهل مصر .. انه إذا فعل صيرهم جميعاً خونة وثواراً .

ولكنه لم يشأ أن يظهر لزينب ما يفكر فيه فقال : سأبلغ مصر يا مولاتي وسوف الحرب قائمة .

— : ولكن تستطيع ان تعزلهم وهم في الميدان .. ! !

فلم يقو على الصبر فقال : اتريد الملكة أن اقول نعم ام هي توثر الرأي الان ؟

قالت : وهل ترى غير ذلك ؟

— : نعم يا مولاتي فعزل المصريين اليوم او غداً .. في السلم وفي الحرب يفضي الى خروج البلاد من يدها .

— : اذن فالنصر في يد ابناء مصر يهبونه لمن يشاؤون

— : بل النصر في حد هذا السيف إذا لم يخن المصريون واما ان ادفعهم بيدي إلى الخيانة فهذا ما لا اقدم عليه .. ثم قال : لقد فتحت مصر وانا لا اثق بالذين يؤثرون المال على كل شيء . أفأنزع الرئاسات منهم فينضموا الى صفوف العدو ويحاربونا مجتمعين ثم يطردوننا من مصر إلى الأبد ؟ اني ورأس الملكة لا افعل هذا ولو قتلت قالها بلهجة لا تحتمل الاخذ والرد

فلانت تلك اللبوءة قائلة له : أواثق انت بالنصر أيها القائد ؟

— : أثق بكل شيء إلا بالمصريين ..

— : وعلى ماذا عولت اذن ؟

— : على اقتحام النار المضطرمة التي تكتنفها الاخطار من الجانبين من جانب مصر ومن جانب الرومان .. فاما ان يثبت المصريون الى النهاية فاحطم قوى القيصر . واما ان يخونوا فأنازل الفريقين ولا ادري لمن يكتب الظفر .

قالت : لقد بدأنا ، لأول مرة في حياتنا ان نشعر بالخوف ..

فاجابها قائلاً : وأنا خائف ..!

فانتفضت .. ثم نهضت مذعورة .. ثم مدت يدها إلى الامام تخاطب القدر قائلة : الويل لك أيها الزمان إذا لم تخضع لزينب ..

* * *

ومشى زبدا بجنوده من الطريق الآخر الى مصر .. في الشمال وفي الجنوب . قوتان زاحفتان من تدمر . لتسحقا عدو الملكة الذي يجرؤ على التفكير في القضاء على سلطانها الذي هو سلطان الله ..!! ولم يمر الجيشان ببلد الا تحت اقواس النصر وبين هتاف الشعب ومظاهرة اخلاصه . حتى انتهى زبدا إلى بلاد النيل . وانتهى زباي وابن حمدان الى ذلك الاقليم الذي تدلهت زينب بهواه .

وماذا نقول عن الحرب ؟ الحرب التي ارادتها الملكة مدمرة هادمة ؟.. ان زباي كان في بيطينية اسداً جريحاً . لا يريد ان يترك بلداً آمناً مستسلماً الى سلطان الرومان .. ولم يشأ الا أن يخضع الجبال والاودية لأبنته الملكة سيدة العالمين .

اطلق رجاله في البلاد فنفروا النساء وقتلوا الرجال .. الطود الشامخ يهوي تحت حوافر خيلهم .. والحصن العالي ينهار أمام سيوفهم .. والأسوار بجميع وسائل الدفاع والابراج تحط الى الحضيض . وحامية الرومان يحصد بعضها السيف ويلجأ البعض الآخر إلى الفرار .. ليس في بيتينية من يمنع التيار الهائج من الانحدار .. ولا يستطيع الحمام الضعيف ان يثبت في وجه افراخ النسور .. ذلك قضاء الله فمن يرد قضاء الله ..! ان زينب لا يطيب لها العيش الا بالفتح . فعلى ابيها زباي. زباي العظيم ان يفتح لها البر والبحر إذا استطاع . وانهار الدماء ! واشلاء القتلى ! اسبح ازينب ! والموت . مبيد النفوس وخاطف الأرواح تياه بالملكة الجبارة التي جعلته رسولها الى الامم .. الى الأمام أيها الجنود واسبحوا في الأرض الحمراء .. ان بيتينية استسلمت ولم يبق الا « خلقيدون »

وعلى خلقيدون ضربوا الحصار . دون ان يسأل زباي اهلها الخضوع له ودون ان يدعوهم الى طاعة ابنته . وأهل ذلك الاقليم يبغضون الرومان بغضاً غريباً لا تعرف الصدور اشد منه . غير ان ذلك البغض صار حباً فيه الاخلاص والوفاء . لعمال القيصر الذين ساموهم من قبل جميع صنوف الاهانة والذل ..

ومن الطبيعي ان ينقلبوا فجأة من اعداء إلى انصار . فان جيش الملكة الذي

رأوا فيه وهو بعيد عنهم . ذلك المنقذ الشفيق يقيل عثرتهم ويمحو ذلهم كان جلادهم القاسي يروعهم بالتخريب والقتل .

فدافعوا عن خلقيدون ولكن الى حين ، حتى إذا رأوا ان العرب لا تغلب لجأوا الى الغابات في اقليمهم يعقدون فيها مجالس المشورة وينظرون فيما صاروا اليه .

وقد فوضوا أمورهم الى فريق منهم صاحب دهاء ورأي يرى لهم مخرجاً من ذلك الضيق وملجأ يفزعون اليه . وليس أمامهم غير زينب واوريليان .

أما الاولى فهي التي ارسلت جيشها فشرّد شملهم في القفار . واما الثاني فهو الذي كانوا يؤثرون الهرب من ظلم عماله ورماح جنوده .. ولكن اوريليان اقرب اليهم من زينب .. وبيزانتيوم التي هي له على بعد خطوة منهم . فاذا شكوا اليه رجاله فقد ينصفهم ويطرد اولئك الرجال او يستبدلهم بالبررة الامناء . واما تدمر الغازية القاسية ، تدمر الظالمة والمنفرّة فلا خير فيها وليس في قوادها من هو أهل للرحمة والعطف ..

وقام أحدهم فقال : أي الملكين أحب اليكم أيها الناس ؟

فأجابه آخر قائلاً : القيصر ..

فردد القوم قوله وهتفوا : يعيش القيصر ولتمت زينب .. !

وهكذا .. هكذا خلق الدهر عدوا للملكة في بلاد ارادت فتحها لتجعلها مفتاح آسية .. ولو سمع التدمريون ذلك الهتاف لقام في اذهانهم انهم لا يستطيعون ان يثبتوا فتحهم بقوة السيف الا اذا جعلوا جيوش العرب كلها في ذلك القطر .

وقد يفعل الحلم في نفوس الناس ما لا تفعله السيوف في الأجساد .. ان ابتسامة واحدة يجود بها ثغر القائد الفاتح خير من القوة المنفرة يجعلها سلاحاً له في اخضاع الشعب الذي صرعته الأقدار . وليس هنالك عدو فحسب . فقد كثر الأعداء حول الملكة الصاعدة الى العلاء وهي لا تدري .. يخفون عداءهم وراء مظاهر الاخلاص .. ويبتسمون لها والقلوب تطفح بالحسد والشر ..

* * *

نعم .. ان القيصر خير من زينب فارسلوا الرسل اليه .

قالها الزعيم الخلقيدوني لقومه ، بعد ان تشاوروا في الأمر كما قرأت . وكان اوريليان يصارع البرابرة في ذلك الحين . فخرجت الرسل تحمل رجاء الشعب المستغيث ، الى الأمبراطور المعسكر على ضفة الدانوب مع اركان الجيش .

والبرابرة ينازلونه كل يوم وحربهم بين مدٍ وجزر لا يبلغ احد الفريقين غايته من الآخر . غير أن قوى الرومان كانت تزداد . وقوى عدوهم تضعف وتضمحل واوريليان ينتظر بحكمة ودهاء ذلك اليوم الذي يخوض فيه المجال ولا يعود منه حتى يقضي على القبائل المتمردة عليه . ولم يكن يعلم أن زينب دفعت خيلها على بيتينية . واستخفت بسلطانه من جديد وداست راية الرومان ..

ان نائبه في روما لم يرسل اليه أخبار الفتح .. وبينا هو جالس في خيمته مع اشراف الجند ينفضون عنهم غبار المعركة . في ليلة شديدة الظلام . اقبل حراس الليل يجرون وراءهم بالسلاسل اربعة رجال ليسوا من البرابرة الذين يعرف الوانهم.

وكان قاسياً جداً كما مرّ . وافراد الجيش لا يستطيعون ان ينسوا قسوته لكثرة ما يرون منها في كل يوم .

فنهض قائماً وفاجأ الحراس بقوله : خيانة في الجيش ؟!..

فانحنى احدهم وهو يقول : لا يامولانا . انهم عرب رأيناهم يطوفون حول المعسكر

فقال : جواسيس ؟

— : يقولون يا مولانا انهم من خلقيدون ..

فعاد إلى مقعده وهو يقول : فكوهم .. ثم قال : ليتكلم احدكم

فمدّ احدهم يده الى كمه واخرج رجاء الشعب المكتوب :

فتناوله وجعل يقرأ .. ثم رأوا تينك الشفتين الغليظتين ترتجفان . وذلك الجبين العريض يسود .. والعينين البراقتين تختلجان .. وطرح الرسالة من يده وقال لمن حوله وهو هادئ : زينب ..!!

فاستولى الذعر على قلوب رجاله وصاحوا قائلين : زينب ..!!

وهم لا يعلمون ماذا يقولون .. لقد ظنوا ان العرش الروماني قد تهدم..!

وان ابطال العرب غزوا روما وتربعت زينب في العرش .. والا فلماذا يتجهم وجه الأمبراطور ويتغير لونه .. ومع ذلك .. وعلى رغم الخوف الذي دبّ في النفوس . لم يجرؤ أحد منهم على أن يسأل اوريليان . انهم في ساعات لهوه وطربه لا يجسرون على السؤال . فكيف يفعلون الان وهو غاضب ؟

لكنه فرج ازمتهم إذ قال : لقد دهمتكم زينب أيها القواد ..!

فقالوا : في روما أيها الأمبراطور ؟

— : بل في بيتينية والعرب في خلقيدون ..

ثم قال : أتظنون ان الوصول إلى روما هين إلى هذا الحد ؟

قالوا : ان المرأة التي تثور في نفسها عاصفة من الطمع والجنون تقذف برجالها إلى الموت ولا تبالي .

فحوّل وجهه عنهم وخاطب الرسل قائلاً : وهل طالت أيام الحصار ؟

— : لا يا مولانا فالشعب لم تتهيأ له وسائل الدفاع .

— : اذكروا عدد الجيش العربي إذا قدرتم .

— : لا قبل لنا بعد طوائف الجراد ..

قال : هذا جواب خائف لا نقبله . ومن هو قائد العرب ؟

— : يدعونه زباي ..

فقال اركان الحرب : ذلك والد الملكة .

قال : سيكون لنا شأن مع الوالد والولد .. امكثوا الليلة في المعسكر وستحملون الجواب في الصباح . وقال للحراس : انزلوهم في خيام الجنود ..

ولما انصرفوا قال : هؤلاء هم القوم الذين يكرهون الرومان ..

— : ولكنهم رعية مولانا القيصر .

— : أجل . فليجربوا غيرنا لعلهم يذكرون الفضل

— : وتترك خلقيدون أيها الأمبراطور ؟

— : لا نترك شيئاً .. ان خلقيدون ستعود إلى احضان روما بعد ان نغادر هذا الشاطئ . أما اليوم فليقاسِ هذا الشعب الذي يكرهنا ما يقاسيه من صنوف التعذيب وليمت نصفه فداء عن القيصر ..

فهمّ أحد القواد بالكلام فاسكته قائلاً : تريد أن تقول ان اقدام العرب ترسخ في بيتينية بعد أيام فلا نقدر على طردهم منها . أليس كذلك ؟

— : نعم يا مولاي .

— : إذن فاعلم أن العرب جميعها لو اجتمعت في ذلك الاقليم لما استطاعت الثبات في وجه اوريليان .. ان الجيش الغازي الذي لا تمد اليه الأمة المغلوبة يد المعونة لا يثبت في الساحة . ثم قال : وسترون بروبيس بعد قليل يضع يده على مصر ويفني فيها جيش الملكة . وبيتينية التي دكوا حصونها يفرّ منها بدوي الصحراء إلى الأبد .. ألم نأمر بروبيس بالزحف إلى مصر ثم أمرناه بالبقاء ريثما يصدر اليه أمر آخر ؟ فقالوا : بلى .

قال : ذلك لان القيصر أراد أن يقرأ افكار المصريين قبل ان يستعيد اقليمهم . فلما عرفنا من اتباع القيصر المقيمين في مصر ان أهلها سيكونون في الحرب حزباً لنا ، وجهنا اليها الجيش ونحن واثقون بالنصر . هكذا سنفعل في بيتينية . نضم الخلقيدونيين جميعهم الى الجيش ونضع السيف في رقاب العرب حتى نمحو أثرهم . وعندئذ . عندئذٍ تعلم زينب ان اوريليان لا يستسلم الى اليأس . بعد اول جولةٍ يجولها في الميدان . كما فعل غاليانوس من قبل .

وهبوا ان الحكمة تقضي علينا بالدفاع عن خلقيدون الان . افنترك البرابرة الذين خارت قواهم ، يفتحون اقليماً ونحن ندافع عن اقليم آخر ؟ ان بيتينية سقطت فلنمنع اقليم الطونه من السقوط ، ولنضرب هذا العدو ثم نزحف إلى العدو الآخر ونحن مجتمعون ..

وكانوا يثقون به ويطيعونه . ورأيه هو الشريعة المقدسة التي يحترمون . فحنوا رؤوسهم خاضعين لقوله . أما هو فانصرف إلى الخيمة المعدة لنومه . واستلقى على سريره . بجميع السلاح الذي يحمل حتى ان خوذة الحرب لم يرفعها عن رأسه.

ولما طلع الصبح . كتب إلى الشعب يأمره بطاعة رؤسائه . ويدعوه إلى الصبر ريثما يترك شواطئ الدانوب.. ودفع رسالته إلى الرسل الأربعة واذن لهم في الرجوع.

*

لم تستطع قوة من قوى الرومان ان تتصدى لزباي في فتحه السريع الذي يشبه السحر . اذا فتحت له أبواب بلد دخل دخول الفاتح .. وإذا اغلقوها بوجهه هدم ودمرّ ودخل . حتى دانت له الشعوب واستظلت بظل رايته . فاستعاد في ذهنه ذلك الحديث الذي دار بينه وبين زينب . وجعل يفكر في الأمر وهو غير مطمئن ان عشرة آلاف رجل يجعلهم في بيتينية لا يحمون بلداً واحداً من ذلك الأقليم..

وماذا يصنع هؤلاء المساكين إذا دهمهم جيش القيصر ؟ وقد تهدمت الحصون وسقطت الأبراج والأسوار . فرأى ان يبقي عشرين الفاً . وهو عدد قليل جداً . ولو غضبت زينب وانكرت عليه ذلك التدبير .. أجل لتغضب . فغضب ساعة خير من ندم مستمر إلى الدهر . وهكذا فعل . ثم أمر بالحصون والقلاع فبنوها من جديد . وقسم الحامية اقساماً غير متساوية جاعلاً في خلقيدون ثلثي الجيش الذي ابقاه . أما ذلك الجيش . فمن الأرمن وعرب الجزيرة واليهود . لم يجعل بين فرقه فرقة واحدة من عرب البادية . كان يخشى ان يخونوا زينب كما مرّ . فلم يسلم

اليهم مفاتيح البلاد التي اخضعها لتدمر .

ووافقه في الرأي ابن حمدان وسيار . كانوا كلهم يخافون ويظنون الظنون . ولم يكن هنالك ما يدعوهم الى الخوف . فعرب الصحراء كانت في مقدمة الفاتحين ، وقد ابلت البلاء الحسن في التخريب والتدمير .. ولم يرتفع لرؤساء العشائر سوى إلا أصوات الطاعة والهتاف . ولم يخطر ببال أحدهم ان يترك صفه ويطرح السيف.

ولكن الحذر صفة من صفات القواد . وخدع الحرب تملي عليهم ، في معظم الأحيان ، الريبة وعدم الوثوق .

* * *

أتموا كل شيء وعادوا مع البقية إلى تدمر .. وقد ارسلوا الى الملكة رجلين من اركان الحرب ينقلان اليها البشرى . بشرى الفتح العظيم ..

وقصّا عليها حكاية الحصار في خلقيدون .. فاضطربت لهذا الخبر ولم تصغ الا اليه . إن البلد الذي تفتحه ويهجره أهله لا يكون فتحه ظفراً .. وهي تريد أن تهدم ما يبنيه الناس وهم يبتسمون ..

فقالت لهما : وماذا جرى للحامية ؟

— : قتلت قبل الحصار .

— : إذن فالشعب هو الذي لم يخضع ..

— : نعم وقد هجر ارضه كما ذكرنا .

فعتبت زينب أباها .. لقد عرفت أن زباي لم يعمد الى اللين ولم يخلص خلقيدون من عبث الجنود ..

ثم سألتهما عن الجيش الباقي في بيتينية فقالا : جئنا قبل ان نعرف هذا

فتمتمت تقول : لقد امرنا زباي بان يبقي عشرة آلاف رجل ولعله يدرك الان أن عصيان خلقيدون يقضي عليه بان يجعل هذا العدد ضعفين ..

ثم قالت : ماذا سمعتما عن الامبراطور ؟

فأفأجاباها قائلين : انه يحارب قبائل القوط .

فقالت للعلماء والشيوخ : وكيف اذن لزينب في فتح بلاده وهو الجندي الذي نشأ بين السيوف ؟

وكان الاستخفاف في كل معناه ظاهراً على محياها الزاهي . فلم يقل العلماء شيئاً وماذا يقولون والامبراطور الذي تستخف به أعظم ابطال الرومان في ذلك

الرمان وهم يخافونه على تدمر .. أما هي فلم تبالِ بسكوتهم بل لم تكن تبالي في تلك الساعة بالعالم كله لانها بدأت تحلم بالتاج الذهبي الأعظم الذي فتنها بريقه وجماله .. وهي الان في طريقها اليه . والاقدار خاضعة .. والدهر خاشع .. والحظ يبسم لها عن العظمة الخالدة ..

* * *

عندما أقبل زبدا على مصر كانت الأرض مصبوغة بالدماء .. وكانت انوار النصر تتلألأ فوق الرايتين . راية روما وراية تدمر . هذه تتقدم حيناً والاخرى حيناً والقائدان فيرموس وبروبيس لا يعرفان الراحة ولا يهدءان .. والجيش العربي في مقدمة الصفوف والمصريون من الوراء . ولم يقم دليل على خيانة هؤلاء كما ظنت زينب ورجال البلاط ، فالاخلاص في الدفاع والهجوم كان يسود الصفوف .

فلما انتهى الى الجيشين خبر وصول زبدا مع جند الملكة . اسودت وجوه الرومانيين وكبر الأمل في صدر فيرموس . لقد ثبتت له مصر وانتهى الأمر ..

غير ان بروبيس لم ييأس. ان أمامه امراً آخر لا بدّ من ان يقضيه فاذا تم له ، تمّ له النصر . .

فخطب في جيشه قائلاً : ان جيشنا في عدده اكثر من جيشي الملكة فلا ترجعوا الى الوراء ، وبعد أيام ينضم الينا ثلاثون الفاً من المصريين فيستسلم زبداويفر فظن الجند أن قائدهم يكذبهم القول . مع أنه كان صادقاً في خطابه .

كانت الخيانة تدبر في ظلام الليل . ابطالها زعماء مصر وفريق من اركان الحرب الرومان رفاق بروبيس . ولا تبدأ الخيانة الا عندما يخوض زبدا المجال .

نعم . فالمصريون كانوا يعلمون أنه قادم من تدمر ، وهم الذين نقلوا الى جيش القيصر خبر قدومه . وعند المساء اجتمع القائدان زبدا وفيرموس ووضعا خطة الهجوم الذي يسحق قوى الامبراطور . وقد احيا زبدا الليل كله يطوف بين فرق الجنود ويبعث الثقة والأمل الى الصدور .. حتى كان الصباح واصطف الجيشان ..

فانقضت العرب كالعقبان ويتبعها المصريون .. والويل لبروبيس إذا ثبت في الميدان .. وكيف يثبت والعاصفة الطائشة تقذف بجنوده إلى الحضيض . والرياح الهوج تصرع فرسانه وهم على ظهور الخيل .. ان تياراً قوياً من بني الانسان يندفع إلى الأمام . حاملاً الشقاء والموت لكل من يراه .. ذلك هو جيش زينب الملكة ..

فتصدى الرومان للتيار حينما اندفع ، لكنهم تنحوا عندما طغى .. ثم تراجعوا

مذعورين لما ثار ثائره .. وبروبيس نفسه أول من اطلق العنان لفرسه . وتبعه قومه لا يلوون على شيء .. ولكن إلى موضع معلوم جعلت الطبيعة أسوارها على جانبيه . كأنّ همساً سحرياً اوحى الى الجيش كله بالفرار اليه .

وقد عرف زبدا أن ذلك الموضع يجمعهم ولكن لا يمنعهم . فأمر جيشه بالوقوف تاركاً لصباح اليوم الثاني أمر الهجوم الأخير الذي ينتهي معه كل شيء .

انه لم يرد ان يقذف برجاله إلى مقر الرومان قبل ان يستريحوا . وقد يضيع ظلام الليل أمل اولئك الرجال بالقضاء على العدو ..

ونامت العرب على رجاء النصر في وضح النهار . ولو كان حطان حياً ، لعرف ان جماعات الرومان المذعورة التي تركت الميدان ، نامت ايضاً على رجاء ان تحصد سيوفها العرب في هجوم الصباح .. ان أعجب ما في الأمر ان الفار يحلم بالظفر ..

* * *

لم ينم بروبيس في ذلك الليل .. احياه كله في اعداد المواقف للصفوف .. كأنه يعلم ان واقعة اليوم الثاني هي خاتمة الحرب . أما زبدا . امير العرب وسيد السيف . فقد طابت نفسه لما رآه من اخلاص مصر . واستحق اعجابه كله . دهاء القائد اليوناني تيماجين في مواقف القتال .

سيوفكم أيها القوم .. كلمة رددها قواد العرب والمصريين بين صفوف الجنود . فانعكست أنوار الشمس على الاسنة والشفار . ومشت العرب أمام الصفوف كما فعلت امس ووراءها مشى تيماجين يقود جيشه المصري .. فلما وقعت العين على العين . رأى زبدا رجال الرومان على الخيل . وقد جعل بروبيس قواسيه ومشاته جناحين .. فاهتز على جواده وارتجفت ركبتاه .. لقد لمس الخيانة بيديه الاثنتين .. الرومان واقفون بالسلاح ينتظرون .. اذن لم يكن انسحابهم فراراً كما ظن بل كان خدعة . وان جيشاً آخر سينضم إلى جيش القيصر .. والا فليس لذلك المظهر الغريب معنى من معاني الحرب . كان يظن انه سيجد فلول الرومان . فاذا الجيش كله مشرع رماحه . فمرت سحابة سوداء أمام عينيه وحار في أمره ..

أيهرب وهو لا يرى شيئاً أم يأمر جيشه بالزحف إلى الأمام . ان الموقف هائل وكثير الخطر . تلفت الى الوراء فرأى المصريين في مواقفهم .. وفيرموس وتيماجين بعيدين عنه .. وليس في الصفوف ما يدعو الى الظنون ..

فخرج من تردده وحيرته وصاح بالجنود قائلاً : إلى الأمام .. وكونوا على حذر .

فجرت الخيل كانسيل المنحدر وعلت الأصوات .. الله يخلق النفوس والانسان يبيدها بالسيف .. ولا ينجو إلاطويل العمر كما يقولون .

انظر الى الصفوف فقد تلاحمت .. والى السيوف فقد اشتبكت.. والى الأجسام فقد تناثرت .. ومن اول جولة .. أجل من اول جولة هوت مقدمة الرومان الى الحضيض .. لكن الصفوف ثبتت للصدمة ولم ترجع .. أرأيت الجبل ترسخ اركانه في الأرض فلا تهزه العاصفات . هكذا كان بروبيس ورجاله يتقاتلون ولا يتراجعون

ولكن .. ولكن ما هي الا ساعة حتى دوت في الفضاء أصوات المصريين من وراء الجيش : الثأر من العرب ! ! الثأر من زينب ! !

وزحمت صفوفهم فجأة صفوف العرب تدفعها الى الرماح المشرعة بايدي الرومانيين .. وفي الوقت نفسه تقدم جناحا الجيش الروماني فسدّا منافذ الفرار من الجانبين . فأصبحت العرب داخل قفص له أربعة جدران من الحديد والفولاذ !

جدران تتحرك فيضيق القفص على المقيمين فيه . الرجال تسقط فوق الرجال . والخيل تقع على الخيل .. والنطاق يصغر ويتلاحم بقوة ذلك الدهاء الذي اوجدته قريحة بروبيس النارية والخونة أهل مصر .. فهلعت قلوب القواد الثلاثة وتلألأت دموعهم في العيون .. زبدا وفيرموس وتيماجين الذين كانوا واثقين بالظفر فاذا هم يرون انفسهم على شفير الهاوية .. جرى كل ذلك في ساعة كما مرّ . فحاول تيماجين أن يرد التيار المصري فلم يفلح .. وتصدى فيرموس لذلك الهياج فضاع تحت الحوافر والاقدام . أما زبدا فقد كان الوباء المبيد اخف وطأةً منه على الجنود..

وقد ضاع صوابه وهو يضرب بسيفه ويطعن برمحه ليفتح للعرب منفذاً ضيقاً تخرج منه الى الهواء الحر .. حتى فرّق السيوف والرماح . فصاح ثانية بالرجال قائلاً : اقتحموا الصفوف واخرجوا من القفص .. ودفع القوم بصدر جواده يعدّ طريقاً للجنود .. كانت قوة زبدا غريبة وعمله عمل جبار .. فتسابقت الرجال في الخروج . وهي تطعن الصدور من اليمين ومن الشمال وقائدها يحميها بصوته وهيبته حتى ابصرت النور ..

فسمع صوت البطل العربي الذي خانوه يقول : اتركوا الساحة فقد كتب لنا أن نفر .. وكان صوته صوت بطل يصارع القدر القاسي الذي لا يرحم .

وعندما سبحت الخيل في الفضاء أمر بروبيس جنوده بان يلزموا مواقفهم ولا ينقلوا في أثر الفارين قدماً .. لقد اكتفى بما تمّ له من النصر . وحسبه ، نعم حسبه

ان يترك التدمريون مصر وهم يتلفتون إلى الوراء .. تلك واقعة انتصر فيها اوريليان في ذلك القطر انتصاراً لم تحاول الملكة بعده ان تستعيد نفوذها الضائع فيه .

*

ورجع زبدا الى تدمر ، رجوع النسر المهيض الجناح والكآبة تملأ قلبه .
وكان ذلك في اواخر السنة ٢٧١

* * *

لم يستقبل الناس في تدمر ، زباي الظافر كما تعودوا ان يستقبلوه عندما يعود من الميادين .. وزينب نفسها لم تخرج الى الرواق . عندما قيل لها ان أباها ورفاقه القواد أصبحوا في البلاط .. ذلك لان الحمى كانت تحرق جسد وهبلات . والملكة ووصائفها والشيوخ والعلماء ينظرون بالاضطراب والخوف الى ذلك المريض المدنف الهاوي المشرف على الهلاك .. وفد يروح ووفد يجيء وطوائف من الأعيان والنبلاء تقف بباب القاعة التي ينام فيها الملك لتسأل عنه .

ان الحياة ستترك ذلك الجسد الفاني الذي احتمل ألمه بعظمة الملوك .

فوصل زباي وابن حمدان وسيار ودخلوا دون أن يستأذنوا . وكانت زينب مستندة الى سرير الملك وعيناها بعينيه .. ويدها اليمنى على رأسه . تعبث بشعره ولا تبصر احداً . فوقف القواد أمام الملكين يحنون رؤوسهم لجلال الملك وجلال الموت . والقلوب تنتفض بين الضلوع .. ثم جثوا على ركبهم كأنهم يصلون ..

فارتفعت أصوات الوصائف بالبكاء . وزينب التي تبعث بارواح الناس الى الفناء لا تسمع ولا ترى .. انها المرة الاولى التي كانت فيها أماً ولم تكن ملكة .

وقد زادها كآبة ولوعة مشهد فتيان صغار تبسم النضارة على وجوههم ويلمع العز في عيونهم هم تيم الله وخيران والاميرات الثلاث اقبلوا يلثمون جبين أخيهم الملك الذي بدأ بالاصفرار ..

فنظرت عندئذ الى من حولها وقالت بذهول : أيموت وهبلات أيها النبلاء ؟

فرفع ابوها نظره قائلاً : تجلدي يا ابنتي فالملك لم يمت .

فعادت إلى نفسها فجأة وحدقت إلى ابيها وهي تقول : أبي ! لقد عدت من الحرب ظافراً .. ان الدهر يبسم للملكة في آسية ويعبس لها وجهه في تدمر ..

فتمتمت شفتا كهيلة كلاماً لم يسمعه أحد ..

كانت تقول وهي باكية : « الويل لنا إذا لم يعد الى الابتسام .. »

أما زباي فقال : لقد مات اذينة وهيروديس وأنت صابرة .

قالت : ولكني ما احسست قط ان قطعةً من قلبي تنتزع منه .

وجعلت تتنهد وتقول : اجيل نظري في هذه القاعة فأرى الظلام .. والسحب السوداء تكتنفني فلا أبصر الا اشباحاً .. لقد ذكرت حطان .. ان ذلك اليهودي كان عزاء للملكة .. وذكرت مصر .. هذه مصر أمامي تموج بالجنود .. من كل جنس ومن كل قطر .. وأرى .. ويلاه ماذا أرى ! ! السيوف تحصد الرؤوس .. والحراب تغرز في الصدور .. والسهام تمرق من الاجساد .. وزبدا ورجاله يصارعون البحر الهائج الزخار .. وفيرموس وتيماجين كانا في الساحة فطواهما الغبار .. ويلاه .. من هذا اليوم الذي يحمل لتدمر العار . !

وخطت نحو أبيها خطوتين وهي تصيح : لقد فاز القيصر .. وتهدم نفوذ العرب . فلا كانت مصر ولا كنت يا اوريليان ..

وارتمت بين ذراعي أبيها الشيخ الذي بلّ شعرها بدمعه وقد اغمي عليها من شدة الحزن .. فعقد الاسى ألسنة القوم وسادهم يأس لم يشعروا بمثله في كل ما مرّ من حروب واخطار . وكأن الملك سمع امه تقص حلمها الرائع على رعيته .. لكره ان يستخف الرومان بقوتها ويسلبوها عزها .. ففتح عينيه ينظر إلى العلاء .. ومد يده يبحث عن سيفه الصغير ليضرب به عنق الجلاد القائم فوق رأسه .. ! عنق الموت الناشر على سريره ظله الرهيب .. فلم يجد الصغير شيئاً .. ولم يشأ الجلاد القاسي ان يجود عليه بلحظة واحدة يودّع بها أمه .. فرفع رأسه بتعب عن وسادته الناعمة .. ثم أعاده اليها بعظمة وهدوء .. واسلم الروح . !

وفي تلك اللحظة صحت زينب من الذهول .. فرأت وهبلات المحتضر جثة خرساء .. واباها ونبلاء البلاط تماثيل باكية .. فخلعت عنها رداء الملك الارجواني . ونسيت كل شيئ .. نسيت اسية ومصر وهرمز واوريليان .! نسيت كل من في العالم من ملوك وما فيه من عروش وتيجان .. وذكرت ان ملكها الصغير الذي هو قطعة من روحها سلبتها أياه الموت .. فارتمت على السرير وهي ترسل الزفرات وتبكي كما تبكي الأم ولدها البار ..

وعلى الأثر . انزلت الأعلام الظافرة عن ابراج القصر . ولبس البلاط الزاهي حللاً سوداء..واقبل الجيش والنساء والاطفال يبكون مليكهم المكفن بثياب العرش وكانت كهيلة بنت زبدا ومعن بن حمدان اشد الناس لوعةً واكثرهم بكاء .

أجل . لقد تنكر لزينب الحظ وعبس لها وجه القدر .. وأي جرح اوجع واشد تأثيراً من جرح الأم تهب الحياة لكثيرين ..! ولا تستطيع ان تهبها لفتاها الذي يموت بين ذراعيها القويتين .. ان تينك العينين الساحرتين اللتين لم تعرفا البكاء بكتا دماً على وهبلات . وذلك الرأس العالي الذي لم يخضع لمخلوق على سطح الأرض انحنى أمام القضاء الجائر حتى كاد يلامس التراب ..

سبحان من لا يخضع ولا يذل .. انه وحده يرفع رأسه الى نهاية الدهر .

لقد تركت زينب قاعة العرش . واتخذت لها مقعداً في قاعة الجلوس . تستقبل وفود المعزين القادمين من اطراف الدولة . حتى امتلأت تدمر وما حولها من النبلاء والاعيان .. وحتى مرّ على هذا الاعتزال عشرون يوماً كانت حياة الملكة فيها حياة خمول واستسلام .. وزينب لم تستسلم قط ولم تكن ضعيفة العاطفة .

وقد رأت ان الجلوس في القاعات للذكرى وذرف الدموع لا يليق بملكة الشرق فاستعادت بارادتها الحديدية تلك القوى التي لا تلين . وذلك الصبر الذي لا ينفد . وراحت تدعو الى قاعة العرش اشراف الأمة المخلصين للتاج . لتقص عليهم ما فكرت فيه بعد موت الملك . .

فرددت الأفواه خبراً نقله غلمان البلاط هو ان الملكة التي برّح بها الحزن تريد أن تجلس على العرش ، ولديها الاثنين تيم‌الله وخيران .

وقال الناس في انفسهم : سنرى بعد ذلك الحزن الغريب مظهراً غريباً من مظاهر العز والجلال .. ومعنى ذلك . ان الأم التي نسيت أمام جثة ولدها عزة الملك تعود الان إلى العرش .. فاقبل القوم على البلاط . واصطفت الجنود في الاروقة . والحراس على الأبواب وجلس الشيوخ والقواد في المقاعد المعدة لهم .

ودخلت زينب ..فهتفوا لها..فأومأت اليهم بان يسكتوا فاذا الهتاف يمسي همساً

وكانت يدها بيد تيم‌الله — كما فعلت بوهبلات من قبل — ويد زباي بيد حفيده الآخر خيران . وعلى الأسدين الرخاميين القائمين عن جانبي العرش تاجان صغيران للملكين احدهما تاج الملك الميت ..

فصعد الصغيران اولاً ثم لحقت بهما . وعندما استوت في مجلسها ناولها أبوها أحد التاجين واعطاها رئيس المجلس التاج الآخر . فوضعتهما على الرأسين وهي تحاول اخفاء الدمع ثم قالت :

يا ابناء الشرق : لقد خسرتم ملكاً فعوضكم الزمان منه ملكين

فارتفعت الأصوات عندئذٍ : يعيش الملكان ..

ثم دوى في القاعة صوت ابن حمدان يقول : وتعيش الملكة .

قالها وخنقته الدموع .. فردد الناس ذلك الدعاء وزينب ساكنة هادئة كأنها في عالم آخر لا ترى الوجوه الضاحكة حول العرش .

نعم. انها كانت في عالم آخر.. في حضن إلآه الحرب تفكر.. في اوريليان .. !

وبرقت عيناها وهي تخاطب أباها قائلة : أين قهرمان الدولة ؟

فاتجهت العيون الى الرجل الذي سجد باحترام وهو يقول : بين يديك ايتها الملكة :

فقالت له : أضربت النقود في تدمر باسم اوريليان وصورته ؟

— : نعم يا مولاتي فعلنا ذلك بأمر الملكة يوم ضربت النقود في الاسكندرية باسم مولانا وهبلات ..

— : حسناً فامحُ الان ذلك الاسم وتلك الصورة فليس لملك الرومان شأن معنا بعد الان .. وهذا هو الاستخفاف كله والاهانة الكبرى توجه الى اوريليان .

فلم يستغرب الناس ما سمعوه . ان زينب في جرأتها لا تقف عند حد . ولكنهم تهامسوا قائلين : ان سهامها، الواحد بعد الآخر ، ترسلها الى صدر الامبراطور وهو لا تعبأ به .. !

وكان عليها أن تصبر على الأقل ريثما تنتهي حفلة التتويج . ولكن كبرياءها كما قرأت لا تعرف الصبر . ونار اطماعها لا تخمدها الشدائد والاحزان.

وكانت الغيوم . تغطي شيئاً فشيئاً . كوكب حظها الساطع .. والسحب تحجب ذلك النجم المتلألىء الذي تألق في السماء .. والناس لا يعلمون . .

* * *

كذلك كان اوريليان العظيم يفكر في زينب .. بل لم يكن يفكر الا فيها وفي قبائل القوط التي اغارت على حدود ملكه . لقد عبثت سيدة تدمر بجميع العهود التي تربطها بجماعة الرومان . فمن العار ان يصبر الأمبراطور على هذا العبث ويستسلم الى الضعف . فحارب القوط في النهار وفي الليل . وفي اليوم الصاحي والليلة العاصفة . حتى افنى جموعهم وشردهم في كل قطر . وماذا بقي بعد ذلك؟ بقي عليه ان يولي وجهه شطر الشرق ويحارب المرأة التي ستبتلع روما ..

فقال لرجاله : لقد جاء دور آسية الان فهلمّ إلى زينب .

فظهر الحقد في عيونهم . عندما ذكرت هذه المرأة التي امتهنت حرمتهم

واهانت شرفهم . ومشوا بقيادة مولاهم الى حيث يستعيدون الكرامة الجريحة ..

الى بيزانتيوم اولاً . ثم عبروا مضيق « البوسفور » كما تعبره اسراب الطير ودعوا اليهم أهل خلقيدون الأبطال . الذين هجروا منازلهم ليعدوا للعدو المنفر عدة الثأر . ويسترجعوا الحرية الغالية التي خسروا .. وسارت صفوفهم الى خلقيدون تحجب وجه الأفق .

فبادر التدمريون إلى السيف . ولكن كالثعلب يتصدى للأسد . انهم لم يحملوا السيف الا ليسقطوا وراء الأسوار جثثاً مشوهة غارقة في الدماء .

نعم . في يوم وليل سقطت خلقيدون تحت ضربات جيش الدانوب الظافر الذي يقوده سيد الرومانيين . وهل يقوم في الذهن ان بضعة عشر الفاً من الأرمن واليهود يصرعون ستين الفاً هم ابطال ذلك الجيل . وهل كان القدر قاسياً الى حد أنه اعمى بصيرة زينب فلم تفكر في الفشل مثلما فكر زباي ؟

أجل .. ولولا جور القضاء وجور الكبرياء .. لما استطاع اوريليان الا أن يخضع كما خضع سواه ، لتلك القوة القاهرة المرسلة من السماء .

ثم عهد القيصر في أمر خلقيدون الى نفر من أصحابها . وطاف في بيتينية غازياً مظفراً يقتل ويهدم ويحطم حتى اجتاحت التدمريين جائحه الحرب وانثنت فلولهم تريد تدمر والذعر يملأ القلوب . واوريليان لا يستريح ولا يقف .. لقد كان يريد ان يستأصل ويمحو ويعفي الآثار حتى يبلغ غايته ويشفي غليله من الملكة التي استهانت به .. جاوز بيتينية الى غلاطية ففتحها بالسيف . ثم انتقل الى قفادوقية فقذف بالعلم التدمري الى مواطئ الأقدام .. وهو كالنمر المجنون يثب من غاب الى غاب ومن قمة الى قمة لا يعرف الهدوء .

وجيوش زينب المنتشرة في الاقاليم . تتراجع ثم تفر فراراً هو العجز والذل .

كانت الاقدار – في ذلك الحين – تسوقها بالسوط الى مواقف العار .. كما كانت تدفعها من قبل الى مواقف الفخار .. لم ي

لم يقف اوريليان الا في انقره !! وهي المدينة الحصينة التي تثبت بضعة أيام في وجه الفاتح .. لكن أصحابها تهيبوا بأسه . ففتحوا له ابوابها واستسلموا اليه ..

وعلى رابية قائمة في ظاهر البلد ، وقف الامبراطور في مساء يوم النصر . وأومأ بيده الى آسية الباقية قائلاً : سأجعل هذه الجبال والسهول وما بعدها ميداناً لخيل لرومان ..! وقبراً لقوى الملكة التي تتصدى لي .. ونام الامبراطور بعد ذلك

ملء عينيه ...

*

تركت زينب قاعة العرش وفي نفسها ثورة حزن وثورة يأس . وهي لا تعرف معنى لما تحس به من كآبة وألم . فلما وصلت الى الرواق سمعت غلمان القصر يقولون : جنود من خلقيدون ..

فخفق قلب زباي وناداهم قائلاً : ويلكم ما هذا ؟..

جنود من خلقيدون .. من خلقيدون ..

فمشت زينب إلى القاعة التي تجلس فيها للناس. وركبتاها ترتجفان.. ووجهها أصفر .. وتمتمت تقول : ادخلوا هؤلاء الجنود ..

واقبل النبلاء ورجال البلاط يسألون عما سمعوه ..

قاتل الله الزمان ما اقساه .. سلب الأرملة ولدها البكر . وسلح يده بخنجر مسموم يطعنها به ويبتسم للطعنة تخترق القلب .. أنها لم تجلس ولديها على العرش حتى فاجأها الجيش الهارب ينعي لها بيتينية وما يجاورها من الاقاليم . .

كأن هذا الزمان لم يشأ الا أن يضع السهم في موضع السهم .. وقد وصل الجيش إلى تدمر والناس ينظرون الى التاجين الذهبيين .. وكأنهم – لولا حزن زينب – في عيد . دخل الجنود وعلى جباههم سطور سوداء هي سطور العار .

فقال زباي اخرجوهم وليبق احدهم .. ففعلوا . وزينب تستعد لتسقبل الصدمة .. حتى توسط الجندي القاعة فقالت له :

لقد استعاد القيصر خلقيدون ؟ – : نعم .

– : وخضعت له بيتينية كلها ؟ – : نعم .

– : وضرب غلاطية وقفادوقية فاستسلمتا ؟ – : نعم .

فاستندت إلى الوسائد كي لا تسقط ، ثم قالت : واين هو الان ؟

– : سمعنا يا مولاتي انه في انقره وقد فتحت له ابوابها وسلمها اليه الشعب

فابتسمت قائلة : يفتح اوريليان آسية كلها ولا نعلم ؟

قال : كان يضرب البلد ثم ينتقل ليضرب البلد الآخر دون ان يقف ..

فتجهمت الوجوه . ودمعت العيون .. وزباي وابن حمدان يسمعان اقوال الناعي وهما مطرقان .. وقد ذكر زباي نصيحته التي لم تقبل ..

ولو سمع اعظم الملوك نفساً واشدهم بأساً ، ذلك الجندي الأرمني يصف

سقوط الاقاليم في يد العدو . لتفجر الدمع من عينيه وغاب عن الرشد .

ان البلاد التي استولت عليها تدمر بعد جهادٍ مستمر وصبر طويل سقطت في بضعة أيام .. وذلك الباب .. باب الشرق .. الذي ارادت ان تأخذ مفتاحه ضيعته الى الابد .. ومع ذلك . فزينب الثكلى . زينب المجروحة القلب لم تسترسل في الضعف . ولم تحنِ رأسها للعاصفة . كان قلبها يكاد يثب من موضعه . لكنها تجلدت أمام القواد والاعيان خوفاً من ان يخسروا بسالتهم ورباطة جأشهم فيخسروا كل شيء .

فقالت وهي تتكلف الهدوء : ومتى يقتحم اوريليان جبال طوروس ؟

— : لا أعلم .

أما زباي فأجابها قائلاً : يقتحمها بعد شهر ثم يمر شهر آخر فيصل الى انطاكية .. هذا اذا رأى أمامه من يتصدى له . واما اذا لم يرَ أحداً فسيبلغ حمص..

فقالت وهي تضطرب : انه سيرى الملكة وجهاً لوجه .

فجاشت نفس الوالد وهو يقول: بل تمكثين في البلاط فقواد تدمر لم يموتوا .

قالت : ونحن لم نذل . فاما ان نجر اوريليان بالسلاسل واما ان نموت .

وبدون ان تنهض عن مقعدها اشارت الى الناس جميعهم بالانصراف الا القواد وبعض العلماء ..

ومكثت تحدثهم بشؤون الحرب . بنفس ثائرة وصدر يغلي من الغضب .

في تلك الليلة كانت كهيلة تبكي وهي بين ذراعي زوجها معن .

لقد رأيت حطان بالحلم .. بل باليقظة وعلى نور الشمس .. رأيته واقفاً في هذا الرواق والدموع تتساقط على خديه .. وفي يده ذلك الرق الذي كتبه في مصر ..

وابن حمدان يحاول ان يبعد الاحزان عن ذلك القلب الطافح بالشعور الطاهر والعاطفة العالية .. ولكن حطان .. حطان الماثل في ذهنها والحي في صدرها لا يخون ولا يكذب .. هو القائل ان الملكة ستخسر التاج وستخسره .. وان الارتفاع الى العلاء يعقبه الانحدار الى الهوة .. فيا أيتها الآلهة .. أيتها الشمس التي يراك العالم في كل يوم .. أيها القمر الذي تملأ الصحراء نوراً .. والقلوب سروراً .. أيتها القوة الكائنة منذ الازل ولا يراك أحد . نجي زينب واحفظي الملكين .. وفي الساعة نفسها عندما كانت كهيلة تتمم هذه الصلاة . كانت زينب في غرفتها الخاصة . جاثية على

ركبتيها .. في الظلام . تناجي ارواح أذينة وهيروديس ووهبلات . وتخاطب روح المجنون حطان.. ذلك الذي آثر الموت على أن يرى التاج معفراً في التراب .

وكانت تقول : أيها النور السماوي الذي اضاء حياتي على العرش أضئ هذه الأيام التي بقيت لي لينجو تيم‌الله وخيران ! !

لقد ندمت الملكة في تلك الساعة على الكثير مما جرى .. وذكرت صاحبة السؤدد والسلطان أنها بشر .. اما الآلهة فلم تصغ ِ الى الصلاة.. واما الزمان فلم يعبأ بالندم ..

ونامت تلك الليلة نوماً مضطرباً رأت فيه جثث الجنود في مصر تحوم عليها الغربان فاستيقظت مذعورة . ومدت يديها إلى الأمام تستغيث بذلك النور السماوي الذي اخفى وجهه .. وقلبها يحدثها بسقوط مصر كما سقطت آسية . ثم اغمضت عينيها تستعيد الماضي .. فرأت نجمها يهوي من سمائه . ومجدها يضمحل أمام مجد اورليان . ونفسها تصغر أمام نفسه . ورأت عظمتها وعز الملك تحت اقدام الرومان وكبرياءها المقدسة تجرح بسيفهم .. فوثبت من الفراش .. مجنونة ! ثائرة ! وهي تهدد السماء . ان القوة التي حطمت جميع القوى لم تغلب بعد . والهيبة التي ملأت قلوب الملوك لم تمت .. فمدي يدك أيتها الملكة الى اورليان المتمرد على الله .. الله .. وليسجد للجلال الذي لا نهاية له ..

ونادت رئيس الخصيان قائلة له : ادعُ زباي وابن حمدان .

فقال الرجل في نفسه : ان الملكة لم يغمض لها جفن .. ودعاهما فأقبلا .

فرأياها باسمة الثغر كأن اورليان غير موجود ..

فقال زباي : اتفكرين يا ابنتي في هذا الروماني الذي قصوا علينا اخباره ؟

وهو يعني القيصر . فاجابته بهدوء :

بل نفكر في هذا الملك الواسع الذي أراد أن يسلبنا أياه .

فأراد الوالد البار ان يعيد الثقة والايمان إلى النفس المضطربة .. فقال :

أتخافين اورليان يا زينب ؟

فضحكت قائلة : عندما يدب الخوف في قلب زينب يسقط هذا العرش الذي تقدسون .

ثم قالت : لقد طالت غيبة زبدا ونحن لا نعرف شيئاً عن مصر الا بالحلم : لقد كثرت في هذه الأيام احلامنا السوداء ..

قال : لقد سمعتك تصفين حرب مصر كأنك بين الصفوف ..

— : ويخيل الينا ان الحظ خدم اوريليان في الجنوب كما خدمه في الشمال

— : وماذا يحدث في الشرق إذا خسرنا مصر ؟ أتظنين ان النصر يخفق فوق جنود اوريليان إلى النهاية ؟

فبرقت عيناها وهي تقول : نريد ان نخنق هذا النصر قبل ان يمتد ويبلغ تدمر . لقد كانت مصر وبالاً على الملكة وشراً على الجيش .

قال : الملكة التي يخافها العالم لا تندم .. ان السيوف التي اخضعنا بها الأقطار لم تزل في ايدينا نستعيد بها مجد زينب .

فنظرت إلى ابن حمدان قائلة : أتكست يا معن والملكة بحاجة الى الرأي ؟

قال : ليس للقواد رأي في هذا الزمن غير السيف .

وهو جواب يرضي الملكة كل الرضى . فقالت :

أحسنت وسنعد العدة للزحف الى العدو . ولكن ماذا نفعل وزبدا لم يرجع ؟

فقال زباي : لا يتهيأ الجيش حتى نراه في تدمر .

— : وهو يجر أذيال العار ..

— : ولكنه قضى حياته كلها وهو ظافر .

— : نعم ولا بأس إذا كبا جواده مرةً ..

وكانت تتكلم وهي واثقة كأن ذلك الهمس الداخلي نبوءة لا تكذب .

وأخذت تقول : لم يشهد اذينة وهيروديس . ولم يشهد زبدا وزباي . في كل حروبهم مع الفرس والرومان، حرباً تبذل فيها الأرواح ، كالحرب التي ستخوض غمارها بعد أيام .. فاجمعوا جموعكم من كل قطر . من فلسطين التي تبتعد رجالها عن الميادين .. ومن صور وصيدون وجميع الشاطئ . ومن عرب الجزيره وعرب الصحراء .. حتى يرى اوريليان ان الجيش الذي يحمي عرش الشرق لا تستطيع روما ان تجرد مثله . وحتى نضرب صفوفه ضربة قاضية يستسلم الينا بعدها ذليلاً مهيض الجناح .. فلما ذكرت الملكة عرب الصحراء اهتز زباي في مقعده .. ولكنه لم يشأ ان يذكر لها مخاوفه .. ان تلك القبائل النازلة في البوادي لا تنسى الأهانة . وهو واثق بأنها لا تحارب تحت راية الملكة بعد الان .

وكان الصبح يتنفس . فعادت إلى زينب نفسها كما كانت .. وعزها وكبرياؤها كما كانا . كأن وهبلات لم يمت . وكأن اوريليان لم يظفر !! وشعرت بأن

اوريليان أضعف من أن يثبت في المجال . وبأن العالم كله سيمجد اسمها ويضع تمثالها في هياكله بين تماثيل الآلهة ..

ونهضت قائلة : بادر يا أبي الى اعداد الجيش ريثما يعود زبدا من مصر

في ذلك اليوم نفسه أقبل زبدا الذي ينتظرون . وقد عرف قبل وصوله أن وهبلات قد مات . فمشى مع أركان الجيش الى القبر . وجثوا باكين يخاطبون مليكهم الذي قضى أيام ملكه على فراش الآلام .. وهي المرة الاولى . التي يعود فيها ذلك القائد الشيخ إلى تدمر . مغلوباً من عدوه .. فلما دخل البلاط رأى زباي والقواد في مدخل الرواق اقبلوا يحييونه بأمر زينب .

فقال : أتستقبلون القائد الهارب من الساحة ؟

فأجابه زباي قائلاً : بل نستقبل القائدالظافر الذي علمنا الدفاع عن الشرف .

وكانت الملكة مع ولديها في قاعة الجلوس . فاصفر وجه زبدا وهو بالباب . ولما لثم ايدي الملكين . دمعت عيناه ووقف وهو مطرق .

فقالت زينب : اجلس أيها القائد فقد انقضى عهد البكاء الان ..

قال : لقد ضيعت ثلث الجيش في مصر ايتها الملكة

قالت : كنت ولم تزل سيد الأبطال ومنقذ تدمر . ونحن واثقون بانك لا تغلب إلا إذا خدعوك ..

ـ : أجل . لقد خدعت يا مولاتي . لقد خدعت .

ـ : أكان تيماجين خائناً ؟

ـ : بل كان اخلص القواد واصدقهم قتالاً أما الخونة فهم المصريون الذين وهبنا لهم الحياة ..

فرأت الملكة ان تكف عن السؤال . ان مصر قد ضاعت فلتطوها الأيام ولكنها تسأل عن أصحابها . فقالت : وفيرموس وتيماجين ؟

ـ : طوتهما العاصفة على ما أظن .

فكان رثاؤهما بليغاً إذ قالت : الذي يموت في سبيل وطنه تخلد ذكره الأجيال

ثم قالت : وهل لك رأي في بيطينية الضائعة ؟

ـ : عرفت يا مولاتي أننا خسرناها فلنسترجعها .

ـ : لا نسترجع شيئاً قبل أن نبارز القيصر . اذا كتب لنا الظفر وضعنا ايدينا

على الاقاليم الضائعة وان لم نظفر ضاعت الاقاليم الباقية ومعها تدمر .. وقد أمرنا باعداد الجيش قبل ان تعود .

وجعلت تقص عليه ما فعل اوريليان في آسية والقائد يفكر في هذا الانقلاب الفجائي .. ضربة في مصر . وهزيمة في بيطينية . والبلاط يلبس السواد حزناً على وهبلات .. ذلك جفاء من الدهر لا يطاق ..

*

والمصائب . وان كبرت نفس المرء . توثر في الذهن وتضعضع قوى تلك النفس فقد كادت زينب تنسى تلك المعاهدة بينها وبين هرمز . فلما ذكرتها . احست بان الحمل الثقيل الذي تحمله لم يبق له أثر . ودعت رجالها فاختارت أحد كبار الحراس وجعلته رسولها الى ذلك الحليف الفارسي . ان الساعة التي يثبت فيها صدقه قد اتت . وهذا هو اليوم العصيب الذي يظهر فيه اخلاصه .

وكتبت اليه كتاباً فيه ما يشبه الاستعطاف .. وكان هرمز واقفاً بسلاحه . وقد هاله ذلك الظفر الغريب العجيب الذي يرافق اوريليان في حروبه . لقد كان خائفاً أجل كان يخاف ان يقود القيصر صفوفه إلى بلاد الفرس في ساعة من ساعات النصر.

ولعل الملكين . اوريليان وزينب . يغزوان فارس . وهما متفقان . وهرمز مطمئن .. فعبأ جيشه . وبث العيون . ووقف موقف الحذر .

وكان الرسول الذي اوفدته زينب داهية فصيح اللسان . نبيل المبدأ والقصد . فلما سجد بين يدي الملك . وناوله رسالته . ابتسم له هذا كما يبتسم لوزيره وجعل يقرأ بالعين الواحدة . وينظر اليه بالعين الاخرى .

ثم طرح الرسالة فجأة وقطب حاجبيه وهو يقول : اوريليان في آسية يهدم الأسوار ويفتح المدن ونحن لا ندري . فنظر اليه رجاله نظرات الاستغراب ..

كأنهم لم يسمعوا من قبل اسم اوريليان .. ثم قال الملك : العهد بيننا وبين الملكة انها تبعث الينا باخبار اوريليان عندما تطأ حوافر خيله أرض آسية ..

فقال الرسول : لقد هدم القيصر وخرّب والملكة لا تعلم حتى وصل إلى انقره واستسلمت اليه .

— : واين كان جيشكم الظافر وفيه الأرمن والفرس واليهود والعرب . وفيه القواد الأبطال خواضو الغمرات ؟

— : ان حاميتنا في تلك البلاد قليلة العدد والقواد الذين يعنيهم مولاي الملك

مقيمون في تدمر .　　　　　　　　　— : وزبدا معهم ؟

قالها اللعين ليختبر صدق الرجل .

فأجابه قائلاً : كان زبدا في مصر وقد عاد منها اليوم .

قال : لقد حارب زبدا سابور ولم يفشل فكيف غلبه المصريون ؟

— : لم يغلبوه يا مولاي ولكنه لمس خيانتهم فتراجع من الساحة ثم امرته الملكة بالرجوع ..

فملأت ضحكة هرمز ذلك الايوان العظيم وفاجأه بقوله : اذن كان فرار صاحبكم من مصر نصراً للملكة .. انكم معاشر العرب أهل خيلاء وعز ..

ثم لمع الحقد في عينيه وهو يقول : لقد نقل الينا عمالنا ان ارض فرعون ارتوت من دماء التدمريين . وان فيرموس وقائداً آخر معه داستهما الخيل ..

— : قد يكون ذلك يا مولاي ولعل زبدا كتمنا الأمر فلم يبح به الا للملكة .

— : صدقت أيها العربي فالجنود لا يعرفون جميع الأسرار .. ولكن قيل لنا أنه خسر في حربه معظم الجيش ..

— : ان الجند الذي زحف إلى مصر لم يمس .

— : وهل لبست رجالكم طلاسم الساحر ؟

— : لا اعلم يا مولاي ..

فقال هرمز في نفسه : عنيد ورابط الجأش فلا يبوح باسراره .

وفي تلك الساعة كان الرسول يقول ايضاً في نفسه :

لو ملأت فمي دراً يا هرمز لما اعطيتك شيئاً ..

— : وعلى أي شيء عولت الملكة الان ؟

— : على ما ذكرت في كتابها الى الملك .

فقال : لقد بدا لنا أنك جئت لتأخذ لا لتعطي ..

قال : ألم تذكر لك الملكة ما تسأل عنه يا مولاي ؟

— : لم تذكر غير الحرب وهذا كتابها .

— : إذن اقص على مولاي الملك ما سمعته في البلاط .

فهز الملك رأسه قائلاً : هات فنحن راضون .

قال : مر بما تشاء يا مولاي .

— : أتقود الملكة بنفسها جنود تدمر ؟

ـ : نعم يا مولاي .   ـ : ومن يبقى في تدمر ؟

ـ : طائفة من القواد وبعض فرق الجيش .

ـ : إذن سيكون الجيش الذي تهاجم به اوريليان ضعيفاً بالنظر الى جيش الرومان .   ـ : لماذا يا مولاي ؟

ـ لان قوى تدمر ، عندما تجمع اطراف الدولة كلها ، سبعون الفاً من الرجال ليس غير وقد قتل منهم الكثير .   ـ : نعم

ـ : ولكن هب أن السبعين الفاً تحت السلاح . فاذا تركت الملكة حامية لتدمر كانت تلك الحامية على الأقل عشرين الفاً . وعلى رأس الباقي وهو خمسون الفاً تزحف زينب الى آسية وهذا ما اردنا ان نقوله .

ـ : اثبت لمولاي ان الملكة ستقود سبعين الفاً كما سمعت .

ـ : وهل تخلف زينب الرجال ؟

ـ : الجيش هذه المرة كثير يا مولاي .   ـ : من أين ؟

ـ : من الجزيرة والصحراء وشواطئ فينيقيا ولبنان .. ونصف سكان فلسطين يحملون السيف ..   ـ : وجنود اوريليان .

ـ : اعتقد ان مولاي الملك يعرف عددها ..

فلم يقع هرمز في الشرك . فقال :

لو عرفنا ان اوريليان في آسية لعرفنا عدد الجنود ..

ـ : التدمريون الذين رجعوا من انقره يقولون ان قوى الرومان تبلغ الخمسين الفاً .. فتناول الملك الرسالة مرة ثانية وجعل يقلبها بين يديه ويقول :

لقد قضي إذن على عرش الرومان !

ـ : نعم يا مولاي وفي انطاكية سيخسر تاجه ..

مسكين اوريليان لقد قذف بنفسه إلى النار .. ومتى تترك الملكة تدمر أيها الرجل ؟   ـ : انها تنتظر أمر مولاي الملك

ـ : أما نحن فلا رأي لنا في هذا . ان المعاهدة تقضي علينا بالدفاع عنهاوسنفعل ولكنها نسيت اننا لا نستطيع الدفاع بدون جيش ونحن لم نجمع جموعنا بعد ..

قال : رأيت المدائن تغص بالرجال يا مولاي .

قال : ذلك هو جيش السلم أيها الرجل .

ـ : وماذا أقول للملكة ؟

— : لتزحف بجيشها إلى انطاكية وسنراها فيها ..
— : أتأذن لي يا مولاي أن اسألك عن عدد الجيش الفارسي .
— : لا يكون جيشنا أقل من جيش الرومان .
— : وهل تبلغ انطاكية بعد شهر ؟
— : هذا ما لا نعلمه الان . فقل للملكة ان تبادر إلى الحرب فهرمز بن سابور لا ينقض عهده .. وقال لمرازبته : اجمعوا جيشنا واعدوا افيال الميادين واكتبوا الى العمال ليعبئوا الأبطال المجربين . هكذا تريد زينب وهكذا نحن فاعلون

وأمر وزيره فكتب إلى الملكة ما املاه عليه من كلمات الاطراء والوفاء . واثنى ما طاب له الثناء ..

ولما خرج الحارس التدمري من مجلس الملك . سمع الحراس والحجاب في الاروقة قهقهة هرمز وضحك رجاله .. انهم كانوا يهزأون بزينب . ويضحكون من بلاهتها .. وذلك اغرب ما في الحياة من مظاهر وعبر .. فمتى كان الفرس يهزأون بزينب قاهرة سابور .. ومتى اصبحت اعجوبة الاجيال ومفخرة الزمان مضغة في الأفواه ؟!

وحمل حارس الملكة رسالة هرمز . وهو يعلم انه يحمل وعداً كاذباً وحقداً رآه في عيني الملك الفارسي .

*

أما زينب فقد صدقت ذلك الوعد ، والملوك الذين هم امراء النبالة والاخلاق لا يكذبون .. وأخذت تدمر تموج بالجنود . وزينب تبذل المال لتشتري الرجال القادمين من جميع الأقطار .. أما عشائر الصحراء .. فلم تقع العين بين تلك الطوائف الكثيرة ، على عشيرة واحدة منها .. لقد تركت تدمر الى البر الذي ليس له آخر . بسلاحها وخيلها وجمالها . في ليلة شديدة الظلام . دون ان تعبأ بالملكة . ودون ان تبالي بالاخطار التي تكتنف تدمر . تركتها على أمل أن لا تحمل السيف في ظل زينب ولو ملأت لها الصحراء الواسعة ذهباً ..

فجودي بالمال أيتها الملكة على غريب الدار . وابخلي به — كما تشائين — على الأهل والجار . وتلك العشائر هي ركن الجيش الثابت . وسيفه الذي لا يغمد . وقوته التي لا تتعب ولا تمل .. وابطالها هم رفاق اذينة وهيروديس . وجنود زبدا وزباي . واضعوا الحجر الاول في صرح استقلالهم . ورافعو لواء الحرية في

وجه الرومانيين .. فلما نقلوا الى الملكة خبرهم . تميزت من الغيظ . ثم خاطبت أباها قائلة : أعطهم ما يشاؤون من المال ..

فابتسم زباي وقال : لو اعطيناهم بلاط الملكة لما رجعوا .

— : إذن نبعث اليهم جيشاً يمحو آثارهم ..

— : نحن احوج إلى الجيش الذي تبعثينه إلى الصحراء .

— : وماذا نفعل اذن وهم كثيرون ؟

— : نعتاض عنهم قبائل العراق التائهة التي اقبلت طلائعها امس .

فذكرت خطأها . ورفعت نظرها الى السماء . كأنها تبحث عن ذلك النجم المتلألىء الذي خمد نوره .. لقد كانت تراه من قبل .. أما اليوم فقد ضاع .. ولم يشأ القواد ان يذكروا لها كلمة عما مضى .. يكفيها انها في الموقف الصعب الذي لم تبصر تدمر مثله منذ ارتفع فيها العرش ..

* *

عدوا الجنود .. انهم يبلغون السبعين الفاً كما قال ذلك الرسول لهرمز .

— : إذن سيكون لنا في انطاكية مئة وعشرون الفاً من الرجال .

فقال زبدا : أتعدين الفرس يا مولاتي ؟

— : أجل نعد جميع القوى التي ستحارب الرومان .

— : أما أنا فلا أعد الا هذا الجيش ..

قالت : ألعلك تخاف ان يكذب هرمز ؟

فرفع صوته قائلاً : ستنتهي الحرب بيننا وبين اوريليان ولا نرى فارسياً

فتراجعت مذعورةً وهي تنظر باستغراب إلى القواد .. ما هذه القنبلة التي قذف بها القائد العام ؟؟.. أنها خيانة إذا اقدم عليها هرمز هزأ بها الجيش .

فقالت بصوت هادئ : أيفعلها ذلك الفارسي ؟

— : نعم يا مولاتي ولو كان صادقاً لأرسل بعض جيشه قبل ان يترك الرسل بلاطه.

— : ولكن قد لا يستطيع ان يهيئ جيشه كما قال .

قال : أترين يا مولاتي أن اخدع نفسي ؟ — : لا ..

— : إذن فاعلمي انك لا ترين وجهاً لهرمز بعد اليوم .

فاستيقظت نفسها الكبيرة ، بأبلغ مظهر من مظاهر القوة وقالت لمن حولها لقد قهرنا القياصرة من قبل دون ان نستعين بالفرس . فلنزحف الان إلى

انطاكية وسيأتي يوم تمشي صفوفنا فيه الى المدائن حيث يؤدي الينا هرمز حساباً عن الأكاذيب .. مهلاً يا ابن سابور . إن الملكة التي خضع لها ابوك لا تعبأ بك ، ولا نخالك نسيت الجيش العربي يطوف حول اسوار العاصمة التي جعلت فيها عرشك . وكانت تتكلم كأنها لا ترى أحداً ..

فقال زباي : اتركوا هذا الفارسي الان وانظروا فيما نصنع ..

قالت : أحسنت فالكلام يضيع وسنفعل كل ما قلناه . ماذا ترون الآن ؟

فقال زبدا : نحن في شدة وليس فينا من يصلح لابداء الرأي في الشدائد .

وقال زباي : وليس فينا عندما تريدين امراً من يقول لا ..

وقال ابن حمدان : نحن الجنود الذين يعرفون ان يطيعوا الملكة ويرفعوها إلى عرش الرومان ..

فهدأت ثورة نفسها . كالملك العاتي يهيج ثم يلين للمتملقين .. ومشت الى قاعات الملكين لتوصي بهما قهرمان القصر وخصيانه وعلماءه والأمل والرجاء يملآن قلبها الكبير .

* *

الملكة الجبارة يخونها الحظ

والقواد الظافرون يتركون الساحات — المرحلة الأخيرة من مراحل العز

٤٢

أما الصفوف التي يبرق سلاحها في الفضاء ، وفي مقدمة الفرسان الزاحفين من تدمر الى آسية ، فرس اشهب ، استوى في سرجه فتى تبسم النضارة في خديه وشعاع الذكاء في عينيه . وعلى رأسه خوذة الحرب الخضراء ..

من هو هذا الفتى الذي يسير في الطليعة ؟

هو زينب .. زينب نفسها التي لا يطيب لها العيش وفي الوجود رجل يغزو اقطارها ويدعونه اوريليان .. وقد جعلت جيشها ثلاثة اقسام : الاول يسير في طريق حلب ، والآخر في طريق القريتين . يقودهما زبدا وزباي . والثالث في طريق حمص وهي على رأسه ، يرافقها ابن حمدان مع حراسه . وسيار مع

طوائف الرماة . والجيش كله يريد انطاكية ، وفي سهولها يتلاحم الجشيان : جيش العرب وجيش الرومان .

وكانت زينب تجهد في السير لتتصدى للقيصر في الأقاليم التي خضعت له ، كأنها تريد ان تقول للعالم : ان ملكة تدمر تنازل الأمبراطور الظافر وهو في عقر داره ولا تبالي .. وكانت هادئة .. على رغم تلك النار المستعرة في الصدر ، وذلك الذل الذي أحاط بجيشها في الميادين . ومعنى ذلك ان فشلها في آسية ومصر لم يفقدها عظمة نفسها الغريبة ، ولم يضعف ثقتها بالظفر الاخير في المعارك الحمراء .

لقد عاد الأمل إلى قلبها المضطرب ، وكانت ترى من وراء تلك الحجب السوداء التي سدلها القدر بينها وبين عرش الرومان .. ان ذلك القدر نفسه يبسم لها بالقرب من ذلك العرش . ولعل الأيام أرادت أن تجاريها في ذلك الوثوق فقد أظهر لها الشعب في كل بلد مرّ به الجيش ، خضوعاً تاماً ليس فيه شيء من الرياء ، وميلاً قوياً الى الدفاع عن شرف الملكة الجريح .

وحملت الرجال سيوفها ومشت وراء الفرق الزاحفة الى آسية وهي تهتف لزينب . فنسيت المرأة عند ذلك كل شيء ، وقام في ذهنها ان القيصر الفاتح الغازي سيسجد لجلالها السماوي نادماً على ما فات ..

إنها لم تزل معبودة الشعب فليفعل اوريليان ما يشاء ..

فتح اوريليان قفادوقية وانتقل منها الى مدينة تدعى « طيانة » هي من أمنع مدن ذلك الاقليم ، كما ان أهلها من اخلص الرعايا لملكة تدمر . واثبتها في الطاعة.

وصل اليها القيصر غير أن الأبواب لم تفتح له كما فتحت أبواب القرى وحامية البلد لم تستسلم اليه ، ولم تعبأ بصفوفه الجرارة تملأ الساحات ..

فعمد الى الحصار .. لكن الجيش المحصور كان قوياً جداً في دفاعه . والجيش القليل كان كثيراً جداً في بطولته وإيمانه .. الجيش الروماني يسقط أمام الأسوار كما تسقط أوراق الشجر في الخريف والابطال المخلصون لملكتهم يرسلون سهامهم من فوق الأسوار فتقع في الصدور . فحار اوريليان في أمره .. المدن الكبرى تطرح سلاحها على قدميه .. وطيانة الصغيرة تهزأ بقواه الجبارة كما تهزأ الجبال بالعاصفة .

إن اوريليان الغازي لا يصبر على هذا .. ولكنه اضعف من أن يستولي على البلد بقوة السيف .. فلجأ إلى ذهبه الكثير الذي يحمله في الصناديق . وبقوة هذا

المال وحده يستطيع ان يستميل اركان الحرب ، ويجعلهم عبيداً لارادته ..

وهنالك قوة اخرى هي قوة الوعود يخدر بها الاعصاب . وبحيلة لم يشعر بها أهل البلد ، بذل وعده وماله لرجل يقال له هراكلمون ، وهراكلمون الخائن النذل ، دون ان ينظر الى ابعد من انفه ، فتح له ابواب طيانة في ظلام الليل .

ولولا هذا الرجل ، لدهم الجيش العربي جيش الرومان وهو مشغول بذلك الحصار . وانتهى الأمر على غير ما يحب اوريليان .. غير أن نجم زينب كان يحتجب وراء السحب كما قرأت ووجه الزمان يتجهم لها ويكفهر ..

وكما وقف القيصر في ظاهر انقره ، وقف على سور طيانة عند الصباح ، وجعل يخاطب ملكة تدمر بقلب تستعر فيه نيران الطمع والحقد ..

وكان يشير بحسامه الى الجنوب ويحدث الفضاء الواسع همساً وقواده ينظرون اليه ولا يبصرون غير شفتيه المتحركتين ..

* * *

واوريليان لا يقف كما عرفت . انه لم يفتح طيانة الا ليحطم ما بعدها حتى يبلغ انطاكية . فنثر ذهبه على القوم ، وفوّض امرهم الى هراكلمون . ثم صعد في جبال طوروس يحارب اوباشها ويدك حصونها ويفتح مدنها الواحدة بعد الاخرى والرؤوس العالية تنحني له حتى قارب انطاكية ، فضرب خيامه في سهلها الكبير يهضم فريسته ثم يعود الى الوثوب .. انطاكية التي هدمها سابور بالامس فذلت .. واحياها اذينة وزينب فعزت .. وزهت بالغابات والرياض سقيها العاصي الفياض . انطاكية التي جعلتها زينب اعظم مدن الشرق . ونفخت فيها روح حياة جديدة طافحة بالجمال والبهاء .

انطاكية التي كسر اذينة قيود أصحابها عبيد الفرس . وجعلهم احراراً يجرون اذيال السعة والنعمة .. انطاكية سيدة المدن وعروسها بفضل زينب .. كانت خائنة .. نعم كانت خائنة ..

وهذا اغرب ما في الزمان من عبر .. كأن السماء التي ارسلت زينب اصبحت عدوة لها .. والارض التي وهبت لها الحياة عقت الفضل وكفرت بالنعم ..

كل شيء في دولة الشرق قد تغير . حتى ان الصدور التي كانت هياكل للملكة أصبحت مراجل تغلي .. أولم تقرأ ذلك الدور الغريب الذي لعبه بولس البطريرك ؟ أفلا تذكر أن الملكة كانت تحبه وتغض الطرف عن ذلك الشذوذ الذي فضح

به نفسه .. ان ذلك الحب هو الذي خلق البغض في الصدور .. كان أهل انطاكية في ذلك الحين ، يضمرون الشر لأهل تدمر ويسألون آلهتهم ان تهب النصر لجنود اوريليان .. الحظ يخدم اوريليان ويخون زينب من كل نواحيه .. وزينب تمشي الى الأمام وهي لا تعلم ..

* * *

لم يسترح اوريليان في سهول انطاكية حتى أقبل الجيش العربي .

جيش زينب . وجيش زبدا . وجيش زباي . اقبلوا في وقت واحد كأنهم كانوا يمشون في صف واحد . فرأت الملكة ان القيصر كان اسبق منها إلى الميدان . غير أنها لم تعبأ . بل دعت قوادها وأمرتهم بالهجوم . وهي واثقة بالظفر . وكأنها ترى الأرض مصبوغة بدماء الرومانيين ..

فوثبت الخيل وجردت السيوف .. كأن التدمريين جميعهم قطعة واحدة تنحدر من قمة الجبل .

فتراجع الرومان والذعر يملأ قلوبهم .. واوريليان الداهية لا يستحثهم على الوقوف في وجه العدو بل كان يأمر الصفوف المذعورة بان يستطردوا له ليطمع التدمريون بهذا الفرار . ويمعنوا في الركض وراء جيشه . فتتفرق اجزاء تلك القطعة الكبيرة التي انقضت عليه .

وهكذا جرى . فان زباي تبع الفرق الهاربة بفرسانه ، لكن خيله لثقل عدد ... كانت اعجز عن اللحاق بخيل الرومان ، وقام القيصر بسرعة تشبه السحر . يجمع الصفوف الباقية حوله ويهاجم بها الجيش الذي اختل نظامه . ويكرهه على الفرار

وكان زباي قد احس بالحيلة . ولكن بعد رزوح الخيل . والتجاء زينب ومن معها الى انطاكية .. فبادر إلى دخول المدينة وراء ابنته ، وسيوف الرومانيين تصرع فرسانه وابطال الجزائر الذين يحاربون في صفوف القيصر يبعثون بالارواح إلى الموت .

فلم تقل زينب كلمة . بل كانت تفكر في الخروج من المدينة التي قرأت على جباه اهلها دلائل فرحهم الوحشي . اجل ، لقد عرفت في تلك الساعة أن القوم شامتون .. وقد يظهرون عصيانهم في ذلك الليل .

وزباي كان خائفاً .. ان الخونة اذا انتهت اليهم اخبار ظفر الرومان يعمدون إلى السيف .. والمجال لا يتسع الان لاخضاع الثائرين .. فأظهر للناس أنه أسر

القيصر وقيده بسلاسل الحديد .. فتناقلت الأفواه ذلك الخبر الكاذب وتحدث به الناس . غير أن زينب لم تطمئن .. كان الرومان في نظرها اخف ظلاً واقل شراً من أهل انطاكية الأشرار الأنذال .. وعلى هذا الاعتقاد . طاف القواد حول الصفوف يأمرونها بالمسير بعد نصف الليل .. يخرجون من المدينة الى غابة تدعى « دفنَه » ومنها إلى حمص . بطريق آخر لا يعرفه الرومان ..

نعم . وعندما طلعت الشمس . كان الجيش التدمري عائداً إلى المدينة التاريخية التي قتل فيها اذينة الملك . وبكل طمأنينة وهدوء ، استولى اوريليان العظيم على انطاكية الخائنة . وساد السلام والامن ربوعها الخضراء ..

* * *

وتنبأ اوريليان قائلاً لجنوده : نزحف الان في أثر الملكة إلى حمص ثم نغلبها فيها فتفر الى تدمر ، وهناك على اسوار تلك العاصمة المتمردة ستخفق اعلام القيصر

فهتف القوم للقيصر الظافر وصاحوا قائلين : إلى تدمر ولتمت الملكة ..

ومشى اوريليان بجيشه الفاتح إلى حيث تحتدم النار من جديد .

وكان السعد يبسط فوقه جناحيه . فهو لم يترك انطاكية الا ليرى الخوارج واللصوص يستسلمون اليه وينضمون إلى صفوفه .

من فلسطين والشام . وفينيقية والعراق . أقبل الخوارج ليحاربوا زينب التي شهرت في وجههم السيف .. وتلك قوة كبيرة يستعين بها القيصر على الملكة ..

إنها قوة هبطت عليه من السماء .. أجل ، لم يكن سلاحهم كسلاح جيشه ، ولكن يكفي ان يجعلهم طلائع لذلك الجيش وهم الخبراء المجربون . ويكفي أن يوجههم إلى قتال شذاذ العرب الذين يتصدون لجنوده بدون نظام في وضح النهار وفي ظلام الليل .

قبل أن تعرض زينب جنودها في حمص . بل عندما قفزت إلى الأرض تاركة فرسها لأحد الجنود . اختارت رجلين من عرب الجزيرة وارسلتهما إلى هرمز .

لقد أتت الساعة التي يظهر فيها الفارسي صدقه ، وناولتهما رسالة تستعين فيها به ..

فمشى الرسولان بعد ساعة .. أما هي فاستراحت قليلاً ثم خرجت مع قوادها إلى الجانب الشمالي من المدينة تعد مواقف الجيوش . ان معظم جيشها من الفرسان وعليها ان تختار السهل الفسيح تجول في جانبيه الخيل .. وعدد رجالها يزيد عدد الرومان . غير ان هؤلاء اكثر خبرة واعلم في فنون القتال ..

لقد طوت مصر ، وطوت آسية ازاهير جيشها وابطال الميادين الذين تعودوا خوض الغمرات .. ولم يبق لها من تلك الازاهير غير فريق الفرسان والحراس والرماة

أما الباقون فخليط من الامم والاجناس كما مرّ . ومع ذلك ففي صدرها من الايمان ما يدفعها الى محاربة الرومان بمثل هؤلاء .

وكان اوريليان في طريقه الى حمص . يرسل البلاء الى المدن القائمة على ضفتي العاصي .. فتح افاميه « التي اكتشفت اثارها اليوم » ولاريسة « قلعة سيجر » والرستن ، ومشى كالعاصفة لا يقف في وجهه شيء .

وكانت قلوب زبدا وزباي وابن حمدان وجميع القواد تكاد تنشق .. وهم لا يصدقون متى يصل سيد الرومان الى حمص ليرفعوا جثته على رؤوس الاسنة

حتى اطل على ذلك السهل « الباقي الى هذه الساعة » ووقعت العين على العين .

مشهد رائع يملأ النفوس هيبة والقلوب خوفاً . الصفوف وراء الصفوف ، تمتد ما امتد الافق وبريق السيوف والحراب يبهر العيون . وصهيل الخيل يدوي في تلك الصحراء حتى ليخيل اليك انه زئير الأسود . وعيون القوم ترسل ألسنة من نار

فريقان ، يريد كل منهما ان يثأر بقتلاه .. والقيصر .. اما القيصر فلم يكن ينظر إلا إلى الساحة يختار فيها موقفاً لجيشه ..

وبدأ القواد يروحون ويجيئون . حتى برزت زينب على فرسها أمام الصفوف وأومأت اليها فجرت الخيل .

إنها لوثبة عنيفة جداً تزعزع الجبال .. فحاول فرسان الرومان ان يثبتوا فلم يقدروا .. فهاموا على وجوههم في الصحراء وفرسان زباي يضعون رماحهم في الظهور . حتى وصل الفريقان الى آخر الافق .. واحتجبا عن العيون ..

وركضت زينب فرسها تقول للقواد : احذروا ان يفلت جندي واحد من جنود اوريليان . وهي تريد أن تجعل رجالها نطاقاً لرجال الرومان ثم تحصد الرؤوس .

غير أن الحظ لم يشأ إلا أن يحول وجهه .

فان فرسان القيصر كانوا قد ابتعدوا عن الساحة فلم تستطع خيل التدمريين ان

تطوقهم كما أرادت الملكة .. بل انتهى الأمر الى تفرق الاجزاء المتحدة ، كما حدث في انطاكية ، ولم يبق في الميدان غير المشاة ..

وكان اوريليان يصلي .. ويسأل صنم حمص ان يهب له النصر .. وقد اسودت الدنيا في عينيه عندما رأى فرسانه يفرون من الموت وكان ينسى موقفه ويضيع أمله

لكن الرجل الذي يخدمه الحظ لا يضيع له أمل .

والحظ كان عبداً لاوريليان كما رأيت .. يعبس له قليلاً وجه القدر ثم يبتسم له ابتسامة طويلة ساحرة تخلب الالباب .. فهو لا ييأس حتى يرى نور الرجاء ، ولا يرى الفشل بعينيه حتى يلمس النصر بيديه .

كأن الزمان لم يجافِ زينب إلا ليحالفه ويصافيه .

رأى فرسانه وفرسان تدمر يتركون الساحة ، فبرقت عيناه ، وذكر المعركة السابقة التي كتب له فيها الظفر . فغيّر موقفه وزحف بصفوف المشاة الباقية حوله . الى صفوف المشاة القليلة الباقية بقيادة زبدا حول زينب واعمل فيها السيف

فعل ذلك في لحظة ، حتى ان زبدا ، مع ذلك الفريق الجاهل الذي يقوده لم يستطع أن يثبت للصدمة . فتراجع والطعنات تصرع رجاله ، وزينب تستنهض الهمم ولكن الهمم الخامدة لا تستيقظ ولا تغضب للكرامات .

وفي تلك الساعة عاد زباي الى الميدان لينقذ اصحابه . ولكن فرسان الرومان كانوا قد سبقوه ، بعد دورة واسعة احتجبوا فيها عن العيون .

فراجت سوق الموت واستحر القتل .. ثم عمد اصحاب القيصر إلى خناجرهم يذبحون بها أصحاب زينب ، وقواد العرب .. ان اولئك القواد الأبطال لم يبق حولهم من يقدر على حمل السيف ..

ان الملكة التي لم تروعها الحادثات خافت خوفاً شديداً واستولى عليها الذعر

وكيف لا تخاف والأرض تحتها مصبوغة بدماء الانصار .. وجثث رجالها تغطي وجه تلك الأرض الحمراء ؟

فتركت حمص تريد تدمر ، والذل والعار يمشيان أمام جيشها ووراءه ، وتبعها القواد الذين كان انسحابهم من الساحة ابلغ من النصر ..

أما اوريليان الداهية فلم يفعل كما فعلت .. ولم يأمر جيشه بان يتبع العدو الهارب منه ، بل اكتفى بابتسامة قصيرة هي ابتسامة الكبرياء والازدراء .

وبينما كان التدمريون ، في اليوم الثاني يجتازون الصحراء إلى تدمر ، كان

القيصر الغازي يدخل حمص والحمصيون جميعهم ، رجالهم ونساؤهم والاطفال كانوا ينثرون الازهار على موكبه الرائع ، ويستقبلونه باهازيج الظفر والاستبشار :.
كأنهم لم يعرفوا من قبل تلك الملكة التي امطرتهم عدلاً واحساناً .
وحمل اوريليان معه إلى حمص جميع السلاح والاموال التي تركتها زينب وبين تلك النفائس المدهشة ، عجلة مذهبة يتلألأ فيها اللؤلؤ والماس هي العجلة التاريخية التي اعدتها لابنائها يوم تدخل روما .
أجل ، لقد اخذتها معها الى آسية ، لانها كانت تفكر في الزحف ، بعد الظفر الى عاصمة اوريليان .
وبعد ذلك الاستقبال العجيب ، عرّج القيصر على هيكل حمص يشكر التماثيل السوداء على ذلك النصر ، ويسأل الحجر الاصم ان يضع تدمر بين يديه ..

* * *

وهناك .. في الغرب . والجنوب الغربي ، حرب اخرى تزعزع اركان دولة الشرق ، وتدوس اعلامها ..
ان بروبيس الذي حطم قوى زينب في مصر ، واخضع ذلك الاقليم الواسع لراية الرومان . لم يكتف بأرض فرعون يعيدها إلى حضن روما ، بل أراد أن يعيد اليه اقليم فلسطين ، وفينيقيا الممتدة على شاطئ البحر
فزحف بجنوده وجنود مصر لا يجد في زحفه من يتصدى له حتى قارب فلسطين واي قائد في الشرق كله ، غير هرمز وزينب ، يجرأ على الوقوف في وجه جيوش القيصر ؟
ولكن هرمز في مدائنه يتمرغ في الملذات .. وزينب في الميادين تنتقل من ذل الى ذل .. فارتفع بروبيس في سماء التوفيق ما طاب له الارتفاع . وفتح المدن الآمنة ما طاب له الفتح ، دون ان يجرد في وجهه سيف ، او يرتفع أمام صفوفه صوت . من أطراف فلسطين إلى مدينة جبيل .. في ذلك الفضاء الواسع خفقت من جديد اعلام القياصرة وزينب لا تدري ..
وبين فلسطين وجبيل . لا تقع عينك الا على الرجال والنساء يهتفون بالفاتحين..
حتى ان الحوامي التي اكلت خبز الملكة والرجال الذين رفعتهم الى مراتب القيادة ، جميع هؤلاء اصبحوا جنوداً للغريب وحزباً له على زينب .
ولو عرف اولئك الفلسطينيون وأهل فينيقيا الذين يحاربون تحت لواء الملكة ..

أجل لو عرفوا ان بروبيـس استولى على ارضهم وداس رايات تدمر بقدميه .. غادروا صفوف التدمريين في ظلام الليل ، وانضموا الى الفاتح الروماني يدلونه على الأبواب ويعطونه المفاتيح . .

ان الحق للقوة .. والناس مع القوي .. !

* * *

٤٣

بالقرب من باب السور العظيم في تدمر ، استندت زينب وقوادها الفارون إلى الجدار ، ينتظرون دخول فرقهم المذعورة . وكل شيء ساكن هادئ ، والصمت يشبه صمت الأموات . ثم دخل الجميع واغلق الباب ..

ان الأسد الحر الذي لا يسعه البر الفسيح .. جعلته الاقدار في قفص من حديد . والنسر .. ملك الجو .. الذي يطير ويحلق من فضاء الى فضاء ، نفذ السهم من جناحيه فهوى إلى اسفل .. كانت زينب أعز الملوك فصيرها الزمان اذل من عبد.. كانت لبوءة فصارت نعجة .. كانت هيبتها تحمي اقطار الشرق ، فاكرهها القدر على الاحتماء بالاسوار . إنها عبرة وموعظة لأهل هذا الزمان ..

اجمعوا المؤن وأعدوا السلاح ، فمن يعلم متى ينتهي ذلك الحصار .. وانصبوا آلات الرمي والمجانيق .. وهيئوا السهام التي تحمل ألسنة النار ، فأوريليان لا يلبث حتى يفاجئ تدمر بجنوده افراخ العقبان .. وناموا أيها الجنود فوق الأسوار .. ان الأرض التي كانت ميداناً لخيولكم انهارت تحت الأقدام ..

واي شيء احب اليكم ؟ الذل او الموت ؟

قالت هذا والبكاء يتردد في ذلك الصدر الجبار ..

ولكن الدموع لم تظهر في تينك العينين الصافيتين ..

فأجابها القواد ورجال العرب قائلين : نموت ولا تسقط شعرة من رأس زينب .. أما الفرس والارمن واليهود فهامسوا انفسهم يقولون : تموت زينب ولا تسقط شعرة من رؤوسنا .

واقبل تيم الله وخيران والاميرات الثلاث وهم يبكون .. فانتهرتهم قائلة : كفوا عن البكاء فنحن في ذلنا اعظم من قيصر على عرشه ..

ثم قالت لمن حولها : لقد أنسانا اوريليان ان لنا عرشاً .. أنفقد هذا العرش

ونحن قادرون على حمل السيف ..

ولم تنتظر جواباً ، إنها انتقلت بالفكر الى ذينك الرسولين اللذين بعثتهما الى بلاد الفرس . إنهما لم يرجعا .. وهي تعد الساعات وترسل نظرها إلى الافق فلا تبصر احداً .. فهل يعودان مع طوائف الفرس أم يهزأ بهما هرمز ويمن اوفدهمااليه ومن ينقذ العرش غير الملك الفارسي ؟

ان اوريليان رجل الساعة ، وليس في الساحة من يستطيع ان ينازل الرومان ويحفظ لها تاج الملك الا هرمز .. هو وحده سيد الشرق بعد زينب ، وهو مثل أبيه سابور لا يحفل بالقياصرة ولا يعبأ بالجيوش .

وجعلت تخاطب نفسها قائلة : آه لو خرج هرمز من عزلته لجعلنا اوريليان طعاماً للطير ..

فعض زباي على شفتيه حتى ادماها . ثم قال : أتفكرين بعد في هذا العلج الفارسي ؟ فنظرت اليه ذاهلة ولم تجب ..

فقال : ان اوريليان والسيف في يده ، خير لنا من ذلك الخائن وهو في بلاطه.

قالت : من يثبت لنا خيانته ؟

— : انا ، اثبتها بالامس واثبتها اليوم ، كما اثبتها رجال البلاط والقواد انه لو كان صادقاً لسبقنا الى انطاكية .

— : ولكنه عاهدنا على الوفاء ..

قال : إنها معاهدة مكتوبة على الرق ليس غير .

فخفق فؤادها إذ خطر ببالها ان أباها صادق في ظنونه . فقالت : إذا كذب الرجل فقد هلكنا .

— : ان اوريليان لا يستطيع ان يحطم اسوار تدمر .

— : وهل نبقى إلى الأبد وراء الأسوار ؟

فقال زبدا : يجب ان نصبر الى النهاية يا مولاتي .

— : وماذا يحدث بعد ذلك ؟ أيعود القيصر المتكبر عن تدمر قبل ان تستسلم؟

قال : بالدفاع والصبر نكرهه على الرجوع .

قالت : لا نستعيد شرفنا الا بسيف الفرس ..

— : ولكنهم لا يفعلون ..

فقالت : نبعث اليهم رسولاً آخر بعد رجوع البدويين . فان لم يأتِ هرمز

كانت الملكة نفسها رسولكم اليه .

فاستولت على القوم الدهشة والاستغراب ..

أتذل الأقدار زينب العظيمة إلى هذا الحد ؟ ان ذلك لايكون واهل تدمر احياء!

ولعل أباها اراد ان يستوثق فقال : ماذا تفعلين يا زينب ؟

فسقطت دمعة على خد الشيخ وقال : وتربة وهبلات لا أدعك تخرجين من تدمر إلا على جثتي .. أتظنين ان النصر الذي يتم لنا بسيف هرمز شرف للملكة؟ ان الموت فوق الأسوار ونحن ندافع عن حريتنا وملكنا خير من الظفر يهبه لنا الملك الفارسي الذي كنت تهبين له الحياة ..

ثم قال : لقد صعدنا في سلم المجد حتى بلغنا الغاية . واخضعنا بسيفنا آسية ومصر دون أن يكون لأحد فضل علينا .. أتريدين الان ان نشتري تاج الملك بالسؤال والاستعطاف ؟..

قالت : ان الملوك يستعين بعضهم بالبعض الآخر عندما يجتاح العدو ارضهم . أفلم يستعن بنا الرومان من قبل على اخضاع هذا الشرق وهم الدولة البعيدة الصوت الواسعة السلطان ؟

قال : لقد كنا من قبل اتباعاً لهؤلاء الرومان ..

— : وكنا مكرهين على الدفاع عن شرفهم ..

— : نعم ..

— : ولكن لا نسلم بأن نصبح عبداً للرومان .

— : لسنا عبيداً لأحد أيتها الملكة ، نحن نؤثر ان نموت أحراراً على ان يمن علينا هرمز بالحياة . وكان العلماء وبعض رجال البلاط يتهامسون

فقالت لهم وصوتها يرتجف من الغضب : أخسرت زينب هيبتها حتى يملأ مجلسها الهمس والأسرار ؟

فلم يقل احدهم شيئاً .. ولم تكن تعلم انهم يتحدثون بسقوط فينيقيا وفلسطين بل لم تكن تعلم كما تقدم انها خسرتهما إلى الابد .

وكان القوم في تدمر قد باحوا للقواد بما يعلمون عن سقوط هذين الاقليمين. فرأى أبوها أن لا يكتمها الأمر . فقال : اتريدين ان تعلمي يازينب كل شيء ؟

ولم يقل أيتها الملكة ..

فأجابته قائلة : متى كان البلاط يعرف اشياء لا نعرفها نحن ؟. آفرأيتم من قبل

أن الملكة لا تصبر على المحن ؟

فاضطرب صوت الوالد وهو يقول : لقد خسرنا فينيقية وفلسطين ..!!

فابتسمت كما يبتسم المجنون وقالت : اذن فالبلاد تملأ ارضها جيوش الرومان

— : نعم ولم يبق لنا الا دمشق ومدينة الشمس ..

— : ومن يقود جيوش الساحل ؟

— : برو بيس صاحب مصر .

فرفعت نظرها الى العلاء وتمتمت قائلة : لقد اصبحت بلادنا مشاعاً يقتحمه من يشاء .. وكانت لهجتها تشبه النواح .. حتى سمع في المجلس بكاء بعض العلماء ..

ثم قالت : والآن ؟..

— : والان فنحن مدافعون حتى يفنينا السيف ..

— : وقد رأيتم ان لا تستغيثوا بهرمز ؟

— : لقد استغثنا وانتهى الأمر ولكن هرمز لا يسمع ..

— : وانتهى الأمر .. أجل . لا . لم ينته بعد ..

والتفتت الى القواد قائلة : قوموا أيها القواد .. اذهبوا وطوفوا حول الأسوار بأيديكم آلات الرمي والمجانيق .. وأمرت حاجبها بان يدعو قيم القصر .

فلما مثل بين يديها قالت له : اختر لك طائفة من الرجال الامناء واحفظوا تدمر من غائلة الجوع .. ان ابوابنا مغلقة ونحن لا نعلم متى نخرج الى الهواء الحر .. أسمعت ؟

فتردد اولاً في الجواب ثم قال : سأفعل يا مولاتي ما تأمرين به ..

— : وتستطيع أن تبذل لهذه الغاية جميع الذهب الموجود في بيت المال فلا حاجة لنا اليه الان .. وأومأت اليه تأمره بالانصراف .

فخرج المسكين وهو يفكر في ذلك الأمر الذي عهدت اليه فيه ..

لقد وفرت اسباب العيش في تدمر وما يتبعها من سهول وضياع .. ولكن الحصار قد يطول اجله حتى ينفد كل شيء .. وهناك البلية .

وتقدمت إلى كهيلة بنت زبدا ووصائف البلاط بان يرعين أمر الملكين الصغيرين والاميرات الثلاث فلا يسمحن لهم بالخروج إلى الأسوار ..

وقامت فخرجت مع قائد الحرس الحمداني إلى المدينة ، توصي شعبها بالهدوء تنصح له بان يحترم ما يأمره به قواد الجيش .. وكان الحزن يملأ قلوب القوم ،

واللوعة بادية على وجوه أهل البلاط ، وهم يشعرون بأن عظمتهم ومجدهم قد ضيعهما الرومان .. وكانت كهيلة الوصيفة اليائسة .. والكآبة في قلبها وفي عينيها ، تخاطب روح اليهودي حطان ، في كل ساعة من ساعات ذلك الشقاء ..

* * *

أقبل البدويان يجران أذيال الخيبة .. وفتح لهما باب السور وقادوهما إلى قاعة الجلوس .. وقد تبينت الملكة الفشل في وجهيهما .

فغلت مراجل الحقد في صدرها ، وهي ساكنة هادئة تنظر اليهما ولا تجسر على السؤال .. ولكن لا بد لها من أن تفعل لتسمع جواب هرمز من فم الرسولين :

فقالت لهما : هل رأيتما الملك ؟

— : لا يا مولاتي لم يأذنوا لنا في المثول بين يديه ..

فرفعت صوتها قائلة : أفعلها هرمز واستخف بنا ؟

— : نعم وقد حمل حجابه اليه رسالة الملكة وأقمنا ببابه يومين ننتظر جوابه ولا يؤذن لنا .

فتنهدت وهي تقول : متى كان الفرس يمنعون رسولنا من الوصول الى ملكهم ؟

فقال زباي : عندما رأوا صفوفنا تتراجع إلى الوراء رفعوا انوفهم إلى السماء .

وقال البدويان : ان الملك مريض لا يأذن لأحد في الدخول عليه . هكذا قالوا لنا أيتها الملكة ونحن نعلم أنهم يكذبون ..

— : وكيف عرفتما هذا ؟

— : لقد رأينا الملك يخرج من البلاط مع وزرائه .

— : وهل تعرفان هرمز ؟

— : نعرفه وهو عامل خراسان ..

فأيقنت عندئذٍ أنه ملك خائن لا عهد له . وقد لمست بيدها هذه الخيانة ووضح لها صدق قوادها عندما وصفوا لها هذا الفارسي ..

ولكن الماضي لا يعود .. وزينب إذا ندمت ، طعنها الندم طعنة نجلاء في قلبها دون ان يبدو على وجهها ضعف ..

ثم قالت : ليفعل هرمز ما يطيب له فالأيام بيننا ونحن لم نخسر كل شيء .. اين هي رسالته ؟..

— : لم يعطنا رسالة أيتها الملكة .

ــ : أليس لرسالتنا جواب ؟
ــ : إن الجواب ننقله إلى الملكة كما سمعناه .
ــ : اذكراه ..
فقالا : اقبل علينا حارس من حراسه يقول لنا :
احملا سلام الملك ، ولتثق زينب بأن جيوشه ستغطي سهول تدمر بعد شهر
فبرقت عيناها وهي تردد قائلة : بعد شهر ..؟
ــ : نعم ..
فقال زباي : كذب اللعين فهو يظن أن اوريليان في هذا الشهر يخضع آسية كلها ويعفي آثار التدمريين .
ــ : ومع ذلك فسنصبر شهراً ..
ــ : وينقضي الشهر وانت تعللين النفس بالأمل ، أفلم يستطع هذا الكاذب ، وقد مرت على الحرب شهور ، ان يرسل إلى الميدان فرقة واحدة من فرق الجيش ؟.. ان جنوده كلها في المدائن وهو يعلم من أمر هذه الحرب مثلما نعلم .
ــ : ولماذا يعدنا ؟
ــ : لأنه جبان ، فهو يخشى أن تقهر الملكة اوريليان ثم تدفع خيلها على بلاده
ــ : وماذا تنفعه الوعود اذا ظفرنا ؟
ــ : إذا تمّ لنا الظفر بادر إلى الاعتذار ، واقسم بتربة سابور انه لم يستطع في مثل هذه السرعة ان يجمع جيشه من الاقاليم ، أتعلمين ماذا يفعل هرمز في نهارهوليله
ــ : مـاذا ؟
ــ : أنه يسأل النار التي يعبد ، ان تمحق الحرب الجيشين ، جيش تدمر وجيش الرومان ليخلو له الجو .
ثم قال : فلندافع على أمل أن نظفر بالاثنين . بهذا اللعين وبالقيصر . ولننس أجل لننسَ أن بيننا وبين الفرس عهداً يحمل توقيع ملك نذل مثل هرمز .. فانهضي أيتها الملكة ، انهضي يا زينبالحبيبة.. فالحياة ــ ان لم يحمنا ايماننا واسوارنا ــ عار علينا وعليك يا قاهرة الملوك ..
ولم يستطع القائد الكبير ان يخفي دموعه ، فجعل يكفكفها بيديه المرتجفتين ..

* * *

كانت نفس اوريليان حزينة جداً وهو في نشوة ظفره ، وعنفوان مجده ..

ذلك لأن زينب لم تمت .. وقد تمتنع بقومها وعاصمتها فلا يبلغ غايته من الحرب . واصعب شيء عليه ، ان يكتفي بآسية ، ويعود إلى روما قبل أن يقضي على الملكة التي نغصت عليه العيش . وهو يعلم جيداً ، أن القتال أمام أسوار تدمر لا يشبه في شيء ، ذلك القتال الذي يحدث في الميادين . الخيل أمام اسوار منعت حصونها وارتفعت ابراجها ، والرجال تقذف الموت من تلك الأبراج والحصون

ولكن .. ولكن عليه أن يحطم تلك الجدر ، وينزل الملكة عن العرش ولو خسر حياته .. ويكفيه ، نعم يكفيه ان يقص الزمان على مسمع الزمان : أن الملكة التي هزأت بالقياصرة اخضعها اوريليان .. وهو البطل العظيم ، الذي لا يسعر النار الا ليمحو كل شيء . فاذا كان لا بد له من الزحف إلى تدمر ، فليتعجل في زحفه قبل أن تمهد زينب جميع سبل الحصار والدفاع .

وهكذا فعل ، مشى أمام جنوده في تلك البادية النارية التي تمتد الى تدمر لا يعبأ بالحر يذيب الأجساد ، وبالارض تبعث اللظى ..

ويقول « مومسن » احد المؤرخين : ان زحف القيصر في ذلك الصيف ، واقتحامه النار الملتهبة ، كان حرباً اروع وأشد هولاً من هجوم الصفوف على الصفوف

ليس في تلك البادية شجرة واحدة ترسل ظلاً .. والشمس إذا ارسلت اشعتها فقد استعارت لهيبها من الجحيم ..

وعلى جانبي البادية قبائل من العرب يكمن الموت في اردانها وتبسم الابالسة في وجوهها ، لا تلين ولا ترحم ، حتى لتسلب الأسد فريسته وهي تهزأ به ..

وقد ذكروا لأوريليان كل ذلك فلم يبالِ ، أنه أعظم من ان يعبأ بالعرب السلابة ، والطبيعة الثائرة . مشى كما يمشي الطامع المجنون إلى غرضه ، واستطاع بتلك القوة الخفية التي يبعثها الرجاء إلى صدره ، أن يصارع الشمس والعرب حتى بلغ تدمر ..

فرأوا شمساً كشمس البادية ، ومدينة جبارة الحجر في أسوارها كقطعة الجبل ..

فعرف اوريليان . أن تلك البقعة من الأرض ستكون قبراً لجيوش الرومان اذا امتنعت زينب ولم تستسلم اليه .

أجل . لو كانت تدمر في غير أيدي العرب ، لهدم جدرها واخضعها له في بضعة أيام ، ولكنها في أيدي زبدا وزباي وابن حمدان وعلى رأسهم زينب .

ولكن . هب أنها في أيدي الالهة فالقتال لا بد منه ..

يضرب اولاً ، فاذا رأى ضعفاً تمادى في الضرب حتى يفتح له باب النصر وان آنس شدةً في القوم عمد الى الاستعطاف . لتنزل زينب عن عرشها وتطرح السيف .. افلا يجوز لأوريليان ان يظن ان نفس زينب قد صغرت إلى حد أنها تشتري راحتها بالاستسلام إلى الرومان ؟

وان قوى رجالها قد خارت فهم يبيعون شرفهم بابتسامة رضى من ثغر الظافر ؟

بلى . فأوريليان الحديدي كان في سكره وفي جنونه .. يرى الزمان وأهل الزمان عبيداً لارادته .. ومن الطبيعي ان يستخفه الزهو فيفكر في أمر لا يجوز لسواه ان يفكر فيه .

وكانت زينب فوق الأسوار ، تبكي عزها الذاهب وعرشها الهاوي . ولكن في السر .. أيحصرها عدوها في عاصمتها وهي التي حاصرت المدائن وقهرت غاليانوس ومدت رواق ملكها في الخافقين . أتلجأ إلى الدفاع خلف الأسوار وهي فاتحة الأقطار .. نعم وبذلك قضت الأقدار ..

* * *

وجعل اوريليان يدور حول السور ليتبين فيه مواضع الضعف . فلم يجد ضعفاً .. انه أعز الأسوار واثبت من الجبال ، وكان في طوافه وهو لابس درعه وخوذته ، لا يخشى السهام تسقط عليه من فوق .. كأنه كان واثقاً بان الموت لا يجسر على الدنو منه .. وفي ذلك من الاستخفاف ما فيه ..

فلما دار دورته ، ولم ير إلا المناعة والقوة ، تقدم إلى الجيش بالحفر تحت السور ، وفتح السراديب يدخل منها إلى المدينة . وهو لا يجد لبلوغ الغاية وسيلة غير هذه ، فجعلوا يحفرون .. ويجبلون التراب بعرق الأجساد والشمس تجفف ما يجبلون .. غير أن التربة في تدمر كانت تتفتت ، وتعبهم كان يضيع فكادوا يهلكون في تلك السراديب ..

والتدمريون تقذف مجانيقهم الاحجار ، وترسل ايديهم النبال ، والرجوم تتساقط على الرومانيين كتساقط المطر فتجعلهم اشلاء ..

فاسودت الدنيا في عيني القيصر ، وراح يستوحي قريحته ليجد له سبيلاً آخر يصل معه إلى الداخل فلم يجد . فاعتزل في خيمته يفكر في وسائل اللين ، ثم كتب إلى مجلس الشيوخ في روما ، هذه الكلمة التاريخية التي رددها رجال بلاطه .قال :

لعلّ بعض الناس يهزأون بأوريليان عندما يحارب هذه المرأة فاعلموا أن زينب إذا قاتلت كانت أعظم من الرجال ..

وصبر بضعة أيام على الحال التي قرأت دون أن يتبدل الموقف ، فجمع اركان حربه وشاورهم قائلاً : لقد خاب رجاؤنا فتدمر لا تسقط ، واذا طال الحصار على ما ترون خسرنا الجيش كله وأصبح النصر الذي تمّ لنا موتاً كله عار ..

والتفت إلى أحدهم وهو يقول : ما رأيك أيها القائد ؟

وكان القوم يخافون غضبه كما مرّ .

فتردد الرجل في الجواب ثم قال : نحفظ الأبواب فلا يخرج من المدينة أحد حتى يهلكوا جوعاً ..

قال : كأنك تريد أن تبقى في هذا السهل إلى الأبد .. ان المدينة ، مع دهاء زينب وحكمتها لا تجوع .

— : ليطل الحصار فينفذ ما عندهم ..

فهز رأسه قائلاً : بئس ما رأيت وليتنا لم نسألك ، وأنت أيها الفتى ؟

فأجابه الآخر : ادع بروبيس وجنوده من الساحل فتموت زينب من الخوف.

— : ليس لك رأي فلسنا بحاجة إلى الجنود ..

وقال آخر : اشترِ حراس الأبواب بالمال يا مولاي ..

— : وكيف نصل إلى هؤلاء أيها الأبله ؟

وكما ترى ، لم يقل أحدهم باستعطاف الملكة ، بل كانوا يفكرون في وجوه لشدة والاغراء ..

ثم قال لهم : ندعو الملكة اولاً إلى الاستسلام ، فان امتثلت فقد انتهى كل شيء ، وإلا فالرجوع عن تدمر خير من البقاء .

فلم يجسر أحدهم على ابداء رأي جديد . أجل ، كانوا يعلمون ان الملكة تؤثر الهلاك على الأستسلام ، ولكن اوريليان يفعل ما يشاء ولا يسأل .

ودعا كاتبه فأملى عليه رسالته المشهورة وهذا تعريبها :

« من القيصر اوريليان ملك العالم الروماني وسلطان المشرق الى زينب واصحابها سلام :

«كنت أظن انك تستسلمين وتخضعين لروما قبل ان ادعوك بالرسالة التي تقرأين ، إلى هذا الخضوع ، ان الوسيلة الوحيدة التي تستحقين معها رحمة القيصر

وتحفظين بها حياتك وحياة بنيك هي الاستسلام ليس غير . فان فعلت ضمن لك مجلس الشيوخ الأعلى عيشاً هنيئاً في مدينة يختارونها لك . ولكي يكون الصلح صادقاً ، سلمي الينا جميع ما في بيت المال من جواهر وفضة وذهب ، وما لدى تدمر من خيل وجمال . ولك على القيصر عهد أنه يحفظ حقوق التدمريين .

ودفع الرسالة إلى حاجب له وأمره بالذهاب .

وكانت زينب في البرج الذي يطل على معسكر الرومان . فرأت رجلاً يريد باب السور وفي يده راية بيضاء .

فقالت لأصحابها : أدخلوا الرجل فهو رسول قيصر .

ولم تغادر مجلسها في ذلك الحصن .

فقادوا الرجل اليها وقد عصبوا عينيه ، وهو يرتجف من الخوف .

فقالت له : ماذا يريد مولاك ؟ فناولها الرسالة وهو ساكت .

فلما انتهوا من القراءة قالت : هذا اوريليان يدعونا إلى الخضوع ، ويعدنا بحفظ حرية التدمريين وحقهم كما قرأتم . قالوا : نعم ..

— : ونحن ليس لنا رغبة في الحكم الا لنجعل الناس أحراراً ..

فهامس أحدهم الآخر وبرقت العيون ..

— : وقد رأينا أن القيصر يطلب الملكة وحدها ليطيب له العيش على عرش الرومان .. فساد الصمت ..

ثم تنهدت قائلة : وزينب .. ان زينب لم تخلق لسفك الدماء بل خلقت للحق ولترعى على الشعب حرمته .. انّا سنستسلم لتبقوا ، ونخضع ليصان حقكم وتعودوا إلى العز ..

قالت هذا لتلمس بيدها اخلاص اولئك الرجال ..

فدوت أصوات القوم في فضاء ذلك الحصن .. لا تخضع زينب الا للآلهة ..

ونهض زباي وقد جرد سيفه وهو يقول : أترغبين في الاستسلام يا زينب؟

فاجابته هادئة : نعم ففيه حياة الشعب ..

فقالت : إذن فزينب لا تخطو من هنا خطوة واحدة حتى ..

وتلجلج صوته ، وتلعثم لسانه ..

فقالت : حتى ماذا ؟

— : حتى تتخطفها السيوف ..

— : ولكني ابنتك ..
فقال : لا خير في فتاة تذل نفسها وتذل أباها ..
وكان هائجاً وعيناه تقدحان شرراً ..
قالت : وهل نسيت أن هذه الفتاة هي الملكة .
قال : لا نعترف بالملكة التي لا تشرف قومها ..
وخطا خطوتين إلى الأمام ليضرب عنقها . اذا نقلت الى تلك الغاية قدماً .
فتوسط ابن حمدان المكان ، وجثا على ركبتيه قائلاً :
الملوك لا يموتون وقوادهم احياء .. اضرب رأسي اولاً يا مولاي ..
ففاض الدمع من عينيها وقالت : لتسلم الرؤوس فالملكة باقية ..
وشهد الحاجب الروماني في تلك الساعة ما لم يخطر له ببال . فان القواد سجدوا أمام زينب وطرحوا على قدميها السيوف ..
وكان ذلك الحاجب نبيل الخلق ، فجرت دموعه على خديه وهو يقول :
هكذا يجب أن تحب الشعوب ملوكها .

* * *

ماذا رأيت أيها الجندي .
فأجابها الحاجب قائلاً : رأيت هيكلاً للآلهة تقام فيه فروض العبادات ..
— : أحسنت ، وهل قام في ذهنك ان الملكة ستنزل عند رغبة مولاك وتستسلم اليه ؟
— : لا يا مولاتي لم يقم في ذهني شيء من هذا ، ومولاي نفسه يعلم انك لا تستسلمين ..
فغاصت زينب في لجة عميقة جداً من التفكير وقالت لأحد العلماء اكتب :
« من زينب سلطانة المشرق الى اوريليان اغسطس
ان الرسالة التي بعثت بها الي لم يجرأ أحد قبلك على أن يلتمس مني ما التمسته أنت فيها . أفنسيت ان الظفر بالقوة لا بكتابة السطور ؟ انك تريد أن استسلم كأنك تجهل ان كلوبترة قد آثرت الموت على حياة سبقها العار . سترى بعد قليل جموع الفرس والارمن والعرب أمام هذه الأسوار وترى سيوف هؤلاء تحصد رجالك ، وستعلم أنك لا تستطيع ان تثبت في الساحة عندما تجتمع زينب بحلفائها .
وأنا واثقة يا اوريليان بانك ستذل وتخضع وتندم على ما بدا منك من غرور

وكبرياء »

وقالت للرسول : احمل هذا الجواب الى مولاك واخبره بما رأيت .

فخرج الحاجب والاستغراب يملأ نفسه .

فلما قرأ القيصر جواب الملكة أقسم أمام قواده أنه لا يرجع عن تدمر قبل أن يجعلها انقاضاً . ونفخ في صدور الرجال روحاً جديدة ، وندبهم للحصار بكل ما عندهم من عقيدة وقوى ..

فعادوا إلى الحفر ، ليقوضوا أركان السور ويهدموه فلم يفلحوا ، واصحاب زينب يمطرونهم وابلاً من الرجوم والنبال ..

فتميز القيصر غيظاً ، وتقدم صفوفه ليعيد الأمل إلى الصدور .. لكن سهماً عائراً (لا يعرف راميه) أصابه في كتفه اليسرى فوقع على الأرض وقد اغمي عليه.

فحمله اصحابه الى خيمته واقبلوا يعالجونه حتى فتح عينيه ، فقال لمن حوله : كفوا عن الحصار ريثما نشفى .

ومكث بضعة أيام وهو محموم . وجسمه الجبار يصارع الموت حتى دمل الجرح وعادت اليه العافية .

فبادر إلى كتابة رسالة اخرى يدعو زينب فيها إلى الخضوع .

فقابلت اقتراحه بالرفض وكتبت اليه :

« لا تعد إلى مثل هذا بعد الآن .. »

وكان التدمريون يشرفون على الأبراج ويهزأون بصفوف الرومان واوريليان يفكر في ذلك الموقف الصعب الذي صار اليه . وكانت وطأة الحر قد اشتدت ، وكثرت حاجة الرومان إلى الزاد والماء في ذلك البر الأجرد والرمال الحارة .

* * *

بسم الحظ لزينب فهي في عاصمتها أمنع من النسر. وقد رأت ورأى قوادها أن الرومانيين أضعف من ان يبلغوا غايتهم من فتح تدمر .. فعادت اليها نفسيتها الاولى ، نفسية الملكة الطماحة الغازية ، واستسلمت وهي في قفصها إلى الأحلام كما سيجيء .

وكان اوريليان قد وجه رسله الى المدن ، حتى إلى لبنان ، يطلبون لجيشه المؤونة والزاد .. نعم ، هكذا يقول المؤرخون : حتى إلى لبنان ..

فحمل الناس من الشمال والجنوب والغرب اسباب العيش لجيش الرومان وقد

نسوا الملكة المحسنة ، التي زهت بفضلها بلادهم وطاب بوجودها عيشهم .
وعين زينب ترى كل ذلك وفؤادها يتفطر لوعةً وحزناً .
فاستقوى الرومانيون وطابت نفوسهم .. ان ذلك القوت الذي أمدهم به أهل المدن ، جعلهم يثقون بالنصر
واخذت الجموع تهتف للقيصر ، فلم يعبأ التدمريون بهذا الهتاف لأن القوت وحده لا يخترق أسوارهم ..
أما زينب فلم تسمع ذلك الهتاف لأنها كانت تفكر في شيءٌ آخر ..
ان فكرة طائشة استولت على ذهنها في تلك الساعة .
فجمعت قوادهامن جديد قائلةلهم : لقد انقضى الشهر الذي ذكره هرمز في جوابه؛
فقال زبدا : واي شأن لنا مع هذا الفارسي ؟
— : لو كان جيش هرمز وجيش تدمر في يدي الان لذبحت اوريليان وأصحابه في يوم ، وزحفت الى فينيقيا وفلسطين وقذفت ببروبيس إلى البحر ؛ آه .. من يستطيع أن يقنع هرمز ويأخذ تاجي ؟.. ان حياتنا الان بين يدي ذلك الخائن الذي وثقنا به .
ثم جعلت تردد قائلة : يجب أن يموت اوريليان .. يموت اوريليان .. هذا شعبنا .. وهذه بلادنا .. ونحن لا نجسر على الخروج إلى الهواء ؟..
فقال ابن حمدان : لو اجتمعت جيوش الرومان المنتشرة في العالم لما استطاعت الوصول إلى الملكة ..
فلم تجب .. كانت تنظر إلى العلاء وهي ذاهلة .. أجل ، كانت ذاهلة عن كل شيء .. فاحترم القوم صمتها وطفقوا يفكرون ..

* * *

ساعة جنون ... العرش تدوسه الاقدام

٤٤

واقبل الليل ، والسكون يشمل تدمر وما حولها من جنود .. الا الحراس في معسكر الرومان وعلى أسوار المدينة فهؤلاء لا ينامون . فنهضت زينب ومشت تريد البلاط . وهي في جلالها السابق .. وعظمتها الماضية .. كأن الزمان لم ينقلب

وحاجبها معها وهو لا يعرف إلى آين تسير . حتى وصلت إلى قاعتها الخاصة ففتحت بابها ودعته إلى الدخول . ثم أغلق الباب واحتجب الاثنان في الظلام ..

فقادته بيده إلى النافذة القائمة على الجانب الجنوبي ومدت يدها الى الخارج وهي تقول : أسمع ما آمرك به أيها الحاجب ..

وهي تتكلم همساً كأنها تخاف أن يحمل الهواء صوتها إلى رجال البلاط والقواد ..

فحنى الرجل رأسه وانتظر ..

— : أتعرف البئر السوداء الكائنة هناك ،والتي تنتهي بالقرب منها قناة الماء ؟

— : اعرفها جيداً يا مولاتي .

— : إذن عليك أن تخلق لنا ناقة وتنتظرنا في ذلك المكان بعض الساعة ! !

فظن الحاجب أن زينب تفرّ ..

وحاول أن يجيب فوضعت يدها على فمه قائلة : انك أخرس اصم فافعل ما أمرتك به..هذا سرنا لا يعرفه أحد ، والكلمة التي تخرج من فمك يعقبها الموت

قال : أتذهب الملكة وحدها في هذا الليل ؟

— : نعم وحدنا فحراس الرومان يملأون السهل ..

— : ولكن إلى أين ؟

— : إلى المدائن .. إلى هرمز ملك الفرس نستعين به على هؤلاء الرومان أنه يهزأ بالرسل الذين نبعثهم اليه ولكنه لا يجسر على الهزء بالملكة .

وازاحت ستر السرير وقالت له : ارفع هذا الحجر وانزل فهذا هو الطريق .. اذهب .. وفي لحظة واحدة غاب الرجل في بطن الأرض ..

* * *

نعم ، أنها ساعة جنون خرجت فيها الملكة عن كل حكمة . وذلك قضاء من الله لا تستطيع العقول الا أن تعترف بقوته القاهرة التي لا تغلب ولا ترد .

لم يكن موقف تدمر المحصورة موقفاً متزعزعاً في ذلك الحين .. الرومان يذوبون في ذلك اللهيب وهي ثابتة ، واوريليان على رغم العطف الذي يراه من الناس لا يستطيع أن يفتح السور الجبار .. ولكن زينب لا تطيق الأسر ولا تريد إلا أن تقود جيش الفرس وتسترجع المجد الذاهب .. وكانت تخشى إذا باحت بسرها للقواد ، أن يبلغ الخبر أباها فيعالجها بضربة من سيفه ..ورجال البلاط جميعهم لا يسلمون بذلك الأمر .. وبدون أن تقول كلمة لأحد ، تناولت سيفها

ورمحها واحتجبت في ذلك السرداب كما احتجب الحاجب قبلها ..
ومشت ساعة حتى وصلت إلى الخلاء .. فاذا الحاجب قائم وزمام الناقة بيده..
فقال : الأشباح كثيرة في هذا الظلام ..
فارسلت نظرها إلى الجهات الأربع فلم تبصر شيئاً . فقالت : لقد وجدت هذه الأشباح في مخيلتك أيها الجبان .. ارجع من حيث اتيت ولا تبح لأحد بما رأيت .. اذكر قولنا أنك تموت ..
ووثبت إلى ظهر الناقة واتجهت نحو الجنوب ثم ولت وجهها شطر الشرق تريد الفرات .. ! !
لكن اثنين من حراس الرومان كانا يريان الناقة وراكب الناقة .. فوقف احدهما في مكانه ، وركض الآخر الى خيمة القيصر يقص عليه ما رآه . والاثنان لا يعلمان أن صاحب الناقة زينب ..
فقال القيصر : ليتبعه عشرة من الفرسان ولو سار إلى الجحيم .. ان على ظهر الناقة رجلاً من رجال الملكة .. فسارت الخيل وراء الحارس . ومدّ السكون رواقه من جديد ، على تلك البقعة الواسعة من بادية الشام .

* * *

كانت ناقة زينب تنهب الأرض .. ركضت ساعات الليل كله ، وساعات اليوم الثاني كله . حتى أقبلت ، عند غروب الشمس على الفرات في مكان يجاور « زليبية » يعرف اليوم بالدير .
وفي الفرات زورق لأحد الصيادين .. فأومأت اليه بان يدنو من الضفة لتعبر النهر . وقد ترجلت عن راحلتها ووضعت زمامها على عنقها تنتظر وصول الصياد مع زورقه .. ولكن هب خلفها الغبار .. واهتزت الأرض .. فالتفتت إلى الوراء فرأت الخيل .. والزورق يصارع التيار ويتهادى فوقه .. وثبة أخرى ايها الصياد..
كما كانت تثب الملكة على الاعداء .. عجّل .. فالمرأة الواقفة على الشاطئ هي ملكة الشرق ..
الزورق يبعد ذراعاً والخيل تبعد ذراعين ..
فقفزت .. رجل في الزورق ورجل في المـاء ..
ولكن الأيدي أمتدت اليها وجذبتها إلى الوراء ..
هذه هي الملكة ..! نعم هي زينب ..!

بجبينها الوضاح .. ووجها الأسمر .. وعينيها الساحرتين ..
المجد والعظمة والعز .. النبالة والحكمة والدهاء بين ايدينا الآن ..
هذه زينب التي يطلبها قيصر فليعش قيصر ..
وأحاطت الخيل باللبوءة الجريحة ووضعها الرجال مكرهة على ظهر الناقة وعادوا إلى تدمر ..

* * *

اقسم بمن بسط هذه الأرض لئن كتمتنا السر الذي تعلم لاقذفن بك من هذا السور .. قل أين هي زينب ؟
وكان وجه زباي أسود كالليل . ونار الغضب في عينيه تحرق حاجب الملكة المسكين ..
فانطرح الشقي على قدمي زباي وتمتم يقول : لقد أمرتني الملكة بالكتمان .
فصاح به قائلاً : لا اسألك عن الملكة أيها التعيس بل اسألك عن ابنتي ..
ولج جميع القواد في السؤال ..
فقال : ركبت راحلتها تريد هرمز ..
فأخرجت صدور الرجال هديراً كهدير الجمال ..
ثم اطرقوا جميعهم وقد اخرس الخبر الغريب المدهش ألسنتهم..وضيع رجاءهم

* * *

الرجال فوق الأسوار .. ترفع الكآبة فوقهم اعلامها ، وينشر الحزن راياته السوداء ..
وزينب .. حولها عشرة فرسان يقود احدهم ناقتها ، ويدفع الباقون تلك الناقة بالرماح إلى معسكر الرومان ..
وعيون القواد التدمريين ونبلائهم ترى الملكة العظيمة على راحلة السوء ..
فقال ابن حمدان : افتحوا أبواب تدمر واخرجوا إلى الموت ..
فانتهره زبدا قائلاً : إذا فعلنا قتلت الملكة وخاب الأمل ..
— : إذن نخرج فنستسلم ..
قال : نصبر يوماً آخر لعل الملكين يعقدان صلحاً ..
— : لم يبق مجال للصلح يا مولاي ..
فرفع صوته وهو يقول : آمركم بالسكوت ..

فسكت الجميع فقال : نجتمع عند الغروب ونتشاور في الأمر .. فليرجع كل رجل إلى موقفه كأن الملكة بينكم ..

ولم يطل الجدل ، فالقلوب كانت تذوب لوعة وحسرة ، والنفوس حزينة حتى الموت ..

أما زباي فكان ساكتاً ، وعيناه تنظران إلى الأرض ..

لكن القوم لم يرجعوا الى مواقفهم ، حتى سمع الذين حوله كلمتين خرجتا من فمه كحشرجة المائت ..

كان يقول : اندبوا عزكم ..

* * *

ماذا يرى اوريليان ؟

أهذه هي زينب التي يجود بحياته ليسلبها التاج ؟

نعم . فقد ارسلتها اليه السماء .. وطرحها القدر القاسي بين يديه .. وهو يظن أنها النجم الذي لايبلغ اليه نظره ..

وكاد يجن عندما أقبلت عليه في خيمته كملك يدخل على ملك ..

ثم طفق يصيح قائلاً : زينب بنت زباي .. سلطانة المشرق في قبضة اوريليان ؟.. أولست أنت التي استصغرت شأن القياصرة ؟..

فنظرت اليه وهي تقول : « نعم . اعترف الآن بأنك قيصر وقد غلبتني .. واما غاليانوس وكلوديوس وغيرهما فلم يكونوا قياصرة .. »

فأثر فيه ذلك الجواب ثم قال : أتعلمين ماذا أعد لك اوريليان ؟

فقالت : ما يعده الملك الظافر لملكة خانها الزمان ..

فعلت أصوات القواد قائلين : لتمت زينب ..

قال : ألم تسمعي ما يقوله هؤلاء ؟

قالت : أما أنا فلا اخشى الموت فافعل ما يسألونك إياه ..

— : كنت ارغب في أن اهب لك الحياة لو لم تحاربي الرومان وتخرجي عن الطاعة .

— : أتظن أن حياتي في الأسر احب الي من هذا الموت الذي تهددني به ..؟

نعم حاربت الرومان وسلبتهم بعض ملكهم ولكن هذا الملك الذي سلبتهم إياه لم يستقم لهم فيه الأمر لولا سيف اذينة بن اذينة وزينب زوجته .. اعطيناكم ثم أخذنا .. فاذا كنتم نسيتم فضلنا على الشرق فنحن لم ننس دفاعنا عن فالريان .

وسعينا لانقاذه من يد سابور ، وحصارنا المدائن اكثر من مرة في سبيل الرومان .. بل لم ننس قط ان التدمريين هم الذين قهروا الخوارج الذين تمردوا على روما ومهدوا للقياصرة الذين تقدموك سبل الظفر في هذه الأقطار .. فاقتل يا اوريليان .. اقتل من تشاء وأبقِ على من تشاء ان العالم كله ينظر اليك الآن ، ويكفيك . أجل يكفيك فخراً أنك ظفرت بزينب التي لم تغلب ، وقد دفعتها اليك بلحظة واحدة بلاهة ذلك الصياد العاجز ، في الفرات ..

فصاحت الرجال : لتمت زينب ..

فأجابها كأنه لم يسمع تلك الأصوات : ألم يكن خيراً لتدمر أن تبقي على العهد من أن تجردي السيف في وجوه الملوك الذين قهروا العالم .

قالت : لا تسألنا عن الماضي أيها القيصر فقد نسينا حاضرنا الان ..

— : ونحن ايضاً قد نسينا كل شيء .. انك لا تموتين من يد القيصر لئلا يقول الناس أن اوريليان قتل امرأة ..

— : أفي هذا وحده تستحق زينب الحياة ؟

— : وسنكتب إلى مجلس الشيوخ قائلين :

لقد ابقينا على المرأة جزاء لاخلاصها واخلاص اذينة من قبل في خدمة الرومان

— لتمت زينب . .

فغضب الأمبراطور ورفع يده وهو يقول : لا نريد ان نسمع هذه الكلمة بعد الآن فكف القوم عن الصياح .

ان الاله قد رفع يده ومعنى ذلك أن صبره قد نفد ..

ثم قال : يا زينب ، ألا تريدين ان تزوري روما ؟

فنظرت اليه نظرة قاسية لأنها فهمت معنى ذلك القول .

أما هو فاستطرد قائلاً : ألم تكن العجلة التي تركتها في حمص عجلة الموكب الذي تدخلين به عاصمة القيصر ؟

— : نعم ...

— : إذن فاعلمي انك ستكونين وراءها في موكب اوريليان يوم يرجع الى روما فعضت على شفتها من الغضب .

— : وسترين بعينيك عظمة الموكب الذي اعددته لهذه الغاية .. ولكن .. ولكن الناس لا يرون زينب على عجلتها بل يرون القيصر .. اي انك ستدخلين

روما لتنحني أمام العرش الذي أردت ان تسحقي صاحبه ..

إذن فليست عظمة النفس هي التي اوحت الى اوريليان بان يحفظ حياة الملكة. وإنما أراد أن يفاخر العالم ، بان زينب مشت ذليلة في موكب ظفره .

ولأجل هذا الغرض وحده لم يستجب طالب قواده ..

ثم نهض عن مقعده واشار الى خيمة تلاصق خيمته وهو يقول :

هذا هو السجن الذي تقيمين فيه ريثما تسقط هذه الأسوار التي تحمي أصحابك المتمردين .. فادخلي يا صاحبة الجلالة .. ادخلي فانت ضيفة الأمبراطور ..

وبنظرة حديدية ، أمر الحراس بأن يأخذوها إلى قصرها الجديد ..

فرأت زينب نظرته .. فمشت أمام الرجال إلى سجنها الصغير كما كانت تمشي في الرواق الأعظم .. ولم ترفع عينها الى الصفوف الواقفة على السور بل لم تشأ أن ترسل نظرها الى تدمر التي سلبها إياها الرومان ..

وليس للقارئ أن يسألنا عن تلك النفس الكبيرة ، في تلك الساعة .. فقد كانت نفس عزيز ذلّ . وجبار خسر عرشه وسلطانه ..

* * *

في ذلك المساء اجتمع التدمريون .. اجتمعوا لينظروا في ذلك الموقف الغريب ، واليأس والكآبة يملآن قلوب الرجال ..

فقال زبدا : انظروا في واحد من امرين ، إما ان ندافع إلى النهاية وإما ان نستسلم

فأجابه ابن حمدان : وإذا امتنعنا بهذه الأسوار حتى يمل اوريليان ويترك تدمر أفتعود الملكة إلى العرش ؟

قال : أما الملكة ففي الأسر ولن تفلت من مخالب الأسد ..

— : إذن يجب أن يعلم الرومان أن الملكة هي الشرق فلما طويت صفحتها طويت صفحته ..

فنظر زبدا إلى زباي قائلاً : أتوثر الدفاع على الاستسلام أيها القائد ؟

فتمتم يقول : ليس لهذا الشيخ حياة بعد زينب .. انها الان بين يدي القيصر فسأحمل سيفي وماضيّ بما فيه من امجاد واطرحهما على قدميه طالباً اليه ان يضمني الى ابنتي .

فصاح القوم قائلين : لقد كتب النصر للرومان فلنستسلم ..

ولم يلبث القوم ، بعد اجتماعهم القصير حتى تفرقوا ، على أمل أن يستسلموا

في الصباح .. ومعنى ذلك كله ، أن زينب في هذا الشرق كانت كل شيء .. أجل كانت كل شيء ..

* * *

تنفس الصبح ، والقيصر يكتب رسالة يدعو فيها التدمريين إلى الخضوع .

لكن أبواب تدمر فتحت ليدخلها اوريليان ويفعل ما يطيب له .

فسجد لآلهته .. ثم دخل ..

غير أنه لم يعط القوم الأمان الا ليستولي على الذهب ويستصفي الأموال ! !

نعم كان ذلك الأمان مشوهاً .. واغرب ما فيه ان ذلك الفاتح الحديدي لم يرضه المال وحده بل قبض على الرجال .. الرجال الذين مشوا تحت لوائها الى العلياء .. رجال السيف ، ورجال القلم ، اولئك الامناء البررة الذين استسلموا ليحفظ القيصر حياة الملكة التي يعبدون ..

أما المؤرخون فلم يذكروا اسماء هؤلاء الرجال ، ذكروا فقط لنجينوس سيد العلماء وبعض رفاقه وسكتوا عن الآخرين ..

حتى ان زبدا وزباي لم يذكروهما ..

ولكن المغزى الذي تقرأه بين سطور التاريخ يثبت لك ان اوريليان لم يترك في تدمر واحداً من اولئك الأتباع المخلصين ..

ولم يسلك الرومان سبل الشدة والعنف في القبض على من ذكرت . ذلك لان أبطال الشرق مدوا أيديهم مختارين إلى سلاسل الحديد ، وطرحوا سيوفهم بالرضى على قدمي الظافر .. ولو أرادوا غير ذلك .. نعم لو أرادوا غير ذلك لقطعوا تلك الأيدي التي امتدت اليهم قبل أن يصرعهم السيف .

على أن هنالك أمراً أغرب من كل ما قرأت ..

أتعرف من هو ذلك الروماني الذي ولاه القيصر أمر القبض على الرجال ؟

إنه اسكندر ..

اسكندر . ابن قائد الحامية في تدمر وعاشق كهيلة الاول الذي قرأت اخباره فيما مر .. نعم ، انه الروماني الحسود الشامت ، الذي قيد ايدي القواد

وهذا ظلم آخر تأتيه الأقدار ..

وساقوا الاسرى إلى خيمة القيصر .. فحول جلالته وجهه عن أبطال الميادين .. وأمر جنوده بان يحتفظوا بهم ريثما يرجع إلى حمص ويستشير أصنامها في أمورهم

لكنه أراد ان ينكأ الجراح .. فأخرج زينب من سجنها لترى ندماءها وقوادها والنبلاء يرسفون بالقيود .. فجعلت تنظر اليهم ، وقلبها يضطرب .. ونفسها تثور .. واما عيناها فهادئتان ..

ولعل اولئك الاسرى . أرادوا أن يظهروا للقيصر استخفافهم بالأسر فهتفوا قائلين : تعيش زينب ...

فابتسمت اللبوة المقيدة .. بنت المشتري ، وحفيدة كلوبترة .. ابتسامة الألم وغادرت موقفها إلى الداخل لتبكي مجدها المحطم وماضيها العجيب .

ولكن ابتسامة اخرى ظهرت على شفتي الغازي..هي ابتسامةالسخريةوالاستهزاء

* * *

وكانت دمشق قد سقطت .. وسقطت قبلها مدينة الشمس وما يتبعهما من مدن وقرى . وقد جعل بروبيس قائداً من قواده يدعى مركلينوس والياً على الشام .

فاختار اوريليان أحد اركان حربه وولاه أمر تدمر ، وخلع عن المدينة ذلك الثوب الذي كانت تلبسه . وعوضها منه ثوباً قصيراً لا ذيول له . وأوصى ذلك الحاكم ، واسمه سوداريون ، بالشدة في الحكم وخفض الرؤوس التي ترتفع ضد الرومان ، ولم ينس أن يأمره بقتل كل من تحدثه النفس بالعصيان .

وجعل الحامية ستمائة رجل .. وهو عدد كاف لحراسة المدينة ..

ان تدمر امست مثل سائر المدن لا عرش فيها ولا تاج لتحميهما الجيوش وتصونهما الحراس .. وقبل أن يغادر المدينة راجعاً الى حمص .. أذن للملكة ان ترى تيم‌الله وخيران وبناتها الثلاث ، وكان سجنهم يجاور سجن أمهم تسمع أصواتهم ولا ترى وجوههم .

ثم رجع في مطلع العام –٢٧٣–للمسيح واهازيج جنوده تنفر الطير في الفضاء .

* * *

وفي حمص ، دعا القواد والكهان ، الى المجلس التاريخي يصدر بعده الحكم على الذين استسلموا اليه وفتحوا له أبوابهم ..

ومثلت زينب من جديد بين يديه ، كالمجرم بين يدي قاضيه ، وحولها ابناؤها وجميع الأنصار .. وطفق يسألها عن كل ما مضى .. وهي تدافع لا يعصيها بيان ولا تعوزها حجة .. حتى رأى القيصر أنه عاجز عن ان يضعها في الشرك الذي أعده لها ..

ثم اخذ يدعو اشياعها ويسألها عنهم باسمائهم .

فوضعتهم كلهم في صف النبلاء الاشراف ولم تتهم أحداً .

أما « زوزيموس » أحد المؤرخين فيقول غير ذلك .. ووافقه مؤرخ آخر يدعى « سويداس بردي » في قوله :

أنها رفعت عنها الشبهات وجرّمت بعض العلماء والقواد .. ! !

واول هؤلاء العلماء لونجينوس ..

وهذا قول لا يعقله العقل ، لان زينب أعظم من أن تقذف برجال بلاطها الى الهوة ، في مثل هذه الوسيلة الشائنة ولأن المؤرخين المذكورين انفردا بذلك القول لم يشاركهما فيه أحد .

على ان اوريليان كان جندياً سفاكاً للدماء وجزاراً يستلذ القتل كما قرأت

وقد قام في ذهنه ، ان لونجينوس كاتب الرسالة الاولى التي بعثت بها زينب اليه . فقال : اعطوني تلك الرسالة ..

فأعطوه أياها ، فرمى بها قائلاً : يا زينب .. من كتب هذه ؟

فقالت ولم تتردد : ان رسائلي لا يمليها علي أحد ..

فقال : انها من قلم هذا الرجل ..

— : لا أيها القيصر فلونجينوس لم يكن له فيها رأي .

— : بل هي روحه السامة تبدو بين السطور .

فدافعت عن هذا ايضاً بنبالة ودهاء .. وكانت مصيبة في الدفاع ..

فان زينب نفسها أملت تلك الرسالة على « نيكوماخوس » أحد علماء عصرها فكتبها باليونانية ، وارسلتها إلى القيصر ..

ولكن قيصر لا يقبل .. فقد أراه غضبه على لونجينوس انه هو الفاعل !

ثم سأله قائلاً : ألا يدعونك كاسيوس لونجينوس أيها الرجل ؟

— : نعم .

— : ألا تعلم ان كاسيوس قاتل يوليوس قيصر ؟

— : نعم .

— : وان كاسيوس الآخر « افيديوس » خرج على الامبراطور اوريليوس منذ مئة سنة .

— : اعرف ذلك أيها القيصر ..

— : إذن لم يكن اختيارك هذا الاسم إلا استخفافاً وامتهاناً لحرمة القياصرة
قال : لقد اختاروه لي يا مولاي وأنا طفل .
— : بل آثرته أنت على سواه فحملته ولم تبال .. لقد حكمنا عليك بالموت ..
فوقف الأديب الكبير وعيناه تتلألآن ثم قال : أفاعل أنت يا قيصر ؟
— : أجل . وفي هذه الساعة .
وأمر بعض الجنود بأن يخرجوه من قاعة المجلس ويضربوه بالسيوف حتى يموت فهلعت قلوب زملائه وجعلوا ينظرون اليه .
أما هو فكان شجاعاً لا يخاف .
حنى رأسه للملكة . وحيا أصحابه تحية الوداع ، ثم خرج فاستقبل بجسده سيوف الجلادين .. ثم جاء دور غيره ..
فقطعت الاعضاء وضربت الأعناق ..
فلما استمرأ القيصر الدم المسفوك ، كف عن القتل . على ان ينظر مرة اخرى في شأن الآخرين ..
نعم ولم يأمر بقتل زينب كما قرأت . بل كتب الى المجلس الأعلى في روما انه ابقى عليها لكرامة الملوك ، واحتراماً لروابط الولاء التي كانت بين الأمتين ..

* * *

لم يرد اوريليان أن يعود إلى روما قبل ان يقضي على جميع خصوم العرش : البرابرة في تراقية ، وتتريقوس الخارجي واصحابه في غالية .
فاذا ظفر بهؤلاء ، كان نصره كاملاً وعظمته ليس لها حد ..
ولم يبق له في آسية غرض بعد اخضاع زينب .
فلما همّ بالسفر ، اقبلت على حمص رسل هرمز تحمل رسالة الملك الفارسي إلى الروماني الفاتح ، يظهر له فيها ولاءه ووفاءه ..! ومع الوفد عجلة مذهبة ، أهداها ابن سابور إلى اوريليان تذكاراً لفتحه تدمر ..
فشكر القيصر واثنى .. وأمر بالرحيل .
القيصر وحراسه في المقدمة ، وراءهم فرق الفرسان « الجزائريين » والرماة ثم المشاة وبينهم الأسرى .
زينب واولادها ووصائفها معهن كهيلة الباكية اليائسة ، والبقية الباقية من أصحابها الامناء ..

كان الجيش يمر بين عواصف الهتاف والدعاء .. والناس يذكرون زينب كما يذكرون القديم البالي .. ولله في خلقه شؤون ..

وكانت منزلة زينب في الجيش منزلة ملك اسير .. لكن اوريليان لا يعبأ كثيراً بهذا الملك ولم يكن له رغبة في ان يراه ..

امنيته الاولى ان يخضع العصاة المتمردين ليستقيم لهالأمر ، ولا يبالي بالمصاعب والأخطار ..جنان ثابت ،وهمة من الفولاذ..وقلب يخيل اليك انه ليس من لحم ودم.

والملكة .. آه ان الملكة تمر بالمدن التي رفعت فوقها راية تدمر ، بل تمر بآسية الصغرى التي كانت لها وهي نادمة على ما مضى .. وقد فارقتها الأحلام والمنى .

حتى وقف الجيش على شاطئ البوسفور .. فاستيقظت في صدر اوريليان الوحش الضاري ، ولمع بريق تلك العاطفة في عينيه .. ان البوسفور قبر بعيد القرار يبتلع جميع الاضياف دون أن يترك لهم أثراً . ولماذا ينقل القيصر العظيم اسرى التدمريين إلى روما ويطعمهم من خبزه ؟ ان في ذلك الرأي شيئاً من الرحمة وقلب اوريليان الحديدي لا يعطف ولا يرحم ..

فأمر برجالات الشرق فقذفوا بهم إلى اعماق اللجج .. ومغزى التاريخ الذي ذكرناه يقول لنا :

ان زبدا وزباي وابن حمدان وجميع من معهم امسوا طعاماً لحيتان البحر .

فأبك يا زينب .. ولتبك كهيلة بنت زبدا زوجها واباها ما طاب لهما البكاء..

ثم مشى الظافر الى تراقية ليخمد النار فأتاه من الشرق نبأ خروج التدمريين .. فلم يتردد في أمره ..

لوى عنق فرسه وصاح برجاله قائلاً : لنعد إلى تدمر فقد اقسمنا الا نبقي فيها حجراً على حجر .. وترك اسراه في موضع امين مع فريق من الجنود ، ورجع يقود جيشه إلى الهدم والتخريب ، كأنه يتنزه في روما على ضفة التيبر ...

* * *

ليس في تدمر ، بعد زينب وقوادها ورجال بلاطها من يصلح للملك . ولكن التدمريين تعودوا الاستقلال ، وعلمتهم زينب ان ينفردوا بأمرهم لا يشاركهم فيه اجنبي.. وقد استثقلوا وطأة تلك الحامية التي يرأسها سوداريون واستقلوا عددها فتعنتوا علىقائدها في السؤال ، ثمجعلوا يظهرون العصيان منوراء الستار .. ثم ارسلوا إلى والي الشام بعد ذلك يسألونه أن يقبل العرش ليجعلوه فوقه .

ومركلينوس الوالي داهية وخبيث . فلما انتهى اليه أمرهم ، تظاهر بالقبول وارسل إلى قيصر يقص عليه تلك الحكاية الجديدة كما رووها له .

وأخذ يعللهم بالوعود ويخلق لهم الاعذار .. فعرفوا أخيراً أن الرجل يضمر لهم الشر . وكان أمرهم قد وضح فلم يجدوا سبيلاً إلى الرجوع .. فطردوا سوداريون من بلاط زينب ، واخرجوا الحامية بالسيف ، واختاروا لهم ملكاً بينه وبين زينب صلة نسب ، يدعى انطيوخوس .

غير أن هذا الرجل كان أبله .. ليس له صفة واحدة من صفات الملوك ولا يعرف من واجبات العرش . الا أن يلبس التاج الذهبي . ويقطب حاجبيه ..

نعم كان أبله ، لم يفكر قط في الزمان الذي تنكر لزينب ، وفي العاصفة الهوجاء التي حطمت تاجها وخفضت رأسها المرتفع فوق جميع الرؤوس .

ولعله كان يظن أنه اعظم قوة من نسيبته واطول منها باعاً في السياسة والحرب . وغفل اتباعه التدمريون عن كل شيء ، ولم ينظروا الا إلى العرش الذي استرجعوه..

حتى أن اوريليان اجتاز آسية الشمالية كلها وكاد يصل إلى سوريا بل إلى تدمر قبل أن يشعروا بوصوله .

كأنهم في عالم وجيش الرومان الذي يحجب وجه الافق في عالم آخر !!

* * *

مسكين انطيوخوس الملك .. خرج من بلاطه في صباح يوم ليرى صفوف الرومانيين أمام عاصمته . ويسمع اوريليان يقول لأصحابه :

ان الملكة التي تستطيع ان تحمي عاصمتها ليست هنا اليوم .. فاقتحموا الأسوار واستقبلوا بصدوركم هذه السهام التي لا تصيب .

وهي كلمة حق قالها اوريليان . فالجيش القائم على الأسوار لا يثبت في وجه الرومان . ثلاثة أيام ليس غير كانت كافية لفتح تدمر . فلما دخل الجيش دخلت معه رسل الفناء .. أيها الجنود لا تبقوا على أحد ..

نعم ، وقد ثبت انهم لم يبقوا على أحد .. حتى ان الجيش سأل القيصر أن يأذن له في الراحة .. إن الأيدي أتعبها التقتيل والذبح ..

ولكن نفس اوريليان الظمآنة لا ترتوي من الدماء .. اهدموا هذا البلاط الذي يشبه بلاط القيصر .. وهذا الهيكل الذي لا تملك روما مثله .. والرواق الأعظم الذي فاخرت فيه زينب الشعوب وهذه القصور القائمة على ضفتي الجدول ..

والأسوار التي ثبتت أمام اوريليان ثلاثة أيام .

لفظ القيصر خطابه هذا ، وخرج مع اركان الحرب إلى رابية في ظاهر البلد . يمتع نظره بمفخرة الشرق تهوي إلى الحضيض . دكت الأسوار .. وقوضت الحصون والأبراج .. وهدمت الهياكل والقصور والقلاع .. ولم يبق اوريليان في تدمر حجراً على حجر كما قال .. في بضعة عشر يوماً ، صير القيصر الحديدي المدينة الزاهية الزاهرة انقاضاً وفي بضعة عشر يوماً صارت اعجوبة الفن ركاماً ..

وعندئذ .. عندئذ طابت نفس الأمبراطور وأمر جنوده بالرجوع ..

* * *

واراد ان يضرب ايضاً .. يضرب ذلك الخارجي تتريقوس ويجعله في الحديد ..

وكانت الآلهة تمشي أمام جيشه ، والحظ عبد لارادته .. الاقاليم الثائرة تعود إلى يده ، وأصحابها يخضعون لسيفه . وفي شهر واحد خنق الأصوات المتمردة ، قبض على عنق تتريقوس يجره مكرهاً إلى عاصمة الرومان .

ولعلك ترى الان بعينيك .. موكباً لم تقع العين قبله على اروع منه ..

موكب دخول القيصر روما ..

ونحن نصفه لك كما وصفه المؤرخون : عشرون فيلاً تتبعها طوائف من الأسود والانمار والزرافات تتقدم الموكب من آسية ومن مصر ، وفلسطين .

ووراءها الف وستمائة مصارع ضخام الأجسام .. وقد كان الرومان يعنون كثيراً بانواع الصراع . ثم يجيء بعدهم الوف من الناس ، اقبلوا يهنئون القيصر بالنصر من الجرمان والعرب والفرس ، ومن أهل الهند والصين . ثم يقع نظرك الان على عجلات اربع يكاد لمعانها يخطف الأبطار : الاولى عجلة اذينة الملك . والثانية عجلة هرمز بن سابور . والثالثة عجلة زينب . وأما العجلة الرابعة فهي التي تقل القيصر . وقد مشت خلفها زينب وتيم الله وخيران .. ثم الاميرات والوصائف وتتريقوس الخارجي .

وانظر إلى السطوح والشرفات والاشجار ، تر عيوناً تتفرس في موضع واحد لا تنظر إلى سواه ..

نعم ، إن الناس على الجانبين لم يروا في ذلك غير زينب .. كأنها تدخل وحدها مدينة القياصرة . وعلى رأسها لآلىء الماضي وحلاه .. وفي عنقها طوق من الذهب ، وفي يديها الأساور الثمينة التي كانت تلبسها في أيام العز .. ان القيصر اراد ان

يحمّل زينب من الذهب ما لا تطيق حمله .

حتّى أن المؤرخ شامباني يقول : « كانت تقف مرات كثيرة ، وقد اثقلها الحمل ، لتستعيد قواها وتستروح الهواء . وكادت تسقط على الأرض من شدة الاعياء ، لو لم يساعدها علج فارسي في حمل طوقها الذهبي .. »

هكذا دخلت الملكة عاصمة الرومان ، تتبع عجلة اوريليان كما كانت تتبع عجلتها الحراس والحجاب ..

* * *

انتهى الموكب إلى البلاط . فاجتمع الأمبراطور والشيوخ ينظرون في أمر المرأة التي أمست ضيفهم ،

وبعد ساعة ، دعاها اوريليان لينقل اليها قرار المجلس . فقال :

لقد اخترنا لك قصراً جميلاً في تيبور بالقرب من مصيف الأمبراطور تقضين فيه ما بقي لك من العمر في ظل التاج الروماني ..

فحنت رأسها ولم تجب ، ان القصور في نظرها كانت قبوراً ، والحياة أمرّ من الموت ..

*

ولجأت سيدة الشرق الى مصيفها في تيبور « الذي يعرف إلى اليوم بمصيف زينب» وهوى ذلك الكوكب اللامع من سمائه وقد حجب الغازي الروماني نوره

*

وأجمع المؤرخون على أنها عاشت زماناً طويلاً وهي تعنى بتهذيب أولادها .. وتزوج بناتها ثلاثة من اشراف الرومان .

غير أنهم لم يجمعوا على القول فيما يعني تيم الله وخيران .

قال بعضهم انهما ماتا في اثناء الاحتفال بظفر اوريليان ، وقال تريبليوس ان تيم الله نشأ خطيباً تهتز له المنابر .

واستمرت ذرية الملكة . حتّى الجيل الرابع للمسيح .

* * *

وأما تدمر ، فقد جعلها الرومان قرية صغيرة حقيرة يقيم فيها فريق من الجند لرد غزوات أهل الصحراء . حتّى جلس ديوكليتيانوس على عرش روما فاضطهد المسيحيين في الشرق وجدد في تدمر بناء بعض القصور .

وبعد ذلك .. جعل الرومان مدينة حمص مقر الوالي فينيقية وتبعت تدمر تلك الولاية .

ثم جاء تاودوسيوس الصغير « امبراطور الرومان » فزاد قوى الجند في المدينة ولم يفصلها عن حمص .

فلما لبس يوستنيان التاج سنة ٥٢٧ أمر بعض وزرائه بان يعيد إلى تدمر بهجتها المفقودة وبهاءها الماضي ، واعطاه من المال ما يستطيع معه ان يبنيها من جديد .

فجدد الوزير وبنى ، وشيد الهياكل والقصور ، وجعل الماء الفياض الذي ترسله الجداول إلى الرمال في موضع واحد يستثمره الناس ، وبنى الأسوار الجبارة التي لم تطمس الأجيال آثارها ، الباقية إلى اليوم .

وفي ذلك الزمان استولى ملوك غسان على تدمر وما يحيط بها من البادية .

وجعلها بعضهم مقراً له يقيم فيها بعض الشهور ، حتى فتحها المسلمون صلحاً سنة ٦٣٤ بقيادة الفاتح الكبير خالد بن الوليد

وجعلت تنتقل بعد الفتح ، من دولة إلى دولة حتى أمست في أيدي العثمانيين في أوائل الجيل السادس عشر أيام فتح السلطان سليم الاول بلاد الشام .

ولقد زارها الكثيرون من مشاهير الادباء العرب والفرنج ، كالمتنبي واليعقوبي والمقدسي وابن بطوطة وياقوت وابو الفداء ، وكرنجر الفرنسي في اواسط الجيل السابع عشر وتبعه بعض ادباء الانكليز وتجارهم المقيمين في حلب .

ولكن هؤلاء أرجعهم أهل البادية بالسيف فلم يروا من بقايا تدمر شيئاً .

غير أنهم عادوا بعد قليل فاستطاعوا ان يروا اخربتها المدهشة ، وكتب احدهم بعد رجوعه حكاية سفرهم الى تدمر بكتاب صغير طبع في لندن سنة ١٦٩٥

وفعل مثل هؤلاء كثيرون من الفرنج لا حاجة الى ذكر اسمائهم ، حتى كانت سنة ١٨٦٤ فزارها العلامة المركيز دي فوكويه . ودرس انقاضها وتماثيلها وقرأ كتاباتها ونقوشها . حتى أصبحت لديه من تلك الكتابات والآثار مجموعة فريدة يستعين بها كل قلم يكتب كلمة عن عاصمة المشرق .

ولعل مصلحة الآثار اليوم تعثر في حفرها على ما لم يعثر عليه العلماء والمستشرقون وتستخرج من جوف الأرض ما يجعل تدمر من جديد ، مفخرة الأجيال .

* * *

منذ ستة عشر جيلاً ونيف ماتت زينب . ولكن هذا الزمان كله لم يستطع ان يحجب آثار عظمتها وسلطانها ، وعفتها وجمالها ، وحكمتها ودهائها حتى اجمع أصحاب الأقلام ، في الشرق والغرب ، والباحثون في احوال الدول والملوك ، على أنها أعظم ملكة أنبتها العالم .

ولكنها — والكمال لله وحده — ضيعت دولتها بجموح تلك العاطفة الوثابة في صدرها . عاطفة طمعها الغريب العجيب .

•

تمت رواية زينب ملكة تدمر

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والإسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١ / ٢
- زينب ملكة تدمر ١ / ٢
- حسناء الحجاز ١ / ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١ / ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

سعر الجزأين [illegible] ل.ل.